أعلام يمانية

بصمات خالدة في صفحات التاريخ

منذ ما قبل الميلاد وحتى القرن الأول الهجري

إبراهيم الكازمي

مركز نشوان الحميري
للدراسات والإعلام
Nashwan Alhemyari for Studies & Media

أعلام يمانية

بصمات خالدة في صفحات التاريخ

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب: أعلام يمانية – بصمات خالدة في صفحات التاريخ

المؤلف: إبراهيم عوض بن محمد البيضاء الكازمي

الناشر: مركز نشوان الحميري للدراسات والإعلام

الجمهورية اليمنية، هاتف: ٠٠٩٦٧٧١٨٤٠٧٩٤٥

البريد الإلكتروني: info@nafsam.org

الموقع الالكتروني: www.nafsam.org

.

رقم الإيداع بدار الكتب اليمنية: (٣٤٠) ٢٠٢٣م، الهيئة العامة للكتاب والنشر بمحافظة حضرموت.

الطبعة الأولى: سبتمبر ٢٠٢٣م

جميع الحقوق محفوظة

أعلام يمانية

𐩱𐩣𐩬𐩵 𐩺𐩬𐩲𐩣𐩵

بصمات خالدة في صفحات التاريخ

منذ ما قبل الميلاد وحتى القرن الأول الهجري

تأليف:

إبراهيم الكازمي

𐩺𐩬𐩲𐩣𐩵 𐩺𐩬𐩲𐩣𐩵

تقديم:

أحمد عطيه عادل الأحمدي

مركز نشوان الحميري للدراسات والإعلام

٢٠٢٣م

الإهداء

إلى أحفاد الأذواء والأقيال والتبابعة

إلى اليمن الميمون أرضًا وإنسانًا..

أهدي هذه الصفحات

وخير الهدية أحاديث وقصصٌ مرويّة

وقد أسميتُها "أعلام يمانية"

سائلًا المولى سبحانه أن يُعيد للأمة اليمانية والإسلامية جمعاء
سابق مجدها وعظيم عِزَّها.

قحطان قومي ما ذكرتُ فخارهم
إلا علوتُ على سنام المفخرِ

السابقون إلى المكارم والعُلا
والحائزون غدا حياض الكوثرِ

فإذا طمحت بأن ترى مسعاتنا
فَصِل النواظر بالسماك الأزهرِ

لولا صوارم يَعربٍ ورماحها
لم تسمع الآذان صوت مكبِّرِ

حسان بن ثابت الأنصاري

الفهرس

تقديم بقلم د. أحمد عطيه ١١
تقديم بقلم أ. عادل الأحمدي ١٣
المقدمـة ١٧

توطئة لابد منها..... ٢١
سبأ جد القبائل القحطانية اليمانية ٢٩
أقدمية الحضارة اليمنية ٣٦

من مظاهر الحضارة اليمنية القديمة..... ٤١
الخط المسند ٤٣
البناء والتعمير ٤٧
القلاع والحصون والقصور..... ٤٩
السدود والصهاريج ٥٢
الديانة..... ٥٤
علوم الطب والتحنيط..... ٥٨

الفصل الأول..... ٦١
مقدمة الفصل الأول..... ٦٣
الحارث الرائش..... ٦٨
ذو القرنين ٧٢
ملكة سبأ ٧٨
التبع شَمَّر يهرعش الحميري ٨٦
ملك سبأ كَرْب إِيْل وَتَر ٩٠
التبع أسعد الكامل..... ٩٢
التبع حسان يُهأمن الحميري ٩٦
آكل المرار الكندي ٩٩

الأفوه الأودي ١٠٢
مالك بن فهم الأزدي ١٠٨
زهير بن جناب الكلبي..... ١١٢
عِصَام بن شَهْبَر الجَرْميّ ١١٦
أوس بن حارثة بن لأم الطائي ١١٩
مالك بن العجلان الخزرجي..... ١٢١
أحيحة بن الجلاح الأوسي..... ١٢٤
امرؤ القيس بن حجر الكندي ١٢٧
السموأل بن عاديا الأزدي..... ١٣٦
مالك بن حريم الهمداني ١٣٩
حاتم الطائي ١٤٢
الأسعر الجُعفي ١٤٧
الشَّنْفَرَى ١٥١
عمرو بن الإطنابة الخزرجي..... ١٥٨
حُضير الكتائب ١٦١
ذي الغصة الحارثي ١٦٣
حاجز بن عوف الأزدي ١٦٥
قَيس بن الخَطيم الأوسي..... ١٦٧
عمرو بن بّراق..... ١٧٤
الأسد الرهيص الطائي..... ١٧٧
يزيد بن عبدالمدان الحارثي ١٨٠
مسهر بن يزيد الحارثي..... ١٨٣

الفصل الثاني..... ١٨٧

مقدمة الفصل الثاني..... ١٨٩
فضائل أهل اليمن..... ١٩٨
مالك بن مرارة الرهاوي..... ٢٠١

زيد الخيل بن مهلهل الطائي.....٢٠٣
الطفيل بن عمرو الدوسي.....٢٠٨
مالك بن نمط الأرحبي.....٢١١
زيد بن حارثة الكلبي ٢١٤
أبو موسى الأشعري ٢١٩
عمار بن ياسر العنسي.....٢٢٤
الأنصار اليمانية ٢٢٨
سعد بن معاذ الأوسي الأنصاري ٢٥٣
سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري ٢٥٩
محمد بن مسلمة الأوسي الأنصاري ٢٦٦
عبادة بن الصامت الخزرجي الأنصاري ٢٦٩
عاصم بن ثابت الأوسي الأنصاري.....٢٧٢
الحُباب بن المنذر الخزرجي الأنصاري ٢٧٥
أسيد بن حضير الاوسي الأنصاري ٢٧٨
البراء بن مالك الخزرجي الأنصاري ٢٨٢
أبو الهيثم بن التيهان الأوسي الأنصاري.....٢٨٦
قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري.....٢٨٨
عباد بن بشر الأوسي الأنصاري.....٢٩٢
أبو دجانة الخزرجي الأنصاري.....٢٩٤
الأصيرم الأشهلي الأوسي الأنصاري ٢٩٨
حسان بن ثابت الخزرجي الأنصاري ٣٠٠
حنظلة بن أبي عامر الأوسي الأنصاري.....٣٠٩
ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي الأنصاري ٣١١
خزيمة بن ثابت الأوسي الأنصاري.....٣١٤
عبدالله بن رواحة الخزرجي ٣١٦
سعد بن خيثمة الأوسي.....٣٢٠

معاذ بن جبل الخزرجي..... ٣٢٢
بديل بن ورقاء الخزاعي..... ٣٢٦
المقداد بن عمرو الكندي ٣٢٩
أبو هريرة الدوسي ٣٣١
جرير بن عبدالله البجلي ٣٣٣
عدي بن حاتم الطائي..... ٣٣٦
أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي..... ٣٣٨
سلمة بن الأكوع الأسلمي..... ٣٤١
فروة بن مسيك المرادي..... ٣٤٤
وائل بن حُجر الحضرمي..... ٣٤٧
دحيَّة الكلبي..... ٣٥٠
قيس بن مكشوح المرادي..... ٣٥٢
عمرو بن معدي كرب الزبيدي ٣٥٥
الأشعث بن قيس الكندي ٣٦٨
أنس بن مدرك الخثعمي ٣٧٣
أم عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية..... ٣٧٧
ضماد بن ثعلبة الأزدي..... ٣٨٠
جبلة بن الأيهم الغساني ٣٨٢

الفصل الثالث..... ٣٨٥

مقدمة الفصل الثالث ٣٨٧
كعب الأحبار ٣٩٢
الأشتر النخعي..... ٣٩٤
ذو الكلاع الحميري ٣٩٨
حجر بن عدي الكندي ٤٠٠
شريك بن الأعور الحارثي ٤٠٢
سعيد بن قيس الهمداني ٤٠٤

النعمان بن بشير الأنصاري ٤٠٧
إبراهيم بن الأشتر النخعي ٤١٢
معاوية بن خديج التجيبي................................. ٤١٥
الإمام مسروق بن الأجدع الهمداني ٤١٧
حسان بن مالك بن بحدل الكلبي ٤١٩
رجاء بن حيوة الكندي ٤٢٢
المهلب بن أبي صفرة الأزدي ٤٢٤
الإمام الشعبي.. ٤٣٢
سفيان بن الأبرد الكلبي.................................. ٤٣٥
إبراهيم النخعي... ٤٤٠
يزيد بن المهلب ٤٤٢
موسى بن نصير ٤٤٨
عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي...................... ٤٥٣
أعشى همدان ٤٥٨
هند بنت المهلب ٤٦١
السمح بن مالك الخولاني ٤٦٤
عبدالرحمن الغافقي العكّي ٤٦٧
خالد بن عبدالله القسري.................................. ٤٧٠
المقنع الكندي... ٤٧٤
الجراح الحكمي ٤٧٧
أسد بن عبدالله القسري ٤٨٠
أبرز مصادر الكتاب ٤٨٦

تقديم

بقلم: د. أحمد عطية

الحمد لله والصلاة والسلام على نبينا محمد وبعد..

إخواني القُرّاء الأكارم

أن بين أيديكم سِفر ضخم، وكتاب نادر، وموسوعة كنوز، وتاريخ آباء وأجداد، وبشائر للأحفاد، وبحر متلاطم من تراث مفخرة، ومن ملوك أكابرة.

بين أيديكم هذا الكتاب لمؤلفه الشاب المؤرخ من أبناء قبيلة باكازم الدهماء القحطانية الأبينية هو الأستاذ إبراهيم عوض محمد الخليلي الكازمي.

لقد تصفحت محتوى كتاب "أعلام يمانية، منذ ما قبل الميلاد وحتى القرن الأول من الهجرة"، الذي تضمن سلسلة ذهبية من تبابعة وأقيال ودهاة وأساطين العرب الأقحاح عبر التاريخ.

والغريب ان المؤلف لم يسلك طريقة التراجم المعروفة حول تاريخ الرجال، لكنه سلك في البحث مسلكاً جديداً ونادراً إذ أنه ربط تاريخ كل شخصية وقيل من هؤلاء الأقيال بالبيئة التي عاش فيها من حيث العمارة، والخط، والديانة، وطبيعة الأرض التي نشأ فيها هذا العلم اليماني، والقيل العربي..

أيها الإخوة..

إن من دواعي سروري أن أتشرف بتقديم هذا المحتوى اليمني الصافي الذي يتضمن في طياته أقيال اليمن وقادتها الأوائل في مرحلة نمر بها من

أصعب مراحل اليمن من حيث تجريف الهوية الوطنية، وتحريف العقيدة الإسلامية، وتشويه القومية اليمنية، كل ذلك على حساب تمجيد السلالة والعرق والتمييز العنصري..

إننا أمام ثورة فكرية يجب أن تصل الى كل أدمغة وعقول الجيل اليمني الصاعد حتى يفرق بين الانتماء لوطنه، بدلاً عن الارتماء في غياهب ظلمات العنصرية والتفاخر بالأنساب التي حرمها الشرع الحكيم.

إنه لحريٌ اليوم أن تقوم المؤسسات الرسمية والأهلية بتبني هذا الكتاب كمنهج يدرس لشبابنا في الجامعات حتى يظل جيل اليوم مرتبط ذهنياً وفكريا وتاريخيا بأجدادهم الذي هم محل فخر واعتزاز لدى بقية الشعوب والحضارات.

لا أحب الإطالة عادة في المقدمات، حتى نترك القارئ يسبح في ملكوت هذا المجلد العظيم، ويعتز بتاريخه المشرف الذي يجب المحافظة عليه بكل ما أوتينا من قوة.

شكرًا.. شكرًا يا إبراهيم فقد اثلجت الصدور، وأنرت السطور، وجئت بالكتاب الممهور، الذي شع من صفحاته العز والنور.

وفق الله الجميع لكل خير

وحفظ الله يمننا من كل مكروه..

القاضي الدكتور أحمد عطية

وزير الأوقاف والإرشاد اليمني السابق

عضو المجلس الأعلى لرابطة العالم الإسلامي

تقديم رئيس المركز

بقلم: عادل الأحمدي

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم.

له الحمد والمنة، قيّض لكل شعبٍ صفوةً من أبنائه يوقظونه من سباته، ويبعثون مفاخره وينفخون في روحه الإرادة وعشق المعالي وصناعة الأمجاد.

وشعبنا اليمني العزيز يمر منذ عقدين على الأقل بحالة سقَم أورثته بعض الهوان؛ ذلك لأنه انفصم عن بواعث العزة في أعماقه فهانت عليه نفسه، وتسربت مكتسباته من بين أصابعه، وغدا أسيراً لدى عدوه المقيم يصم آذانه بالترهات ليل نهار.

في خضم ذلك؛ نهض لهذا الشعب أبناءٌ بررة، ادّخرتهم الأقدار لمثل هذه الظروف العصيبة ليكونوا طلائع النور "ولينذروا قومهم إذا ارجعوا إليهم"، ومن بين هؤلاء القيل اليماني الجنوبي الأبيني إبراهيم الكازمي. الذي امتشق بندقيته يافعاً للمشاركة في حرب الدفاع عن الوطن وهويته وعقيدته عام ٢٠١٥، ثم تفرغ بعدها لتحرير العقول المنكوبة بالضعف والشعور بالدونية والتعاسة وانسحاق الذات.

لقد احترف الكازمي مهنة الغوّاص الأمين الذي يغوص في أعماق البحر اليمني الهادر ليعود بثمين اللآلئ ونادر الجواهر، قائلا: أيها اليمني لا تستسلم ولا تستكن.. هذا أنت وهؤلاء آباؤك. فلا يستخفنّ بك الأعداء لتكون مطيةً لأطماعهم وضحيةً لعنصريتهم. أيها اليمني: انت السبّاق في كل فن، والسابق في كل مضمار، والحائز كل مكرمة، والصانع

كل مفخرة. الحُكم أنت واضع دعائمه وأُسسه، والحضارة أنت باني مداميكها وواضع قواعدها وأخلاقها، والعمران أنت فنانه العبقري الفريد، والبيان أنت لسانه، والحرب أنت مغوارها وإعصارها، والدين أنت ناصره وناشره وعالمه وفقيهه. وإليك هذه النماذج من آبائك وأجدادك الذين ربما سمعت عن الكثير منهم دون أن تعرف أنهم يمانون وأنهم "لأهلهم محبون".

إذن؛ فالأرض هذه ولادة للعظماء في كل حقل، فلماذا نعطى الدنيّةَ في أرضنا وديننا ودنيانا وننقاد لدجّال "لا تُستقادُ لمثله الأنعامُ".

في هذا السِّفر العظيم الذي عكف عليه القيل اليماني إبراهيم الكازمي سنوات عديدة، نفخةُ صورٍ للموتى من أبناء اليمن تبعثهم من الأجداث إلى عالم الكينونة والحضور المتجدد لكي يكملوا مسير الآباء في صناعة الحياة وخدمة الإنسانية وبلورة الحب والخير والجمال.

إن مؤرخنا اليماني العبقري الشاب، في هذا السفر العظيم، يضع الإنسان اليماني المثقل بالنسيان أمام أنصع صورة له، في مهمة جليلة يبعث بها مارد الخير في أعماقه، وعنفوان الكرامة في جوانحه، ونداء العزة في مسامعه؛ تماما كما يفعل العظماء مع شعوبهم. والصحوة دائما تبدأ بالكلمة، والنبوة تبدأ بسورة، والصبح يبدأ بزقزقة عصفور.

لقد جمع الكازمي في باكورة أعماله سِيَراً وتراجم لأكثر من ١٠٠ يمني، صاروا مضرب المثل عند شعوب المعمورة في كل فنون الحياة. ومن تراجم العظماء يولد العظماء، ومن سير الأفذاذ يولد الأفذاذ؛ لهذا فإن هذا الكتاب هو رسالة بالغة التأثير، عبقرية التوقيت، يهديها ابن الكوازم لشعبه جنوبه وشماله.. ولقد كان مصدر فخر لنا في مركز نشوان

الحميري للدراسات والإعلام أن يكون هذا الكتاب صادراً عن المركز، فيا له من شرف ويا له من فخار.

والحقيقة أن المرء يقف عاجزاً عن كتابة تقديمٍ يرقى إلى مستوى الكتاب ومكانة المؤلف حفظه الله؛ فالرابط في الحديث عنهما وثيق، إذ أن القيل إبراهيم الكازمي عرفه الناس منافحاً حصيفاً وفصيحاً في مواقع التواصل الاجتماعي.. وهو إلى جانب ذلك أستاذ على خلق رفيع وإلمام واسع ولسان مبين، وقلب مفعم بالحنان على شعبه وأمته. يتميز من الغيظ على أعداء الشعب وخادعيه، منطلقاً من مستندات تاريخه وتعاليم عقيدته وأعراف مجتمعه وهموم أمته.

إنه وأمثاله خير ما كشفت عنه السنوات الصعبة والتحديات الخطيرة، ولدى الشدائد يعرف الأحرار وتولد البطولات فيحدث التحول الكبير، وينضاف إلى أعلام شعبنا علم جديد نَظَمَ أعلامها السابقين في عقدٍ فريدٍ مسهماً بذلك في صناعة أعلامها القادمين. فأي وسام نضعه على صدره أفضل من هذا الوسام، الكتاب، الذي قلد به نفسه، وأي تقديم لائق بهذا الكتاب يرقى إلى ما سطره في توطئته العميقة المركزة التي ينبغي أن تدرس في المدارس والجامعات، جنباً إلى جنب مع محتوى الكتاب الذي صيغ بعناية فائقة، واختصار تفرضه الضرورات، ومنهجية تنوِّر وتستنهض وتعطي باقي الأمم والشعوب حقها من التثمين والتقدير.

فالذي يحب شعبه سيحب بالضرورة كل شعوب الأرض، والذي يحنُّ على أمته ويغار عليها ستجده رؤوفاً بكل الأمم. إذ ليس في الأمر تفاخر أجوف بل سعيٌ لإنقاذ بعض أهلنا من حالة الهزيمة النفسية والتبعية الفكرية إلى حالة الكينونة والحرية والابتكار والتواصل الإنساني الخلاق لكل ما ينفع الناس في حين يذهب الزبدُ جفاء.

بمثل هذا الكتاب نصنع الانتقالة الواثقة إلى رحاب المكانة التي يستحقها شعبنا الكريم.. ووالله ما خاب شعب وفيه أمثال هذا المؤرخ الشاب.

لا ينبغي علي الإطالة رغم أن الكتاب والكاتب يستحقان تقديمهما بقصائد شعرية وليس بمقدمات نثرية. ولا يسعنا في الختام إلا أن نقدم صادق العرفان لكل من أسهم في إخراج هذا المجهود البديع إلى النور تنسيقاً وتنقيحاً وإخراجاً وتصميماً، وفي مقدمتهم الأخ المهندس والصحفي رياض علي الأحمدي، وكذلك الشيخ عبدربه المنذري الذي قام بالتصحيح اللغوي لهذا الكتاب

وشكراً جزيلاً لكل كاتب سيكتب عنه، وكل أب وأم سيهديانه لأبنائهما، ولكل أستاذ جامعي سيقرره على طلابه او يحيلهم إليه، ولكل إعلامي سيحوله إلى مفردات مرئية ومسموعة في الإذاعات والتلفزات ومواقع التواصل. وشكرا جزيلا لمعالي الدكتور أحمد عطية على تقديمه الأنيق. وإلى اللقاء بمشيئة الله في الأجزاء القادمة من هذا السفر الملحمي العظيم، وفي إصدارات أخرى بقلم القيل اليماني الأصيل ابراهيم الكازمي. والحمد لله من قبل ومن بعد، إنه ولي التوفيق وأهل الثناء، سبحانه وبحمده، نسأله أن ينفع بهذا الكتاب وأن يرفع عنا تلك الجائحة التي آن لها أن تنقشع إلى غير رجعة بحوله وقوته.

عادل علي الأحمدي
رئيس مركز نشوان الحميري للدراسات والإعلام
٦ يونيو ٢٠٢٣

المقدمـــة

الحمدالله العزيز الجبار خالق الوجود للاعتبار والاستبصار، أحمده سبحانه أنْ خصّ بلدنا وأمتنا بالحكمة والإيمان من دون سائر الأقطار، وجلل هذا القطر وأهله بالشرف المنيف والكرم المدرار، أحمده -تعالى- أن جعلني من أهله، وأسأله المزيد من كرمه وفضله، وصلاةُ ربي وسلامه على النبي المختار، وصحابته الأخيار، ما تعاقب الليل والنهار.. أما بعد:

فإنّ لليمن السعيد تاريخًا قديمًا ومجدًا عظيمًا، فهو منبع الحضارات والهجرات البشرية، وأهله هم أول من نطق العربية، وهو بلد السدود، وأصحاب الجنة والأخدود كما أنه أرض عاد، وإرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد.

ذُكرت اليمن في كتاب الله سبحانه في سورتي سبأ والأحقاف، وكثُرت في محاسنها الأوصاف؛ فهي البلدة الطيبة، وأرض الجنتين، ولم تُوصف بلدٌ غيرها بمثل هذا الوصف.

وُصِف السابقون من أهل اليمن في القرآن الكريم بالقوة والبأس الشديد، ووصف اللاحقون منهم على لسان رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، بالإيمان والحكمة، والرأي السديد لنا من الكعبة ركنها ومن السماء نجمها ومن السيوف صمصامها[1]. وأسلافنا هم أول من لبس التيجان وأول من حج بيت الله الحرام، صُنّاع الحضارات ومؤسسوها وأهل الملك والحكم والشورى، أحفاد الأذواء والأقيال والتبابعة.

١ - الركن اليماني، سهيل اليماني، وصمصامة عمرو بن معدي كرب الزبيدي، أشهر السيوف العربية وأكثرها ذكرًا.

منا المناذرة والغساسنة وكندة والأنصار أنصار النبي المختار[١]، ومنا شعراء العرب وأجوادها وفرسانها[٢].

أرض التبابع والأقيال من يمنٍ أهل الجياد وأهل البيض والزرد
ما قريةً دخلوا إلا وقد كتبوا بها كتابًا فلم يدرس ولم يبدِ
بالقيروان وباب الصين قد زبروا وباب مروٍ وباب الهند والصغد[٣]

اليمانيون هم منبع العروبة وأصلها وأساسها الصلب المتين، وهم من ينفِّس الله بهم كرب المسلمين، وهم من رَكِب المهالك والأخطار لنصرة هذا الدين، وأهل اليمن هم من وطأت أقدامهم فارس والروم ودوخوا قيصر وكسرى ووصلوا المغرب والأقصى وبلاد السند وجنوب فرنسا، ولله در قائلهم:

يمانيون غير أنا أُباةٌ قد وطئنا تيجان كسرى وقيصر
قد روينا الأمجاد جيلًا فجيلًا جدنا صاحب الحضارات حمير

أهل اليمن هم أهل السماحة والفصاحة والكرم والمروءة والثبات والصبر والشجاعة والبسالة والفروسية والإقدام:

ولا ترى فارسًا كفارسها إذا زالت الهام عن مناكبها
عمرو وقيس والأشتران وزيـ ـد الخيل أُسد لدى ملاعبها[٤]

وأهل اليمن هم من قال الله فيهم ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى

---

١ – المناذرة والغساسنة وكندة قبائل يمانية عريقة انشأوا ممالك مشهورة في التاريخ العربي، أما الأنصار فهم الأوس والخزرج أبناء قيلة وسنأتي عليهم كلهم.

٢ – روي أنْ الفاروق عمر رضي الله عنه سأل جمعاً من أصحابه: من شاعر العرب؟ قالوا امرؤ القيس بن حجر الكندي، قال: فمن أكرمها؟ قالوا حاتم بن عبدالله الطائي، قال فمن فارسها؟ فقالوا عمرو بن معد يكرب الزبيدي، قال: انهضوا فقد ذهبت اليمن بالفخر.

٣ – الشاعر دعبل بن علي الخزاعي.

٤ – عمرو بن معد ي كرب، قيس بن مكشوح المرادي، والأشتران هما مالك بن الحارث النخعي، وولده إبراهيم وزيد هو زيد الخيل بن مهلهل الطائي.

ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [1]{المائدة: ٥٤}.

وكما أن لليمن الميمون والأمة اليمانية جمعاء تاريخًا حافلًا وفضائل جمّة، فقد أهملتها أقلام الباحثين والمؤرخين وتجاهلتها أعين الناظرين، وقد وقع هذا الإرث الحضاري والتاريخي العظيم بين حجري الرحى وفكي الكماشة. وقد ظلمه الأباعد والأقارب على حدٍ سواء؛ ورغم كل هذا النسيان والإهمال ما تزال معالم هذا القطر وتاريخ هذه الأمة أصله ثابتٌ وفرعهُ في السماء.

خليليَّ طال الليل والتبس القذى بعينيَّ واستأنست برقًا يمانيا

وبما أن علم التاريخ يُعد من أهم وأنبل العلوم الإنسانية، وهو ذاكرة الأمة والذاكرة للأمة، كالذاكرة للفرد تمامًا، من خلالها تعي الأمة ماضيها، وتفسر حاضرها، وتستشرق مستقبلها. وامتثالًا لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ {الأعراف ١٧٦}. ووفاء مني لتاريخ أسلافنا وأجدادنا وأمتنا؛ فقد بدأت مستعينا بالله -سبحانه- في جمع هذه السلسة المتواضعة والتي أسميتها "أعلام يمانية"، نتحدث فيها عن كوكبة من عظماء اليمانية الذين تركوا بصمات واضحة في تاريخ الأمة اليمانية والعربية بل وفي تاريخ البشرية جمعاء، في محاولة مني وبجهد متواضع أن نعطيهم ولو يسيرًا من حقهم، وأن نظهر تاريخهم بالوجه الحقيقي والمشرق الذي كانوا عليه، كي تعي أجيالنا أننا أحفاد رجال عظماء دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه، علّنا نقتدي بهم ونسير على خطاهم. فنحن اليمانيون كنا في الصدارة ولابد

١ – عندما نزلت هذه الآية أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، بشيء كان معه، فقال: "هم قوم هذا". أخرجه الحاكم وصححه الألباني.

أن نعود إليها، وفي مقدمة الركب الحضاري لا في مؤخرته، ونحن أحفاد من ملأوا الأرض والدنيا بالقصص والأحداث والوقائع. وفي هذا الكتاب، وهو جزء أول من هذه السلسلة، لابد من التنبيه على بعض الأمور المهمة، ومنها.

أنني تسهيلًا للقارئ الكريم وتخفيفًا له كي تكون قراءته سلسة ومستمرة، لم أجعل للكتاب الكثير من الحواشي، خاصة فيما يخص المصادر والمراجع التاريخية التي أخذتُ منها المعلومات عن هذه الأعلام والهامات اليمانية وكذلك تفاديًا لتكرارها، فقد ذُكرت في مؤخرة الكتاب، وقد نقلت أحيانًا بالنص وأحيانًا بتصرف وأحيانًا أُعيدت صياغة ما قرأناه وفهمناه بما رأيناه مناسبًا، وقد قمنا بتقسيم الكتاب على ثلاثة فصول؛ لكل فصل منها مقدمة مختصرة.

وبما أن التاريخ أمانة في النقل وأمانة في التدوين؛ فقد سرنا على قاعدة من أحال فقد استبرأ؛ فإن أصبنا فمن توفيق الله سبحانه وإن أخطأنا فلسنا بمعصومين فكل بني آدم خطاؤون وخير الخطائين التوابون، ولا أجد خيرًا في هذا الجانب مما قاله الإمام الطبري رحمه الله "فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهًا في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا، وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أُدِّيَ إلينا"[١].

إبراهيم عوض محمد بن البيضاء الخليلي الكازمي

---

١. ٥

توطئة لابد منها

منذ أن كنتُ شابًا صغيرًا، كنت شغوفًا مولعًا بقراءة كتب التاريخ ومتابعة الأفلام الوثائقية والتاريخية؛ خاصة الإسلامية منها، وذات يوم وأنا أتابع بعض الأفلام التاريخية التي تتحدث عن بعض الفتوحات الإسلامية، لفت انتباهي الممثل في دور الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وهو يقود معركة القادسية ضد الفرس وكان يصرخ وينادي في جيش المسلمين: اهجموا يا بني فلان، لله درّ بني فلان، وأخذ يردد أسماء بعض القبائل العربية، ولكن للأسف لم يذكر اسم أي قبيلة يمانية قحطانية واحدة.

شعرت بنوع من الغضب والحمية، إذ كيف لم ينتبه مخرج هذا الفلم، الذي يتحدث عن معركة تاريخية فاصلة، أنهت امبراطورية عالمية كبرى من الوجود -وهي الإمبراطورية الفارسية، أن يذكر ولو قبيلة يمانية واحدة؟ مع أن هذه القبائل كانت عصب الجيوش الإسلامية الفاتحة ومادتها، وفي القادسية بالتحديد كانت هذه القبائل تكوِّن حوالي ثمانين بالمائة من تعداد الجيش الإسلامي!!.

وقع في نفسي هذا الأمر وأخذ اهتمامي، ويومًا بعد يوم ومع المزيد من القراءة والاطلاع ومتابعة الأفلام والبرامج الوثائقية والتاريخية، اتضح لي أن هذا الأمر لم يكن عفويًا قط، وأنّ هناك عملًا عدائيًا ممنهجًا مدروسًا يقوم بتقزيم الدور اليماني القحطاني في التاريخ الإسلامي.

وعندما حاولت التعمق والاطلاع أكثر أدركت تمامًا أن هذا العمل قد طال التاريخ اليمني والهوية اليمانية، ليس في العصر الإسلامي فحسب؛ بل منذ ما قبل البعثة المحمدية، وما قبل ميلاد

المسيح عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، ويكاد لم يسلم منه شيء.

* * *

إذا أردت أن تهيمن على شعب من الشعوب أو أمة من الأمم وأن تلغيها تمامًا، فلا بد أولا؛ أن تكسر اعتزاز هذه الأمة بماضيها وحضارتها وأن تعمل على تشويش الذاكرة التاريخية لهذه الأمة، وأن تغرس في عقول أجيالها تاريخًا آخر من التبعية والجهل، وأن تقوم بتحريف ثقافة هذا الشعب أو هذه الأمة وتغييرها وإدخال ثقافة أخرى دخيلة عليها. ومع استمرار ذلك، ستنسى هذه الأمة تاريخها وحضارتها وتنتهي بالتدريج معالمها الحضارية وتذوب هويتها، وما إن يتم ذلك؛ حتى ينساها العالم المحيط بها، وتصبح وكأنها أمة منقطعة الجذور والأصول، فيصبح من السهل جدًّا قيادتها واستعبادها.

كل هذا بالتأكيد قد تعرضت له الأمة السبأية اليمانية، وقد بدأ هذا العمل منذ قرون طويلة امتد فيها هذا العمل العدائي، وبلغ ذروته على يد الإمامة الكهنوتية منذ قدوم الرسي إلى بلاد اليمن[1]، وقد قطعت الإمامة شوطًا كبيرًا في هذا الجانب، محاولين قتل الروح الحضارية اليمنية ودفن الهوية السبأية القحطانية، وما يزالون مستمرين في ذلك حتى اليوم.

---

١ – في اعتقادي ان بداية مرحلة التدوين التاريخي المغلوط عن اليمن واليمانية ووظيفتهم الحضارية قد بدأ خلال العهد الأموي وبداية العصر العباسي بعد أن اشتد الصراع بين اليمانية والقيسية، فقد بدأ بعض الرواة والأخبارين في نشر الروايات التي تشوه أهل اليمن وتحط من شأنهم ومكانتهم ولايزال البعض يعتقد بصحة هذه الروايات حتى اليوم مع انها تتنافى تمامًا مع الحقيقة والدلائل التاريخية.

"الأمر الذي يثير الاستغراب أن معظم المؤرخين والباحثين العرب معترفون ومقرّون أن أصول العرب وجذورها تعود إلى اليمن ويرددون ذلك مرارًا وتكرارًا، ولكنهم مع الأسف في ميدان التاريخ الحضاري وتدوينه يجعلونها في مؤخرة الركب ويقّدمون عليها غيرها. ولا تدخل في حسابات معظم الباحثين والدارسين إلا في بداية انهيارها وتفتتها إلى دويلات وأجزاء صغيرة متناحرة فيما بينها، أما ما قبل ذلك من تاريخ حضارة بلاد اليمن فلا يتعدى الملكة بلقيس مجاملة، أما سد مأرب العظيم فقد قضمته فأرة، فانهار بنيانه وتشرد اليمانيون وتفرقت أيادي سبأ؛ بسبب تلك الفأرة الملعونة"[1].

والمخجل حقًا أن هذا التاريخ المزيف، هو المعتمد في مناهجنا الدراسية واصبحت هذه الوقائع عند أجيالنا أمرًا لا يقبل الجدل، كما إنهم قد غرسوا في عقولنا أن حضارات اليمن المتأخرة – كحضرموت ومعين وقتبان وأوسان وسبأ وحمير– هي أقدم الحضارات التي ظهرت في بلادنا ولا يوجد شيء قبلها!!

أما بخصوص أعلام اليمانية وهاماتها من ملوك وتبابعة وأقيال واذواء وفرسان وشعراء وحكماء وعلماء، فقد نالهم النصيب الأكبر من هذا التقزيم والتحريف، بل إن الكثيرين منهم قد طُمس تاريخه تمامًا والبعض منهم تمت شيطنتهم وقلب تاريخهم رأسًا على عقب؛ فهم اليوم يسبُّون ويُلعنون من بعض أحفادهم عن جهلٍ وعماء.

هكذا قرأنا في مصادرهم التاريخية المحرفة ونشاهد في افلامهم الوثائقية والدراما المزيفة، فالملك الصالح ذو القرنين ليس بيمني ولا عربي حتى، إنما هو مقدوني وثني، وتارة اخرى فارسي، بينما

١ – اليمن الهوية والحضارة دورة التاريخ، علي البكالي، بتصرف ص٤٣–٤٤.

ملكة سبأ لم تكن في بلاد اليمن وإنما في دومة الجندل، ومرة اخرى في الحبشة، وقد زوجوها بالنبي سليمان جزافًا، أما بخصوص التبُّع الحميري حسان يهنعم، ابن أسعد الكامل فقد قُتل في قصره على يد مهرّج متنكر عاد إلى بلاده سالمًا غانمًا، وسيف بن ذي يزن مجرد عميل خائن، واليمن، كل اليمن؛ ما هي إلا ولاية حبشية ثم مستعمرة فارسية، أما قصور اليمن وقلاعها فهي من صنعة الجن! أما قصر غمدان، أعجوبة الدنيا، فهو مجرَّد سجن لدولة الأئمة الرسيين وعدن ثغر اليمن الباسم، ما هي إلا منفى وسجن لأحد الملوك الظلمة.

ويستمر التحريف والتزييف التاريخي؛ فاليمانيون ليس لهم حضور في الشعر العربي، فالأفوه الأودي مجرد ظاهرة نادرة وامرؤ القيس بن حجر الكندي نجدي تعلم الفصاحة من أهل نجد، أما أقيال اليمن وأذواؤها، فهم مجرد شيوخ قبائل يتصارعون على المغانم والثروات، كما لم يكن لأهل اليمن علم بالتوحيد وعبادة الله سبحانه، فهم أهل وثنية وشرك قبل البعثة، مع أن الرسول الله صلى الله على وسلم عندما أرسل إليهم معاذ بن جبل الأنصاري اليماني قال له "إنك ستأتي قومًا أهل كتاب".

وفي صدر الإسلام نقلوا لنا بأن اليمانية ليس لهم تأثير كبير في تلك الحقبة، ولم يكونوا سوى عساكر وجنود عاديين وليس منهم القادة والعلماء والفلاسفة ومنهم من أثار الفتنة على الخليفة عثمان رضي الله عنه، وقد ارتد أهل اليمن عن الإسلام وعادوا إليه بالسيف!!

وقد عمل أدعياء الحق الإلهي في الحكم، على إيهام الجهلة من أتباعهم بأن اليمانيين ليسوا بأهل حكم ولا سياسة، وقد جاء الإسلام

ليجعل منهم مجرد أتباع ورعايا، وليس لهم الحق حتى في حكم أنفسهم وبلادهم، مخالفين الواقع التاريخي الذي يقول إن أجدادنا قد أسسوا أرقى الحضارات الإنسانية وأقدمها وصدروها إلى أرجاء المعمورة وقد حكموا بلادهم وساسوها خير سياسة، وذلك قبل أن تخلق سلالة هؤلاء الأدعياء بآلاف السنين..

هكذا يردد ويعاد على اليمنيين بث الذاكرة التاريخية الخاصة بهم حتى غرست هذه الافتراءات في عقول الكثير من شبابنا وأبنائنا.

وبالمقابل؛ لم يجد التاريخ اليمني من يدافع عنه ويظهره بالصورة الحقيقية التي كان عليها، عدا بعض الجهود الفردية من بعض المؤرخين اليمنيين والتي حوربت بدورها، قال الهمداني رحمه الله: "إن قلّة الرغبة بأهل اليمن في إحياء ما يكون في بلادهم وفي أهلها من الأخبار والآثار، ولهم من الفضائل والمحاسن ما عرفت" وما زلنا نعاني من هذه العقدة حتى اليوم.

إن الاعتزاز بالهوية والحفاظ على مكتسبات التاريخ والحضارة ومحاولة إحياء ذلك الإرث الحضاري بما يتناسب مع الزمان والمكان، لا يعد عملا عدائيًا أو عنصريًا طالما ونحن لا ننتقص من الآخرين، فلكل أمة من الأمم تاريخها وهويتها وحق لها ان تفخر بها وتحافظ عليها، فكيف بنا نحن اليمانيين الذين كانت بلادنا وأمتنا منبعًا من منابع الحضارات نهلت وارتوت من هذا المنبع الكثير من الأمم والشعوب.

نحن اليوم في أشد الحاجة إلى معرفة تاريخنا وحضارتنا وإعادة إحياء هويتنا، ليس للتغني بمآثر الأجداد والبكاء على الماضي الجميل، كما يعتقد البعض، بل للعظة والعبرة والاستفادة في تغيير

الحاضر المؤسف الذي نعيشه، والسير على خطى أسلافنا العظماء الذين تركوا لنا إرثًا حضاريًا عظيمًا.

لَسنا وَإِن كَرُمت أَوائِلُنا يومًا على الأحسابِ نتَّكِلُ
نبني كـما كانت أوائلنا تَبني وَنَفعلُ مِثلَ ما فَعلوا

سبأ جد القبائل القحطانية اليمانية

يجمع الجمهور من النسابين العرب أن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان هو الجد الجامع للقبائل القحطانية اليمانية، وسبأ اسمه عامر وقيل عبد شمس.

وقد اختلف الرواة والمؤرخون في سبب شهرته بلقب سبأ على أقوال متعددة، منها أنه لقب سبأ لأنه أول من سبى في الحرب وبنى مدينة سبأ.

وقال نشوان بن سعيد الحميري إن اسمه عبد شمس وإنما لقب بسبأ لأنه غزا وسبى، قال علقمة بن ذي جدن الحميري:

ومنا الذي لم يسبِ قبل سبائهِ سباءً ومن دان الملوك مرارًا

وقال نشوان بن سعيد الحميري:

سبأ بن يشجب وهو أول من سبا في الغزو قدمًا كل ذات وشاج

بينما يرى بعض المؤرخين المتأخرين أن لفظ سبأ مأخوذ من كلمة "سبأتن" ومعناها الغزو وقد وجدت هذه الكلمة في النقوش المسندية القديمة، وباسم سبأ (𐩱𐩣𐩺)، سميت مدينة سبأ ودولة سبأ، وإليه تنسب القبائل السبأية القحطانية كلها. قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾ {سبأ: ١٥}.

وأما الجد ألأكبر قحطان فهو من نسل النبي هود عليه السلام وهذا هو القول المشهور، قال حسان بن ثابت الأنصاري:

لَقَد كانَ قَحطانُ العلا القَرمَ جَدنا لَهُ مَنصِبٌ في يافِعِ المِلكِ يشهَرُ
ينـالُ نُـجـومَ السَعـد إِن مَد كَـفهُ تُـقـلُّ أَكُـفٌّ عنـد ذاكَ وَتَـقـصُـرُ
وَرِثـنـا سَـنـاءً مِنـهُ بَـرزًا وَمحـتـدًا مُنيفَ الذَرى فَخمَ الأَرومَةِ يذكَرُ

وقال أيضًا:

فَنَحنُ بَنو قَحطانَ وَالمُلكُ وَالعلا وَمِنّا نَبِي اللهِ هود الأَخايِرِ

وقال شاعر حارثي:

نَحنُ بَنو قَحطانَ مِن جُذمَـةٍ أعـمـامُنا مِنهُ وَمِنهُ الخَؤول
وَجَدنا هـود على رَغمِ مَـن عانَد وَاِستغـواهُ قـالٌ وَقيل
مِنّا الَّذي سَنَّ النَدى حاتـمٌ وَثابِتٌ منّا الخَطيبُ القَؤول[1]

وقال الهمداني:

سوانا آل قحطان بن هودٍ لأنا للخلائق قاهرونا

وقال أبوالطيب المتنبي[2]:

إلى الثمر الحلو الذي طيء له
فروع وقحطانُ بن هود له أصلُ

وقد ذُكر قحطان في المصادر القديمة ومنها التوراة بلفظ "يقطان" ويرى بعض المؤرخين أن قحطان من رجال الألف السابع قبل الميلاد.

أما سبأ فقد أجمع الكثير من النسابين والمؤرخين العرب، على أن النسل والذرية كانت في ولديه حمير وكهلان فمن حمير وكهلان ابني سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان تفرّعت القبائل السبأية

١ – هو جواد العرب حاتم الطائي، وثابت هو خطيب الرسول صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي الأنصاري.
٢ – سنأتي على ترجمة ابي الطيب المتبني في الجزء الثاني إن شاء الله.

القحطانية فكل من ينتمي إلى النسب السبأي القحطاني فهو إما حميري وإما كهلاني ومنهم انتشرت قبائل كبرى وأمم وشعوب لا يعلم عددهم إلا الله -سبحانه- وقد كانت العرب تقول: حمير رأس العرب وبابها، وكندة لسانها وسنامها، ومذحج هامتها وعصمتها، والأزد كاهلها وجمجمتها، وهمدان ذروتها وغاربها. وتقول أيضًا: غسان أرباب الملوك، وحمير رأس العرب، وكندة الملوك، ومذحج الطعان، وهمدان أحلاس الخيل، والأزد أسد البأس.

وهناك قبائل يمانية سبأية كبرى ذات تاريخ عريق، ومنها ذو رعين، وذو الكلاع، والأصابح، وقضاعة بن مالك بن حمير، وكذلك خثعم، وبجيلة، ولخم، وجذام، وعاملة، والأشاعر، وطيء، وقبائل حضرموت الحميرية وقبائل أخرى غيرها مذكورة في كتب النسابين العرب.

قد يتساءل البعض قائلين إن البعض ممن ذُكِرّوا في هذا الكتاب ليسوا بيمنيين وذلك لأنهم لم ينشأوا أو يعيشوا في جغرافيا اليمن المعروفة اليوم، وإنما نشأوا وعاشوا واشتهروا في مناطق أخرى كالشام والعراق أو مصر ونجد والحجاز وغيرها من البلدان العربية والإسلامية؟!

نجيب على هذا التساؤل بأن اليمانية كهوية ونسب وانتماء لا تنحصر أو تتقيد بجغرافيا معينة، ومن المهم جدًّا التفريق بين الانتماء للجغرافيا السياسية وبين الانتماء للهوية والأصل والنسب والمنبع؛ فالعرب كما يرى بعض المؤرخين والنسابين ينقسمون على قسمين

عظيمين القسم الأول هم العرب اليمانية القحطانية، والقسم الثاني هم العرب النزارية العدنانية[1].

فالقبائل القحطانية اليمانية التي هاجرت منذ القدم من بلاد اليمن، وانتشرت في مناطق متفرقة من جزيرة العرب وخارجها كانت عبر تاريخها تعتد بهويتها وانتمائها وأنسابها وأصولها السبأية القحطانية، بل ربما كانت معظم هذه القبائل أشد تعصبًا لهويتها وأنسابها أكثر من غيرها من القبائل التي بقيت في الجغرافيا اليمنية، وشواهد التاريخ الدالة على ذلك كثيرة، لا يجهلها إلا جاهل بالتاريخ العربي، ولا بأس أن نذكر بعض من الأمثلة التاريخية التي تثبت هذه الحقيقة.

فالقارئ لتاريخ أبناء قيلة الأوس والخزرج الذين هاجروا من بلاد اليمن قبل البعثة بعشرات السنين واستقروا في يثرب، المدينة المنورة، يجد أنهم لم يتخلوا عن هويتهم السبأية اليمانية وانتمائهم القحطاني، ولطالما افتخروا بها ونافحوا عنها منذ ما قبل البعثة والهجرة وما بعدها، قال شاعرهم حسان بن ثابت:

يمانون تدعونا سبأ فنجيبها
إلى الجوهر المكنون خير الجواهرِ

١ – تفرقت وتشعبت القبائل العدنانية من نسل نزار بن معدّ بن عدنان وإلى ولديه ربيعة ومضر تنسب أشهر القبائل العدنانية وأكثرها ذكراً، فإليهم تنسب قبائل بكر وتغلب والنمر بن قاسط وحنيفة وأسد وتميم وكنانة من كنانة قريش، وكذلك قبائل ضبّه والرباب وقيس عيلان بن مضر ومن قيس عيلان بن مضر هوازن وسليم وغطفان، ومن غطفان عيس وذبيان وغني وأشجع، القبائل العدنانية كثيرة وهم أهل عز ومنعة وكرم ومروءة وهم من يسميهم بعض المؤرخين العرب المستعربة، بينما عُرف القحطانيون اليمانيون بالعرب العاربة، وقحطان أقدم من عدنان بكثير وفيهم ومنهم قامت الممالك والدول؛ بينما لم يعثر حتى الآن ذكر لعدنان في النقوش القديمة منذ ما قبل ميلاد المسيح عليه السلام.

وقال أيضًا:

إمّا سألْتَ، فإنّا مَعشرٌ يمـنٌ الأزْد نِسْبتُنا، والمـاءُ غَـسّانُ
شُمُّ الأنوفِ، لنا مجْدٌ ومَكْرُمَةٌ كانتْ لنا كجبالِ الطود أركانُ

وهذا الحال أيضاً عند إخوتهم قبيلة خزاعة التي هاجرت برفقة إخوانهم أبناء قيلة من بلاد اليمن في هجرة الأزد المعروفة لم يتنكروا لهويتهم ولا لأنسابهم، مع أنهم قد استقروا خارج نطاق اليمن الجغرافي المعروف ولم يعودوا إليه، قال شاعرهم دعبل بن علي الخزاعي، مفتخرًا بمآثر اليمانيين القدماء:

هم كَتَبوا الكِتَابَ بِبابِ مَروٍ وَبـابِ الصينِ كانوا الكاتِبينا
وهُـمُ سَـمّـوا سَـمَرقَنداً بِشِمرِ وَهُم غَـرَسَـوا هُناكَ التبّتيـنا

وأما قبائل قضاعة الحميرية التي انتشرت في مناطق متفرقة من جزيرة العرب؛ خاصة إلى الشمال منها – وأخص بالذكر قبيلة كلب القضاعية – فقد قادوا في مرحلة من مراحل الصراع السياسي خلال العهد الأموي، القبائل اليمانية كلها وتزعموها في الصراعات الدموية العصبية التي وقعت بين اليمانية والقيسية ومصادر التاريخ ممتلئة بذكر أخبارهم ووقائعهم.

هذا هو حال كل القبائل السبأية الأخرى التي هاجرت من بلاد اليمن سواءً أكانت قبل الميلاد أو بعده أو خلال الفتوحات الإسلامية فقد بقيت تلازمها هويتها اليمانية أبداً.

ومن هذه القبائل حمير وكندة والأزد والأشاعر ومذحج وطيء ولخم وجذام وعاملة وخثعم وبجيلة وغيرها من قبائل اليمن الكبرى، وها هو الرسول -صلى الله عليه وسلم- يقول في معرض حديثه مع عيينة بن حصن الفزاري "خَيرُ الرِّجَالِ رِجَالُ أهل الْيَمَنِ، وَالإيمَانُ يمَانٍ إلى لَخْمٍ وَجُذَامَ"[1].

ولخم وجذام كما هو معروف قبائل قحطانية يمانية هاجرت قديمًا من بلاد اليمن لكنها لم تتخل عن هويتها وانتمائها.

صحيح أن البعض من الهامات والأعلام اليمانية – في عصر صدر الإسلام وما بعده لم يكونوا من سكان الجغرافيا اليمنية المعروفة اليوم بل ربما لم تطأها أقدامهم، لكن هويتهم اليمانية وانتسابهم السبأي بقي شامخًا وملازمًا لهم ومصدر فخر واعتزاز عندهم، ونرى أن هذا لا يناقض تعاليم الإسلام وسماحته، طالمًا لم يكن هناك انتقاص من الآخرين فكلنا لآدم وآدم من تراب.

فها هو أحد أعلام اليمانية ورموزها خلال العهد الأموي على سبيل المثال وهو القائد المهلب بن أبي صفرة الأزدي، ربما لا يعرف اليمن الجغرافي ولم تطأه قدماه، لكنه يماني الهوية والنسب والانتماء، فعندما ولّي على خراسان اعترض بعض زعماء المضرية وقال أحدهم: "أضاقت عليكم مضر ولم تجدوا إلا رجلا من أهل اليمن تولونه خراسان؟" والقصة بتفاصيلها في تاريخ الطبري.

ما الذي جعل الأزدي صاحب العراق ينصر اللخمي صاحب الشام؟ وما الذي دفع المذحجي ساكن اليمن يؤازر الأشعري ساكن الحجاز؟ وما الذي يدفع بالحميري ساكن الشام أن يقوم مع الكندي؟

---

١ – سنأتي على الحديث النبوي في فضائل أهل اليمن.

وما الذي أقنع خليطًا من القبائل اليمانية ذات الجغرافيا المتعددة أن تقبل بقيادة قيل حضرمي؟! أليست الهوية والنسب والانتماء التي هي أعمق وأعم وأشمل من الانتماء الجغرافي السياسي؟.

أقدمية الحضارة اليمنية

إن ما يدعيه ويروج له معظم المستشرقين الغربيين ومن سار على نهجم من الباحثين العرب بأن الحضارة اليونانية هي الأصل والمنبع لكل الحضارات الإنسانية، قول لا يستند إلى أساس أو دليل علمي أو تاريخي، وهناك الكثير من الحقائق والأدلة العلمية والأثرية والتاريخية والدينية التي تثبت بطلان هذه الادعاءات وتشير بوضوح إلى أقدمية الحضارة اليمنية مع أن كمية الأثار المكتشفة في جنوب جزيرة العرب –اليمن– لم تتجاوز الثلاثين بالمائة حتى الآن.

ومن الأدلة الدينية الواضحة على أقدمية حضارة بلاد اليمن ما جاء في المصدر الموثوق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه – وهو القرآن الكريم– حيث ذكر الله سبحانه وتعالى أن أقدم الأقوام التي ورثت الأرض بعد الطوفان وبعد قوم نوح هم قوم عاد. قال تعالى ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۡۜطَةٗۖ﴾ {الأعراف أية ٦٨}.

ويكاد يجمع المفسرون والباحثون والمؤرخون على أن حضارة قوم عاد، قد قامت في جنوب جزيرة العرب وفي منطقة الأحقاف بالتحديد وبلاد الأحقاف هو الاسم المشهور لحضرموت، والحقف هو الكثيب الرملي وجمعها أحقاف قال تعالى ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ (الأحقاف أية ٢١).

وقد امتدت حضارة قوم عاد لتشمل مناطق واسعة جدًا، وكانت مدينة إرم عاصمتهم وهي من عجائب الدنيا. قال تعالى ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَادِ ۝٨﴾{سورة الفجر ٧-٨}. ويشير هذا بوضوح إلى ما وصلت إليه تلك الحضارة القديمة من رقي وعظمة وازدهار.

أما علميًا فقد ذكر عدد من الباحثين، مستندين على ما وجد من أدلة أثرية ونقوش، بأن معظم الأقوام التي أنشأت أقدم الحضارات في بلاد الشام والرافدين ومصر، هم أقوام وشعوب هاجرت من جنوب جزيرة العرب -اليمن- ومن هذه الشعوب المهاجرة من استوطن جزر بحر إيجه -أي اليونان نفسها- ومن أشهر هذه الأقوام على سبيل المثال: الكنعانيون والأكاديون والأشوريون والفينقيون والأراميون والأسر الفرعونية القديمة[١].

كما عثرت بعض البعثات الأثرية التي زارت اليمن في مأرب -الجوبة- وفي مناطق من حضرموت ولحج والضالع على بقايا إنسانية وأدوات مصنوعة من حجر الصوان، ومنها أمشاط وسهام وسكاكين وفؤوس، ويعود تاريخ هذه البقايا الإنسانية وهذه الأدوات إلى العصور الحجرية القديمة وما قبلها[٢].

وللإنصاف؛ فقد اعترف بعض المستشرقين والباحثين بحقيقة أقدمية الحضارة اليمنية وسبقها، ومن هؤلاء- على سبيل المثال- لا الحصر المؤرخ العالمي جورج باستون، حيث قال في كتابة تاريخ العلم: "لقد سبق للعرب أن قادوا العالم في مرحلتين متقدمتين من

١ - حضارة الرافدين - أحمد سوسة.

٢ - الجديد في تاريخ حضارة سبأ وحمير محمد الفرح المجلد الأول ٢٣-٢٥.

تاريخ البشرية– خلال أكثر من ألفي عام ولا مانع من أن تعود هذه الشعوب مرة أخرى في مراحل قادمة لقيادة العالم"[١].

ويذكر المؤرخ العالمي أرنولد توينبي، أنه "يمكنا القول بشيء من الثقة بأن الزراعة وتربية الماشية والتعدين وأيضاً تقنية قلع قطع كبيرة وثقيلة من الحجر ونقلها – هذه كلها قد اُخترعت للمرة الأولى في جنوب غرب آسيا، وهي رقعة الثقل الرئيسية في الجزء المعروف بالعالم القديم من الأيوكومين، وباستطاعتنا حتى تحديد الرقعة في المنطقة بشكل أدق؛ أنها لا تشمل الجزيرة العربية، إلا في زاويتها الجنوبية" (أي اليمن). [٢].

أما البروفسور أدمون بوخنر رئيس معهد الأثار الألماني فقد قال في تصريح هام سنة ١٩٨٦ "إن اليمن من الأقطار الهامة للأبحاث الأثرية نظرا لوجود أقدم الحضارات فيها، وكان اعتقادنا في الماضي أن أقدم المراكز الحضارية في العالم هي مصر وبلاد الرافدين، اما الآن فقد اتضح أن اليمن من أقدم المراكز الحضارية في العالم"[٣].

وها هو المؤرخ الباحث المعروف جورج شقا، قد جعل من بلاد اليمن وبلاد الشام ومصر مثلثاً للحضارات القديمة، وجعل اليمن رأس هذه المثلث ومصر والشام ضلعيه[٤].

ونحن إنما أوردنا هذه الأقوال لهؤلاء المستشرقين والباحثين لتكون أمثلة فقط لإقناع البعض من قرائنا وباحثينا العرب الذين لا

---

١ – ويعني بالمرحلتين مرحلة ما قبل الميلاد حيث كانت الحضارة قائمة في جنوب جزيرة العرب، والمرحلة الثانية هي مرحلة العصور الإسلامية،

٢ – تاريخ البشرية، ص٧١.

٣ – تصريحات أدمون بوخنر، صحيفة الثورة، العدد ١٢ أبريل ١٩٨٦.

٤ – العرب وتاريخهم بيد الوحدة والفرقة – جورج شقا ص٢١.

يؤمنون إلا بما قال هؤلاء المستشرقون، بينما لا يرون ما يكتبه مؤرخونا القدماء من العرب سوى حكايات وأساطير، مع أن معظم ما كتبوه جاء مطابقًا لما وجد من نقوش وآثار فيما بعد.

تاريخيًا فإن ظهور الملوك العظماء في بلاد اليمن والذين ذكروا في الكتب السماوية وامتلأت كتب التاريخ بأخبارهم، ومنهم على سبيل المثال ذو القرنين الذي دانت له الأرض بالطول والعرض ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ (الكهف الآية ٨٤-٨٥). وكذلك ملكة سبأ، والتبع أسعد الكامل، إن ظهور هؤلاء الملوك العظماء في بلاد اليمن لم يكن مجرد حوادث منفصلة أو أحداث نادرة، بل هو امتداد لتاريخ قديم وعريق. حتى إن الممالك المتأخرة نسبيًا والتي ظهرت في بلاد اليمن ومنها مملكة حضرموت ومملكة سبأ ومملكة معين ومملكة أوسان ومملكة قتبان، ظهر معظمها منذ ما قبل الألف الأول قبل الميلاد، أي قبل ظهور حضارة اليونان.

ولهذا فإن الفرق واضح وجلي لمن قرأ ونظر إلى التاريخ بالمنظار الواسع، ولا يوجد مقارنة بين حضارة ظهرت في القرن السابع قبل الميلاد – وهي حضارة اليونان – وبين حضارة ضاربة في القدم امتد تاريخها إلى ما قبل الألف السابع قبل الميلاد بزمن طويل، وهي حضارة بلاد اليمن.!!

وبما أن بلاد اليمن لم تلق الاهتمام الكافي كغيرها من البلدان الأخرى، في البحوث الأثرية والتنقيبات؛ إلا أن الشواهد الأثرية والقدر اليسير الذي اكتشف فيها، يرجح أن هذا البلد من أول البلدان التي شهدت التحول الحضاري في مراحله الأولى وتكونت فيها بداية الامتدادات للحضارات المجاورة، وما يزال اليمن بلدًا بكرًا في هذا الجانب وبحاجة إلى الكثير من الأبحاث والتنقيبات، ومنها سنخلص إلى الحقيقة الناصعة بأن اليمن ليست منبعًا للعروبة فحسب؛ بل هي منبع من منابع الحضارات البشرية القديمة.

من مظاهر الحضارة اليمنية القديمة

الخط المسند

قال التبع أبو كرب أسعد:

وكتبنا مسانداً في ظفارٍ وكتبنا أيامنا في الزبورِ

خط المسند اليماني العريق هو القلم الأول، كما قال ابن خلدون، ويعد من أول الكتابات الأبجدية التي اتسمت بالكمال في تاريخ البشرية، وهو يمثل ثقافة فذة وحضارة عظيمة ومتميزة كعظمة من أنشأوها. قال نشوان الحميري: ويعرب بن قحطان هو أول من ألهم اللغة العربية المحضة واشتقت اسم العربية من اسمه[1]. وقال حسان بن ثابت الأنصاري:

تعلمتمُ من منطق الشيخ يعربٍ أبينا فصرتم معربين ذوي نفرِ
وكنتم قديمًا ما بكم غير عجمةٍ كلام وكنتم كالبهائم في القفرِ
تقولون مانوخ ودونخ وكنتمٍ إذا ما التقينا كالرصاص على الجمرِ
منازلكم كوثى ومنها درجتم إلينا كأفراخ درجن من الوكرِ
فنحن وأنتم كالذي قال لم أزل أعلمه رمياً ليمنع لي ظهري
فلما نشا واشتد ساعده رمى فلم يخطِ ظهري إذ رمى لا ولا نحري

يتكون خط المسند من (٢٨) حرفًا هي أصوات وحروف اللغة العربية نفسها اليوم، بالإضافة إلى حرف كان ينطق بين السين والشين، ولا يوجد في كتابات العصور القديمة وأبجدياتها في العالم كله حرف الظاء والضاد إلا في حروف ولغة المسند اليماني وفي

١ – شرح قصيدة نشوان الحميري – السيرة الجامعة– ص٨.

بعض اللغات السامية كالحبشية، مثلاً، على أن جميع اللغات السامية ظهرت أصلا في الجزيرة العربية؛ وقد تم انتشارها خارج الجزيرة على أيدي انسياح المهاجرين من شبه الجزيرة, فقد أدخلت جماعات من اليمن لغة يمنية سامية إلى المرتفعات الأثيوبية الإريترية في زمن مجهول, كما أدخلت اللغة الأكدية الى حوض دجلة والفرات، واللغة الكنعانية إلى فلسطين وسورية، ويعد ذلك على التوالي؛ اللغتان العمورية والأرامية الى جناحي الهلال الخصيب"[1].

ويُكتب المسند من اليمين إلى اليسار كأسلوب الكتابة اليوم، وليس صحيحًا ما يروج له بعض المستشرقين، بإنهم هم من اكتشفوا ترجمة المسند وقرأوها، بل سبقهم إلى ذلك عدد من مؤرخي اليمن القدماء، كالهمداني ونشوان الحميري وبالتفصيل، وكل التقنيات والبحوث الأخيرة إنما تؤكد صحة ما قاله الهمداني ونشوان الحميري فهم أهل المسند التليد وأحفاد من كتبوه.

وفي الواقع، ما أكثر النقوش المسندية وأروعها في بلاد اليمن الميمون وخارجها، حيث قام الدارسون والباحثون باكتشاف ودراسة حوالي أربعة آلاف نقش في أرجاء اليمن، وهي كمية قليلة، وصحيح أنهم قسموها إلى سبأية ومعينية وحضرمية وأوسانية وقتبانية وحميرية إلا أنهم يجمعونها تحت مصطلح "العربية الجنوبية".

وبما أن القبائل القحطانية اليمانية انتشرت في جزيرة العرب منذ القدم، كما كان اليمنيون القدماء أهل تجارة وهجرة، فقد كان طبيعيًا أن تجد النقوش المسندية منتشرة في كثير من النواحي، في وادي

١ – أرنولد توينبي، مصدر سابق، ص٤٥٢، ترجمة نقولا زيادة.

القرى والفاو ونجد ومأسل الجمح والبحرين والإحساء وأماكن أخرى كثيرة، تدل على أن اللغة السائدة والمستخدمة في تلك الفترة هي لغة المسند اليمني اليعربي؛ بل إن اليمنيين القدماء تركوا نقوشًا مسندية في مصر القديمة وجزر بحر إيجه -اليونان- والشام كذلك.

وحتى فيما عرف فيما بعد بالعصر الجاهلي فقد اشتهر أهل اليمن واليمانية بالقراءة والكتابة ولم تندثر منهم قال الشاعر لبيد بن ربيعة العامري:

فنعاف صارةَ فالقَنَانِ كأنَّها زُبُـرٌ يـرجّعها وليد يـمَـانِ
مُتَـعَـوِّد لَـحِـنٌ يعيد بِكَفِّهِ قَلَمًا على عسُبٍ، ذَبُلْنَ، وَبانِ

وقال امرؤ القيس ابن حجر الكندي:

لِمَن طَلَلٌ أَبصَرتُهُ فَشَجاني كَخَطِّ زَبورٍ في عسيبِ يمانِي

وقال أبو ذؤيب الهذلي:

عرَفتُ الديارَ كَرَقمِ الـدواة يزبِرُها الكاتـبُ الحميِري
بِرَقمٍ وَوَشى كَـمـا زُخرِفَت بِميشَمِها المُزدهاةُ الهَدي

وقد كان أبناء قيلة في يثرب وهم الأوس والخزرج يلقبون كل من يحسن القراءة والكتابة والرماية والعوم (السباحة)، بلقب الكامل وذلك تعظيمًا وتكريمًا له.

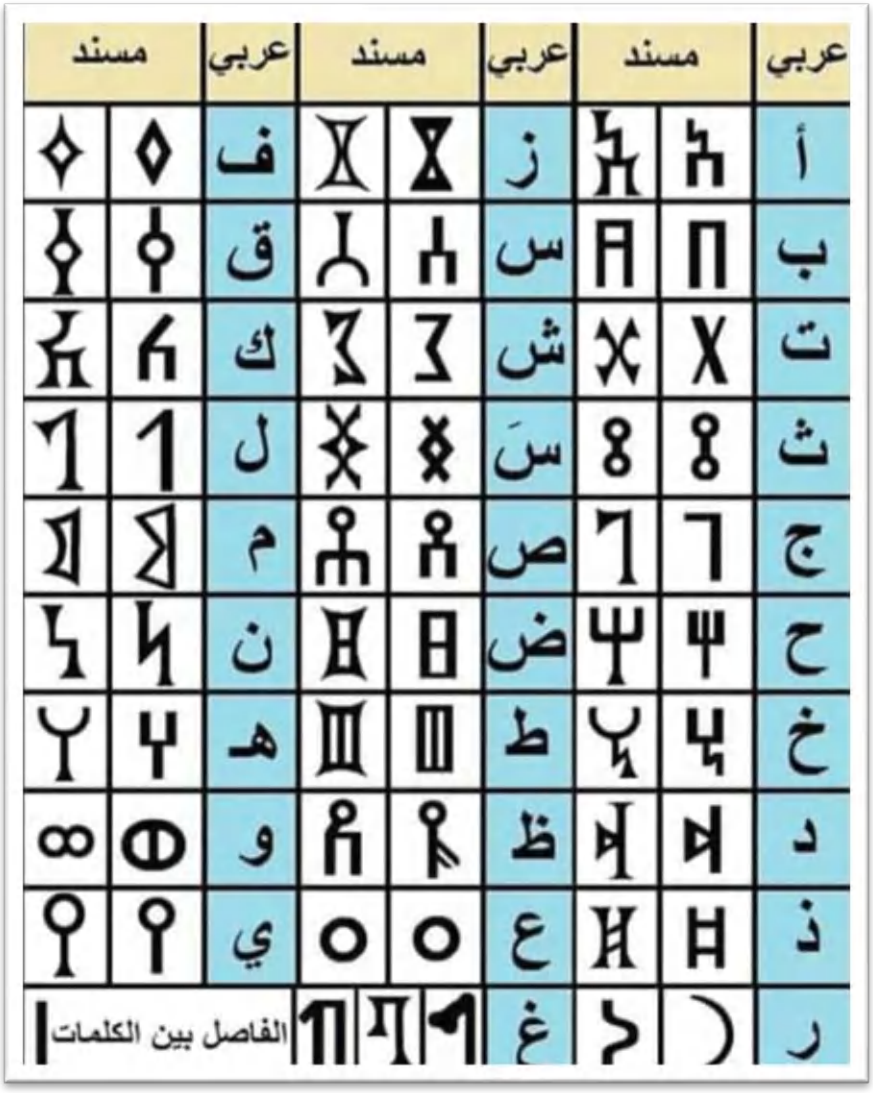
عربي مسند عربي مسند عربي مسند عربي مسند
أ ⵀ ⵣ ⵅ ⵖ ⵄ ⵟ ⵉ
ب ⵁ س ⵃ ⵗ ⵂ ⵍ ⵓ
ت ⵆ ش ⵇ ⵘ ⵎ ⵔ ⵕ
ث ⵈ سَ ⵏ ⵙ ⵚ ⵖ ⵛ
ج ⵊ ص ⵜ ⵝ ⵞ ⵟ ⵠ
ح ⵋ ض ⵡ ⵢ ⵣ ⵤ ⵥ
خ ⵌ ط ⵦ ⵧ ⵨ ⵩ ⵪
د ⵍ ظ ⵫ ⵬ ⵭ ⵮ ⵯ
ذ ⵎ ع ⵰ ⵱ ⵲ ⵳ ⵴
ر ⵏ غ ⵵ ⵶ ⵷ ⵸ ⵹
ف ⵺ ق ⵻ ك ⵼ ل ⵽
م ⵾ ن ⵿ ه ⶀ و ⶁ
ي ⶂ الفاصل بين الكلمات ⶃ ⶄ ⶅ ⶆ

البناء والتعمير

بناء وتشييد المدن

اشتهر اليمانيون القدماء عبر تاريخهم بالبناء والتعمير وما زالت هذه الصفة الرائعة سائدة فيهم حتى اليوم وميزة من مميزاتهم، قال تعالى في قوم عاد: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (الشعراء ١٢٨-١٢٩).

ولقد بنى اليمانيون المدن العظيمة وعمروها وتفننوا في تخطيطها واختيار مواقعها وانشأوا لها الأسوار لحمايتها، وقد ظهرت في بلادهم أجمل المدن وأكثرها ذكرًا عبر التاريخ. ولعل من أبرزها مدينة صنعاء، قال ابن خلدون "صنعاء قاعدة التبابعة قبل الإسلام، وأول مدينة اختطت باليمن"[١]. وقال الهمداني: "صنعاء أقدم مدن الأرض لأن سام بن نوح هو الذي أسسها[٢]، وقيل بأنها سميت أزال نسبة إلى أزال بن سام بن نوح وقيل أزال بن قحطان، قال الشاعر:

أرض تخيرها سام وأوطنها وأس غمدان فيها بعدما احتفرا
أم العيون فلا عين تقدّمها ولا علا حجرٌ من قبلها حجرا

واخبار بناء صنعاء كثيرة جدًا، ومذكورة في كتب التاريخ.

ومن أقدم المدن في بلاد اليمن، مدينة عدن ثغر اليمن الباسم التي عرفت واشتهرت باسم عدن أبين للتفريق بينها وبين "عدن لاعة". وعدن من أفضل المدن وأجملها وهي ذات موقع جغرافي

١ – تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص ٢٨٤.
٢ – صفة جزيرة العرب، ص٥٥.

قل نظيره في العالم وفيها أقدم اسواق العرب وفيها الميناء الشهير والقديم وهي من المدن الحصينة بطبيعتها قال شاعر حميري:

لي منـزلان بلحجٍ منـزلٌ وسطٌ
منـهـا ولي منزلٌ بالعُر من عدنِ
قومي بها ذو كـلاع في منازلـــها
وذو رعـيـن وهـمدان وذو يـزن

وفي عدن الطريق المنقورة في الجبل – نفق جبل حديد– التي كانت تمر منها القوافل التجارية، وفيها الصهاريج تحفة البناء المعماري اليمني القديم وعدن هي همزة الوصل بين مشارق الأرض ومغاربها نظرًا لموقعها الجغرافي المتميز، وقد ذكرها الشعراء والإخباريون قال الشاعر عمرو بن أبي ربيعة:

تقولُ عيسي، وقد وافيتُ مبتهِلًا
لمجَا، وبانتْ ذُرى الأعلام من عدنِ
أمُنتهى الأرضِ يا هذا تُريد بنا؟
فقلتُ: كلا، ولكنْ منتهى اليمنِ

ومن مدن اليمن القديمة -أيضًا- صرواح مأرب، وظفار يريم، وشبوة القديمة وهجر الناب وبراقش وغيرها. وفيما بعد أنشأ اليمانيون أقدم ناطحات سحاب في العالم وهي شبام حضرموت، تحفة البناء الهندسي اليمني والتي أسماها المؤرخون الجدد "مانهاتن الصحراء".

القلاع والحصون والقصور

من أهم وأجمل مظاهر الحضارة اليمنية بل ومن أبرزها وأشهرها، بناء وتشييد القلاع الحصينة والحصون والقصور الشاهقة، إذ أبدع اليمانيون في هذا الجانب، حتى لقد أشاع البعض أن هذه البنايات من عظمتها وروعتها هي من صنع وبناء الجن وليس البشر، قال الشاعر:

وقد كان أرباب الفصاحة كلما رأوا عجبًا عدّوه من صِنعة الجنِ

ومن أشهر قصور اليمن وأكثرها ذكرًا قصر غمدان الشهير الذي كان من عجائب الدنيا. ويقول وهب بن منبه إن "أول حجر وضعت على حجر بعد الكعبة، حرّان الجزيرة، وغمدان بصنعاء"[١].

وقد هدم قصر غمدان في عصور متأخرة قيل في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه وقيل في زمن الوليد بن عبدالملك. بينما، أغلب الظن، وكما يرى بعض المؤرخين أنه هدم في زمن يحيى الرسي، وأشاع أن من هدمه هم الأمويون أبناء عمومته لتأليب قلوب اليمنيين ضدهم، لأنه يعلم أن جريمة هدم قصر غمدان ستكون مؤثرة جدًّا على اليمنيين، كونه معلمًا حضاريًا ورمزًا مشهورًا لهم، ولم يكتفوا بذلك بل أشاعوا ونشروا خرافات تقول إن من يحاول إعادة بناء قصر غمدان سيموت مقتولًا!! ومن قلاع اليمن وقصورها المشهورة سلحين وبينون قال علقمة بن ذي جدن الحميري:

---

١ – انظر تاريخ مدينة صنعاء، أحمد بن عبد الله بن محمّد الرازي، ط٣، ص٧٨، تحقيق الدكتور حسين بن عبد الله العمري.

هَوْنك لَيسَ يرُد الدمْع مَا فَاتَا لا تَهْلِكِي أَسَفًا فِي إثْرِ مَنْ مَاتَا
أَبَعد بَينُونَ لا عيـنٌ ولا أَثَـرٌ أم بَعد سِلْحِينَ يبْنِي النَّاسُ أَبْياتَا

ومن حصون اليمن حصن ناعط العظيم الذي تعرض للخراب والدمار، قال الشاعر فيه وفي قصر تلفم:

ألم ترَ ناعطًا أمسى خرابًا وتلفم باد عامره فجابا

وفي قصر ذي لعوة الذي بناه الحميريون والسبأيون في قمة جبل تلفم الشاهق يقول علقمة:

وذا لعوة المشهور في رأس تلفمٍ آزال وكان الليث حامي الحقائقِ

وفي قصر أحور الذي لم يعد له أثر قال الشاعر المرّاني:

وقصر أحور أس القيل ذو يزنٍ وقصر فائش في إرياب قد كانا[1]

---

١ – أحور من أقدم المدن وأجملها على سواحل جنوب اليمن ويقع بالقرب منها ناحية الغرب ميناء مقاطين وإلى الشرق منها ميناء قنا التاريخي القديم وقد ذكرت أحور في النقوش المسندية القديمة في عهد ممالك سبأ ومعين وقتبان وحمير مركزاً رئيساً تمر به خطوط التجارة في ذلك الزمان وأحور منطقة زراعية خصبة وهي مجمع لكثير من الأودية الكبيرة، وتسكن أحور منذ القدم قبائل باكازم الدهماء وهم من يسمون بالعوالق السفلى واليها انتقلت عاصمة سلطنة العوالق السفلى بعد أن كانت في ضواحي مدينة المحفد، والمحفد مفرد محافد ومحافد اليمن كثيرة إلا أن محفد الكوزام بقي مشهورًا بهذا الاسم والمحافد هي الأماكن أو المناطق التي تقوم فيها الحضارات والتجمعات السكانية وهي أماكن التقاء الأودية وكانت محافد اليمن محل إقامة الأذواء والأقيال والملوك قال الشاعر المراني الهمداني:

محافد كانت للملوك محلة فلم تخف حينًا بالوعيط وقاسطا

ويقال للمحفد محفد حلم نسبة للجبل العظيم الذي يربض كالأسد إلى الشمال من مدينة المحفد ويطل عليها وهو رمز من رموزها ومعلم من معالمها قال الشاعر المراني الهمداني:

وقصر صلال والمكعّب ناعطًا وبيت كلابٍ والمساك وحلَّما

–وأحور والمحفد كما ذكرنا تسكنها قبائل باكازم وقد وصف الأكوع في حاشية صفة جزيرة العرب سكان تلك المناطق –أحور وما حولها – بأنهم قبائل شمس أشاوس. وأحور والمحفد اليوم مديريتان من مديريات محافظة أبين تمثلان ثلث مساحة المحافظة الجغرافية تقريبًا، وما يزال فيها مواقع أثرية هامة لم تدرس بعد.

وأخبار قصور اليمن وقلاعها وحصونها كثيرة مذكورة في كتب المؤرخين والإخباريين القدماء، لكنها مع الأسف قد تعرضت للنهب والخراب والتدمير مع مرور الزمان من قبل أعداء اليمن وتاريخه.

وقد استمر اليمانيون في تطوير الفن المعماري في مجال الحصون والقلاع والقصور وغيرها، وظهر ذلك جليًا عندما انساحت القبائل اليمانية خلال الفتوحات الإسلامية وانتشرت في البلدان المفتوحة فأينما حلّوا واستقروا بنوا الحصون الحصينة والقلاع المهيبة وعلى سبيل المثال لا الحصر، فما تزال قلاع وحصون همدان وخولان ويحصب وقنطرة السمح بن مالك وغيرها من المعالم الأثرية اليمانية شامخة إلى اليوم في أوروبا، شاهدة على عظمة من بنوها وخبرتهم وقوتهم.

السدود والصهاريج

كان اليمنيون القدماء من أقدم الشعوب التي ابتكرت أنظمة الري والزراعة فقد بنوا السدود والصهاريج وانتفعوا من مياه الأمطار والسيول، وقد كان ابتكارهم فكرة بناء السدود يعود إلى ما قبل الألف الخامس قبل الميلاد كما دلت التنقيبات الأثرية. ومن أقدم السدود التي جرى اكتشافها في بلاد اليمن سد النجاد، أما أعظمها وأكثرها ذكرًا في التاريخ وأطولها عمرًا، فهو سد مأرب العظيم الذي يعود زمن بداياته إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، وقد تعرض للتصدع وإعادة الترميم لعدة مرات.

وسدود اليمن كثيرة جدًّا، وإنما اشتهر القليل منها وتأثر الكثير منها واندثر بسبب الإهمال وعدم الاهتمام والصيانة، ومما يدل على كثرة السدود في بلاد اليمن، قول التبع أسعد الكامل:

ريدان قصري في ظفار ومنزلي
بها أسّس جدي دورنا والمناهلا
على الجنة الخضراء من أرض يحصب
ثمانون سدًّا تقذف الماء سائلا

ومن معالم الحضارة اليمنية القديمة بناء الصهاريج، وهي أحواض عملاقة لحفظ المياه والاستفادة منها وقد أبدع اليمنيون القدماء في هذا الفن المعماري الرائع. ومن أبرز هذه الصهاريج في بلاد اليمن صهاريج عدن، وهي احدى المعالم العتيقة التي تؤكد أن اليمنيين القدماء كانوا يبنون لحاضرهم ومستقبلهم عبر تسخير الطبيعية لخدمتهم جيلًا بعد جيل، كما أنها دليل واضح على فلسفة عقل الإنسان اليمني القديم وذكائه الحاد، وتقع صهاريج عدن

بالقرب من حي الطويلة في أعلى مصبات الوادي غرب مدينة عدن، وقد بنيت بشكل هندسي رائع قلَّ نظيره في العالم القديم، وما تزال شامخة إلى اليوم تروي لنا بصمة عظمة الأمة اليمنية القديمة وتاريخها ومجدها وحضارتها

الديانة

لقد كان الدين يمثل محورًا هامًا في حياة اليمنيين القدماء الذين ربطوا معظم مجريات حياتهم بالإله المعبود، وقد ظهر ذلك جليًا في المعابد التي بنوها وشيدوها لإقامة شعائرهم الدينية التعبدية والتي ما تزال آثار البعض منها شامخةً حتى اليوم.

ومما لا شك فيه أن اليمانيين القدماء من أقدم الأمم التي عرفت الوحدانية ودانت لله سبحانه وتعالى بها، فمنهم وفيهم خرج عدد من الأنبياء والرسل بعد نبي الله نوح عليه السلام، فهم ورثة الإسلام والتوحيد بعد نوح عليه السلام، فقد بعث فيهم نبي الله هود عليه السلام الذي أرسله الله سبحانه وتعالى إلى قومه عاد في بلاد الأحقاف، وقد خرج من بعد هود عليه السلام في الأمة اليمانية والقحطانية عدد من الأنبياء والرسل، يدعون إلى وحدانية الله سبحانه وعبادته. قال شاعر اليمانية حسان بن ثابت الأنصاري:

فَنَحنُ بَنو قَحطانُ وَالمُلكُ وَالعلا وَمِنّا نَبِي اللَهِ هود الأخاير
وَإِدريسُ ما إِن كانَ فِي الناسِ مِثلُهُ وَلا مِثلَ ذي القَرنَينِ أَبنارِ عابِرِ
وَصالِحُ وَالمَرحومُ يونُسُ بَعدما أَلآتَ بِهِ حوتٌ بِأَخلَبَ زاخِرِ
شُعيبٌ وَإِلياسُ وَذو الكَفلِ كُلُّهُم يمانونَ قَد فازوا بِطيبِ السَرائِرِ

وقد ذكر بعض المفسرين أن نبي الله إبراهيم -عليه السلام- عندما أمره الله سبحانه ببناء الكعبة ودعوة الناس إلى الحج، كما جاء في قوله تعالى ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾(الحج ٢٧). كان أول من استجاب لدعوته بالحج هم أهل اليمن.

كما يذهب بعض الباحثين والمؤرخين إلى أبعد من ذلك؛ حيث يرون بأن إبراهيم عليه السلام يمانيٌ قحطانيٌ من الكلدانيين وليس عبريًا أعجميًا كما يروج معظم الإخباريين، فلو كان نبي الله إبراهيم أعجميًا، إذن فإن لرسول الله محمد -عليه الصلاة والسلام- أصولًا أعجمية فهو من نسل إسماعيل بن إبراهيم!! وهذه من الأخطاء التاريخية التي وقع فيها بعض الإخباريين والرواة، فرسول الله -صلى الله عليه وسلم- عربي وجده إبراهيم عربي وليس له أصول أعجمية، وربما هاجر إبراهيم عليه السلام من بلاده واستقر لمدة طويلة في بلاد أخرى تغيرت فيها لغته ولهجته إلى غير العربية، أما النسب والانتماء فلم يتغيرا والله أعلم.

ومن الدلائل التاريخية الواضحة على أن أهل اليمن القدماء قد دانوا بالوحدانية، ما جاء في كتاب الله الكريم، في قصة إسلام ملكة سبأ على يد سليمان عليه السلام، وبالتأكيد فقد أسلم معها قومها ودانوا لله بالوحدانية، قال تعالى ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (النمل: ٤٤).

ولطالما تحدثت النقوش المسندية اليمانية القديمة عن الرحمن (ذو سماوي 𐩣𐩵 𐩲𐩧𐩬𐩵) -وهو الله سبحانه- وعن طاعته والتقرب إليه، في كثير من الشعائر. وهذا لا يعني أن اليمانيين القدماء قد استمروا على وحدانية الله طوال تلك الحقب الزمنية كلها، بل إنه قد تخللتها فترات من الجهل، سادت خلالها في بلادهم الشركيات وعبادة النجوم، قال تعالى مخبراً عن الهدهد وقد رأى قوماً من سبأ يعبدون الشمس ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾

(النمل: ٢٤)، ولكن المؤكد أنهم من أسرع الأمم رجوعًا للحق واتباعه إذا ظهر جليًا أمامهم.

ولهذا فإن اليمانيين القدماء من أقدم الشعوب التي بنت المعابد وبيوت العبادة والأماكن المقدسة وسنوا الشعائر التعبدية، وقد نقلت منهم ذلك عدد من الحضارات، كما كان المصريون القدماء يطلقون على اليمن بلاد بونت وتعني الأرض المقدسة.

إلى جانب ذلك، فقد كان لليمنيين القدماء شعائر وطقوس خاصة تشبه شعائر الحج والعمرة اليوم ومنها التطهر والطواف سبعًا في معبد أوام الكبير ثم تقديم القرابين والأضاحي، وغالبًا ما تكون من الحيوانات المفضلة، كما كانت لهم أفراح دينية ومناسبات وكانوا يتوجهون للإله بالتقرب والتعبد إذا ما انقطع عنهم المطر، ويقتلون القاتل ويمنعون وأد البنات ويحفظون حق المرأة. وكل ما ذكرناه موجود وموثق في النقوش والأثار التي تركها اليمنيون القدماء وعُثر عليها فيما بعد، وكلها أفعال أقر الإسلام الحنيف تثبيتها والعمل بها وتهذيب البعض منها.

وعندما بُعث النبي صلى الله وعليه وسلم، كانت ما تزال في بلاد اليمن بقية من الديانات التوحيدية، لكن الكثير من الأخطاء والتحريفات شابتها، ومما يدل على ذلك قول النبي -صلى الله عليه وسلم-، لرسوله معاذ: "إنك ستأتي قومًا أهل كتاب، فإذا جئتَهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتُرَد على فقرائهم،

فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائمَ أموالهم، واتقِ دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينه وبين الله حجابٌ"[1].

ولم يقل له إنك ستأتي قومًا أهل وثنية وشرك، فأهل اليمن أهل ديانة وتوحيد منذ القدم، وهذا ما تشهد به الكتب السماوية والمعابد والنقوش التي تركوها، وليس كما يروج له بعض الإخباريين التالفين ومن سار على نهجهم بأن أهل اليمن لم يعرفوا الإسلام إلا بعد البعثة وبعد أن جاءتهم رسالة النبي محمد مع معاذ بن جبل!!

١ – حديث صحيح، أخرجه البخاري، عن عبدالله بن عباس، رضي الله عنهما، وصححه الألباني

علوم الطب والتحنيط

من أهم العلوم الإنسانية التي برع فيها اليمنيون القدماء علم الطب حيث دلت النقوش والأثار على أنهم قد استخدموا هذا العلم على نطاق واسع وأنهم قد سبقوا غيرهم في كثير من تفاصيل هذا العلم. إذ كان هناك أطباء متخصصون في العلاج والمداواة وعلى قدر كبير من الخبرة والدراية وقد كانوا على علم واسع بأجزاء جسم الإنسان وأعضائه المختلفة، وقد كانوا يستخدمون الأعشاب في علاج الكثير من الأمراض في ذلك الحين.

ومن الاكتشافات العلمية الطبية التي سبق اليمانيون القدماء غيرهم من الأمم في استخدامها، فن التحنيط للجثث وذلك باستخدام مواد عطرية وعشبية وقد كانوا يحيطون طريقة تحنيط الموتى بنوع من السرية التامة.

وقد استمر اليمانيون في المحافظة على علم الطب وتطويره وتوارثوه جيلا بعد جيل، فعندما ظهر النبي -عليه الصلاة والسلام- في مكة كان أول طبيب يؤمن برسالته هو ضماد بن ثعلبة الأزدي اليماني، ويكون هذا الطبيب الشهير في زمانه هو أول طبيب في الإسلام رضي الله عنه وأرضاه.

وإجمالًا.. لم تتميز حضارة بلاد اليمن عن غيرها من الحضارات الإنسانية بالرقي الحضاري على مستوى البناء والتعمير وابتكار انظمة الري فحسب؛ بل إن السمو الروحي والأخلاقي في اليمن وأهلها يعدُ أعظم من كل الميزات الأخرى، فمنذ الأزل وعبر تاريخ البشرية القديم، وُصِف ساكنو جنوب جزيرة العرب – اليمن –

بأوصاف قلمّا وصف بها غيرهم من الشعوب والأمم، فهم أهل الحكم والشورى والبأس والقوة والذكاء والفطنة والتواضع والبساطة، أهل التجارة والكرم والمروءة. وحتى في المصادر السماوية الدينية كالتوراة والإنجيل والقرآن، إشارات وقرائن واضحة على أن أهل اليمن القدماء كانوا حكماء وأقوياء وأصحاب ارض طيبة.

وعلى سبيل المثال فقد ذكر في كتاب – العهد القديم (التوراة) – وفي سفر أيوب بالتحديد عدد من الاسماء اليمانية ووصفوا أنهم أهل حكمة ومن بلاد الحكمة وكانت تذكر بلفظ – يمنات – أو بلاد التيمن. وذكر في الإنجيل –إنجيل (متَّى)– على لسان المسيح عليه السلام في معرض رده على قومه، أن ملكة سبأ قد عرضت الحكمة على سليمان عليه السلام بينما لم تقبلوا بها أنتم.

ثم جاء خاتم الأنبياء والمرسلين –علية الصلاة والسلام– وهو الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، ليقولها علنًا وبكل وضوح بأن الإيمان يمان والحكمة يمانية، إضافة إلى ما ذكر في القرآن من سور كاملة عن مناطق في اليمن، وذكر أخبارهم وما كانوا عليه من الشورى في الحكم والباس والقوة وأن بلادهم كانت أرض الجنتين.

أما المصادر الكلاسيكية القديمة للرومان واليونان فقد اهتمت اهتمامًا بالغًا بذكر بلاد اليمن ووصفها ووصف سكانها، وقد أطلقوا عليها –العربية السعيدة– ووصفوا أهلها بأنهم أهل صناعة وتجارة وحرفة واهل عدد وعدة وبأس ونجدة، وقد انذهل بعض مؤرخيهم القدماء عندما زاروا بلاد اليمن ورأوا ما فيها من حضارة ورقي.

ختامًا.. فإنني أناشد وأهيب بكل يمانٍ غيور على هويته وتاريخه وحضارته أن يهتم بتاريخ أسلافه وتراث آبائه وأجداده العظماء؛ الذين أسهموا اسهامًا عظيمًا في تاريخ الأمة العربية والإسلامية بل وفي تاريخ البشرية جمعاء.

وعلى الجميع أن يعمل جاهدًا على إحياء ذلك الإرث الحضاري الشامخ وإظهاره بوجهه المشرق الناصع الذي كان عليه، فنحن في حاجة قصوى لإحياء هويتنا وإعادة لملمة وبناء تاريخنا الحضاري العظيم. كما أننا في حاجة إلى تطهير عقول أجيالنا من الشوائب التي علقت بها وإزالة الموروث التاريخي الخاطئ الذي زرع فيها من قبل أعداء اليمن، فلا بد من إنقاذ ما تبقى من تاريخنا وحضارتنا لنبقي شيئًا حضاريًا ملموسًا لأحفادنا وابنائنا، فنحن على ثقة بالله سبحانه ثم برجال اليمانية العظماء احفاد التبابعة والأقيال والأذواء أن هذه الأمة وهذا البلد سيعود إلى الصدارة ومقدمة الركب الحضاري؛ وأن نجمنا الذي افل قليلا سيعود بإذن الله، إلى السطوع وهذا ما نراه ونلمسه من الصحوة المباركة التي بدأت معالمها تظهر وتسطع.

لا تَحسب الأرضَ عن إنجابِها عقِرت مِن كلِّ صخرٍ سيأتي لِلفِدا جَبَلُ
فالغصنُ ينبتُ غصناً حين نَقطعه والليلُ يُنجِبُ صبحاً حين يكتملُ
ستمطر الأرضُ يوماً رغم شِحّتها ومِن بطونِ المآسي يولَد الأملُ[1]

١ – الشاعر أنس الحجري.

الفصل الأول

مقدمة الفصل الأول

لابد لكل حضارة من صانع، وبما أن الرقعة الجغرافية في جنوب جزيرة العرب –اليمن– قد شهدت ظهور أقدم الحضارات الإنسانية، فبكل تأكيد أن وراء ظهورها وتشييدها رجال عظماء ونساء ماجدات أسهموا إسهامًا عظيمًا وبجهود جبارة في تأسيس معالم حضارة عريقة، صدَّرت الحضارات إلى أجزاء واسعة من المعمورة وما تزال أثارها شامخة إلى اليوم، سواءً في بلاد اليمن أو البلدان التي هاجروا إليها ناقلين ثقافتهم ومعالم وأسس حضارتهم معهم أينما حلّوا وارتحلوا.

ومن المؤسف حقًا أن معظم حلقات التاريخ اليمني القديم وصانعيه العظماء ما تزال مفقودة أو شبه مفقودة، وما وصل إلينا من أخبار أولئك العمالقة من تبابعة ومكاربة وأقيال وأذواء وملكات وأميرات ماجدات، تعدُ شحيحة جدًّا لا تتجاوز نسبتها الثلاثين بالمائة، وما عرف من معلومات عن العدد القليل منهم، قد أخذ بعضه من مصادر الكتب السماوية أو من بعض النقوش الأثرية أو من الروائيين والإخباريين العرب القدماء.

والحقيقة أن هناك فجوة تاريخية واسعة في التاريخ اليمني القديم لم تدرس حتى الآن دراسة كافية، وهذه الفترة هي الفترة الممتدة من نهاية الألف السابع قبل الميلاد وصولا إلى أواخر الألف الثاني قبل

الميلاد وظهور عدد من ممالك اليمن المتأخرة كحضرموت ومعين وقتبان وأوسان وسباء وحمير وغيرها[1].

ومع ذلك فقد بذل عدد من مؤرخي اليمن جهودًا كبيرة في تدوين وذكر عدد لا بأس به من تبابعة وأقيال وأذواء ومكاربة وأعلام اليمانية القدماء، ومن هؤلاء المؤرخين الحسن الهمداني ونشوان بن سعيد الحميري. والغريب أن بعض الباحثين المتأخرين يشككون في معظم ما قاله الهمداني ونشوان الحميري عن تاريخ اليمن القديم، مع أن ما قالوه في مجمله يتطابق مع ما وجد من آثار ونقوش ودلائل علمية وأثرية، على أن مؤلفات هؤلاء المؤرخين العظماء تعرضت هي الأخرى، للطمس والتحريف، ولم يسلم منها إلا العدد القليل وتأتي محاربتها ومحاولة تشويهها في إطار حرب الهوية التي يشنها أعداء اليمن وحضارته وتاريخه من أدعياء الإمامة والوصاية وأتباعهم.

* * *

بعد أن انهارت مملكة حمير آخر الممالك اليمنية بقيت الجغرافيا اليمنية تحت حكم ونفوذ عدد من الأقيال والأذواء وظلت كذلك حتى ظهر النبي -عليه الصلاة والسلام-، وكاتَبَ مشاهير الأقيال والأذواء اليمنيين فأسلموا، وكان لبعضهم بصمات هامة فيما بعد في التاريخ الإسلامي.

١ – من المؤسف أن التاريخ المعتمد في مناهجنا الدراسية اليوم عن الحضارة اليمنية يبدأ في مرحلة تفتت هذه الحضارة وتفرقها إلى ممالك ودول عديدة، ويتجاهل بوضوح بداية نشوء الحضارة في جنوب جزيرة العرب وتأسيسها.

والأذواء والأقيال مسميات يمنية خالصة فذو تعني صاحب "ذو ريدان" أي صاحب ريدان "ذو القرنين" أي صاحب القرنين "ذو رعين" أي صاحب رعين وغيرها والأذواء هم أصحاب القلاع والحصون وزعماء القبائل.

أما لفظ قيل فيطلق على الزعماء والقادة والوجهاء حكام المناطق الواسعة، ويرى البعض بأن لقب قيل هو مسمى وظيفي ويطلق على القادة الكبار بمرتبة الوزير في الدولة وهي درجة ثانية بعد الملك، وقد ضربت الأمثال بالأقيال وما كانوا عليه من الشجاعة والسياسة والنفوذ والسلطان والجاه وتغنى بذكرهم الشعراء. قال ابو جهل بن هشام:

يظل يغض الطرف حتى كأنهُ من العز قيل من مقاول حميرِ

وقال امرؤ القيس بن حجر الكندي:

وَماذا علَيهِ إن ذَكَرتُ أَوانِسًا كَغزلان رَملٍ في مَحاريبِ أَقيالِ

ولم يكن هذا اللقب يقتصر على عظمة الرجال فقط؛ بل يطلق على بعض النساء من ذوات النسب والحسب والمنزلة الرفيعة، فها هي أم أنصار الرسالة الأوس والخزرج اشتهرت بهذا الاسم قيلة بنت الأرقم، واشتهر أبناؤها عبر تاريخهم بأبناء قيلة، ولطالما خاطبهم رسول الله صلى الله وعليه وسلم بهذا اللقب المحبب إلى قلوبهم.

وقد استمر هذا اللقب التاريخي مرتبطًا بأهل اليمن حتى بعد البعثة بمدة طويلة ولم يشاركهم غيرهم فيه، قال دعبل بن علي الخزاعي:

مَنازِلُ الحَي مِن غُمدانَ فَالنَضَد
فـمأرِبٍ فَـظَـفـارِ المُلكِ فَالجَنَد
أَرضُ التَبابِعِ وَالأقيالِ مِن يمنٍ
أهلِ الجِيادِ وَأَهلِ البَيضِ وَالزَرَد
ما قَريةً دخَلوا إلا وَقَد كَتَبوا
بِها كِتابًا فَلَم يـدرُس وَلَـم يـبـدِ
بِالقَيروَانِ وَبابِ الصينِ قَد زَبَروا
وَبابِ مَروٍ وَبابِ الهِند وَالصُغد

وقال الشاعر المتنبي يخاطب أمير منبج الطائي بالشام:

أَلا أَيها القَـيلُ المُقيـمُ بِـمنبجٍ وَهِمَّتُهُ فَوقَ السِماكَينِ توضِعُ
أَلَيسَ عجيبًا أَنَّ وَصفَكَ مُعجِزٌ وَأَنَّ ظُنوني في مَعاليكَ تَظلَعُ

وقد طمس هذا اللقب واختفى لمدة طويلة من بلاد اليمن كما غيره الكثير من التاريخ اليمني العريق وذلك بسبب حرب الهوية التي شنت على تاريخ هذا الشعب إلا أننا اليوم عازمون على إحيائه وبقوة وإعادة مجدنا التليد وهويتنا المسلوبة.

أينما حل اليمانيون فهم يتركون أثرًا حضاريًا على البلاد التي يستقرون فيها وينقلون أسس ومعالم حضارتهم وثقافتهم معهم ويطبقونها على أرض الواقع خارج جغرافيا اليمن المعروفة اليوم وحقائق التاريخ شاهدة على ذلك، فمنذ ما قبل البعثة المحمدية كانت معظم جغرافيا الجزيرة العربية – بعد انهيار مملكة حمير في جنوب

الجزيرة – تحت هيمنة وقيادة وزعامة ثلاث قبائل يمانية عريقة هاجرت هذه القبائل من بلاد اليمن في فترات متفاوتة ونظرًا لخبرتها في شؤون الحكم والإدارة فقد أقامت ممالك عريقة في المناطق التي قطنتها، وقد اشتهر ذكر هذه الممالك في التاريخ وامتد نفوذها ليشمل مناطق واسعة، ومنها مملكة كندة ومملكة المناذرة ومملكة الغساسنة، ولا ننسى قبلهم قبائل بني ضجعم وبني سليح القضاعيتين الذين أنشأوا إمارات في الشام قبل أن يهيمن عليهم بنو غسان.

وفيما عرف بالعصر الجاهلي فقد كان لليمانيين، على مستوى الأفراد، حضور بارز في تاريخ تلك الحقبة وكانوا كنار على علم، وتضرب برجالهم ونسائهم الأمثال، لبروزهم وشهرتهم وتمتعهم بأسمى الصفات التي يفتخر بها العربي، ففي الكرم قالوا في حاتم طيء اليمانية أكرم من حاتم، وفي الوفاء قالوا في السموأل الأزدي، أوفى من السموأل، وفي الشعر قالوا في امرى القيس –شاعر العرب، وفي الفروسية والإقدام قالوا في عمرو بن معدي كرب فارس ولا كعمرو، ولقبوه بفارس العرب، وكذلك في كثير من الصفات النبيلة الأخرى تجد اليمانيين مضرب مثل فيها، وهذا لا يعني أن العرب العدنانية لا يمتلكون شيئًا من هذه الصفات بل هم على قدر كبير منها.

وأختصر ذلك بشهادة الفاروق عمر بن الخطاب عندما سأل جمعاً من أصحابه: من أكرم العرب؟ قالوا حاتم الطائي قال: فمن شاعرها؟ قالوا امرؤ القيس بن حجر الكندي، قال: فمن فارسها؟ قالوا عمرو بن معد يكرب الزبيدي، قال: فمن أمضى سيوفًا؟ قالوا سيوف أهل اليمن، فقال عمر: انهضوا فقد ذهبت اليمن بالفخر.

الحارث الرائش

أول التبابعة

أول التبابعة وأقدمهم الملك المتوج الحارث بن الهمال بن ذي سدد بن الملطاط بن عمرو بن ذي يقدم بن الصوار بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن جيدان بن قطن بن عريب بن زهير بن الهميسع بن حمير[1] بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

اختلف المؤرخون في نسبه إلا أنهم مجمعون على أنه من بني الصوار بن عبد شمس الحميريين، وقد اشتهر بالرائش، كما قال ابن خلدون؛ لأنه راش الناس بالعطاء، وهو أول التبابعة، وهو غير الملك الرائش الأصغر باران ذي رياش، قال الهمداني:

ومنا الرائشان وذو رعينٍ ومن طحن البلاد لأن تدينا[2]

---

(١) حمير بن سبأ: هو الجد الجامع للقبائل الحميرية، وهو أخو كهلان بن سبأ، وبني حمير شعب عظيم، وهم أهل الملك والتيجان ملوك العرب، وذروة مجدها وفخرها، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "كنت جالسًا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء رجل، فقال: يا رسول الله العن حمير، فقال عليه الصلاة والسلام: حمير أفواههم سلام، وأيديهم طعام، أهل أمن وإيمان" (مسند أحمد والترمذي). ومن حمير تفرعت القبائل الحميرية الشهيرة، وانتشرت في أصقاع الأرض، وبنوا الممالك والدول، وانشأوا الحضارات، ولهم بقية عظيمة داخل اليمن، وخارجها، قال نشوان بن سعيد الحميري:

أفخر على من شئت إلا حميرًا فدع الفخار لأهلهِ من حميرِ

(٢) وباران ذو رياش هو الذي قال فيه امرؤ القيس الكندي:

أزال من المصانع ذو رياشٍ وقد ملك السهول مع الحزونا

لا شك أن ملوك اليمن القدماء كثيرون، ولكن لم يحصل على لقب تبع[1] سوى سبعين منهم، قال النعمان بن بشير الأنصاري:

لنا من بني قحطان سبعون تبعا أدانت لهم بالخرج منها الأعاجمُ

وقد اختلف المؤرخون العرب في معنى لفظ (تُبّع)، فقال السهيلي: هو الملك المُتُّبع، وقال صاحب المحكم: التبابعة هم ملوك اليمن، وأحدهم تبع؛ لأنهم يتبع بعضهم بعضًا، كلما هلك أحدهم قام آخر بعده، وسار سيرته، وقال الزمخشري: قيل لملوك اليمن تبابعة؛ لأنهم يُتَّبعون، وقال الهمداني: أما تُبَّع، فاشتقت من كثرة الأتباع، وقيل لا يسمى تبعا حتى يملك حضرموت، وسبأ، وحمير، أو اليمن من مشارقها إلى مغاربها.

وقد كان الحارث الرائش أول من تلقب بهذا اللقب، فقد دانت له البلاد كلها شرقها وغربها، وكان ملكًا عادلًا مطاعا مؤمنًا فيما قال السهيلي، وكان يلقب "أمنفيس" ومعناها المؤمن بالإله إيس إله الشمس.

كان ممن عاصر عهد التبع الرائش من الملوك المصريين (تحوتمس الثالث ١٤٣٢-١٤٧٠) قبل الميلاد، وقد كانت بين المصريين في تلك الفترة علاقات صداقة مع بلاد اليمن التي كانوا يطلقون عليها (بلاد بونت تانتر إيس)، أي أرض الإله إيس إله الشمس، وقد عثر على نقوش وآثار مصرية تثبت تلك العلاقة بين المصريين وبلاد بونت، اليمن.

(١) وفي تفسير قوله تعالى: (أهم خير أم قوم تُبّع) (الدخان:٣٧) قال القرطبي في معرض تفسيره: وقد افتخر أهل اليمن بهذه الآية؛ إذ جعل الله قوم تبع خير من قريش. التفسير الجامع لأحكام القرآن.

قاد التبع الحارث الرائش فتوحات وغزوات باتجاه فارس، وآشور، وبابل، والشام، وقد ذكر الهمداني أنه وصل إلى بلاد الهند، والسند، قال نشوان الحميري:

والحارث الملك المسمى رائشًا إذ راش من قحطان كل جناح
وحباهم بغنائم الفرس التي فاضت على الجندي والفلاح
وغزا الأعاجم فاستباح بلادهم ملك حِماهُ كان غير مُباح
والترك كانت قد أذلت فارسًا لم يستروا من شرهم بوجاح
فشكوا إليه فزارهم بمقانبٍ فيها صراح ينتمي لصراح

وقد دلت القرائن التاريخية على ما قاله المؤرخون العرب عن فتوحات التبع الحارث الرائش، فبعد أن قام الترك – الحيثيون – بغزو سوريا، وبابل بمساعدة بعض الفرس، ودانت لهم تلك البلاد بالطاعة، وقعت هجرة الآراميين من جنوب جزيرة العرب حوالى (١٤٥٠ق.م) بأعداد ضخمة، فاجتاحوا بابل، وآشور، ثم سوريا.

ويرجّح بعض الباحثين والمؤرخين باحتمالية قيام دولة كبرى في جنوب جزيرة العرب[1]، وهو ما يؤكد كلام المؤرخين العرب عن غزوات وفتوحات التبع الحارث الرائش الذي كان ملكًا في تلك الفترة على بلاد اليمن.

وبعد تلك الغزوات والفتوحات قال الهمداني: قفل الحارث الرائش راجعا إلى غمدان، فلما استقر فيه، وأدركه الموت، دعا ابنه

(١) الأمم السامية، حامد عبدالقادر، ص١٠٤.

شمر ذو الجناح الذي كان قد أشركه معه في الحكم في حياته، ثم توفي هناك في غمدان.

وكانت وفاته حوالي عام (١٥٠٨ق.م)، والله أعلم[١].

(١) الجديد في تاريخ سبأ وحمير، محمد حسين الفرح، ج١، ص١٣٣.

ذو القرنين

قال تعالى في سورة الكهف:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ (الآيات من ٨٣ إلى ٩٨).

ذو القرنين: الملك العادل، التقي الصالح، صاحب سد يأجوج ومأجوج العظيم، التُبّع الصعب بن ذي مراثد الحميري، والذي اشتهر بلقب "ذي القرنين".

اختلف المؤرخون في سبب تسميته بذي القرنين على أقوال عديدة؛ قيل: لأنه بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وقيل إنه كانت له ضفيرتان من الشَّعَر – والضفائر تسمى قرون –، وقيل إن له قرنين تحت عمامته، والله أعلم.

حاول بعض المؤرخين التشكيك في هوية الملك الصالح ذي القرنين العربية على وجه العموم، واليمانية على وجه الخصوص، وذهب بعضهم إلى المقولة أنه الإسكندر ابن فيليب المقدوني، بينما كل الدلائل التاريخية والدينية، والعلمية، والتراثية تثبت بوضوح بطلان وزيف هذه الادعاءات، وتؤكد بما لا يدع مجالًا للشك أن الملك الصالح ذا القرنين ملك متوج من ملوك اليمن القدماء، وأحد تبابعتها العظام.

سئِل ابن عباس رضي الله عنه عن ذي القرنين، فقال: "هو الصعب بن ذي مراثد من حمير، وهو الذي مكن الله له في الأرض، وآتاه من كل شيء سببًا"[1]، وقال كعب الأحبار[2] رضي الله عنه عندما سئل عن ذي القرنين: "الصحيح عندنا من علوم أحبارنا وأسلافنا أنه من حمير، وأنه الصعب بن ذي مراثد"، وقال ابن كثير – رحمه الله –: "هو الصعب بن عبدالله من حمير".

وذكر ابن هشام في كتابه "التيجان" أنه ملك من ملوك حمير.

---

١ – راجع التيجان في ملوك حمير، عبدالملك بن هشام، ص١١٩.

٢ – المصدر نفسه، ص١٢٠.

ويرى بعض النسابة أنه الصعب بن ذي مراثد بن الحارث الرائش بن الهمّال، وينتهي نسبه إلى حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

كما ذكر ذلك أبو الريحان البيروني في كتابه الآثار الباقية عن القرون الخالية، وذكر ذلك نشوان الحميري في كتابه "شمس العلوم"، وكذلك في كتابه خلاصة السير الجامعة لعجائب أخبار الملوك التبابعة.

وقال المقريزي في الخطط: "إن التحقيق من علماء الأخبار أن ذا القرنين الذي ذكره الله في كتابه العزيز عربي، واسمه الصعب بن ذي مراثد بن الحارث الرائش بن الهمال، ملك من ملوك حمير في اليمن"، وقال أيضًا في سياق كلامه: "وقد أخطأ من ظن أن الإسكندر بن فيليب هو ذو القرنين، فإن لفظ ذو القرنين من ألقاب ملوك اليمن، وذاك يوناني، وسيرته معروفة".

وقد ذكر ذلك أيضًا الإمام الصابوني، وعدد آخر من علماء التاريخ العربي والإسلامي، ومنهم الهمداني، كما أن كلمة ذا عربية معروفة، وتعني صاحب، وتنتشر في عرب الجنوب "اليمن" أكثر من غيرهم، فكيف للإسكندر المقدوني أن يتسمى باسم أو لقب عربي، والعربية ليست لغته، وهذه الكلمة بالتحديد تميز بها ملوك اليمن دون غيرهم، ولم يذكر أنها قيلت لأي ملك آخر غربي أو شرقي.

الملك الصالح ذو القرنين يدين بالوحدانية لله -سبحانه- من دون أدنى شك، وقد ذهب البعض إلى القول بأنه نبي من الأنبياء، بينما الإسكندر المقدوني الذي تلاه بزمن طويل وثني إغريقي، وهو من تلاميذ أرسطاليس أو "أرسطو"، كما هو ثابت في الكثير من مصادر

التاريخ، كما أن المقدوني لم يعمّر طويلًا، حيث مات وعمره حوالي ثلاثين سنة، وسيرته معروفة. والجدير بالذكر أن المادة والطريقة التي بُني بها سد يأجوج ومأجوج، وهي قطران الحديد وإذابته كانت تستخدم في بلاد اليمن، وقد أظهرت الدراسات الأثرية أن معظم السدود في اليمن، ومنها سد مأرب العظيم، بُنيت بإذابة اسطوانات الحديد والنحاس؛ لتلحيم الصخر، وكذلك مادة الرصاص.

يقول الله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾ (الكهف ٨٦). ومدلول الآية يشير ويقضي أن رحلة ذي القرنين كانت من المشرق حتى بلغت الغرب، وهذا دليل واضح على يمانيته؛ لأن اليمن شرقية، بينما الإسكندر المقدوني غربي.

أما نظرية العالم "أبي الكلام آزاد" بأن ذا القرنين هو الملك الفارسي الأخميني كورش الكبير، فسرعان ما ثبت بطلانها وفُضحت، فقد تم العثور على اسطوانة كبيرة للملك الفارسي كورش بنفسه، كُتب فيها بأمره، المدح، والثناء، والتمجيد لصنم بابل الكبير "مردوك"، وأصنام أخرى "كبعل"، و"نبو"، ويقول فيه أيضًا إنها قد فتحت بابل بمباركة مردوك الأكبر، ولا يمكن، بل من المستحيل بعبد مؤمن، وملك صالح كذي القرنين أن يمدح ويمجد الأصنام، وهذا دليل على بطلان هذه النظرية.

أما في التراث العربي، فها هم شعراء العرب اليمانية منذُ القدم يتفاخرون بانتماء الملك ذي القرنين لليمن، دون أن يعترض أو يرد على مفاخرتهم به أحد، قال شاعر حميري:

قد كان ذو القرنين جدي مسلمًا ملكًا تدين له الملوك وتحشدِ
بلغ المشارق والمغارب يبتغي أسباب أمرٍ من حكيم مرشدِ
فرأى مغيب الشمس عند غروبها في عين ذي خلبٍ وثأطٍ حرمدِ

وقد رثاه شاعر العرب امرؤ القيس بن حجر الكندي قائلًا:

ألم يحزنك أن الدهر غولٌ ختور العهد يلتهم الرجالا
أزال عن المصانع ذا رياشٍ وقد ملك السهول مع الجبالا
همامٌ طحطح الآفاق وجيا وقاد إلى مشارقها الرعالا
وسد بحيث ترقى الشمس سدا ليأجوج ومأجوج الجبالا

وقال امرؤ القيس أيضًا:

فَما مُلكُ العِراقِ عَلى المُعَلّى بِمُقتَدِرٍ وَلا مُلكُ الشَآمِ
أَصَدّ نِشاصِ ذي القَرنَينِ حَتّى تَوَلّى عارِضُ المَلِكِ الهُمامِ
أَقَرّ حَشا اِمرِئِ القَيسِ بنِ حُجرٍ بَنو تَيمٍ مَصابيحُ الظَلامِ

وقال شاعر حارثي:

سمّوا لنا واحدا منكم فنعرفهُ في الجاهلية لاسم الملك محتملا
كالتَّبعين وذي القرنين يقبلهُ أهل الحجى فأحق القول ما قُبِلا

وقال ابن أبي ذئب الخزاعي:

ومنا الذي بالخافقين تغرّبا وأصعد في كل البلاد وصوّبا
فقد نال قرن الشمس شرقًا ومغربًا وفي ردم يأجوج بنى ثُمّ نصّ با
وذلك ذو القرنين تفخر حميرٍ بعسكر فيل ليس يحصى فيحسبا

وقال شاعر الإسلام حسان بن ثابت الأنصاري:

لنا ملك ذي القرنين هل نال ملكهُ من البشر المخلوق خلقُ مصّورُ
بواتر يتلو الشمس عند غروبها لينظرها في عينها حين يدخرُ

وقال فارس خثعم أنس بن مدرك الخثعمي:

لعمرك من عاش الهنيدة سالمًا وعشرون عامًا بعد ذاك وأربعا
يخبّر عن من مات حتى كأنهُ رأى الصعب ذا القرنين أو رأى تبّعا

وقال الحسن الهمداني:

جدتي الخير حين تُذكر بلقيس ومن نال مطلع الشمس جدي

وقال النعمان بن بشير الأنصاري:

فمن ذا يعادونا من الناس معشرًا كرامًا فذو القرنين منّا وحاتمِ

وهذه الأدلة والبراهين الدامغة والواضحة غيض من فيض تدل على يمانية الملك الصالح ذي القرنين وعروبته.

ملكة سبأ

قال تعالى على لسان الهدهد في سورة النمل:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا

ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الآيات من ٢٠ إلى ٤٤)[1].

ملكة سبأ هي الملكة اليمانية العظيمة سليلة الملوك العظماء التي خلّدت ذكرها الأرض والسماء، أشهر ملكة في تاريخ البشرية والحضارات الإنسانية جمعاء، ذكرت في الكتب السماوية في التوراة والإنجيل والقرآن، ولم تجمع الكتب السماوية على ذكر ملكة سواها، تواترت أخبارها عبر المؤرخين والكتّاب والأدباء وتغنّى بذكرها وأوصافها الفصحاء والشعراء فتخلد بذلك اسمها وتاريخها إلى يوم الدين.

١ – عرش عظيم!! لكم أن تتخيلوا هذا الوصف عندما يأتي في كتاب الله الكريم ووصف الله سبحانه ليس كوصف البشر، إذًا فهذا العرش لملكة سبأ عظيم بمعنى الكلمة وهو يدل صراحة على عظمة تلك الحضارة السائدة في ذلك الزمان.

ذكرت في التوراة باسم "ملكة سبأ" وذكرت في الإنجيل على لسان المسيح عيسى عليه السلام بلفظ ملكة التيمن وذكرت في القرآن الكريم بلفظ ملكة سبأ، وقد اختلف المؤرخون في اسمها الحقيقي فمنهم من قال إن اسمها "إلمقه"، ولم يعثر حتى الآن على نقش أثري يذكر اسم "بلقيس" صراحة عدا نقش واحد عثرت عليه إحدى البعثات الأثرية الأمريكية ويذكر لفظ "بلقس" وليس "بلقيس" ولكن البعض من علماء البعثة نفسها استبعدوا أن يكون هذا الاسم يعني ملكة سبأ المشهورة[1].

أما ما جاء من أخبارها وذكرها عند المؤرخين العرب فقد قال عنها نشوان بن سعيد الحميري في شمس العلوم: هي بلقيس ملكة سبأ ابنة الهدهاد بن شرح بن شرحبيل بن ذي سحر وقال الهمداني في شرح الدامغة ثم ملك الهدهاد وهو إليشرح بن شرحبيل ثم ملكت ابنته بلقيس في عهد سليمان وقال أيضًا في "الإكليل": أولد الهدهاد بن إليشرح بلقيس وشمس". وقال ابن كثير في البداية والنهاية "هي بلقيس بنت إليشرح الهدهاد".

وقيل بلقيس بنت شرحبيل بن إليشرح، ومما تناقله الرواة والإخباريون قول أسعد تبع:

عمتي الخير حين تذكر بلقيس ومن نال مطلع الشمس جدي

وقال أيضًا:

ملكتهم بلقيس عشرين عامًا بأولي قوةٍ وبأس شديدِ
عرشها شرجع ثمانون باعاً كلّلته بجوهر وفريدِ

١ – وبنذل فيلبس، قصة اكتشاف مدينة سبأ الأثرية ص ١٠٥.

وبُـدرٌ قد قيدته وياقــوت وبالتّبر أيمـاً تـقـيـيـدِ

عندما تسلمت ملكة سبأ أمور الحكم في البلاد على رأس تلك المملكة العظيمة كان هناك نظام شوروي فريد من نوعه يدير البلاد ويشرف على تنصيب الملوك ومراقبتهم ومحاسبتهم. وقد كان هذا المجلس بمثابة برلمان الحل والعقد في أمور المملكة، وهم مجلس الأقوال – الأقيال – قال الشاعر علقمة بن ذي جدن الحميري:

كانوا بيوتات قومٍ كلّما فُنيت منهم ملوك أتوا منهم بإبدالِ

وقد كان هذا المجلس يتكون من الأقيال الثمانين والأملاك الثمانية ومقرهم الرئيسي هو المعبد الضخم – معبد إلمقه، الذي عرف فيما بعد باسم "محرم بلقيس" وهذا دليل واضح على أن أهل اليمن القدماء كانوا من أقدم الأمم التي عملت بنظام الشورى في الحكم وسبقوا غيرهم في ذلك وقد خلد القرآن الكريم هذا الأمر، قال تعالى على لسان ملكة سبأ:

﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ (النمل: ٣٢).

كانت الملكة بلقيس من أعقل نساء زمانها وأذكاهن وأكثرهن حكمة وجمالًا، وقد أعترف لها بذلك الأذواء والأقيال من حمير وكهلان وقد كانت فترة حكمها كما يرى بعض المؤرخين في فترة ما بين ٩٤٦–٩٢٤ قبل الميلاد أي خلال القرن العاشر قبل الميلاد وقد عاصرت مدة حكمها زمن حكم النبي سليمان عليه السلام

كانت مملكة سبأ في عهد الملكة بلقيس تحكم كامل جنوب جزيرة العرب – اليمن – وبلاد الحبشة وشمال الجزيرة العربية إلى

أداني الشام وتخوم بابل وقد وقع في عهدها عدد من الفتوحات والغزوات واتسعت الامبراطورية في زمانها فزارها عدد من ملوك الأرض وأهدوا إليها وتقربوا منها وقد ذكرت بعض النقوش الأثرية عددًا من تلك الزيارات ومنها زيارة ملك الصين إلى ملكة سبأ في أول رحلة خارجية لملك صيني إلى بلاد العرب.

وقد كانت مدينة مأرب هي حاضرة مملكة سبأ وعاصمتها وكانت من أجمل المدن في زمانها وأرقاها وكانت كل بلاد اليمن في خير وفير فهي أرض الجنتين دون أدنى شك وقد ذكرها الرواة والإخباريون وأكثروا في وصفها ووصف محاسنها وخيراتها، ومما ذكروا أن هناك نهرًا جاريًا في مأرب ذكر المسعودي أنه نهر وادي ذنة والله أعلم.

وبما أن مأرب هي حاضرة المملكة ومن المدن القديمة والعريقة في بلاد اليمن فقد كان فيها عدد من القصور على غرار قصور اليمن ومحافدها المشهورة، ومن قصور مأرب قصر سلحين قصر الحكم والملك، ومن عظمة هذا القصر أشاع البعض أنه من بناء الجن وليس من بناء البشر، وقد ذكر علقمة بن ذي جدن الحميري ذلك مؤكدًا أن قصر سلحين هو من بناء أهل سبأ وناسها قال علقمة:

أبعد سلحين لا عين ولا أثر أم بعد بينون يبني الناس أبياتا[1]

وقال أيضًا:

١ – تأتي إشاعة مثل هذه الخرافات والأكاذيب من أن جن سليمان هم من بنوا معظم قصور اليمن للملكة بلقيس في إطار حرب الهوية والحضارة التي شنها أعداء اليمن وتاريخه كي يوهموا اليمنيين أن معالم الحضارة التي في بلادهم ليست من بناء أسلافهم وأجدادهم بل هي من بناء الجن او من بناء شعوب أخرى.

سائـل بسلحين وأيامها أيام كان الملك في حـمْيرِ
وأسال ببلقيس وبنيانها وعرشها من ذهب أحمرِ

ذُكرت قصة ملكة سبأ مع نبي الله سليمان عليه السلام في كتاب الله الكريم بعد أن علم سليمان عبر الهدهد بخبر هذه الملكة العظيمة وما كانت عليه بلادها وما كانوا عليه هي وقومها من الدين.

قال الله تعالى ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ﴾ (النمل الآيات من ٢٢ إلى ٢٦)

فبعث إليها نبي الله سليمان عليه السلام بكتاب فلما أن وصل إليها الكتاب جمعت مجلس الأقيال الثمانين والأذواء الثمانية وهو مجلس شورى الحكم وقالت: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾. النمل ٢٩ إلى ٣١.

وأخبرتهم حسب النظام المتعارف عليه في حكم مملكة سبأ أنها لن تتخذ قرار الرد إلا بمشورتهم وموافقتهم، فأخبروها أنهم أهل بأس وقوة ولديهم الجيوش الجرارة لكن لثقتهم فيها وفي صواب رأيها وحكمتها وبصيرتها فقد تركوا قرار الرد إليها وأوكلوها به ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا

تَأْمُرِينَ﴾(النمل ٣٣). فكان ردها عليهم: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (النمل ٣٤). ثم قررت أن ترسل لسليمان عليه السلام كتابًا مع هدية عظيمة وأن تنتظر بما يرجع المرسلون.

وقصة ملكة سبأ ونبي الله سليمان -عليه السلام- بتفاصيلها مذكورة في كتاب الله سبحانه، وقد شرحها المفسرون والمؤرخون، وكيف أن ملكة سبأ قد أسلمت على يد نبي الله سليمان -عليه السلام- لما رأت من دلائل نبوية وسماحة الدين الإسلامي بعد ذهابها إلى هناك، ومعلوم أنها كانت على رأس وفد سبأي كبير.

"قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَع سُلَيمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ"، النمل ٤٤.

عادت ملكة سبأ والوفد الذي معها إلى بلاد اليمن وليس بصحيح قصة زواجها بالنبي سليمان فلم يثبت ذلك إطلاقًا، ويرى عدد من المؤرخين والرواة وعلى رأسهم الهمداني أنها قد تزوجت من القيل ذي بتع الهمداني، قال الهمداني:

وأنكحنا ببلقيس أخانا وما كا سواه بمنكحينا
ولم تطلب بذي بتع بديلا ولو أنا بتنزيلٍ أتينا

وعند عودتهم إلى مأرب بنوا عددًا من القصور الفخمة قال علقمة الحميري:

هَلْ لأناسٍ مِثْلُ آثارِهِمْ بِمأرِبٍ ذاتِ البِناءِ اليفَع
أَوْ مِثْلُ صَرواحٍ وما دونَها مما بَنَتْ بِلقيسُ أو ذو بتع

وقد أنجبت بلقيس لذي بتع ثلاثة من الأبناء الذكور.

هذا وقد دان معظم أهل سبأ بالإسلام ووجدت نقوش مسندية تعود إلى تلك الفترة تذكر الرحمن (ذو سماوي).

توفيت ملكة سبأ العظيمة حوالي (٩٢٠) قبل الميلاد ولم يمت ذكرها وتاريخها من ذاكرة اليمانيين ولا من الذاكرة البشرية إلى يوم الناس هذا.

التبع شَمَّر يهرعش الحميري

قال نشوان الحميري:

أم أين شمر يرعش الملك الذي ملك الورى بالعنف والأسجاح
قد كان يرعش من رآه هيبةً ورنا إليهِ بطرفهِ اللمّاح

الملك الحميري اليماني الشهير شمر يرعش ابن ناشر النعم – ياسر يهنعم– مالك بن يعفر بن عمرو بن حمير الأصغر، كما ذكر ذلك وهب بن منبه، وقال الجرهمي: هو شمر يهرعش بن افريقيس بن أبرهة الرائش، اسمه شمر، ولقب يهرعش لرعشة فيه، وقيل إن من يراه يهابه ويرتعش منه، والله أعلم.

ذُكر هذا الملك التبع في عدد من النقوش المسندية اليمانية، وكان قد شارك أباه في الحكم في شبابه، وبعد وفاة والده الملك، وتفرده بالحكم، انتحل اللقب الملكي ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت، وذلك بعد أن استطاع ضم هذه الممالك تحت سيطرته ونفوذه.

أسرف الرواة والإخباريون في ذكر هذا الملك وعظمته وسطوته وفتوحاته، فقد ذكروا أنه قاد الجيوش في كثير من الغزوات حتى بلغ الصين شرقًا، وهو الذي هدم مدينة دينور وشبح وأحرقها، فقالوا حينها: شمر كند، أي شمر حطّم وخرّب باللسان العربي، فأطلق عليها سمرقند مع الوقت ومرور الزمان، ويقال بأنه بلغ بلاد التبت، واستوطنت فيها بعض القبائل اليمانية هناك، قال الشاعر دعبل الخزاعي مفتخرًا:

هُمُ كتبوا الكتّاب بباب مروٍ وباب الصين كانوا الكاتبينا
وهم سمّوا سمرقندًا قديمًا وهم غرسوا هناك التبَّتينا

وقد أضاف بعض الإخباريين أن جيوش الملك شمر يهرعش بلغت أراضي الهند وفارس وما جاورها، والله أعلم.

صحيح أن هذا الملك الحميري كان ولا يزال صاحب الكثير من القصص الملحمية[1] عند أهل اليمن، وفي التراث اليماني، لكن تبقى قصص الإخباريين ليست أدلة تاريخية قاطعة يعتمد عليها في كتابة التاريخ وتدوينه إن لم يصاحبها أدلة أثرية أو علمية، ولذلك لا نستطيع نكرانها، أو الجزم بها.

ولكن مما لا شك فيه أن لهذا الملك الكثير من الأعمال والإصلاحات والآثار التي لا يزال البعض منها صامدا حتى اليوم، دالة بوضوح على عظمته، وعظيم ملكه، ومدى الرقي والازدهار الذي كان في عهده.

ما أن تولى الملك شمر يهرعش حكم البلاد، واستقل به بعد وفاة أبيه، حتى جهز الجيوش، وقام بحروب توسعية على حساب ممالك الجنوب الأخرى، فاستطاع السيطرة على عاصمة مملكة سبأ، ثم قام بحملة عسكرية ضخمة وحاصر شبوة عاصمة مملكة حضرموت، واستطاع اقتحامها، وإحراق مدينة شبوة[2] عاصمة مملكة

(١) قال الهمداني، وابن الكلبي، وابن هشام: أن أول ملك أمر بصنعة الدروع السوابغ المفاضة التي منها سواعدها وأكتافها هو التبع شمر يهرعش، قال أبو ذؤيب الهذلي:
وعليهما مسرودتان قضاهما داوود أو صنعُ السوابغ شمَّرُ

(٢) في زيارتي إلى شبوة القديمة عاصمة مملكة حضرموت، رأيت بوضوح آثار الحرائق والتدمير التي ربما كانت بسبب اجتياحها وتدميرها وإحراقها عام ٣٠٠ للميلاد، لكن الكثير من

حضرموت، وذلك حوالي عام (٣٠٠ للميلاد)، وبعد أن بسط سيطرته على أراضي مملكتي سبأ وحضرموت، انتحل اللقب الملكي الضخم: ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت، ودوّن هذا اللقب في الكثير من النقوش المسندية.

وقد ذكر أحد النقوش المسندية أن عامل الملك شمر يهرعش في صعدة، وهو ريمان ذو حزفر قام بعدة حملات عسكرية باتجاه الشمال حتى وصل إلى بلاد قبائل تنوخ، وقد كان ممن قاوم بعض هذه الحملات، امرؤ القيس بن عمرو مؤسس دولة المناذرة، وقد ذكر في نقش النمارة الشهير فيما بعد، والذي وضع على قبر الملك امرئ القيس بن عمرو، أنه قام بحملات عسكرية باتجاه الجنوب حتى وصل إلى نجران التي ذكرها في النقش باسم "مدينة شمر"، وقد أشار نقش ريمان ذو حزفر أن كامل شبه الجزيرة العربية كان امتدادا حيويا لنفوذ مملكة حمير في الجنوب، كما ذكر نقش مدينة هَكْر الكثير من الأعمال الإدارية والحيوية لهذا الملك العظيم، كما ذكر عدد من الحملات العسكرية لفرض هيبة الدولة، وتأديب بعض القبائل الخارجة عنها.

ومما لا شك فيه أن الملك شمر يهرعش الحميري يعد من أهم ملوك مملكة حمير وملوك اليمن القدماء، فهو الذي وحد الكيانات السياسية الكبرى تحت سلطانه، وقام بنقل العاصمة من مأرب إلى ظفار يريم، كما شهدت البلاد في عهده نهضة عمرانية واقتصادية كبيرة، أكدت ذلك عدد من النقوش المسندية التي عثر عليها في نجران، وقاع المعسال، ووادي رمك، وغيرها، وجعل من شبه جزيرة

الأبنية لا زالت شامخة، ودالة على عظمة من بناها وشيدها، لكنها للأسف لم تحض بالاهتمام الكافي من الحكومات المتعاقبة.

العرب امتدادا لنفوذه وحكمه، وقام في الشأن الداخلي ببناء المدن والسدود المائية، ومن هذه المدن مدينة بينون التاريخية، وقد أبدع اليمنيون القدماء في عهد هذا الملك العظيم في هندسة الرّي وبناء القنوات المائية لتوزيع المياه على الأراضي الزراعية.

توفي الملك الحميري شمر يهرعش بعد أن أرسى دعائم المملكة الحميرية في جنوب جزيرة العرب، واستمرت حضارة مملكة حمير بعد وفاته، وقد شهدت قمة ازدهارها وعظمتها ومجدها في عهد حفيده، الملك الشهير التبع أبو كرب أسعد الكامل.

ملك سبأ كَرْب إيْل وَتر

ملك سبأ كَرْب إِيْل وَتَر، صاحب نقش النصر العظيم، آخر مكاربة سبأ وأول ملوكها، ومن أوائل الساعين لتوحيد بلاد اليمن القديم، الملك كرب إيل وتر بن ذمار علي ملك مملكة سبأ.

بدأ هذا الرجل حكمه متخذًا لقب "مكرب[1] سبأ"، كمن سبقوه من المكاربة القدماء حكام سبأ، ثم لم يلبث أن اتخذ لنفسه لقب "ملك"، فهو بذلك آخر مكاربة سبأ، وأول ملوكها، وكان هذا الملك من أشهر ملوك اليمن القديم.

ذكر هذا الملك في نقش آشوري قديم من عهد الملك "سنحاريب"، وذلك باسم "كريبي إيلو" حوالي عام (٦٨٥ قبل الميلاد)، تحدث هذا النقش عن هدية أرسلها ملك سبأ للملك الآشوري.

كان الملك السبأي كرب إل وتر من أول الساعين لتوحيد ممالك اليمن القديم، وضمها في مملكة واحدة، وقد قضى شطرًا كبيرًا من حكمه في حروب توسعية لإخضاع هذه الممالك مقتفيًا خطة أحد أسلافه المكاربة، وهو المكرب "يثع أمر بين".

ولعل من أبرز المصادر الأثرية والتاريخية التي حفظت لنا عددًا من أعمال الملك كرب إل وتر، نقش النصر العظيم الذي كتب في زمانه، وهذا النقش الرائع موجود في معبد إلمقه في منطقة صرواح مأرب، ويتكون من عشرين سطرًا، وقد كتب هذا النقش بطريقة هندسية رائعة

(١) مكرب: لفظ يمني قديم، ويعني الملك الذي يجمع ما بين السلطة الدينية والسياسية، وقد ظهرت هذه التسمية في عهد سبأ، فكانت اللقب الرسمي لحكامها في بداياتها، ومعناها الحرفي: القوي الصلب، وكان آخر مكاربة سبأ هو كرب إل وتر الذي ألغى هذا اللقب، وتلقب بلقب ملك.

تدل على مدى الرقي الذي وصل إليه الإنسان اليمني القديم في ذلك الزمان، ولا يزال النقش شامخًا حتى اليوم.

قام الكثير من الباحثين والخبراء بدراسة هذا النقش التاريخي، وترجمته، وقد تحدث النقش عن الكثير من الأعمال لهذا الملك، ومنها حملاته التوسعية ضد ممالك الجنوب الأخرى وضد القبائل في المناطق المجاورة، وذلك لبسط نفوذ المملكة وهيبة الدولة.

ومن المناطق المذكورة في هذا النقش، والتي وصل إليها الملك كرب إيل وتر بعض أراضي مملكة حضرموت، ونجران، وبلاد المعافر – الحجرية –، وأراضي مملكة أوسان، وكذلك منطقة "دهسم" يافع، وبلاد دثينة، ومناطق أخرى في الشمال والجنوب استطاع الملك كرب إل وتر ضمها إلى مملكته.

ومع أن كرب إل وتر قد تحالف مع مملكتي حضرموت وقتبان ضد مملكة أوسان إلا أن حملاته قد وصلت أحيانًا إلى مناطق الممالك المتحالفة معه.

ومما لا شك فيه أن نقش النصر للملك كرب إل وتر مع ضخامته والتفاصيل التي فيه، لا يُعد مصدرًا كافيا لتاريخ هذا الملك العظيم وإنجازاته، ولا زال تاريخ هذا الملك وتاريخ اليمن ككل بحاجة إلى بحوث ودراسات جبارة لإظهار ما خُفي منه، فالذي كُشف من آثار حضارة بلاد اليمن حتى الآن لا يتجاوز الثلاثين بالمئة ٣٠٪ فقط.

التبع أسعد الكامل

ريدان قصري في ظفار ومنزلي بها أسَّ جدي دورنا والمناهلا
على الجنة الخضراء من أرض يحصبٍ ثمانون سدًا تقذف الماء سائلا
مآثرنا في الأرض تصدق قولنا إذا ما طلبنا شاهدًا أو دلائلا

ملك سبأ، وذو ريدان، وحضرموت، ويمنت، وأعرابهم طودا وتهامت، التبع اليماني الشهير أبو كرب أسعد تبّان بن ملكِ كرب بن تبع الأكبر الأقرن بن شمر يرعش بن ناشر النعم –ياسر يهنعم– بن أبرهة ذي المنار الحميري(١)، والمشهور في مصادر التاريخ والموروث العربي بلقب "أسعد الكامل" أحد أشهر وأهم ملوك اليمن القدماء، وأطولهم عمرًا، وأكثرهم ذكرًا، وأعظمهم صيتًا، ملك عظيم، ومؤمن كريم، ترك سيرته الطيبة في قلوب أهل اليمن، والعرب جمعاء حتى اليوم.

كان فارسًا عالمًا شاعرًا، قوي الشكيمة، حسن السيرة والسياسة، قال فيه نشوان الحميري:

الكامل الملك المتوّج أسعد فيه تقصّر مدحهُ المُداح
كم قاد من جيش أجيش كبابل وكتيبة تغشى البلاد رداح
حتى استباح بلاد فارس بالقنا وبكل أجرد في الجياد وقاح

ولد أسعد في منطقة خمر –عمران حاليا–، وعندما شب وتوسم فيه أبوه الحكمة، والشجاعة، والهمّة، أشركه معه في الحكم قبل أن ينفرد أسعد بالسلطة، وقد دوّن ذلك أسعد كما فعل جده شمر

(١) على خلاف في ذلك بين النسابين.

يهرعش مع أبيه ياسر يهنعم – ناشر النعم –، وعندما انفرد بالملك تلقب بألقاب متعددة، أشهرها "أسعد الكامل".

شهدت مملكة حمير في عهد التبع أسعد الكامل الكثير من التوسع والرقي والازدهار، وقد قاد بنفسه الكثير من الفتوح والغزوات، فدانت له جزيرة العرب، وامتد نفوذه إلى خارجها، كما قاد حملات عسكرية لتأديب القبائل العربية المتمردة، وقد وجد نقش كبير في منطقة مأسل الجمح –الدوادمي حاليا– شمال جزيرة العرب يتحدث عن إحدى حملاته العسكرية، ومشاركة ابنه حسان في قيادة الجيش حينها.

وقد اسرف الرواة والاخباريون في ذكر فتوحاته وغزواته واخباره، في إحدى غزواته مر على مدينة يثرب، المدينة المنورة، وجعل عليها واليًا ثم ارتحل عنها، فتم قتل ذلك الوالي من قبل رجل من أبناء قيلة الاوس والخزرج، فعاد التبع اسعد الكامل بجيشه وحاصر مدينة يثرب حصارا شديدا وعزم على خرابها، فحاربته الاوس والخزرج وكانوا يقاتلونه في النهار، ويرسلون له ولجيشه الطعام في الليل وكان يتعجب من هذا الفعل ويقول "إن اخواننا لأكفاء كرام".

وبعد مدة من الحصار والخراب خرج عليه حبران من أحبار اليهود وأخبراه ان هذه المدينة ستكون مهاجر نبي آخر الزمان، فارتفع بقواته عنها وآمن برسول الله -صلى الله عليه وسلم- قبل ان يراه وقال ابياته المشهورة التي بقيت عند الانصار يتوارثونها حتى هاجر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى يثرب وقد كانت مكتوبة عند ابي ايوب الانصاري رضي الله عنه.

قال التبع اسعد الحميري:

شهدتُ على أحمدٍ انـــهُ رسـول مـن الله باري النسـم
فلو مد عمري إلى عــمـرِهِ لكنت وزيـراً له وابـن عــم
وقاتـلـت بالسيف أعداءهُ وفرّجت عن صدره كـل هـم

وقد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما بعد "لا تسبوا تبّعًا فإنه قد أسلم"[1].

وفي طريق عودة التبع أسعد الكامل الحميري إلى بلاد اليمن مر على مكة وحلق واعتمر وقام بكساء الكعبة، وكان أول من كساها وأمر بكسوتها دائمًا.

شهدت بلاد اليمن الكثير من المنجزات الحضارية في عهد الملك التبع الحميري اسعد الكامل ومنها بناء السدود للاستفادة من مياه الامطار وبناء القلاع والحصون وتعبيد طرق القوافل التجارية ومن هذه المعالم الأثرية الرائعة درب اسعد الكامل الشهير الذي يمتد من عدن[2] إلى ظفار ثم إلى صنعاء والطائف ونجران ووسط الجزيرة العربية وشمالها، وشهدت المملكة الحميرية وبلاد اليمن في عهده رخاء كبيرا.

قال مفتخرا:

بنينا في ظفار أساس مجدٍ فيقرأهُ قروم القريتينِ

---

١ – عن، سهل بن سعد الساعدي وابن عباس ووهب بن منبه، صححه الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم الحديث ٧٣١٩ صفحة ١٢٢٣ ط٣ ١٩٨٨م.
٢ – شق طريق عدن مأرب، مروراً بعقبة بُرع الواقعة بين مكيراس وجبال السيلة في فيضاء، ولا يزال النقش بكبره وشموخه موجوداً إلى اليوم.

وعلى امتداد طرق القوافل التجارية أُنشئت مقرات ومواقع للحاميات العسكرية لحماية هذه الطرق.

توفي التبع اسعد الكامل الحميري في منطقة غيمان كما ذكر الهمداني حيث قال: "اعتل تبع أسعد علة الموت في غيمان ومات فيها".

التبع حسان يُهأمن الحميري

سبق وأن ذكرنا من قبل أن عددا من ملوك اليمن القدماء اشتهر بلقب (تبع)[1]، قيل لكثرة الأتباع والأعوان والجيوش، وقيل إن من يملك كامل بلاد اليمن من أدناها إلى أقصاها، وتدين له بالطاعة والولاء يسمى تبّعا، ومهما يكن سبب التسمية فقد أصبح هذا اللقب يختص بملوك اليمن وحدهم، وقد ذكر هذا اللفظ في كتاب الله الكريم صراحةً في موضعين:

قال تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (الدخان:٣٧). وقال عز من قائل ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ (ق من ١٢ إلى ١٤).

ومن تبابعة اليمن العظماء، التبع اليماني حسان يهأمن بن التبع الأكبر أبو كرب أسعد الكامل الحميري، أحد ملوك حمير المشاهير، ومن أكثرهم ذكرًا في التراث، والأدب، والتاريخ العربي.

أشرك التبع أبو كرب أسعد الكامل ولده الشاب حسان في الحكم كعادة بعض ملوك اليمن القدماء، فقاد الجيوش، وساس أمور الدولة، وتمرس عليها في ظل حكم أبيه، وذلك في آخر أيام حكم

---

(١) كانت العرب يطلقون على كل من ملك اليمن تبّع، وكل من ملك الروم قيصر، وكل من ملك الفرس كسرى، قال دعبل الخزاعي:

أرض التبابع والأقيال من يمن ... أهل الجياد وأهل البيض والزرد
ما قرية دخلوا إلا وقد كتبوا ... بها كتابًا فلم يُدرس ولم يَبد

التبع أسعد، وقد عثر على النقش المشهور في منطقة الدوادمي مأسل الجمح –شمال المملكة العربية السعودية– تحدث هذا النقش المسندي اليماني عن حملة واسعة قام بها التبع أسعد الكامل، ومعه ابنه حسان لتأديب بعض القبائل العربية المتمردة هناك، وقد نجحوا في ذلك، وكان ملوك حمير في تلك الفترة ينتحلون اللقب الملكي الضخم (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت، وأعرابهم طودا وتهامة)، كما ذكرنا ذلك من قبل.

بعد وفاة التبع أسعد الكامل آلت أمور المملكة إلى ولي العهد حسان يهأمن، فقام بالسير على خطى والده، في الإصلاحات الداخلية، وبسط نفوذ الدولة، وكذلك القيام بعدد من الحملات الخارجية لتأمين حدود الإمبراطورية الحميرية، ولكن مع الأسف تبقى الكثير من حلقات تاريخ تلك الفترة شبه مفقودة؛ نظرًا لقلة المصادر النقشية التي عثر عليها حتى الآن، إذ لا تزال معظم الآثار والنقوش اليمانية لم تكشف حتى لحظة كتابة هذا الكتاب.

هذا وقد أكثر الرواة والإخباريون العرب في ذكر أخبار التبابعة اليمانيين، ومنهم التبع حسان، فقد دونت الكثير من الروايات عنه، وعن حروبه وغزواته، ومن تلك الأخبار قصة إبادته لقبائل طسم وجديس في منطقة (جو) أو اليمامة فيما بعد، وكيف قاد حملة عسكرية إلى هناك، وسيطر على المنطقة، وقتلت في هذه الحملة زرقاء اليمامة[1]، قال الأعشى:

(١) اليمامة: هي الرياض حاليًا، وكانت تسمى (جَو)، ثم سميت باليمامة بعد مقتلها، كما يقول الرواة، واليمامة هذه امرأة كانت تكتحل بالأثمد، وترى لمسافات بعيدة، وقد حذرت قومها بقدوم جيش التبع حسان، فلم يستمعوا إليها، حيث أنها رأت طليعة الجيش من بعيد، وتبقى مثل هذه الروايات المتناقلة تنقصها الأدلة الأثرية والعلمية، فلا ننكرها، ولا نجزم بها.. والله أعلم.

وما نظرت ذات أشفارٍ كنظرتها حقًا كما صدق الذئبي إذ سجعا
إذ نظرت نظرةً ليست بكاذبةٍ إذ يرفع الآل رأس الأل فارتفعا
قالت أرى رجلًا في كفهِ كتفٌ أو يخصف النعل لهفي أيها صنعا
فكذبوها بما قالت فصبّحهم ذو آل حسان يزجي الموت والشرعا
فاستنزلوا أهل جوٍّ من مساكنهم وهدموا شاخص البنيان فاتضعا

استمر حسان تبع في إدارة أمور الدولة بحنكة، وشهدت البلاد في عهده ازدهارًا ورقيًا، وكان رجلًا صارمًا شجاعا شهمًا كريمًا، معتزًا بنفسه وقومه وحضارته، قال مفتخرًا:

أنا تبع الأملاك من آل حميرٍ ملكنا عباد الله في الزمن الخالي
ملكناهم قهرًا وسارت جيوشنا إلى الهند والأتراك تردى بأبطالِ
وكل بلاد الله قد وطئت بنا خيول لعمري غير نكسٍ وأعزالِ
وعُطّل منها كل حصنٍ ممنّع ونفّل منها ما حَوته من المالِ

توفي التبع اليماني حسان يهأمن، وخلفه أخوه في الحكم، أما ما يروج له بعض الإخباريين، وهواة الدراما السطحية من أن التبع حسان قتل على يد كليب بن ربيعة التغلبي، فلا أساس له من الصحة، وهي مجرد قصص روائية من مخيلة الإخباريين، وكليب ربيعة لم يعش فترة التبع حسان، والصحيح أنهم قتلوا عامل الملك الكندي على الجزيرة الفراتية فيما بعد، حيث كانوا يدفعون الخراج لمملكة كندة في تلك الفترة، كما تذكر معظم المصادر التاريخية.

آكل المرار الكندي

وفدت كندة على النبي -صلى الله عليه وسلم- في وفد لم تشهد له المدينة المنورة مثيلًا من قبل، ٨٠ راكبًا من أبناء الملوك والأقيال من كندة العريقة[١]، فبايعوه وأسلموا على يديه، ثم قال زعيمهم الأشعث بن قيس الكندي:

يا رسول الله، نحن بنو آكل المرار، وأنت ابن آكل المرار، فتبسم النبي -عليه الصلاة والسلام-، وقال: ناسبوا بذلك العباس بن عبدالمطلب، وربيعة بن الحارث، وذلك أن العباس وربيعة كانا من تجار قريش، فإذا ما ارتحلوا للتجارة، واعترضهم أحد في طريقهم أو سألهم ممن أنتم؟ قالوا نحن من بني آكل المرار، يتقوون بذلك، ويرهبون بهذا الاسم، أو هذا النسب، قطّاع الطرق وشذّاذ الآفاق، ثم قال -عليه الصلاة والسلام-: نحن بنو النضر بن كنانة، لا ننتفي من أبينا، ولا نقفوا أمّنا.

---

(١) (كندة الملوك) هكذا كانت تسميهم العرب، من أشهر قبائل كهلان ابن سبأ القحطانية اليمانية، امتلأت كتب التاريخ بأخبارهم وأمجادهم، وذكر مناقبهم، وفضلهم، ومكانتهم منذُ ما قبل البعثة وبعدها، قال شاعرهم:

إذا قست أبيات الرجال ببيتنا ... وجدت لهُ فضلًا على من يُفاخرُ
فمن قال كلاّ أو أتانا بخطةٍ ... ينافرنا يومًا فنحن نُخاطرُ
تعالوا قِفوا كي يعلم الناس أيُّنا ... له الفضلُ فيما أورثتهُ الأكابرُ

انشأت كندة مملكة واسعة امتدت من حضرموت لتشمل نجد والحجاز، ثم دخلوا في الإسلام، وشاركوا في الفتوحات الإسلامية، فكان لهم الفضل المشهود، ثم كان لهم ثقل كبير في المراحل السياسية في صدر الإسلام، ولهم بقية عظيمة داخل اليمن وخارجها.

ملك مملكة كندة، ومؤسسها في دهرها الثاني، حجر بن عمرو بن حجر بن عمرو بن معاوية، وقيل الحارث بن عمرو، من بني معاوية الأكرمين، بيت الشرف والزعامة في كندة اليمانية العريقة.

اختلفوا في شهرته بآكل المرار على روايتين، الأولى أن أحد ملوك قضاعة، وهو زياد بن الهبولة القضاعي أغار على كندة في غياب الملك حجر بن عمرو، فغنم وسبى، وكان من ضمن السبي امرأة لحجر بن عمرو الكندي، فقالت المرأة في الطريق لابن الهبولة القضاعي: كأني برجلٍ أدهم كأن مشافره مشافر بعير يأكل المرار قد لحق بك وأخذ برقبتك – تعني الملك حجر بن عمرو –، وبالفعل لحق الملك حجر بابن الهبولة، ومن معه، فقتل ابن الهبولة القضاعي، وسمي من ذلك الحين بآكل المرار.

أما الرواية الثانية، قيل بأنه خرج للصيد في نفر من قومه، فتاهوا في الصحراء، وانقطع عنهم الطعام والشراب، فمات رفاقه من الجوع والعطش. أما حجر، فقد أكل من شجر المرار حتى تورّمت شفتاه إلاَّ أنه قد نجى، فسمّي بآكل المرار.

يُعد الملك الكندي حجر بن عمرو – آكل المرار – المؤسس لمملكة كندة في دهرها الثاني، واتسعت مملكة كندة في عهده لتشمل حضرموت ونجد والبحرين ودومة الجندل وغمر ذي كندة ومناطق أخرى، وقد اشتهر آكل المرار في التاريخ العربي بالشجاعة والإقدام وحسن التدبير والسياسة، وذاع صيته في جزيرة العرب، بل حتى في خارجها.

خاض الملك آكل المرار الكثير من الحروب التوسعية خلال مدة حكمه، ومن أشهرها حروبه ضد المناذرة اللخميين، وحروبه ضد تمرد بعض القبائل العربية.

وقد قام الملك حجر الكندي بحملة عسكرية واسعة على جزيرة يوتابة – تيران – المشرفة على خليج العقبة، واستطاع طرد القوات الرومانية منها عام (٤٧٣ للميلاد) بعد معارك شرسة، وقد ذكرت المصادر البيزنطية والرومانية الملك الكندي آكل المرار وصراعه معهم، وقد كانت كندة في تلك الفترة حليفًا استراتيجيا هامًا لمملكة حمير العتيدة في الجنوب.

شهدت مملكة كندة أوج عظمتها في عهد الملك أكل المرار، ثم لم يلبث أن توفي في منطقة بطن عاقل، كما ذكرت بعض المصادر العربية، وتوارث أبناؤه الملك بعد أبيهم، وكان أولهم عمرو بن حجر الملقب بالمقصور[1].

(١) لقِّب بالمقصور لاقتصار ملكه على ملك أبيه، ولم يتوسع أكثر منه.

الأفوه الأودي

أيها الساعي على آثارنا نحنُ من لست بسعّاءٍ مَعه
نحنُ أود حين تصطك القنا والعوالي للعوالي مُشرعة
يوم تُبرى البيض عن لمعِ البُرى ولأهل الدار فيها صعصعة
ثم فينا للقرى نارٌ يرى عندها للضيف رحبٌ وسعة

صلاءة[1] بن عمرو بن مالك بن الحارث بن عوف بن منبه بن أود[2] بن صعب بن سعد العشيرة المذحجي، والمشهور بالأفوه الأودي، وقد لقب بالأفوه؛ لأنه كان غليظ الشفتين ظاهر الأسنان.

يعد الأفوه الأودي من أقدم فحول الشعر العربي، وقد اختلف المؤرخون في تحديد الزمن الذي عاش فيه، ويرى البعض أن الأفوه الأودي أول من قصّد القصيد.

مع مكانته الشعرية في تاريخ الأدب العربي، فقد كان الأفوه الأودي من أبطال العرب، وفرسانهم المشاهير، كما كان سيدا مطاعا في قومه، وقائدهم في حروبهم، وكانوا لا يخالفون رأيه، وتعده العرب من حكمائها، وقد كان أبوه عمرو بن مالك من فرسان أود المذحجيين وزعمائها،

(١) الصلاءة هي مِدَق الطيب، أو كل حجر عريض يدق عليه المواد العطرية.
(٢) أود بطن عظيم من مذحج الطعان من بني سعد العشيرة، ولهم تاريخ حافل بالبطولات والأمجاد في الجاهلية والإسلام، وقد شاركت أود في الفتوحات الإسلامية، وانتشروا في البلدان المفتوحة، ولهم بقية اليوم في بلاد اليمن.

قال فيه الأفوه:

أبي فارس الشوهاء عمرو بن مالكٍ غداة الوغى إذ مال بالجد عاثرُ
غداة أقام الناس في حجر تيهم ضرابًا كما ذيد الخماس البواكرُ
بضرب يطير الهام عن سكناته وإصرار طعنٍ والقنا متشاجرُ
فما غمرته الحرب إذ شمّرت لهُ ولا خار إذ جرَّت عليه الجرائرُ

عاش الشاعر والفارس الأفوه الأودي حياةً مليئة بالصراعات، وقد أفنى شبابه دفاعا عن قومه وقبيلته، بلسانه وسيفه، ومع أنه من حكماء العرب المشاهير الذين قدموا للأدب العربي حِكَمًا لا يزال بريقها مشعا حتى اليوم، إلا أنه قد عاش مراحل من البؤس واليأس ظهرت جلية واضحة في بعض قصائده التي صاغها بأسلوب فذ جعلت العرب يتوارثونها جيلًا بعد جيل.

فها هو يتحسر عندما يختبر البعض، فيجدهم أهل مصلحة يميلون لمن عنده المال، منشغلين بالقيل والقال، حيث قال:

بلوت الناس قرنًا بعد قرنٍ فلم أرى غير خلّابٍ وقالِ
وذقت مرارة الأشياء جمعًا فما طعمٌ أمرَّ من السؤالِ
ولم أرَ في الخطوب أشد هولًا وأصعب من معاداة الرجالِ

وها هو قد ضاق ذرعا من تصرف بعض الطائشين من قومه الذين لا يعتبرون، ولا يهمهم صلاح القبيلة ومصلحتها، وتُعد هذه القصيدة من روائع الشعر العربي، ولا تزال الأجيال يتوارثونها جيلًا بعد جيل:

فينا مَعاشِرَ لَم يَبنوا لِقَومِهِمَ ... وَإِنَّ بَني قَومِهِم ما أفسَدوا عادوا
لا يَرشُدونَ وَلَن يَرعوا لِمُرشِدِهِم ... فَالغَيُّ مِنهُم مَعاً وَالجَهلُ ميعادُ
كَانوا كَمِثلِ لُقَيمٍ في عَشيرَتِهِ ... إِذ أُهلِكَت بِالَّذي قَد قَدَّمَت عادُ
أَو بَعدَهُ كَقُدارٍ حينَ تابَعَهُ ... عَلى الغِوايَةِ أَقوامٌ فَقَد بادوا
وَالبَيتُ لا يُبتَنى إِلّا لَهُ عَمَدٌ ... وَلا عِمادَ إِذا لَم تُرسَ أَوتادُ
فَإِن تَجَمَّعَ أَوتادٌ وَأَعمِدَةٌ ... وَساكِنٌ بَلَغوا الأَمرَ الَّذي كادوا
وَإِن تَجَمَّعَ أَقوامٌ ذَوو حَسَبٍ ... اِصطادَ أَمرَهُمُ بِالرُشدِ مُصطادُ
لا يَصلُحُ الناسُ فَوضى لا سَراةَ لَهُم ... وَلا سَراةَ إِذا جُهّالُهُم سادوا
تُلفى الأُمورُ بِأَهلِ الرُشدِ ما صَلَحَت ... فَإِن تَوَلّوا فَبِالأَشرارِ تَنقادُ
إِذا تَوَلّى سَراةُ القَومِ أَمرَهُمُ ... نَما عَلى ذاكَ أَمرُ القَومِ فَازدادوا
أَمارَةُ الغَيِّ أَن تَلقى الجَميعَ لَدى ال ... إِبرامِ لِلأَمرِ وَالأَذنابُ أَكتادُ
كَيفَ الرَشادُ إِذا ما كُنتَ في نَفَرٍ ... لَهُم عَنِ الرُشدِ أَغلالٌ وَأَقيادُ
أَعطَوا غُواتَهُمُ جَهلًا مَقادَتَهُم ... فَكُلُّهُم في حِبالِ الغَيِّ مُنقادُ
حانَ الرَحيلُ إِلى قَومٍ وَإِن بَعُدوا ... فيهِم صَلاحٌ لِمُرتادٍ وَإِرشادُ
فَسَوفَ أَجعَلُ بُعدَ الأَرضِ دونَكُمُ ... وَإِن دَنَت رَحِمٌ مِنكُم وَميلادُ
إِنَّ النَجاةَ إِذا ما كُنتَ ذا بَصَرٍ ... مِن أَجَّةِ الغَيِّ إِبعادٌ فَإِبعادُ
الخَيرُ تَزدادُ مِنهُ ما لَقيتَ بِهِ ... وَالشَرُّ يَكفيكَ مِنهُ قَلَّ ما زادُ

لم يتميز شعر الأفوه الأودي بالحكمة فحسب، بل طغت عليه الحماسة والفروسية والمفاخرة بنفسه وبطولات قومه ومآثرهم وانتصاراتهم في أيامهم وحروبهم، إذ كان قائدا لهم في معظم تلك الحروب.

قال مفتخرًا بنفسه:

وإني لأعطي الحق من لو ظَلَمتهُ أقرَّ وأعطاني الذي أنا طالبُ
وآخذ حقي من رجالٍ أعزةٍ وإن كَرُمَت أعراقهم والمناسِبُ

وقال مفتخرًا على عرب الشمال – العدنانية – في قصيدته الرَّائية الرائعة، والتي تُعد من جيد شعر العرب:

إن تَرى رَأسِي فيهِ قَزَع وَشَواتي خَلّةً فيها دوارَ
أَصبَحَت مِن بعد لَونٍ واحد وَهي لَونانِ وَفي ذاكَ اِعتِبارُ
فَصُروفُ الدهرِ في أَطباقِهِ خلعةٌ فيها اِرتفاع وَاِنحِدارُ
بَينَما الناسُ على علياءِها إِذ هَوَوا في هُوَّةٍ منها فَغاروا
إِنما نِعمَةُ قَومٍ مُتعةٌ وَحَياةُ المَرءِ ثَوبٌ مُستَعارُ
وَلَيالِيهِ إِلالٌ لِلقُوى مِن مُداهُ تَختَليها وَشفارُ
تَقطَعِ اللَيلَةُ منهُ قُوَّةً وَكَما كَرّت علَيهِ لا تُغارُ
حَتَمِ الدهرُ علَينا أَنَّهُ ظَلَفٌ ما نالَ مِنّا وَجُبارُ
فَلَهُ في كُلِّ يومٍ عدوَةٌ لَيسَ عنها لِامرِءٍ طارَ مَطارُ
رَيشَت جُرهُمٌ نَبلاً فَرَمى جُرهُماً مِنهُنَّ فوقٌ وَغــرارُ[1]
عَلّموا الطَعنَ مَعدًا في الكُلى وَادّراعَ اللَأمِ فَالطَرفُ يحارُ[2]
وَرُكوبَ الخَيلِ تَعدو المَرَطى قَد علاها نَجَدٌ فيهِ اِحمِرارُ
يا بَني هاجَرَ ساءَت خُطَّةً أَن تَروموا النِصفَ مِنّا وَنُجارُ[3]

(١) جرهم قبيلة يمانية عريقة سكنت مكة وحكمتها لمدة إلى أن أخرجتها منها خزاعة الأزدية اليمانية.

(٢) معدّ بن عدنان جد قديم تلتقي فيه قبائل كثيرة، وهم أشهر من نار على علم، ويقصد الشاعر إن جرهم علّمت قبائل معد على الطعن والضرب حتى نبغوا في الفروسية.

(٣) بنو هاجر هم بنو إسماعيل عرب الشمال، ويعجب منهم الأفوه الأودي عندما يطالبوه بالنصفة منهم، بينما هم يعيشون في حماهم، ويقال إن النبي عليه الصلاة والسلام قد منع رواية هذا الشعر لما فيه من النعرات القبلية، والانتقاص من بني هاجر.

إِن يجَل مَهرِي فيكَم جَولَةً ... فَعلَيهِ الكَرّ فيكَم وَالغِوارَ
كَشهابِ القَذفِ يرميكُم بِهِ ... فارِسٌ في كَفِّهِ لِلحربِ نارُ[1]
شَنَّ مِن أَود عَلَيكُم شَنَّةً ... إِنَّهُ يَحمي حِماها وَيغارُ
فارِسٌ صَعدَتُهُ مَسمومَةٌ ... تَخضِبُ الرُمحَ إِذا طارَ الغُبارُ
مُستَطيرٌ لَيسَ مِن جَهلٍ وَهَل ... لِأَخي الحِلمِ عَلى الحَربِ وَقارُ
يَحلُمُ الجاهِلُ لِلمُسلِمِ وَلا ... يَقرُ الحِلمُ إِذا ما القَومُ غاروا
نَحنُ أَود وَلِأَود سُنَّةٌ ... شَرَفٌ لَيسَ لَنا عَنهُ قَصارُ
سُنَّةٌ أَورَثناها مَذحِجٌ ... قَبلَ أَن يَنسَبَ لِلناسِ نِزارُ
نَحنُ قُدنا الخَيلَ حَتّى اِنقَطَعَت ... شُدُنُ الأَفلاءِ عَنها وَالمِهارُ
كُلَّما سِرنا تَرَكنا مَنزِلًا ... فيهِ شَتّى مِن سِباعِ الأَرضِ غاروا
وَتَرى الطَيرَ عَلى آثارِنا ... رَأيَ عَينٍ ثِقَةً أَن سَتُمارُ
جَحفَلٌ أَورَقُ فيهِ هَبوَةٌ ... وَنُجومٌ تَتَلَظّى وَشَرارُ
تَرَكَ الناسُ لَنا أَكتافَهُم ... وَتَوَلّوا لاتَ لَم يَغنِ الفِرارُ
مُلكُنا مُلكٌ لَقاحٌ أَول ... وَأَبونا مِن بَني أَود خِيارُ
وَلَقَد كُنتُم حَديثاً زَمَعًا ... وَذُنابى حَيثُ يَحتَلُّ الصَغارُ
نَحنُ أَصحابُ شَبًا يومَ شَبا ... بِصِفاحِ البيضِ فيهِنَّ اِظِّفارُ
عَنكُمُ في الأَرضِ إِنّا مَذحِجٌ ... وَرُوَيدًا يَفضَحُ اللَيلَ النَهارُ

وقد حفل شعر الأفوه الأودي بالكثير من المعاني والألفاظ اللغوية النادرة، ولهذا نجد اللغويين دائمًا يستشهدون بأبياته وقصائده.

(١) تعجب بعض المؤرخين من هذا التشبيه الرائع؛ لأنه من المعاني الإسلامية، إذ استغربوا كيف وصف الأفوه الأودي رميه للعدو بالشهب التي ترمى في السماء على الشياطين.

عاش الأفوه الأودي طويلًا، وعندما أحس باقتراب أجله رثى نفسه بأبيات حزينة ومعبرة، ومنها قوله:

ألا عللاني واعلَما أنني غَرَر ... وما خِلتُ يجديني الشفاق ولا الحذرْ
وما خلت يجديني أساتي وقد بدت ... مفاصل أوصالي وقد شخصَ البصرْ
وجاء نساء الحي من غير إمرةٍ ... زفيفًا كما زُفّت إلى العطَن البقرْ
وجاؤوا بماءٍ بارد وبغسلةٍ ... فيا لك من غُسلٍ سيتبعهُ عبرْ
فنائحةٌ تبكي وللنوح درسةٌ ... وأمرٌ لها يبدوا وأمرٌ لها يسَر
ومنهن من قد شقق الخمش وجهها ... مسلّبةٌ قد مَسَّ أحشاءها العبر
فرمّوا لهُ أثوابهُ وتفجَّعوا ... ورنَّ مُرِنَّاتٌ وثار بهِ النغر
إلى حفرةٍ يأوي إليها بسعيهِ ... فذلك بيت الحق لا الصوف والشَّعرْ
وهالوا عليه التُّرب رطبًا ويابسًا ... ألا كل شيءٍ ما سِوى تلك يجتبر
وقال الذين قد شجوت وساءَهم ... مكاني وما يغني التأملُ والنظر
قِفوا ساعةً فاستمتعوا من أخيكمُ ... بقربٍ وذكرٍ صالحٍ حين يذّكر

توفي الشاعر الفارس الأفوه الأودي قبل البعثة المحمّدية بمدة تاركًا للأدب وللتاريخ العربي إرثًا رائعا توراثته الأجيال، وقد اختلفوا في تحديد زمن وفاته، ويرجح البعض أنها قبل الهجرة بحوالي نصف قرن، وهناك بقايا حصن في منطقة نعوة الزاهر بمحافظة البيضاء اشتهر بأنه حصن الفارس الشاعر الأفوه الأودي.

مالك بن فهم الأزدي[1]

ألا من مبلغٍ أبناء فهمٍ مغلغلة عن الرجل اليماني
ومبلغ منهبًا وبني بشيرٍ وسعد اللاة والحي المدانِ
تحية نازحٍ أمسى هواهُ بجنح البحر من أرضي عمانِ
فحلّوا بالسراة وحلَّ أهلي بأرض عمان في حرف الزمانِ
جلبنا الخيل من برهوت شعثًا إلى قلهات من أرضي عمانِ
وبالعرنين كنّا أهل عزٍّ ملكنا بربرًا وقُرى مُعانِ

الملك الأزدي اليماني، أحد دهاة العرب وأبطالهم المشاهير، وقائد معركة (سلوت)[2] الشهيرة، التي اكتست فيها بلاد مزون (عمان) حلّتها العربية وإلى اليوم، مالك بن فهم بن غنم بن دوس بن عدثان بن عبدالله بن زهران بن كعب بن الحارث الأزدي – وهم أزد شنوءة

(١) الأزد أشهر من نار على علم، من كبرى قبائل كهلان اليمانية السبأية، وهم شعوب وقبائل كثيرة لا تُعد، أهل المجد والجاه، انساحوا في جزيرة العرب وانتشروا فيها، والأزد مصنع من مصانع الرجال اليمانية والعربية، أخرجوا عبر تاريخهم العريق هامات وأعلام دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه، ثم كان لهم شرف نصرة الإسلام ورسول الإسلام، فالأوس والخزرج من قبائل الأزد اليمانية، وقد مدحهم رسول الله عليه الصلاة والسلام في عدد من الأحاديث، ومنها الأمانة في الأزد، وقال يأتي على الناس زمان يتمنى المرء أن يكون أزديًا أو أمه أزدية.

(٢) هذه المعركة هي أقدم بكثير من يوم ذي قار الذي يرى البعض أنه أول انتصار عربي على الفرس.

– ثم الكهلاني[1] السبأي القحطاني اليماني.

قاد مالك بن فهم الأزدي جزءًا عظيمًا من قبائل الأزد في هجرتهم المشهورة من بلاد اليمن باتجاه مزون –عمان حاليا- التي كانت تحت الهيمنة الفارسية، وكانت تلك البلاد مليئة بالخيرات، فكان لا بد من الصدام المسلح بين قبائل الأزد ومن معهم من قبائل قضاعة الحميرية، وبين الفرس المستقرين هناك.

جمع الفرس جيشًا كبيرًا لطرد القبائل اليمانية القادمة، وصمم مالك بن فهم الأزدي على طرد الفرس من مزون، وقد كان الجيش الفارسي يتكون من ثلاثين ألف مقاتل، بينما الأزد ومن معهم من قضاعة في ثمانية آلاف، على اختلاف في ذلك.

التقى الجيشان في منطقة سلوت، وقد قدر لهذا الاسم أن يرتبط باسم معركة من أشهر المعارك في التاريخ العربي الجاهلي، وقد تجلت براعة مالك بن فهم الأزدي وحنكته العسكرية في قيادة هذه المعركة بصورة واضحة، حيث قام بتقسيم قواته، فجعل على الميمنة ولده هناءة بن مالك بن فهم، وعلى الميسرة ولده الآخر فراهيد بن مالك بن فهم، وقد اختار موقع المعركة بعناية ودقة، فاستدرج الفرس إلى موقع سلوت الصحراوي الحار، والفرس لم يكونوا معتادين على هذا المناخ، وسرعان ما أثر فيهم ذلك.

---

(١) كهلان بن سبأ أخو حمير بن سبأ، وكهلان هو الجد الجامع للنصف الآخر من قبائل اليمن الكبرى غير الحميرية، كما يرى معظم المؤرخين، ومن كهلان جاءت قبائل همدان، ومذحج، والأزد، وكندة، والأشاعرة، وخثعم، وبجيلة، ولخم، وجذام، وطيء، وعاملة، وهم شعوب وامم عظيمة، ومنهم ملوك وأقيال وأذواء، قال فارس العرب عمرو بن معدي كرب:

آبائي من كهلان أرباب العُلا وبنو الملوك عمومتي من حميرِ

قاد مالك بن فهم الأزدي قلب الجيش اليماني، وجعل فيه أشد الفرسان، بعد أن تم تأمين النساء والأطفال والأموال في المؤخرة.

التحم الجيشان في صراع مرير لمدة ثلاثة أيام، انتصرت فيما بعد البسالة والإقدام والفروسية اليمانية، وكُسر الفرس، وتفرقوا، ودخل الأزد بلاد مزون، وأطلقوا عليها اسم (عمان)[1]، وكانت هذه المعركة بمثابة النصر الأول للعرب على القوات الفارسية، كما يرى معظم المؤرخين.

استقرت الأمور للملك الأزدي مالك بن فهم في المملكة الجديدة عمان، وقد كان كثير الولد، وكلهم على غرار أبيهم حكمة وكرمًا وشجاعة وفروسية ودهاء وسياسة.

كان لمالك بن فهم الأزدي ولد يدعى سُليمة –وهو أصغر ولده– ، وكان شجاعا مقدامًا ورامیا بارعا، تعلم على يد أبيه، وكان محسودا من إخوته، وكان سليمة دائمًا يحرس أباه مالك إذا نام الليل.

قام البعض من أبناء مالك بن فهم الأزدي بوضع مكيدة – حسدا منهم لأخيهم –، فأخبروا أباهم أن سليمة ينام عندما يقوم بحراسته، فقام مالك بن فهم بالتخفي ذات ليلة ليتأكد من ذلك بنفسه، فأنسلَّ في ظلام الليل، واقترب من سليمة من ناحيةٍ أخرى، فأحس به سليمة فرماه بسهم على الصوت فأصابه، فتكلم مالك بن فهم، فعرفه سليمة، فاحتمله، ولكن الإصابة كانت قاتلة، فمات منها مالك بن فهم الأزدي، وذلك قبل الهجرة النبوية بمدة، ومما قاله مالك بن فهم قبل موته في هذه الحادثة:

(١) بوادٍ لهم في بلاد اليمن، ولا زالت عمان تعرف بهذا الاسم إلى اليوم.

جزاه اللّٰه من ولد جزاء سليمة إنُه ساء ما جزاني
أعلمهُ الرماية كل يومٍ فلما اشتد ساعدهُ رماني
فلا ظهرت يداهُ حين يرمي وشُلّت منه حاملة البنانِ
فأبكوا يا بني علي حولًا ورثّوني وجازوا من رماني

وكان سليمة بن مالك قد ندم ندمًا شديدا على تلك الرمية الخاطئة، ومما قال في ذلك:

إني رميتُ بغير ثائرةٍ بيت المكارم من بني غنمِ
ولقد رميت الرُّكب إذ عرضوا بين التليل فروضة النجمِ
فرميت حاميهم بلا علمٍ أن ابن فهمٍ مالكٍ أرمي
فوددتُ لو دفع المنى أحدا إني هناك أصابني سهمي

زهير بن جناب الكلبي

زهير بن جناب بن هبل بن عبدالله بن كنابة بن بكر بن عوف بن عذرة الكلبي ثم القضاعي[1] الحميري.

سيد قبائل قضاعة الحميرية، وفارسها، وشاعرها، كانوا يسمونه الكاهن لصواب رأيه، وله الكثير من الأخبار والوقائع في الجاهلية.

وبما أن العصر الجاهلي كان مليئًا بالصراعات والصدامات القبلية، تارةً على مواقع المرعى، وأخرى على الزعامة والرئاسة، ومّرات على الثارات وغيرها، فقد خاض زهير بن جناب الكلبي في تلك المعمعة بمن معه من قبائل قضاعة الحميرية، وكان منتصرًا في معظمها، ومن تلك الحروب حربه ضد قبائل غطفان.

والسبب أن قبائل غطفان بعد انتصارهم على قبيلة صداء المذحجية في إحدى الوقائع ذاع صيتهم، وكثرت أموالهم، وتفاخروا

---

(١) قضاعة بن مالك بن حمير، أشهر من نارٍ على علم، شعب عظيم من حمير، وهم قبائل كثيرة جدًا، لا يجهل تاريخهم ومجدهم إلا جاهل بالتاريخ العربي، حاول البعض من النسابة التشكيك في أنسابهم الحميرية القحطانية خلال الصراع السياسي في العهد الأموي، وقد أنكر القضاعيون ذلك بشدة، وظلوا يفخرون بحميريتهم ويمانيتهم وإلى اليوم، قال شاعرهم:

برأنا إلى الله من أن يكون أبونا نزار فنرضى نزارا
ولكننا نحن نسل الملوك يمانون أصلًا يمانون دارا

وقال آخر:

إني امرؤٌ حميريٌ حين تنسبني لا من ربيعة آبائي ولا مُضرِ

وكانت قبائل نهد القحطانية ترتجر دائمًا:

يا أيها الداعِ ادعنا وأبشر وكن قضاعيًا ولا تنزَّر
نحن بنو الشيخ الهجان الأزهر قضاعة بن مالك بن حمير
النسب المعروف غير المنكر في الحجر المنقوش تحت المنبر

بذلك، فقال بعضهم: لنتخذن لنا حَرَمًا مثل مكة لا يقتل صيده، فقاموا ببناء ذلك الحرم وسوّروه.

فبلغ ذلك الأمر زهير بن جناب الكلبي، فحلف ألا يكون ذلك أبدا، فجمع قومه، وكانت قضاعة لا تجتمع إلا عليه، فسار إلى غطفان، فصبّحهم، وأوقع بهم، وذبح أحد زعمائهم في موقع ذلك الحرم، ثم رد إليهم من سبى من نسائهم وذراريهم، وقال في تلك الواقعة:

فلم تصبر لنا غطفان لمّا تلاقينا وأَحرِزت النسـ ـاءُ
فلولا الفضل منا ما رجعتم إلى عذراء شـ يمتها الحياءُ
فدونكمُ ديونًا فاطلبوها وأوتارًا ودونكمُ اللقاءُ
فإنا حيث لا يخفى عليكم ليوثٌ حين يحتضـ ـر اللواءُ
نفينا نخوة الأعداء عنا بأرماحٍ أسـ نّتها ظماءُ

ازدادت هيمنة ونفوذ زهير بن جناب الكلبي، فكان يأخذ الإتاوة من القبائل المجاورة لهم، بتكليف من ملك اليمن –مملكة حمير– ، وكانت بكر وتغلب من القبائل التي تدفع الإتاوة لزهير بن جناب الكلبي وملك اليمن.

فحصل أن أصابتهم سنة مجدبة في أحد الأعوام، فلم يستطيعوا جمع المال ودفعه، فأصابهم من ذلك هم شديد، فقام رجل فاتك منهم يدعى ابن زيابة، ودخل على زهير بن جناب الكلبي، وهو نائم، فطعنه بالسيف حتى ظن أنه قتله، فتظاهر زهير بالموت، وخرج ابن زيابة يبشر قبائل بكر وتغلب بقتله لزهير بن جناب، ففرحوا بذلك واستبشروا.

انسل زهير من مضارب بكر وتغلب، فعالجه قومه، فتعافى، وأخذ يجمع الجيوش لغزوهم، فلما علم ابن زيابة بذلك، قال نادمًا:

طعنةٌ ما طعنتَ في غلس الليـ ـل زهيرًا وقد توافى الخصومُ
حين يحمي له المواسم بكرٌ أين بكرٌ وأين منها الحلومُ
خانني السيف إذ طعنتُ زهيرًا وهو سيف مظللٌ مشؤوم

وغزى زهير بمن معه من يمن بكر وتغلب، فاقتتلوا أشد قتال، انهزمت بكر وثبتت تغلب، ثم انهزمت من بعدها، وأُسر كليب وأخوه المهلهل أبناء ربيعة في هذه المعركة، فقال في ذلك زهير بن جناب:

أين أين المفر من حذر الـ ـموت إذ تتقون بالأسلابِ
إذ أسرنا مهلهلًا وأخاهُ وابن عمرو في القيد وابن شهابِ
وسبينا من تغلب كل بيضاء رقود الضحى برود الرضابِ
حين تدعو مهلهلًا يآل بكرٍ ها.. أهذي حفيظة الأحسابِ
ويحكم ويحكم قد أُبيح حماكم يا بني تغلبٍ أنا ابن رضابِ
وهم هاربون في كل فجٍ كشريد النعام فوق الروابي
واستدارت رحى المنايا عليهم بليوثٍ من عامرٍ وجنابِ
فهم ما بين هاربٍ ليس يألوا وقتيلٍ معفّر في الترابِ
فضل العز عزنا حين يسموا مثل فضل السماء فوق السحابِ

وقال أيضًا في هذه المعركة، وهي معركة الحبي:

تبًا لتغلب أن تُساق نساؤهم سوق الإماء إلى المواسم عطّلا
لحقت أوائل خيلنا سرعانهم حتى أسرن على الحبّي مهلهلا
إنا مهلهل لا تطيش رماحنا أيام تنقف في يديك الحنظلا
ولّت حماتُك هاربين من الوغى وبقيت في حِلق الحديد مكبلا
فلأن قُهِرت فقد أسرتك عنوةً ولإن قُتِلت لقد تكون مرملا

طال عمر زهير بن جناب الكلبي، وكبرت سنه، فقد كان من المعمّرين، فاستخلف على قومه ابن أخيه، وهو عبدالله بن عليم، وذات يوم قال زهير بن جناب: ألا أن الحي ظاعن –أي مرتحل–، فقال ابن أخيه: ألا أن الحي مقيم، فقال زهير: من هذا الذي خالفني؟ قالوا ابن أخيك!! فقال مقولته المشهورة، والتي ذهبت مثلًا: (أعدى الناس للمرء ابن أخيه)، ثم يقال بأنه شرب الخمر صرفًا حتى مات[1].

(١) صرفًا أي خالصًا، من دون أن يأكل أو يشرب معه شيء آخر، وبهذه الطريقة انتحر الكثيرون، كما أخبرنا بذلك التاريخ الجاهلي العربي.

عِصَام بن شَهْبَر الجَرْمِيّ

ما أجمل أن يصعد الإنسان على سلّم المجد بجده واجتهاده، فيصل إلى أعلى مراتب الشرف والمنزلة، دون وسيط أو توصية من أحد، أو اعتماد على نسب، أو حسب، أو مال موروث، وإنما كما يقال: كوّن نفسه بنفسه.

عصام بن شهبر – وقيل ابن شهيرة – الجرمي القضاعي الحميري مضرب مثل عند العرب – بل تعدت شهرة هذا الرجل الجغرافيا العربية – شق طريقه إلى الزعامة والمجد والسؤود، حتى قالوا لكل من ارتقى أرفع المناصب بعمله وذكائه – رجل عصامي –، وقالوا أيضًا: كن عصاميا، ولا تكن عظاميا[1].

عمل عصام بن شهبر الجرمي، وهو شاب صغير، في قصر الملك النعمان بن المنذر، اللخمي ملك الحيرة، وكان عاملًا بسيطًا من عمال القصر، ثم استطاع بذكائه وحيويته أن يلفت الأنظار، ويترقى في المهام، حتى صار من أهم رجال قصر الملك، ثم وصل إلى مكانة عالية، وقد ذاع صيته، واشتهر ذكره، وأصبح حديث الناس، ومن المقربين للملك النعمان بن المنذر اللخمي اليماني ملك الحيرة.

اشتهر عصام بن شهبر الجرمي بالذكاء، والدهاء، والكرم، وكان شجاعا مقدامًا توكل إليه المهمات الصعاب، وكان محل ثقة الملك،

(١) أي اعتمد على نفسك كعصام بن شهبر، ولا تعتمد على ذكر أو مكانة آباءك الذين ماتوا، وصاروا عظامًا في قبورهم.

وذراعه الأيمن، وكان حاجبه الأول[1]، قال فيه النابغة الذبياني عندما حجبه عن لقاء الملك:

فإني لا ألومك في دخولٍ ولكن ما ورائك يا عصامُ؟

وقال فيه أيضًا:

نفس عصام سوّدت عصاما وعلمته الكر والإقداما
وصيرته ملكًا هماما حتى علا وجاوز الأقواما

ومما يحكى أنه وصف عند الحجاج بن يوسف رجل بالجهل، وكانت إليه حاجة عند الحجاج، فقال الحجاج: لاختبرنه، ثم قال له حين دخل عليه: أعصامي أنت أم عظامي؟ يريد أشرفت بنفسك أم تعتز بآبائك الذين صاروا عظامًا في قبورهم، قال الرجل: أنا عصامي وعظامي.

فقضى الحجاج حاجته، ثم مكث عنده لمدة، ثم فاتشه، فوجده من أجهل الناس، فقال الحجاج: أصدقني القول وإلا قتلتك، كيف أجبتني بما أجبت لما سألتك؟ قال الرجل: والله لم أعلم أعصامي خير أم عظامي، فخشيت أن أقول أحدها، فأخطئ، فقلت أقول كليهما، فإن ضرني أحدهما، نفعني الآخر، فقال الحجاج: المقادير تصيِّر العي خطيبًا – فذهبت مثلًا.

(١) الحاجب: هو العظم البارز فوق العين، وما عليه من لحم وشعر، وقد سمي حاجبًا؛ لأنه يحجب عن العين أشعة الشمس، وأي شيء قد يؤذيها. أما الحاجب من الناس، فهو الذي يقف أمام الملك، وينظم دخول الناس إليه، ويرتبهم، ويكون محل ثقة الملك، ومستشاره.

ولا يزال العرب وغيرهم حتى يومنا هذا يضربون المثل المشهور بالشخصية المشهورة عصام بن شهبر الجرمي[1]، ولطالما تغنى به الشعراء في أشعارهم مخلدين اسمه وذكره أبد الدهر.

قال البحتري:

ساد الأنام بنفسهِ وجدوده لا مثل ما في الناس ساد عصامُ

وقال ابن سهل الأندلسي:

ونفسي دعتني للشقاء كما دعت عصامًا إلى العلياء نفس عصامِ

(١) جرم بطن من قضاعة، وجرم بطن من طيء، وجرم بطن من بجيلة، وكلها يمانية سبأية قحطانية.

أوس بن حارثة بن لأم الطائي

أحد كرماء العرب وأشرافهم، وزعيم قبيلة طيء اليمانية الكهلانية ومقدمهم، ومن حكماء العرب ودهاتهم، أوس بن حارثة بن لأم الطائي[1].

اشتهر أوس بن حارثة بن لأم الطائي بين العرب بالحلم، والكرم، والشهامة، والفروسية، وليس بغريب، فطيء كرماء العرب وأجوادهم.

كساه الملك النعمان حلّة مذهّبة من بين زعماء العرب وساداتهم، فحسده البعض منهم، فطلبوا من الشاعر المشهور الحطيئة العبسي أن يهجوه مقابل مئة ناقة، فقال الحطيئة:

كيف الهجاء وما تنفكُ صالحةً من آل لأمٍ بظهر الغيب تأتيني

ثم عرضوا ذلك على بشر بن أبي خازم الأسدي، فأخذ الإبل، وهجى سعدى أم أوس بن حارثة بعدة أبيات، فلما علم أوس بذلك

(١) طيء قبيلة كهلانية سبأية مشهورة، هاجروا من بلاد اليمن، واستقروا في شمال الجزيرة العربية، خاصة بين الجبلين أجا وسلمى، وقد أطلق عليهم جبلي طيء، قال ابن خلدون: كانت طيء تسكن الجوف من أرض اليمن، وكانت مناطق طيء في الجوف مدينة براقش، وما يليها من وادي الجوف إلى كسر قشاقش بأعالي حضرموت. قال الهمداني: قال أبو سلمان بن يزيد الطائي:

وأوطن منا في قصور براقشٍ فمأود وادي الكسر كسر قُشاقشِ
إلى قينان كل أغلب رائشٍ بهاليل ليسوا بالدناة الفواحشِ

وقد أخرجت طيء عبر تاريخها هامات وأعلام في الجاهلية والإسلام، فمنها كريم العرب حاتم، ومنها فارس اليمن زيد الخيل.

غزى بني أسد، واستاق الإبل من بشر بن أبي خازم، بعد أن فرَّ، ونجا بنفسه.

أخذ بشر بن أبي خازم الأسدي يتنقل بين القبائل ليجيروه من أوس بن حارثة، فكانوا يقولون له: نجيرك من العرب كلها إلا من أوس.

بعد مدة قُبض على الشاعر بشر بن أبي خازم، فقال يستعطف أوس:

إني لأرجو منك يا أوس نعمةً ... وإني لأخرى منك يا أوس راهبُ
وإني لأمحو بالذي أنا صادق ... جميع ما قد قلت إذ أنا كاذبُ
فهل ينفعنّي اليوم عندك أنني ... سأشكر إن أنعمت والشكرُ واجبُ
فدىً لابن سعدى اليوم كل عشيرتي ... بنو أسد أقصاهم والأقاربُ

فقالت سعدى أطلقوه، فلن يمحو هجاءه إلا مدحه، فأطلقوه وأكرموه، فحلف أن لا يمدح أحدا إلا بني لأم الطائيين، ومما قال:

إلى أوس بن حارثة بن لأمٍ ... ليقضي حاجتي فيمن قضاها
إذا ما راية رُفعت لمجدٍ ... أقاموها لتبلغ مُنتهاها
فما وطأ الثرى مثل ابن لأمٍ ... ولا لبس النعال ولا احتذاها

مالك بن العجلان الخزرجي

زعيم أبناء قيلة في زمانه، ومن دهاة العرب، وفرسانهم المشاهير، وهو الذي مكّن الأوس والخزرج في يثرب، بعد أن غلبوا على يهود، وزاحموهم فيها.

مالك بن العجلان الخزرجي، من بني غنم بن عمرو، وهم القواقل، وهم بيت شرف وزعامة في قبيلة الخزرج اليمانية الأزدية العريقة.

بعد أن هاجرت قبائل الأزد من بلاد اليمن، استقر أبناء حارثة بن ثعلبة في ضواحي يثرب، وهم الأوس والخزرج، وكانت يثرب تسيطر عليها ثلاث قبائل يهودية، وهم بني قريظة، والنضير، وقينقاع.

وقد ذكر الرواة والإخباريون روايتين حول غلبت الأنصار على يثرب، والهيمنة عليها، وتقول الرواية الأولى أن مالك بن العجلان الخزرجي – وكان زعيم الحيين – استعان بإخوانهم الغساسنة – بني جفنة ملوك الشام – ضد اليهود، فحاربوهم، وأوقعوا بهم، وأخذوا سرواتهم، وفي ذلك قالت سارة اليهودية:

بنفسي ألمّة لم تغن شيئًا ... بذي حُرُضٍ تصفّيها الرياحُ
كهولٌ من قريضة أتلفتها ... سيوف الخزرجية والرماحُ
رُزئنا والرزية ذات ثقلٍ ... يمرُّ لأجلها الماء القراحُ

أما الرواية الثانية، فتقول: إن الأوس والخزرج عندما قدموا، استقروا في ضواحي يثرب، وكانوا في أسوأ حال، وكان لليهود في

يثرب ملك يدعى الفطيون، وكان شرسًا خبيثًا محتالًا كثير الأذى للأوس والخزرج، فتحايل مالك بن العجلان الخزرجي عليه، فدعاه إلى وليمة هو وعدد من كبراء اليهود، فأوقع بهم وفتك بهم، فانكسرت شوكة اليهود بعدها، وانتشرت بطون الأوس والخزرج في يثرب، وهيمنوا عليها، فأخذت قبائل اليهود تحتمي وتتحالف مع قبائل الأوس والخزرج، ويقولون إنما نحن جيرانكم ومواليكم، إلا أنهم كانوا يلعنون مالك بن العجلان فيما بينهم، ورسموا صورته في كنائسهم من أجل أن يلعنوه كلما رأوه[1].

قال مالك بن العجلان الخزرجي في ذلك:

تحامى اليهود بتلعانها تحامي الحمير بأبوالها

بعد أن استقرت الأمور للأوس والخزرج في يثرب، وعاشوا لمدة في سلام ووئام، نشبت بينهم حرب سُمير المشؤومة، التي فتحت باب الشر بين الحيين اليمانيين، واستمرت هذه الحروب لأكثر من مئة عام، لم يخمدها إلا قدوم النبي الكريم صلوات ربي وسلامه عليه إلى يثرب – المدينة النبوية المنورة فيما بعد، وكان مالك بن العجلان هو من أشعل وقود هذه الحرب في بداياتها[2].

اشتهر مالك بن العجلان الخزرجي بالشجاعة، وحسن التدبير، والسياسة، وكانت له عادة إذا نزل الحرب، تنكر وغير ملامحه وتلثم،

(١) أيًا كانت صحة الروايتين، فإن الأنصار أبناء قيلة قد غلبوا على يثرب، وهيمنوا عليها، وبقيت قبائل اليهود يعملون في التجارة، كما أنهم لا يتوانون من إثارة النعرات بين الحيين اليمانيين كلما سنحت لهم الفصة.

(٢) سنأتي على ذكر أيامهم وحروبهم في الجاهلية في هذا الكتاب.

كي لا يعرف، وكان من صناديد العرب، ولذلك عيرهُ درهم بن زيد الأوسي قائلًا:

إنك لاقٍ غدًا غواة بني عمّي فانظر ما أنت مَزدهِفَ
فأبد سيماك يعرفوك كما يبدون سـ يماهم فتعترفُ(١)

(١) سنأتي على القصائد كاملة في ذكر أخبارهم وأيامهم.

أحيحة بن الجلاح الأوسي

زعيم قبيلة الأوس في زمانه، وقائدهم في حروبهم، أحد دهاة العرب، وشجعانهم أبو عمرو أحيحة بن الجلاح بن الحريش الأوسي، من بني جحجبي، إحدى بطون الأوس المشهورين بالإقدام والشهامة.

عاش أحيحة بن الجلاح الأوسي في يثرب في زمن الجاهلية قبل البعثة بمدة، وكان من سادات يثرب، وتجارها المعروفين، قال المداني: كان أحيحة سيد يثرب، وكان له حصنان عظيمان، أحدهم وسط المدينة يثرب، ويسمى المستظل، والآخر في ظاهرها، ويسمى الضحيان، وكان ذو مالٍ وفير.

عندما وقع ما وقع بين أبناء قيلة الأوس والخزرج، والتبع أسعد الكامل من قتلهم لعامله على يثرب، عاد التبع بجيشه، وطلب مقابلة زعماء يثرب – قبل حصاره لها –، فكان ممن قدم إليه زعيم الأوس أحيحة بن الجلاح، فأحس أحيحة أن هناك مكيدة لقتلهم، فانسل في ظلام الليل، وأمر جارية له أن تغني كي لا ينتبهوا لهربه، وكان أحيحة بن الجلاح قد قال للجارية، إذا قبضوا عليك، وأوصلوك للتبع قولي له: أغدر بقينة، أو دَع – فذهبت مثلًا عند العرب.

ثم نشبت الحرب بينهم، فكان أحيحة يراميهم بالسهام من فوق حصنه بالنهار، ويرمي لهم بالتمر في الليل، حتى انسحب تبع، وقصته مشهورة عند الرواة والإخباريين.

ذاع صيت أحيحة بن الجلاح الأوسي في الجاهلية، وكان يجير على قبائل العرب، حتى أن خالد بن جعفر الكلابي العامري استجار به لمدة بعد قتله لسيد عبس زهير بن جذيمة، قال خالد بن جعفر:

إذا ما أردت العز في آل يعربٍ فناد بصوتك يا أحيحة تَمنعِ
رأيت أبا عمرو أحيحة جارهُ يبيت قرير العين غير مروّعِ
ومن يأته من خائفٍ ينس خوفه ومن يأتهِ من جائع الجوف يشبعِ
فضائل كانت للجلاح قديمة وأكرم بفخرٍ من خصال أربع

تزعم أحيحة بن الجلاح الأوسي قبيلته الأوس لمدة في حروبهم الدامية مع أخوانهم الخزرج، خاض غمارها، واكتوى بنارها كغيره من أبناء قيلة.

وفي خضم تلك الصراعات والحروب بين الحيين اليمانيين في يثرب، كمن عاصم بن عمرو الخزرجي لعدة أيام لأحيحة بن الجلاح الأوسي أمام حصنه، وكان أحيحة قد أمر بقتل كعب بن عمرو أخا عاصم، ثم علم أحيحة بذلك الكمين، وتناشدوا أشعارًا حماسية سنأتي عليها في أخبار حروبهم وأيامهم في الجاهلية.

وكان مما قال أحيحة في تلك الأيام:

أشدد حيازيمك للموت فإن الموت لاقيكَ
ولا تجزع من الموت إذا حلّ بواديكَ

ومن أشعاره:

أن ترد حربي تلاقي فتىً غير مملوك ولا بَرقة
حتمًا ما غير ذي الذّبِّ أن نُبيع الحزن والحُرمة

كان أحيحة بن الجلاح الأوسي من تجار يثرب المعروفين، وكان يرابي في أمواله، كما ذكر بعض الرواة، وكانت له أكثر من ٩٠ بئرًا في يثرب وضواحيها.

قدم عليه زعيم عبس قيس بن زهير العبسي لما وقع الشر بين عبس وبني عامر بن صعصعة، قال له قيس: نُبئت أن عندك درعا ليس بيثرب مثلها، فإن كانت فضلًا فبعنيها، أو هبها لي، فقال أحيحة: يا أخا عبس ليس مثلي يبيع السلاح، ولا يفضل عنه، ولوا أني أكره أن استلئم إلى بني عامر لوهبتها لك[1].

فسكت قيس عنه أيامًا، ثم عاد، فساومه على الدرع، فغضب أحيحة، وقال وقيس يسمع:

ألا يا قيس لا تسمن دروعي ... فما مثلي يسـ اوم بالدروع
فلولا خلة لأبي حويّ ... وإني لسـ ت عنها بالنزوع
لأبت بمثلها عشرًا وطرفٌ ... لحوق الأطل جياش تليع
ولكن سمّ ما أحببت فيها ... فليس بمنكرٍ غير البيوع
فما هبة الدروع أخا بغيضٍ ... ولا الخيل السوابق بالبديع

وقد كانت هذه الدرع تسمى ذات الحواشي، وهي من الأدرع المشهورة[2].

توفي أحيحة بن الجلاح قبل البعثة بمدة، ولم نعثر على ذكر لتحديد زمن وفاته.

(١) كانت بينه وبين بني عامر صداقة وأحلاف.
(٢) ابتاعها منه قيس بن زهير، وأهداه عشرة أدراع أخرى فوقها هبة منه.

امرؤ القيس بن حجر الكندي

كأني لم أركب جوادا للذةٍ ولم أتبطّن كاعبًا ذات خلخالِ
ولم أسبأ الزِّق الرَّوي ولم أقل لخيلي كُرّي كرةٍ بعد إجفالِ
ولم أشهد الخيل المغيرة بالضحى على هيكلٍ عبلِ الجزارةِ جوّالِ
فلو أنَّما أسعى لأدنى معيشةٍ كفاني ولم أطلب قليلٌ من المالِ
ولـكِنَّما أسعى لمجد مؤثّلٍ وقد يدرِك المجد المؤثّل أمثالي
وما المرء ما زالت حشاشة نفسهِ بمدرك أطراف الخطوب ولا آلِ

شاعر العرب دون منازع، سليل الملوك من كندة الكهلانية السبأية العتيدة، الشهاب الساطع في سماء الشعر العربي، الملك الضليل– ذي القروح– امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر، من بني آكل المرار، ثم من بني معاوية الأكرمين، بيت الزعامة والملك في كندة.

قال مفتخرًا:

ما ينكِر الناس مِنّا حين نملكهم كانوا عبيدا وكنا نحن أربابا

نشأ امرؤ القيس بن حجر الكندي في بيت ملك وزعامة، وكغيرهِ من أبناء الملوك عاش في شبابه حياة ترف ورفاهية ولهو، وكان أبوه حجر ملكًا على بني أسد[1]، وقيل إن الملك حجر أرسل ولده امرء

(١) ذكر بعض المؤرخين أن قبائل معد بن عدنان جاءت إلى الملك الكندي الحارث بن عمرو، وطلبوا منه أن يملّك عليهم أبناءه، فوزع أبناءه ملوكًا على معظم قبائل ربيعة ومضر، فكان حجر – والد امرئ القيس – ملكًا على قبائل بني أسد.

القيس إلى حضرموت – منبع قبائل كندة – كي يتعلم حياة البادية، ويقلع من الشرب والطرب.

عاش الفارس الشاعر الشاب ريعان شبابه في حضرموت، ولطالما تغنى بها في أشعاره، وحن إليها فيما بعد واشتاق إليها.

تطاول علينا الليل دمون(١)

دمون إنا معشر يمانون

دمون إنا لأهلنا لمحبون

وقال أيضًا:

كأني لم أبت بدمّون ليلة ولم أشهد الغارات يومًا بعندلِ(٢)

بينما كان امرؤ القيس في حضرموت، قُتل أبوه الملك حجر على يد رجل من بني أسد، فوصل الخبر إلى امرئ القيس، وهو في مجلس لهوٍ وطرب، وكان لهذه أثر واضح في تغيير مجرى حياته، وقد قال مقولته الشهيرة عندما بلغه خبر مقتل أبيه: رحم الله أبي، ضيعني صغيرًا، وحملني دمه كبيرًا، لا صحو اليوم، ولا سكر غدا، اليوم خمرٌ، وغدا أمرٌ[٣].

وفي تلك الليلة – ليلة بلغ إليه خبر مقتل أبيه رأى برقًا في السماء، فقال:

(١) دمون من قرى وادي حضرموت، ولا زالت عامرة إلى اليوم.

(٢) عندل من مناطق وادي حضرموت.

٣ – هكذا وردت في مراجع عديدة، منها "كتاب معجم الشعراء العرب"، تأليف أبو عبيد الله، محمد بن عمران بن موسى المرزباني، المتوفي ٣٨٤ للهجرة، ص٩٣٦.

أرِقتَ لبرقٍ بليلٍ أهلْ يضيءُ سناهَ بأعلى الجبلْ
بقتل بني أسد ربّهم [1] ألا كل شيءٍ سواه جللْ

وقال متوعدا بني أسد:

تالله لا يذهب شيخي باطلًا حتى أبير مالكًا وكاهِلا[2]

ترك امرؤ القيس بن حجر الكندي حياة الطرب واللهو والمجون، وأخذ يجمع القبائل، ويعد العدة للأخذ بثأر أبيه، فغزى بني أسد، وأمعن فيهم قتلًا، حتى أخذ بثأره[3]، قال في ذلك:

قولا لذودان عبيد العصى ما غرّكم بالأسد الباسلِ
قد قرّت العينان من مالكٍ ومن بني عمرو ومن كاهلِ
ومن بني غنم بن ذودان إذْ نقذف أعلاهم على السافلِ

يعد امرؤ القيس بن حجر الكندي أشعر العرب من دون منازع في الجاهلية، وأكثرهم صيتًا، وأعظمهم ذكرًا، وهو أول من وقف واستوقف، وبكى على الأطلال في قصائده، كما كان ذو غزلٍ فاحش، وكان شعره جزل المعاني، جمع بين خشونة اللفظ، وجميل المعنى، وروعة التشبيه، وهو أول من شبّه النساء بالظباء.

قال الأصمعي: سُئل أبو عبيد، من هو خير الشعراء؟ فقال: امرؤ القيس إذا ركب، والأعشى إذا طَرِب، وزهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، وهذا دليل على أن امرأ القيس بن حجر كان فارسًا مولعا بحب الخيل وركوبها، وممارسة الفروسية وفنونها.

---

(١) يعني أباه، الملك حجر.
(٢) بني مالك وبني كاهل، بطون من بني أسد.
(٣) قيل بأنه أغار على حي من بني كنانة، فأفناهم بالخطأ ظنًا منه أنهم من بني أسد، وهناك روايات تنكر أنه قد أخذ بثأره، لكن أشعاره تثبت عكس ذلك.

لم يخل شعر امرئ القيس من الفخر، والحكمة، والكرم، والشجاعة، والمروءة، وله الكثير من القصائد في هذه الجوانب، وهذا دليل على كرمه، وشجاعته، ونبله، ومن ذلك قوله:

إذا المرء لم يخزن عليه لسانهَ ... فليس على شيءٍ سواه بخزانِ
فإما تريني في رحالة جابرٍ ... على حرجٍ كالقرِّ تخفق أكفاني
فيا رب مكروب كررتُ وراءه ... وعانٍ فككتُ الغل عنهُ ففداني
وفتيان صدقٍ قد بعثتُ بسحرةٍ ... فقاموا جميعا بين عاثٍ ونشوانِ
وخرقٍ بعيدٍ قد قطعت نياطهُ ... على ذات لوثٍ سهلة المَشي مذعانِ

وقوله أيضًا:

ألا أبلغ بني حجر بن عمرو ... وأبلغ ذلك الحيِّ الحريدا
بأني قد بقيتُ بقاء نفسٍ ... ولم أُخلق سِلامًا وحديدا

ومن روائع أشعاره، وأكثرها ذكرًا، قصيدته المعلقة التي قال فيها:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ ... بِسقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدخُول فَحَوْمَلِ
فَتُوْضِحَ فَالمِقْراةِ لَمْ يعفُ رَسْمُهَا ... لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وشَمْأَلِ
تَرَى بعرَ الأَرْآمِ فِي عرَصَاتِهَا ... وَقِيعانِهَا كَأَنَّهُ حَبُّ فُلْفُلِ
كَأَنِّي غَداةَ البَينِ يوْمَ تَحَمَّلُوا ... لَدى سَمُرَاتِ الحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلِ
وُقُوْفًا بِهَا صَحْبِي علَيَّ مَطِيهُمُ ... يقُوْلُوْنَ: لا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ
وإنّ شِفائِي عبْرَةٌ مُهْرَاقَةٌ ... فَهَلْ عِنْد رَسْمٍ دارِسٍ مِنْ مُعوَّلِ؟
كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الحُوَيرِثِ قَبْلَهَا ... وَجَارَتِهَا أُمِّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ
إِذَا قَامَتَا تَضَوَّعَ المِسْكُ مِنْهُمَا ... نَسِيمَ الصَّبَا جَاءَتْ بِرَيا القَرَنْفُلِ
فَفَاضَتْ دمُوْعُ العينِ مِنِّي صَبَابَةً ... عَلَى النَّحْرِ حَتَّى بَلَّ دمْعِي مِحْمَلِي

أَلَا رُبَّ يوْمٍ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٍ ... وَلَا سِيمَا يوْمٌ بِدارَةِ جُلْجُلِ
ويوْمَ عقَرْتُ لِلْعذَارَى مَطِيتِي ... فَيا عجَبًا مِنْ كورها المُتَحَمَّلِ
فَظَلَّ العذَارَى يرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا ... وشَحْمٍ كَهُدابِ الدمَقْسِ المُفَتَّلِ
ويوْمَ دخَلْتُ الخِدرَ خدرَ عنَيزَةٍ ... فَقَالَتْ: لَكَ الوَيلَاتُ!، إنَّكَ مُرْجِلِي
تَقُولُ وقَد مَالَ الغَبِيطُ بِنَا مَعا: ... عقَرْتَ بَعِيرِي يا امْرأَ القَيسِ فَانْزِلِ
فَقُلْتُ لَهَا: سِيرِي وأَرْخِي زِمَامَه ... ولَا تُبْعدِينِي مِنْ جَنَاكِ المُعَلَّلِ
فَمِثْلِكِ حُبْلَى قَد طَرَقْتُ ومُرْضِعٍ ... فَأَلْهَيتُهَا عنْ ذِي تَمَائِمَ مُحْوِلِ
إِذَا مَا بَكَى مِنْ خَلْفِهَا انْصَرَفَتْ لَهُ ... بِشَقٍّ، وتَحْتِي شِقُّهَا لَمْ يحَوَّلِ
ويوْمًا علَى ظَهرِ الكَثِيبِ تَعذَّرَتْ ... علَيَّ، وآلَتْ حَلْفَةً لم تَحَلَّلِ
أفاطِمَ مَهْلًا بَعضَ هَذَا التَّدلُّلِ ... وإِنْ كُنْتِ قَد أزمَعتِ صَرْمِي فَأَجْمِلِي
وَإِنْ تكُ قد ساءتكِ مني خَلِيقَةٌ ... فسُلِّي ثيابي من ثيابِكِ تَنْسُلِ
أغَرَّكِ مِنِّي أنَّ حُبَّكِ قَاتِلِي ... وأنَّكِ مَهْمَا تَأْمُرِي القَلْبَ يفْعلِ؟
وَمَا ذَرَفَتْ عيناكِ إلَّا لِتَضْرِبِي ... بِسَهْمَيكِ فِي أعشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ
وبَيضَةِ خدرٍ لَا يرَامُ خِبَاؤُهَا ... تَمَتَّعتُ مِنْ لَهْوٍ بِهَا غَيرَ مُعجَلِ
تَجَاوَزْتُ أَحْرَاسًا إِلَيهَا وَمَعشَرًا ... علَيَّ حِرَاصًا لَوْ يسِرُّونَ مَقْتَلِي
إِذَا مَا الثُّرَيا فِي السَّمَاءِ تَعرَّضَتْ ... تَعرُّضَ أَثْنَاءَ الوِشَاحِ المُفَصَّلِ
فَجِئْتُ وَقَد نَضَّتْ لِنَوْمٍ ثِيابَهَا ... لَدَى السِّتْرِ إِلَّا لِبْسَةَ المُتَفَضِّلِ
فَقَالَتْ: يمِينَ اللهِ، مَا لَكَ حِيلَةٌ، ... وَمَا إِنْ أَرَى عنْكَ الغَوَايةَ تَنْجَلِي
خَرَجْتُ بِهَا تَمْشِي تَجُرُّ وَرَاءَنَا ... علَى أَثَرَينا ذيل مِرْطٍ مُرَحَّلِ
فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الحَيِّ وانْتَحَى ... بِنَا بَطْنُ خَبْتٍ ذِي حِقَافٍ عقَنْقَلِ
هَصَرْتُ بِفَوْدَي رَأْسِهَا فَتَمَايلَتْ ... علَيَّ هَضِيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَلِ

إذا التفتت نحوي تضوّع ريحُها ... نسيمَ الصّبا جاءت بريا القرنفُلِ
مُهَفْهَفَةٌ بيضَاءُ غيرُ مُفَاضَةٍ ... تَرَائِبُهَا مَصْقُولَةٌ كَالسَّجَنْجَلِ
كَبِكْرِ المُقَانَاةِ البَيَاضَ بِصُفْرَةٍ ... غَذَاهَا نَمِيرُ المَاءِ غَيرُ مُحَلَّلِ
تَصُد وتُبْدي عنْ أسِيلٍ وَتَتّقي ... بِنَاظِرَةٍ مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ
وجِيد كَجِيد الرِّيمِ لَيسَ بِفَاحِشٍ ... إِذَا هِيَ نَصَّتْهُ وَلَا بِمُعطَّلِ
وفَرْع يزِينُ المَتْنَ أسْوَد فَاحِمٍ ... أثِيثٍ كَقِنْوِ النَّخْلَةِ المُتَعثْكِلِ
غَدائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إلى العلا ... تَضِلُّ العقَاصُ فِي مُثَنّى وَمُرْسَلِ
وكَشْحٍ لَطِيفٍ كَالجَدِيلِ مُخَصَّرٍ ... وسَاقٍ كَأُنْبُوبِ السَّقِي المُذَلَّلِ
وتَعطُو بِرَخْصٍ غَيرَ شَثْنٍ كَأَنَّهُ ... أَسَارِيعُ ظَبْيٍ أو مَسَاوِيكُ إِسْحِلِ
تُضِيءُ الظَّلامَ بِالعشَاءِ كَأَنَّهَا ... مَنَارَةُ مُمْسَى رَاهِبٍ مُتَبَتِّلِ
وَتُضْحِي فَتِيتُ المِسْكِ فَوْقَ فِرَاشِهَا ... نَؤُومُ الضُّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عنْ تَفَضُّلِ
إِلَى مِثْلِهَا يَرْنُو الحَلِيمُ صَبَابَةً ... إِذَا مَا اسْبَكَرَّتْ بَينَ دِرْعٍ ومِجْوَلِ
تَسَلَّتْ عَمَايَاتُ الرِّجَالِ عنْ الصِّبَا ... ولَيسَ فُؤَادي عنْ هَوَاكِ بِمُنْسَلِ
أَلَا رُبَّ خَصْمٍ فِيكِ أَلْوَى رَدَدتُهُ ... نَصِيحٍ عَلَى تَعذَالِهِ غَيرِ مُؤْتَلِ
ولَيلٍ كَمَوْجِ البَحرِ أَرْخَى سُدُولَهُ ... عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الهُمُومِ لِيبْتَلِي
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ ... وأَرْدفَ أَعجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ
أَلَا أَيُّهَا اللَّيلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِي ... بِصُبْحٍ، وَمَا الإِصْبَاحُ مِنكَ بِأَمْثَلِ
فَيَا لَكَ مِنْ لَيلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ ... بِكُلِّ مُغَارِ الفَتلِ شُدَّت بِيَذبُلِ
كَأَنَّ الثُّرَيا عُلِّقَت فِي مَصَامِهَا ... بِأَمْرَاسِ كَتَّانٍ إِلَى صُمِّ جَنْدَلِ
وَقَد أَغْتَدِي والطَّيرُ فِي وُكُنَاتِهَا ... بِمُنْجَرِدٍ قَيدِ الأَوَابِدِ هَيكَلِ
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدبِرٍ مَعًا ... كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيلُ مِنْ عَلِ

كَمَيتٍ يزِلُّ اللَّبْد عنْ حَالِ مَتْنِه ... كَمَا زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالمُتَنَزَّلِ
مِسِحٍّ إِذَا مَا السَّابِحَاتُ علَى الوَنَى ... أَثَرْنَ الغُبَارَ بِالكَدِيد المَرَكَّلِ
علَى الذبل جَيَاشٍ كأنّ اهْتِزَامَهُ ... إِذَا جَاشَ فِيهِ حَمْيُهُ غَلْيُ مِرْجَلِ
يزل الغُلَامُ الخِفَّ عنْ صَهَوَاتِه ... وَيلْوِي بِأَثْوَابِ العَنِيفِ المُثَقَّلِ
درِيرٍ كَخُذْرُوفِ الوَلِيد أَمَرَّهُ ... تقلب كَفَّيهِ بِخَيطٍ مُوَصَّلِ
لَهُ أَيطَلا ظَبْيٍ، وَسَاقَا نَعَامَةٍ ... وإِرْخَاءُ سَرْحَانٍ، وَتَقْرِيبُ تَتْفُلِ
كَأَنَّ علَى الكتفين مِنْهُ إِذَا انْتَحَى ... مَداكُ عرُوسٍ أَو صَلايَةَ حَنْظَلِ
وبَاتَ علَيهِ سَرْجُهُ ولِجَامُهُ ... وَبَاتَ بِعيني قَائِمًا غَيرَ مُرْسَلِ
فَعَنَّ لَنَا سِرْبٌ كَأَنَّ نِعاجَهُ ... عذَارَى دوَارٍ فِي مُلاءٍ مُذيل
فَأَدبَرْنَ كَالجِزْعِ المُفَصَّلِ بَينَهُ ... بِجِيد مُعِمٍّ فِي العشِيرَةِ مُخْوِلِ
فَأَلْحَقَنَا بِالهَادِيات ودوْنَهُ ... جَوَاحِرُهَا فِي صَرَّةٍ لَمْ تُزَيلِ
فَعادى عداءً بَينَ ثَوْرٍ ونَعجَةٍ ... دراكًا، وَلَمْ ينْضَحْ بِمَاءٍ فَيغْسَلِ
وَظَلَّ طُهَاةُ اللَّحْمِ مِن بَينِ مُنْضِجٍ ... صَفِيفَ شِوَاءٍ أَو قَدِيرٍ مُعجَّلِ
ورُحْنَا وَرَاحَ الطَّرْفُ ينفض رأسه ... مَتَى ما تَرَقَّ العينُ فِيهِ تَسَفَّلِ
كَأَنَّ دِمَاءَ الهَادِيات بِنَحْرِهِ ... عصَارَةُ حِنَّاءٍ بِشَيبٍ مُرَجَّلِ
وأنت إِذَا اسْتَدبَرْتَهُ سَد فَرْجَهُ ... بِضَافٍ فُوَيقَ الأَرْضِ لَيسَ بِأَعزَلِ
أحارِ تَرَى بَرْقًا أُرِيكَ وَمِيضَهُ ... كَلَمْعِ اليدينِ فِي حَبِي مُكَلَّلِ
يضِيءُ سَنَاهُ أو مَصَابِيحُ رَاهِبٍ ... أَمان السَّلِيطَ بالذُّبَالِ المُفَتَّلِ
قَعدتُ لَهُ وصُحْبَتِي بَينَ حامِرٍ ... وبَينَ إِكام، بُعدمَا مُتَأَمَّلِي
فَأَضْحَى يسُحُّ المَاءَ عن كل فيقةٍ ... يكُبُّ علَى الأَذْقَانِ دوْحَ الكَنَهْبَلِ
وتَيمَاءَ لَمْ يتْرُكْ بِهَا جِذْعَ نَخْلَةٍ ... وَلَا أُطُمًا إِلَّا مَشِيدا بِجَنْدَلِ

كَأَنّ ذُرَى رَأْسِ المُجَيمِرِ غُدوَةً مِنَ السَّيلِ وَالغُثّاءِ فَلْكَةُ مغْزَلِ
كَأَنّ أبانًا فِي أفانين ودقه كَبِيرُ أُنَاسٍ فِي بِجَاد مُزَمّلِ
وأَلْقَى بِصَحْرَاءِ الغَبيطِ بَعاعهُ نُزُولَ اليمَانِي ذِي العيابِ المحملِ
كَأَنّ سباعا فِيهِ غَرْقَى غُدية بِأَرْجَائِه القُصْوَى أَنَابِيشُ عنْصُلِ
علَى قَطَنٍ، بِالشّيمِ، أَيمَنُ صَوْبِه وَأَيسَرُهُ علَى السّتَارِ فَيذْبُلِ
وَأَلْقى بِيسانَ مَع الليلِ بَرْكَهُ فَأَنْزَلَ مِنْهُ العصْمَ مِنْ كُلِّ مَنْزِلِ

امتدادا للعداوات والصراعات القديمة بين ملوك الحيرة – المناذرة اللخميين – ومملكة كندة، قام الملك المنذر ابن ماء السماء بملاحقة امرئ القيس بن حجر الكندي – وكانت مملكة كندة في مرحلة ضعف وتفكك –، فهرب امرؤ القيس بن حجر الكندي باتجاه الشام طلبًا للعون والمدد ضد المناذرة، كما تقول الروايات، وفي طريقه مرَّ على السموأل بن عاديا الأزدي، وترك أمواله عنده[1]، ثم توجه إلى ملك الروم، وكان له رفيق ملَّ من كثرة الأسفار، فقال امرؤ القيس:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنّا لا حقان بقيصرا
فقلتُ له لا تبك عينك إنما نحاول مُلكًا أو نموت فنعذرا

فوصل إلى قيصر الروم، فمكث عنده مدة من دون أن يمده بشيء لحرب المناذرة، فعزم امرؤ القيس على الرحيل، ويقال إن قيصر الروم أهداه حلّة مسمومة، فلما لبسها امتلأ جسمه بالقروح –ولذلك سمي ذي القروح–، وفي طريق عودته إلى بلاده، اشتد عليه المرض،

(١) كان من ضمن الأموال، أدراع حصينة كانت ملوك كندة يتوارثونها، ولهذه الأدراع قصة سنأتي عليها في قصة السموأل.

فجلس بجانب قبر امرأة يقال إنها من بنات الملوك ماتت هناك، فكتب عليه هذين البيتين، كما يقول الرواة:

أجارتنا أن المزار قريبَ وأني مقيمٌ ما أقام عسـ يبَ[1]
أجارتنا أنّا غريبان هاهنا وكل قريب للغريب نسيبُ

فمات في تلك المنطقة، والله أعلم.

(١) عسيب: هو اسم الجبل الذي فيه قبر المرأة.

السموأل بن عاديا الأزدي

أحد شعراء العرب وكرمائها، مضرب مثلٍ في الوفاء بالعهد، والحفاظ على الأمانة، قالت العرب: (أوفى من السموأل).

السموال بن عريض بن عاديا بن رفاعة بن الحارث الأزدي الكهلاني اليماني، صاحب حصن الأبلق الشهير في منطقة تيماء، وقد ذكر بعض المؤرخين أنه كان يدين بالديانة اليهودية.

اشتهر السموأل بن عاديا الأزدي بالكرم، والزعامة، والحكمة، وله الكثير من الأخبار في الجاهلية، وكان من فحول الشعراء في زمانه، وكان ممن يوفون بالعهد، ويحفظون الأمانة، ولو كلفهم ذلك حياتهم.

مرّ عليه امرؤ القيس ابن حجر الكندي في رحلته إلى الشام، وترك عنده دروعًا حربية رائعة؛ كانت لملوك كندة يتوارثونها ملك عن ملك، فعلم بذلك الحارث بن أبي شمر الغساني، فأقبل في جيش إلى منطقة تيماء، فلما رأى السموأل الجيش تحصن في حصنه الشهير (الأبلق)، وكان الجيش قد أخذ ابنًا له من خارج الحصن.

طلب الحارث بن أبي شمر الغساني من السموأل بن عاديا أن يعطيه الأدرع الكندية، فرفض السموأل، فخيروه أن يعطيهم الأدرع الأمانة، أو يقتلون ابنه، ففكر في ذلك السموأل، ثم اتخذ قراره المشهور رافضًا خيانة الأمانة، وإن كلفه ذلك حياة أحب الناس إليه، فذُبِح ابنه خارج الحصن، وانسحب الجيش، حيث لم يكن باستطاعتهم اقتحام حصن الأبلق المنيع، وقد جعلت هذه الحادثة من العرب تقول ضاربة المثل في الوفاء: (أوفى من السموأل).

قال السموأل في هذه الحادثة:

وفيت بأدرعِ الكندي إني ... إذا ما خان أقوام وفيتُ
وقالوا إنهُ كنزٌ رغيبٌ ... ولا والله أغدر ما مشيتُ
بنى لي عاديا حصناً حصيناً ... وبئرًا كلما شئت استقيتُ
طمّرًا تزلق العقبان عنه ... إذا ما نابني ظلمٌ أبيتُ

قال الشاعر الأعشى:

كن كالسموأل إذ طاف الهمام بهِ ... في جحفلٍ كسواد الليل جرّارِ
بالأبلق الفرد من تيماء منزلهُ ... حصنٌ حصينٌ وجارٌ غير غدارِ
إذ سامهُ خطّتي خسفٍ فقال لهُ ... قل ما تشاء فإني سامع حارِ
تعال تلك وغدرٌ أنت بينهما ... فاختر وما فيهما حظٌ لمختارِ
فشكَّ غير طويلٍ ثم قال لهُ ... أقتل أسيرك إني مانع جاري
والصبر منه -قديمًا- شيمةٌ خُلُقٌ ... وزندهُ في الوفاء الثاقب الواري

ومن أجمل قصائد السموأل بن عاديا، وأشهرها، لاميته الرائعة المليئة بالفخر، والحماسة، وعزة النفس، التي قال فيها:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميلُ
وإن هو لم يحمل النفس ضيمُها فليس إلى حسن الثناء سبيلُ
تعيرنا أنّا قليلٌ عديدنا فقلت لها أن الكرام قليلُ
وما قلَّ من كانت بقاياهُ مثلنا شبابٌ تساما للعلا وكهولُ
وما ضرّنا أنّا قليلٌ وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليلُ
وإنا لقوم لا نرى القتل سبّةً إذا ما رأته عامرٌ وسلولُ
صفونا فلم نكدر وأخلص سرّنا إناثٌ أطابت حملنا وفحولُ
وننكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقولُ
إذا سيد منا خلا قام سيد تؤولُ لما قال الكرام فعولُ
وما أخمدت نارٌ لنا دون طارقٍ ولا ذمّنا في النازلين نزيلُ
سلي أنَ جهلتِ الناس عنّا وعنهمٌ فليسوا سواءً عالمٌ وجهولُ

ومن جيد أشعاره:

أِسلم سَلِمت ولا سليم على البلى فني الرجال ذوو القوى ففنيتُ
كيف السلامة إن أردت سلامةً والموت يطلبني ولست أفوتُ
وأقيلُ حيث أرى فلا أخفى لهُ ويرى فلا يعيي بحيث أبيتُ
مَيتًا خُلِقتَ ولم أكن مِن قبلها شيئًا يموت فمتُّ حيث حييتُ
وأموت أخرى بعدها ولأعلَمن إن كان ينفع إنني سأموتُ

توفي السموأل بن عاديا الأزدي حوالي عام ٥٦٠ للميلاد.

مالك بن حريم الهمداني

مفزع الخيل

فارس همدان، وصاحب مغازيها، وأيامها المشهورة في زمانه، مالك بن حريم الوادعي الهمداني[1]، وقائدهم في معركة الرزم الشهيرة، اشتهر بلقب مفزع الخيل، وعرف به فارسًا مقدامًا وجوادا كريمًا وشاعرًا مجيدا.

قال لسان اليمن الهمداني: كان مالك بن حريم في سفر في نفر من قومه متجهين إلى سوق عكاظ – وذلك في الجاهلية –، فأصابهم عطش عظيم، فانتهوا إلى مكان يسمى أجيره، فاصطادوا ظبيا، فجعلوا يفصدون دم الضبي، ويشربونه من شدة العطش، ثم باتوا ليلتهم هناك.

وفي الليل جاءهم شجاع -حية عظيمة– فأثارهم، فدخلت خباء مالك بن حريم، فصاحوا به: يا مالك عندك شجاع، فاقتله، فاستيقظ مفزع الخيل، وقال: أقسمت عليكم إلا كفيتم عنه، فقد دخل في جواري، فكفوا عنه، وذهب الشجاع سالمًا، فقال مالك:

(١) همدان: من كبرى قبائل اليمن، من بني مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ، كانت تسميهم العرب (أحلاس الخيل)، وهم أهل مجد وسؤدد، وزعامة، وذكروا في النقوش المسندية اليمانية القديمة، ومنهم ملوك وأقيال وأذواء، وتنقسم همدان إلى قسمين عظيمين هم حاشد وبكيل. أسلمت قبائل همدان، فسجد النبي عليه الصلاة والسلام، شاكرًا الله سبحانه على إسلام هذه القبيلة العظيمة، وقال السلام على همدان، وكررها ثلاثًا، شاركوا في الفتوحات الإسلامية، فكان لهم الأثر المشهود، وانتشروا في الأمصار المفتوحة، وتاريخ همدان أشهر من نار على علم.

وأوصاني حريم بعز جاري وأمنعه وليس بهِ امتناع
وأدفع ضيمه وأذود عنهُ وامنعهُ إذا امتنع المناع

ثم ارتحلوا في الصباح، وقد أجهدهم العطش، فإذا بهم يسمعون هاتفًا يقول:

يا أيها القومٍ لا ماء أمامكمُ حتى تسوموا المطايا يومها التّعبا
ثم اعدلوا شامةً فالماء عن كثبٍ عين رواء وماء يذهب اللّغبا
حتى إذا ما أصبتم منه ريكُمٍ فأسقوا المطايا ومنه فأملأوا القرِبا

فسار القوم يومهم، ثم عدلوا باتجاه موضع شامة، فوجدوا عين خرّارة، فشربوا، وسقوا، فجاءوا عكاظ، وتسوّقوا منه، وتزودوا.

وفي طريق عودتهم إلى بلاد اليمن، مروا بموضع العين، فلم يجدوا شيئًا، فتعجبوا من ذلك، ثم سمعوا هاتفًا يقول:

يا مالكٌ قد جزاك الله صالحةً هذا وداع لكم مني وتسليمُ
لا تزهدن في اصطناع العرف من أحد إن الذي يحرم المعروف محرومِ
أنا الشجاع الذي أنجيت من رهقٍ شكرت ذلك إن الشكر مقسومِ
من يفعل الخير لا يعدم مغبّته ما عاش، والكفر بعد العرف مذمومِ

ولمالك بن حريم الهمداني عدد من القصائد الرائعة التي حفظها لنا الأدب العربي، ومن هذه القصائد قوله:

جزعت ولم تجزع من الشيب مجزعا وقد فات ربعي الشباب فودعا
ولاح بياض في سواد كأنهُ صوارٌ بجوٍّ كان جدبًا فأمرعا
فإن يكُ شاب الرأس مني فإنني أبيت على نفسي مناقب أربعا
فواحدةٌ أن لا أبيت بغرّةٍ إذا ما سَوامُ الحي حولي تضوّعا
وثانية أن لا أصمّت كلبنا إذا نزل الأضياف حرصًا لنودعا
وثالثةٌ أن لا تقذّع جارتي إذا كان جار القوم فيهم مقذعا
ورابعةً أن لا أحجّل قِدرنا على لحمها حين الشتاء لتشبعا
وإني لأعدى الخيل تقدع بالقنا حفاظًا على المولى المريد ليمنعا
ولا يسأل الضيف الغريب إذا شتى بما زخرت قِدري له حين ودعا
فإن يكُ غثًا أو سمينًا فإنني سأجعل عينيه لنفسه مقنعا
إذا حل قومي كنت أوسط دارهم ولا أبتغي عند الثنّية مطلعا

حاتم الطائي

قالت العرب ضاربةً المثل في الجود، والكرم، والسخاء: (أكرم من حاتم).

أبوعدي، حاتم بن عبدالله بن سعد من بني الغوث، ثم من طيء اليمانية العريقة أحد كرماء العرب، وساداتهم، وشعرائهم، وفرسانهم المشاهير، وكانت منازلهم بين جبلي طيء – آجا وسلمى – التي استقرت فيها قبائل طيء بعد هجرتها من بلاد اليمن قديمًا.

حفظ لنا التاريخ العربي ذكر حاتم الطائي، ولا زال مضرب مثل في السماحة، والكرم حتى اليوم، وقد ارتبط اسمه بالكرم الفياض، والجود، والعطاء، وقد اشتهر حاتم الطائي بعدة مناقب، حيثما نزل عرِف منزله، إذا قاتل غلب، وإذا سُئل وهب، وإذا سابق سبق، وإذا أسر أطلق، وكان يقسم بالله أن لا يقتل أحدًا في الشهر الأصم – رجب –، فكان لذلك قبلة السائلين، والمحتاجين في زمانه، حتى ذاع صيته في جزيرة العرب.

عاش حاتم طيء قبل البعثة بمدة، وكان مسيحيا يدين بالوحدانية، كما تقول بعض المصادر التاريخية، وعندما ظهر النبي -عليه الصلاة والسلام-، أسلم أبناء حاتم الطائي؛ عدي بن حاتم، وسفانة بنت حاتم، ولهم صحبة رضي الله عنهم أجمعين.

وقد ذكر حاتم طيء في عدد من الأحاديث النبوية الشريفة، فعن عدي بن حاتم قال: قلت لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أبي كان يصل الرَّحم، ويفعل ويفعل، فهل له في ذلك من أجر؟ فقال -

عليه الصلاة والسلام-: "إن أباك طلب شيئًا فأصابه – أي الذكر والشهرة –"، رواه أحمد.

وفي حديث آخر، قال -عليه الصلاة والسلام- على سفانة بن حاتم الطائي: (أكرموها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق).

ولحاتم الطائي الكثير من القصص والنوادر المتداولة في التاريخ، والموروث العربي الجاهلي، وقد يكون البعض منها مبالغًا فيه، إلا أن الكثير منها قد تم نقله وتدوينه في كتب التاريخ العربي، والأدب الجاهلي.

ذات يوم نزل عليه ثلاثة من شعراء العرب المشاهير، وهم في طريقهم إلى الملك النعمان اللخمي، وهم عبيد بن الأبرص، وبشر بن أبي خازم الأسدي، والنابغة الذبياني، ولم يكن حاتم الطائي يعرفهم، أو التقى بهم من قبل، بل كان يسمع بذكرهم فقط، فسألوه طعامًا وزادا، فقام فنحر لهم ثلاثًا من الإبل، فتعجبوا من ذلك، وقالوا له: إنما أردنا القرى فقط!!، وتكفينا بكرة واحدة، فقال لهم: قد رأيت وجوهًا مختلفة، وألوانًا متفرقة، فأردت أن يذكر كل واحد منكم ما رأى عند قومه، فمدحوه وذكروه بأشعارهم، ثم قسم بينهم ما بقي معه من الإبل بعد أن عرفهم، فجاء أبوه، فحلف أن لا يساكنه أبدا، فخرج أبوه، ومن معه تاركًا حاتمًا، وفرسه، وجاريته فقط، فقال حاتم:

إني لعف الفقر مشترك الغنى ... وتارك شكلًا لا يوافقهُ شكلي
وشكلي شكلٌ لا يقوم لمثلهِ ... من الناس إلا كل ذي نيقةٍ مثلي
وأجعل مالي دون عرضي جنةً ... لنفسي واستغني بما كان من فضلٍ
وما ضرّني إن سار سعد بأهلهِ ... وأفردني في الدار ليس معي أهلي

سيكفي ابتنائي المجد سعد بن حشرجٍ وأحمل عنكم كلما ضاع من نفلِ
ولي مع بذل المال في المجد صولةٌ إذا الحرب أبدت من نواجذها القحلِ

وفي سنة قحط وجدب، مرّت قافلة من العرب على مضارب حاتم طيء بغية الضيافة، وكانوا يسمعون به ولا يعرفونه، فخرج إليهم – وكان أفطس أسمر اللون قصير القامة –، فقالوا له، وقد ظنوه عبدا من عبيد حاتم: أخبر سيدك أننا ضيوفه الليلة، فغاب قليلًا، وقد اغتم لذلك، ثم عاد إليهم، وقال: إن سيدي حاتم يقرئكم السلام، ويعتذر لكم من قلة الزاد وانعدامه، وقد وهبني لكم، فبيعوني وتزودوا بثمني، فأخذوه معهم، فاشتراه منهم رجلٌ في بلاد اليمن، فجعله حارسًا على بستانه، وما أن نضجت ثمار البستان، ورأى حاتم الناس ينظرون إليها، حتى هاجت نفسه الجياشة بالكرم، وفتح باب البستان، فدخل الناس يقطفون ويأكلون، وعندما جاء صاحب البستان أراد أن يبطش به –وهو لا يعرفه–، فسأله: لماذا صنعت هذا الصنيع؟ فأخبره حاتم أنه الطائي المشهور، وقص عليه قصته، فأكرمه الرجل، وأعاده إلى بلاده معززًا مكرمًا.

مع ما اتصف به حاتم من سخاء، وسماحة، فقد كان شاعرًا مجيدا، حفظ لنا الموروث والأدب العربي الكثير من قصائده الرائعة، ومنها قوله:

أيا ابنة عبدالله وابنة مالك ويا ابنة ذي البردين والفرس الورد
إذا ما صنعتِ الزاد فالتمسي لهُ أكيلًا فإني لست آكله وحدي
أخًا طارقًا أو جار بيتٍ فإنني أخاف مذمات الأحاديث من بعدي
وإني لعبد الضيف ما دام ثاويا وما في إلا تلك من شيمة العبد

قيل بأن امرأته لامته على إنفاق ماله، وعدم إبقاء شيء منه لأهله، فقال في ذلك:

وقائلة أهلكت بالجود مالنا ونفسك حتى ضرَّ نفسك جودها
فقلت دعيني إنما تلك عادتي لكل كريم عادة يستعيدها

ومن روائع أشعاره قوله:

أما والذي لا يعلم السر غيرهُ ويحيي العظام البيض وهي رميمُ
لقد كنت اختار القرى طاوي الحشا محاذرةً من أن يقال لئيمُ
وإني لأستحيي يميني وبينها وبين فمي داجي الظلام بهيم

وكان من كرمه وجوده، أنه يأمر غلمانه في الليل أن يضرموا نارًا عظيمة ليراها السائر، ويهتدي إليها عابر السبيل والمسافر، فيأتي نحوها، فيكرموه ويطعموه، قال في ذلك:

أوقدْ فإن الليلُ ليلٌ قرْ والريح يا واقد ريح صرّ
علَّ يرى نارك من يمرّ وإن جلبت ضيفًا فأنت حُرْ

ومما قال لامرأته ماوية بعد أن أكثرت عتابه:

أماوي أن المال غاد ورائح ... ويبقى من المال الأحاديث والذكرُ
أماوي أني لا أقول لسائلٍ ... إذا جاء يومٌ حلّ في مالي النذرُ
أماوي لا يغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدرُ
أماوي أن المال مال بذلته ... فأوله شكرٌ وآخرهُ ذكرُ
وقد يعلم الأقوام لو أن حاتمًا ... أراد ثراء المال كان لهُ وفرُ
ولا أظلم ابن العم إن كان إخوتي ... شهودا وقد أودى بإخوته الدهرُ
فما زادنا مأوى على ذي قرابةٍ ... غنانا ولا أزرى بأحلافنا الفقرُ

توفي حاتم الطائي قبل البعثة في بلاد طيء، ولا يزال قبره إلى اليوم، وأطلال حصنه في شمال جزيرة العرب –منطقة حائل اليوم– بلاد قبيلة طيء المعروفة.

الأسعر الجُعفي[1]

وسِرَّكَ ما كان في واحدٍ وَسِرَّ الثلاثةِ غيرُ الخَفي

شاعر الفخر والحماسة، وفارس الحرب والقتال، أحد صناديد العرب وأجوادهم، أبو زهير مرثد بن أبي حمران الحارث بن معاوية بن الحارث بن مالك بن عوف بن سعد الجُعفي المذحجي، وإنما سمّي بالأسعر، واشتهر به لقوله:

فلا يدعني قومي لسعد بن مالكٍ إذا أنا لم أَسعر عليهم وأَثقِب

نشأ الأسعر الجعفي يتيمًا، فقد قُتل أبوه وهو صغير، ولم يثأر له أقرباؤه، بل قبلوا بالدية، وباعوا فرس أبيه، وتقاسموا ثمنها، وكان الذي قتل أبا حمران – والد الأسعر – بني مازن من زُبيد.

فلما شب الأسعر الجعفي، وكان من فرسان العرب المعدودين، تتبع قتلة أبيه، فتمكن منهم، قال الهمداني: كان ممن أعان الأسعر الجعفي على قتلةِ أبيه، القيل الحميري في حضرموت ذو مرحب بن معدي كرب بن النعمان، وحمله على فرسٍ له اسمها المُعلّى. قال الأسعر الجعفي في ذلك:

حملوا بصائرهم على أكتافهم وبصيرتي يعدوا بها عتِد وَأَى

(١) جعفي: بطن عظيم من بني سعد العشيرة المذحجيين، ومنهم أعلام وفرسان في الجاهلية والإسلام، وكانت لهم صولات ومآثر في الفتوحات الإسلامية وما تلاها من أحداث الفتنة، ولهم بقية في العراق والشام واليمن، ومنهم الشاعر المتنبي، والإمام البخاري، وغيرهم.

عاصر الأسعر الجعفي الشاعر العربي امرأ القيس بن حجر الكندي في زمانه، وقد غلب على شعر الأسعر الجعفي طابع الفخر، والحماسة، وهذا ربما لطبيعة قبيلته المحاربة، وارتبط شعره بالحرب، ووصفها ووصف الخيل، ومن جيد أشعاره هذه القصيدة الرائعة التي أسموها (مقصورة الخيل)، قال فيها:

هَلْ بَانَ قَلْبُكَ مِنْ سُلَيمَى فَاشْتَفَى ... ولَقَد غَنِيتَ بِحُبِّهَا فِيمَا مَضَى
أَبلِغ أَبا حُمرانَ أَنَّ عشيرَتي ... ناجوا وَلِلنَّفَرِ المُناجينَ التَوى
باعوا جَوادهُمُ لِتَسمَنَ أُمُّهُم ... وَلِكَي يبيتَ على فِراشِهِمُ فَتى
علجٌ إِذا ما اِبتَزَّ عنها ثَوبَها ... وَتَخامَصَت قالَت لَهُ ماذا تَرى
لَكِن قَعيدةُ بَيتِنا مَجفُوَّةٌ ... باد جَناجِنُ صَدرِها وَلَها غِنى
تُقفي بِعيشَةِ أَهلِها مَلبونَةً ... أَو جُرشُعًا عبلَ المَحازِمِ وَالشَوى
مَن كانَ كارِهَ عيشِهِ فَلَيأتِنا ... يلقَ المَنِيةَ أو يؤوبَ لَهُ غِنى
وَلَقَد علِمتُ على تَجَنُّبِي الرَدى ... أَنَّ الحُصونَ الخَيلُ لا مَدرُ القُرى
راحوا بَصائِرُهُم على أَكتافِهِم ... وَبَصيرَتي يعدو بِها عتَد وَأى
نَهد المَراكِلِ لا يزالُ زَميلُهُ ... فَوقَ الرِحالَةِ ما يبالي ما أَتى
أَمّا إِذا اِستَدبَرتَهُ فَتَسوقُهُ ... رِجلٌ قَموصُ الوَقعِ عارِيةُ النَسا
أَمّا إِذا اِستَعرَضتَهُ مُتَمَطِّرًا ... فَتَقولُ هَذا مِثلُ سِرحانِ الغَضا
أَمّا إِذا اِستَقبَلتَهُ فَكَأَنَّهُ ... بازٌ يكَفكِفُ أَن يطيرَ وَقَد رَأى
إِنّي وَجَدتُ الخَيلَ عزًّا ظاهِرًا ... تَنجي مِنَ الغُمّى وَيكشِفنَ الدجى
وَيبِتنَ بِالثَغرِ المَخوفِ طَوالِعًا ... وَيثِبنَ لِلصُعلوكِ جَمَّةَ ذي الغِنى
وَإِذا رَأَيتَ مُحارِبًا وَمُسالِمًا ... فَليبنِي عند المُحارِبِ مَن بَغى
وَخصاصَةُ الجُعفِي ما صاحَبتَهُ ... لا تَنقَضي أَبَدًا وَإِن قيل إنقَضى

إِخوانُ صِدقٍ ما رَأَوكَ بِغِبطَةٍ ... فَإِن اِفتَقَرَت فَقَد هَوى بِكَ ما هَوى
مَسَحوا لِحاهُم ثُمَّ قالوا سالِموا ... يا لَيتَني في القَومِ إِذا مَسَحوا اللِحى
وَكَتيبَةٍ لَبَّستُها بِكَتيبَةٍ ... حَتّى تَقولَ سَراتُهُم هَذا الفَتى
لا يشتَكونَ المَوتَ غَير تَغَمغُمٍ ... حَكَّ الجِمالِ جُنوبَهُنَّ مِنَ الشَذا
يخرُجنَ مِن خَلَلِ الغُبارِ عَوابِساً ... كَأَصابِعِ المَقرورِ أَقعى فَاصطَلى
يتَخالَسونَ نُفوسَهُم بِنَوافِذٍ ... فَكَأَنَّما عَضَّ الكُماةُ على الحَصى
فَإِذا شَدَدتُ شَدَدتُ غَيرَ مُكَذَّبٍ ... وَإِذا طَعَنتُ كَسَرتُ رُمحي أَو مَضى
مِن وُلدِ أَودٍ عارِضي أَرماحَهُم ... أَنهَلتُهُم باهي المُباهي وَاِنتَمى
يا رُبَّ عِرجَلَةٍ أَصابوا خَلَّةً ... دأَبوا وَحارَ دَليلُهُم حَتّى بَكى
باتَت شَآمِيَةُ الرِياحِ تَلُفُّهُم ... حَتّى أَتَونا بَعد ما سَقَطَ النَدى
فَنَهَضتُ في البَرَكِ الهُجودِ وَفي يَدي ... لَونُ المَهَزَّةِ ذو كُعوبٍ كَالنَوى
أَحذَيتُ رُمحي عائِطاً مَكورَةً ... كَوماءَ أَطرافُ العِضاهِ لَها خَلى
فَتَطايَرَت عَنّي وَقُمتُ بِعاتِرٍ ... صَدقِ المَهَزَّةِ ذي كُعوبٍ كَالنَوى
باتَت كِلابُ الحَيِ تَسنَحُ بَينَنا ... يأكُلنَ دَعلَجَةً وَيشبَعُ مَن عفا
وَمِنَ اللَيالي لَيلَةٌ مَزؤودَةٌ ... غَبراءُ لَيسَ لِمَن تَجَشَّمَها هَدى
كَلَّفتُ نَفسي حَدَها وَمِراسَها ... وَعلِمتُ أَنَّ القَومَ لَيسَ بِها غَنا
وَمُناهِبٍ أَقصَدتُ وسط جُموعِهِ ... وَعشارِ راعٍ قَد أَخَذتُ فَما تُرى
ظَلَّت سَنابِكُها على جُثمانِهِ ... يلعبنَ دحروجَ الوَليدِ وَقَد قَضى
وَلَقَد ثَأَرتُ دماءَنا مِن واتِرٍ ... فَاليومَ إِن كانَ المَنونُ قَد اِشتَفى
بانَ الخَليطُ وَلَمْ أُفارِقْ عَنْ قِلى ... نَسِيَ الحَبيبَ وَفَلَّ صَبْوَتَهُ القِلَى
إِنَّ المُحِبَّ إِذَا جَفَاهُ حَبِيبُهُ ... فَكَفَى بِصُحْبَتِهِ عَنَاءً لِلفَتَى

والهَمُّ مَا لَمْ تُمْضِهِ لِسَبِيلِهِ ... لَيسَ المُفَارِقُ يا أَمَيمَ كَمَنْ نَأَى
أَمَلٌ تَبَوَّأَ فِي مَنَازِلِ ذِلَّةٍ ... والمَيتُونَ شِرارُ مَنْ تَحْتَ الثَّرَى
أَحْيَاؤُهُمْ عارٌ عَلَى مَوتَاهُمُ ... ومَتَى تُفَارِقْهُمْ تُفَارِقْ عنْ قِلَى
وإِذَا تُصَاحِبُهُمْ تُصَاحِبُ خَانَةً ... وإِذَا عَوَى ذِيبٌ بِصَاحِبِهِ عَوَى
لا يفْزَعونَ إِلى مَخَافَةِ جَارِهِمْ ... أَمْ هَلْ لِحَتْفٍ رَاصِدٍ مِنْ مُنْتَأَى
هَلْ فِي السَّمَاءِ لِصَاعِدٍ مِنْ مُرْتَقًى ... سِيانِ فِيهِ مِنْ تَصَعلَكَ واقْتَنَى
للّهِ درُّكَ مِنْ سَبِيلٍ واضِحٍ ... إِذْ لا ذَلِيلَ أَذَلُّ مِنْ وادي القُرَى
عَجَبًا عَجِبْتُ لِمَنْ يدنِّسُ عرْضَهُ ... والعرْضُ بَعد ذَهَابِهِ لا يشْتَرَى
والثَّوبُ يخْلَقُ ثُمَّ يشْرَى غَيرُهُ ... ويصُونُ حُلَّتَهُ يوَقِّيهَا الأَذَى
إلا رَوَاكِد بَينَهُنَّ خَصَاصَةٌ ... سُفْعِ المَنَاكِبِ كُلُّهُنَّ قَد اصْطَلَى
ومُجَوَّفاتٌ قَد علا أَجْوَازَهَا ... أَسْآرُ جُرْدٍ مُتْرَصَاتٌ كَالنَّوَى
ومُجَوَّفٍ بَلَقًا مَلَكْتُ عنَانَهُ ... يعدو عَلَى خَمْسٍ قَوَائِمُهُ زَكَا

الشَّنْفَرَى

إِذا أَوحَشَ اللَّيلُ الهِدانَ وَجَدتني هو الأَنسُ لي والمَشرِفِيُّ المُهَنَّدُ

قالت العرب ضاربة المثل: (أعدى من الشنفرى).

الشجاع الفاتك، والشاعر الفحل، الصعلوك والعداء العربي الشهير، صاحب البراري والغفار، أخا الأزد اليمانية، ثابت بن أواس – وقيل عمرو بن مالك – من بني الحجر بن الهنوء، وإنما لقب بالشنفرى لغلظة في شفتيه.

تعددت الروايات في نشأته، ومن أشهرها أنه أُسِر وهو صغير، فعاش في كنف آسريه من بني سلامان – بطن من الأزد –، وقد اتخذه رجلٌ منهم ولدا له، كعادة العرب بالتبني في الجاهلية.

ذات يوم، قال الشنفرى لبنت الرجل الذي تبناه: اغسلي رأسي يا أخيه – وهو لا يشك في أنها أخته –، فأنكرت ذلك، وصاحت به، ولطمته، فغضب لذلك غضبًا شديدا، وألح في السؤال، والبحث حتى أخبروه أنه من بني الحجر بن الهنوء، وأنه أُسِر وهو صغير، فقال في ذلك:

ألا ليت شعري والتلهف خُلّة بما ضربت كف الفتاة هجينها
ولو علمت قعسوس أنساب والدي ووالدها ظلّت تقاصر دونها
أنا ابن خيار الحجر بيتًا ومنصبًا وأمي ابنة الأحرار لو تعلمينها

فأشتد حقده على بني سلامان، وحلف أن يقتل منهم مئة رجل لأنهم أهانوه، واستعبدوه، فتصعلك في البراري والفلوات، وأخذ يشن الغارات على بني سلامان، وأمعن فيهم قتلًا، وذاع صيته، ولحق به الكثير من صعاليك العرب، قال في بني سلامان:

وإني لأهوى أن ألف عجاجتي على ذي كساءٍ من سلامان أو بُرد
وأصبح في العضداء أبغي سراتهم وأسلك خلًّا بين أرباع والسَّرد

وبعد غارات وحروب، وأخبار كثيرة بين الشنفرى وبني سلامان، اشتد طلبهم له بعد أن أمعن فيهم قتلًا، فقال عندما اشتد طلبهم له:

وإني امرؤ أن يأخذوني عنوةً أقرن إلى سنن الركاب وأجنبِ
ويكون مركبك القعود وحدجة وابن النعامة يوم ذلك مركبي

وبعد مطاردات وملاحقات وجهد جهيد، أمسك بنو سلامان بالشنفرى، وكانوا قد كمنوا له على ماء ليلًا، بعد أن أصاب عددا منهم، وقد قيست إحدى قفزاته تلك الليلة، عندما طاردوه، فكانت حوالي عشرين خطوة.

أُسِر الشنفرى، فطلب منه آسريه أن ينشد الشعر، فقال: إنما الشعر على المسرّة، فذهبت مثلًا عند العرب، فقام شاب من بني سلامان – كان الشنفرى قد قتل أباه –، فضرب يد الشنفرى، فأطنها، وكانت بها شامة سوداء، فقال الشنفرى:

لا تبعدي إمّا هلكت شامه فربّ واد قد قطعتِ هامه
وربّ حي أهلكت سوامه ورب خرقٍ قطعت قتامه

ثم قالوا له: أين نقبرك؟ فقال:

لا تقبروني إن قبري محرّم عليكم ولكن أبشري أم عامرِ[1]
إذا احتملت رأسي وفي الرأس أكثري وغودر عند الملتقى ثمَّ سائري
هنالك لا أرجو حياة تسرّني سمير الليالي مبسلًا بالجرائرِ

ثم قتلوه، قيل رماه رجل بسهم في عينه، فمات منها.

رثاه العداء، والشاعر العربي تأبط شرًا في قصيدة طويلة، ومنها:

على الشنفرى سارى الغمام ورائح غزير الكلي وصيب الماء باكرِ
عليك جزاء مثل يومك بالجبي وقد أرعفت منك السيوف البواترِ
وأجمل موت المرء إذ كان ميتًا ولا بد يومًا موته وهو صابرِ
إذا راع روع الموت راع وإن حمى حمى معهُ حرٌّ كريم مصابرِ

لو لم يكن للشنفري من الشعر سوى لامية العرب الشهيرة، لكفاه بها فخرًا وذكرًا وتاريخًا، هذه القصيدة الرائعة في معانيها وجزالة ألفاظها، وتعبيرها الصادق عن حياة العربي وأخلاقه، وكذلك عن حياة الصعاليك العرب.

تناقلها أهل الشعر والأدب، واهتم بها المؤرخون والعلماء، وقاموا بشرحها جملة وتفصيلًا، وحفظوها للأجيال جيلًا بعد جيل.

(١) أم عامر من أسماء الضبع.

(لامية العرب)[1]

أَقيموا بَني أُمّي صُدورَ مَطِيكُم ... فَإِنّي إلى قَومٍ سِواكُم لَأَمَيلُ
فَقَد حُمّت الحاجاتُ واللَيلُ مُقمِرٌ ... وشُدت، لِطياتٍ، مطايا وأرحُلُ
وفي الأرضِ مَنْأًى للكريمِ عنِ الأذى ... وفيها، لمن خاف القِلى، مُتعزّلُ
لَعَمْرُكَ، ما بالأرضِ ضيقٌ على أمرئٍ ... سَرَى راغبًا أو راهبًا وهو يعقلُ
ولي دونكم أهلونَ: سِيد عَمَلّسٌ ... وأرقطُ زُهلولٌ، وَعرفاءُ جيألُ
هم الأهلُ، لا مستودع السرِّ ذائع ... لديهم، ولا الجاني بما جَرّ يخْذَلُ
وكلٌّ أبي باسلٌ، غيرَ أنني ... إذا عرضت أولى الطرائد أبسلُ
وإن مدتْ الأيدي إلى الزاد لم أكن ... بأعجلهم، إذ أجْشَع القومِ أعجلُ
وما ذاك إلا بَسْطَةٌ عن تفضلٍ ... علَيهِم، وكان الأفضلَ المتفضّلُ
وإني كفاني فَقْد من ليس جازيًا ... بِحُسنى، ولا في قربه مُتَعلّلُ
ثلاثةُ أصحابٍ: فؤاد مشيع، ... وأبيضُ إصليتٌ، وصفراءُ عيطلُ
هَتوفٌ من المُلْسِ المُتُونِ يزينها ... رصائع قد نيطت إليها ومِحْمَلُ
إذا زلّ عنها السهمُ حَنّتْ كأنها ... مُرَزّأةٌ ثكلى ترِنُ وتُعوِلُ
ولستُ بمهياف يعشّى سَوامهُ ... مُجَدعةً سُقبانها وهي بُهّلُ
ولا جبأ أكهى مُرِبّ بعرسِهِ ... يطالعها في شأنه كيف يفعلُ
ولا خَرِقٍ هَيقٍ كأن فُؤَادهُ ... يظَلُّ به المكّاءُ يعلو ويسْفُلُ،

(١) قال الفاروق عمر – رضي الله عنه –: علموا أبناءكم لامية العرب، فإنها تعلمهم مكارم الأخلاق.

ولا خالفِ داريةٍ، مُتغَزِّلٍ، يروحُ ويغدو داهنًا يتكحلُ
ولستُ بِعلٍّ شَرُّهُ دونَ خَيرِهِ ألفّ إذا ما رُعته اهتاجَ أعزلُ
ولستُ بمحيار الظّلامِ إذا انتحت هدى الهوجلِ العسيفِ يهماءُ هوجَلُ
إذا الأمعزُ الصّوّان لاقى مناسمي تطاير منه قادحٌ ومُفَلّلُ
أُديمُ مِطالَ الجوع حتى أُميتهُ، وأضربُ عنه الذِّكرَ صفحًا، فأذهَلُ
وأستفُّ تُرب الأرضِ كي لا يرى لهُ علي، من الطّوْلِ، امرُؤ مُتطوِّلُ
ولولا اجتناب الذأم لم يلْفَ مَشربٌ يعاش به، إلا لدي، ومأكلُ
ولكنّ نفسًا مُرةً لا تقيمُ بي على الضيم إلا ريثما أتحولُ
وأطوِي على الخُمص الحوايا كما انطوتْ خُيوطَةُ ماري تُغارُ وتفتلُ
وأغدو على القوتِ الزهيد كما غدا أزلُّ تهاداه التّنائِفُ، أطحلُ
غدا طَاوِيًا، يعارضُ الرّيحَ، هافيًا يخُوتُ بأذناب الشّعاب ويعسِلُ
فلمّا لواهُ القُوتُ من حيث أمّهُ دعا، فأجابته نظائرُ نُحّلُ
مُهَلْهَلَةٌ، شِيبُ الوجوهِ كأنها قِداحٌ بكفي ياسِرٍ تتَقَلْقَلُ
أو الخَشْرَمُ المبعوثُ حثحَثَ دبْرَهُ مَحَابيضُ أرداهُنّ سَامٍ مُعسِّلُ
مُهَرّتَةٌ، فُوهٌ، كأن شُدوقها شُقُوقُ العصِي كالحاتٌ وَبُسّلُ
فَضَجّ، وضَجّتْ بِالبَرَاجِ كأنّها وإياهُ نوْحٌ فوقَ علياء ثُكّلُ
وأغضى وأغضتْ واتسى واتّستْ بهِ مَرَاميلُ عزّاها وعزّتهُ مُرْمِلُ
شَكا وشكَتْ ثم ارعوى بعد وارعوت ولَلصّبرُ إن لم ينفع الشكوُ أجملُ!

وَفَاءَ وفاءتْ بادراتٍ، وكُلُّها، على نَكَظٍ مِمّا يكاتِمُ، مُجْمِلُ
وتشربُ أسآرِي القطا الكُدرُ بعدما سرت قربًا، أحناؤها تتصلصلُ
هَمَمْتُ وَهَمّتْ، وابتدرنا، وأسْدلَتْ وَشَمّرَ مِني فَارِطٌ مُتَمَهِّلُ
فَوَلّيتُ عنها، وهي تكبو لِعقْرِهِ يباشرُهُ منها ذُقونٌ وحَوْصَلُ
كأن وغاها، حجرتيهِ وحولهُ أضاميمُ من سَفْرِ القبائلِ، نُزّلُ،
توافينَ مِن شَتّى إليهِ، فضَمّها كما ضَمّ أذواد الأصاريم مَنْهَل
فَعبّتْ غشاشًا، ثُمّ مَرّتْ كأنها، مع الصُّبْحِ ركبٌ من أُحَاظة مُجْفِلُ
وآلف وجه الأرض عند افتراشها بأهْدأ تُنبيه سَناسِنُ قُحّلُ
وأعدلُ مَنحوضًا كأن فصُوصَهُ كِعابٌ دحاها لاعبٌ، فهي مُثّلُ
فإن تبتئس بالشنفرى أم قسطلٍ لما اغتبطتْ بالشنفرى قبلُ أطولُ
طَرِيد جِنايات تياسرنَ لَحْمَهُ، عقِيرَتُهُ في أيها حُمّ أولُ،
تنامُ إذا ما نام، يقظى عيونُها، حِثاثًا إلى مكروهِهِ تَتَغَلْغَلُ
وإلفُ همومٍ ما تزال تَعودهُ عيادًا، كحمى الرّبع، أوهي أثقلُ
إذا وردتْ أصدرتُها، ثُمّ إنها تثوبُ، فتأتي مِن تُحَيتُ ومن علُ
فإما تريني كابنة الرّمْلِ، ضاحيًا على رقةٍ، أحفى، ولا أتنعلُ
فإني لمولى الصبر، أجتابُ بَزّه على مِثل قلب السِّمْع، والحزم أنعلُ
وأُعدمُ أحْيانًا، وأُغنى، وإنما ينالُ الغِنى ذو البُعدةِ المتبَذّلُ
فلا جَزَع من خِلةٍ مُتكشِّفٌ ولا مَرِحٌ تحت الغِنى أتخيلُ

ولا تزدهي الأجهال حِلمي، ولا أَرى سؤولًا بأعقاب الأقاويلِ أَنمِلُ
وليلةِ نحسٍ، يصطلي القوس ربها وأقطعهُ اللاتي بها يتنبلُ
دعستُ على غطْشٍ وبغشٍ، وصحبتي سُعارٌ، وإرزيزٌ، وَوَجْرٌ، وأفكُلُ
فأيمتُ نِسوانًا وأيتمتُ وِلْدةً وعدتُ كما أبْدأتُ، والليل أليلُ
وأصبح، عني بالغُميصاءِ جالسًا فريقان: مسؤولٌ، وآخرُ يسألُ
فقالوا: لقد هَرَّتْ بِليلٍ كِلابُنا فقلنا: أذِئبٌ عسّ؟ أم عسّ فُرعلُ
فلمْ تَكُ إلا نبأةٌ، ثم هوّمَتْ فقلنا قطاةٌ رِيع، أم ريع أجْدلُ
فإن يكُ من جنٍّ، لأبرحَ طَارقًا وإن يكُ إنسًا، مَاكها الإنسُ تَفعلُ
ويومٍ من الشِّعرى، يذوبُ لُعابهُ، أفاعيه، في رمضائهِ، تتملْمَلُ
نَصَبْتُ له وجهي، ولاكنّ دونَهُ ولا ستر إلا الأتحمي المُرَعبَلُ
وضافٍ، إذا هبتْ له الريحُ، طيرتْ لبائد عن أعطافهِ ما ترجّلُ
بعيد بمسّ الدهنِ والفَلْي عهْدهُ له عبَسٌ، عافٍ من الغسْل مُحْوَلُ
وخَرقٍ كظهر الترسِ، قَفْرٍ قطعتهُ بِعامِلتين، ظهرهُ ليس يعملُ
وألحقتُ أولاهُ بأخراه، مُوفيًا على قُنّةٍ، أُقعي مِرارًا وأمثُلُ
تَرُود الأرَاوِي الصُّحْمُ حَوْلي كأنّها عذَارَى علَيهِنّ المُلاءُ المُذَيلُ
ويرْكُدنَ بالآصَالِ حَوْلِي كأنّني مِنَ العصْمِ أدفى ينْتَحي الكِيحَ أعقَلُ

عمرو بن الإطنابة الخزرجي

قال معاوية بن أبي سفيان: قد وضعت رجلي في الركاب، وهممت بالفرار في صفين، وما ردني إلا قول عمرو بن الإطنابة الأنصاري:

أبت لي عفتي وأبى بلائي وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإقدامي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح

أحد زعماء العرب في الجاهلية، وفارس من فرسانهم، بل يعده بعض المؤرخين من ملوك العرب، عمرو بن عامر بن زيد مناة الكعبي الخزرجي، وقد اشتهر بعمرو بن الإطنابة، والإطنابة هي أمه من بني القين بن جسر القضاعيين، ثم من حمير.

اشتهر عمرو بن الإطنابة الخزرجي بالكرم، والشجاعة، والفروسية، وكان من زعماء يثرب، قاد قومه الخزرج في عدد من المعارك مع إخوانهم الأوس في الجاهلية، وفي إحدى تلك المعارك، وعندما اشتد الوطيس، همّ عمرو بن الإطنابة بالانسحاب والهزيمة، ثم عاد وثبت، وقال قصيدته المشهورة التي يراها بعض المؤرخين من أقوى ما قالته العرب في الإقدام، والشجاعة في الحرب[1].

ألا من مَبلغ الأحلاف عني فقد تَهدى النصيحة للنصيح
فإنكمُ وما تزجون نحوي من القول المُرغّى والصريح

(١) قيل إنه قال هذه القصيدة في معركة بينهم وبين الأوس، كان يتزعم الخزرج فيها، وكان على الأوس معاذ بن النعمان بن امرئ القيس أبو الصحابي سعد بن معاذ.

سيندم بعضكم عجلًا عليهِ وما أثرى اللسان على الجروح
أبت لي عفتي وأبى بلائي وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإقدامي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح
بذي شطبٍ كلوان الملح صافٍ ونفسٍ ما تقر على القبيح
وقولي كلّما جشأت وجاشت مكانكِ تُحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحاتٍ وأحمي بعد عن عرضٍ صحيح
أهين المال فيما بين قومي وأدفع عنهم سُنن المنيح
أبت لي أن أقضي في فعالي وأن أُقضي على أمرٍ قبيح
فأمّا رحت بالشرف المعلّى وأما رحت بالموت المريح
قرت أحسابُنا كرمًا فأبدت لنا الضرّاءُ عن أُدمٍ صحاح
ولم يظهر لنا عقراتِ سوءٍ جمود القطرِ أو بُكءً القراح

لم يشتهر عمرو بن الإطنابة الخزرجي بالشجاعة، والفروسية، والكرم فحسب، بل إنه كان من فحول الشعراء، وقد غلب على شعره الفخر، والحماسة، فتناقلت أشعاره العرب وإلى اليوم، ومن جيد أشعاره ما قاله مفتخرًا بقومه:

إني من القوم الذين إذا ابتدوا بدأوا ببر اللّٰه ثم النائلِ
المانعين من الخنا جيرانهم والحاشدين على طعام النازلِ
والخالطين غنيهم بفقيرهم والباذلين عطائهم للسائلِ
والضاربين الكبش يبرق بيضه ضرب المهنّد عن حياض الناهلِ
والعاطفين على المصاف خيولهم والملحقين رماحهم بالقاتلِ
والمدركين عدوهم بذحولهم والنازلين لضرب كل منازلِ
والقائلين معا خذوا أقرانكم إن المنية من وراء الوائلِ
خزرٍ عيونهمُ إلى أعدائهم يمشون مشي الأُسد تحت الوابلِ

ليسوا بأنكاس ولا مِيلٍ إذا ما الحرب شبت أشعلوا بالشاعلِ
لا يطبعون وهم على أحسابهم يشفون بالأحلام داء الجاهلِ
والقائلين فلا يعاب خطيبهم يوم المقالة بالكلام الفاحلِ

توفي عمرو بن الإطنابة الخزرجي في يثرب، وذلك قبل البعثة.

حُضير الكتائب

قال الشاعر:

لو أن المنايا حِدن عن ذي مهابة لِهبنَ حُضيرًا يوم أغلق واقما
أطاف بهِ حتى إذا الليل جنّهُ تبوأ منهُ منزلًا متناغِما

أحد صناديد العرب في الجاهلية، ومن زعماء القبائل اليمانية في يثرب، زعيم الأوس وفارسها وفتاها في يوم بعاث الشهير، الذي ارتبط به اسمه في التاريخ العربي.

حُضير بن سماك بن عتيك بن امرئ القيس بن زيد الأشهلي الأوسي، والذي عرِف واشتهر بلقب (حضير الكتائب)، وهو والد الصحابي الجليل أسيد بن حُضير الذي ورث الشجاعة والزعامة من أبيه كابرًا عن كابر، كان حضير الكتائب من عظماء الفرسان والمحاربين، وقد خاض في حياته الحروب التي كانت مشتعلة في يثرب بين الحيين اليمانيين الأوس والخزرج، وقد أجمعت على زعامته قبيلة الأوس عندما رأوا حزمه وعزمه وإقدامه وخبرته في مجال الزحوف والمعارك، فتنازل له زعيم الأوس أبو قيس بن الأسلت، وولاه مكانه.

ارتبط اسم حضير الكتائب في التاريخ بيوم بُعاث الشهير، وهو آخر أيام الحروب بين الأوس والخزرج قبل هجرة النبي -عليه الصلاة والسلام- إلى المدينة المنورة، وأشد أيام الحروب ضراوة، إذ كان له الإسهام الأبرز في انتصار الأوس، فبعد أن انهزمت الأوس في بداية المعركة، ورآهم حضير الكتائب ينسحبون فضل الموت على الهزيمة، فنزل وشكَّ فخذهُ بالرمح وصاح: وا عقراه كعقر

الجمل، والله لا أروم حتى أُقتل، فإن شئتم يا معشر الأوس أن تسلموني فأفعلوا، فعطفت عليه الأوس عطفة رجل واحد، وكان النصر حليفهم، وعادت الأوس من ميدان المعركة يحملون زعيمهم، وهو جريح ويرتجزون:

كتيبةٌ زيَّنها مولاها لا كهلها حِدنٌ ولا فتاها

إلا أن الفارس الصنديد لم يعش طويلًا، فقد مات متأثرًا من جراحه بعد أيام من يوم بعاث الدامي الذي قُتِل فيه عظماء الأوس والخزرج، قال الشاعر يرثيه:

أتاني حديث فكذّبتهُ فقالوا خليلك في المرمسي
فيا عين أبكي حضير الندى حضير الكتائب والمجلسِ

وكان موت حضير الكتائب الأشهلي الأوسي، وقد بعث النبي -عليه الصلاة والسلام- في مكة المكرمة.

ذي الغصة الحارثي

أخو بني الحارث بن كعب – جمرة العرب[1] –، وأحد زعماء مذحج اليمانية، من الأبطال المعدودين، قيس بن الحصين بن يزيد بن شداد بن قنّان الحارثي المذحجي، وإنما اشتهر بذي الغصة، لغصة كانت في حلقه عندما يتكلم.

قال ابن الكلبي: رأس الحصين، والد قيس بني الحارث لمدة طويلة، وكان له أربعة أولاد، كان يقال لهم فوارس الأرباع، كانوا إذا حضروا الحرب ولَّى كل واحدٍ منهم ربعها، وكلهم على قدر من الدهاء، والحزم، والفروسية، والكرم، ومنهم قيس بن الحصين.

عندما ظهر النبي -صلى الله عليه وسلم-، وامتدت الدعوة الإسلامية، أرسل إليهم خالد بن الوليد، فأسلمت الحارث بن كعب على يديه، ثم وفدوا على النبي -عليه الصلاة والسلام-، وفيهم قيس بن الحصين – ذي الغصة –، ويزيد بن عبدالمدان، وعدد من زعمائهم، فلما رآهم النبي -عليه الصلاة والسلام- مقبلين قال: من هؤلاء الذين كأنهم من رجال الهند؟ وذلك لعظم وكمال أجسامهم وبنيانهم، فبايعوا النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم سألهم: ما الذي تغلبون به الناس، وتقهرونهم يا بني الحارث، قالوا: لم نقلّ فنذل،

---

(١) الحارث بن كعب جمرة العرب – من أشهر قبائل العرب، وهم أشراف مذحج، كرام الأفعال والأقوال، ضخام الأجسام، مضرب مثل في الشجاعة، والإقدام، قال حسان بن ثابت:

وقد كنا نقول إذا رأينا لذي جسمٍ يُعدّ وذو بيان
كأنك أيها المُعطى بيانًا وجسمًا من بني عبدالمدان

وقال شاعر عربي آخر:

تلوث عمامةً وتجر رمحًا كأنك من بني عبدالمدان

وبني عبدالمدان هم بيت الشرف والزعامة في بني الحارث بن كعب المذحجيين.

ولم نكثر فنتحاسد ونتخاذل، ونجتمع ولا نفترق، ولا نبدأ بظلم أحد، ونصبر عند البأس.

وفي رواية أخرى قالوا: الثبات عند اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء، والصبر عند البلاء، والرضى بمرّ القضاء، والشكر عند الرخاء.

فقال -عليه الصلاة والسلام-: حكماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء.

ثم ولى عليهم قيس بن الحصين – ذي الغصة –، وما هي إلا أشهر قليلة حتى توفي النبي -عليه الصلاة والسلام-.

حاجز بن عوف الأزدي

حاجز بن عوف بن الحارث بن الأختم بن عبدالله بن ذهل السلاماني الأزدي اليماني، أحد فتّاك العرب، وعدائيهم المشاهير الذين يسابقون الخيل عدوًا، ومن الشعراء المجيدين المشهورين بالفخر والحماسة.كان أبوه عوف بن الحارث كبير بني سلامان وزعيمهم، وصاحب لوائهم في حروبهم وغزواتهم، وهو قائدهم في يوم داج مظلم الذي وقع بينهم وبين بني هلال بن صعصعة، فانتصرت بنو سلامان فيه، قال حاجز بن عوف في ذلك اليوم:

صباحك واسلمي عنا أماما ... تحية وامقٍ وعمي ظلاما
بدهدهةٍ يحار الطرفُ فيها ... كحقّة تاجرٍ شدت ختاما
فإن تمسي ابنة السهمي منا ... بعيدًا لا تكلمنا كلاما
فإنك لا محالة أن تريني ... ولو أمست حبالكمُ رماما
بناجية القوائم عيسجورٍ ... تدارك بينها عامًا فعاما
سلي علي إذا أغبرت جمادى ... وكان طعام ضيفهم اللثاما
ألسنا عصمة الأضياف حتى ... يضحى مالهم نفلًا كواما
أبي ربع الفوارس يوم داجٍ ... وعمّي مـالك وضع السهاما
فلو صاحبتنا لرضيتِ منّا ... إذا لم تغبق المائة الغلامـــا

(١) قام بنو هلال بعد ذلك باعتراض عدد من حجاج الأزد في الأشهر الحرم، وقتلوا عدد منهم، فعاد الأزد، فشنوا غارة أخرى على مضارب بني هلال بقيادة عوف بن الحارث، وأصابوا فيهم.

كان حاجز بن عوف الأزدي من العدّائين العرب الذين يسابقون الخيل، سأله أبوه ذات يوم قائلًا: يا بُني، هل جاراك أحد في العدو؟ قال حاجز: ما رأيت أحدا جاراني إلا أطيلس أغيبر من البقوم، فإذا عدونا معا، لم يسبقني، ولم أقدر على سبقه –والبقوم بطن من الأزد. والجدير بالذكر أن الأزد ينتمي إليها أشهر العدائين العرب، ومنها الشنفرى، وأسيد بن جابر، وغيرهم.

ومع أن حاجز بن عوف كان شاعرًا مجيدا إلا أن مصادر التاريخ لم تحفظ لنا الكثير من أشعاره، وهذه الأبيات من قصيدة له يفخر بأفعالهم:

إن تذكروا يوم القرى فإنهَ ... بواء بأيام كثيرٌ عديدها
فنحن أبحنا بالشخيصة واهنًا ... جهارًا فجئنا بالنساء نقودها
ويوم كراء قد تدارك ركضنا ... بني مالك والخيل صعرٌ خدودها
ويوم الأراكات اللواتي تأخرت ... سراة بني لهيان يدعو شريدها
ونحن صبحنا الحي يوم تنومة ... بمحومة يهوى الشجاعٍ وئيدها
ويوم شروم قد تركنا عصابةً ... لدى جانب الطرفاء حُمرًا جلودها
فما رغمت حلفًا لأمرٍ يصيبها ... من الذل إلا نحن رغمًا نزيدها

توفي حاجز بن عوف الأزدي قبل البعثة.

قيس بن الخَطيم الأوسي

وكنت امرءًا لا أسمع الدهر سبةً أُسبُّ بها إلا كشفت غطاءها
وإني في الحرب الضروس موكلٌ بإقدام نفسٍ لا أريد بقاءها(١)
إذا سَقِمت نفسي إلى ذي عداوةٍ فإني بنصل السيف باغٍ دواءها
متى يأتِ هذا الموت لا تبق حاجةً لنفسي إلا قد قضيت قضاءها

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جلس النبي -صلى الله عليه وسلم- في جمع من أصحابه ليس فيهم إلا خزرجي، فأخذوا يتذاكرون معه أيامهم وحروبهم مع إخوانهم الأوس في الجاهلية، فأنشد أحدهم قصيدة قيس بن الخطيم الأوسي التي قالها في يوم بُعاث الشهير:

---

(١) سأل الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان جمعًا من جلسائه: من أشجع العرب؟ قالوا: أفي الشعر يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، فتذاكروا أبياتًا لعامر بن الطفيل العامري، وعمرو بن معدي كرب الزُبيدي، وعمرو بن الإطنابة الخزرجي، فقال عبدالملك بن مروان: أشجع العرب قيس بن الخطيم الأوسي، حين قال:

وكنت امرءًا لا أسمع الدهر سبة أسب بها إلا كشفت غطاءها
وإني في الحرب الضروس موكلٌ بإقدام نفس لا أريد بقاءها

والعباس بن مرداس السلمي عندما قال:

أكر على الكتيبة لا أبالي أحتفي كان فيها أم سواها
ولي نفس تتوق إلى المعالي ستهلك أو أبلّغها مُناها

وأنس بن مدرك الخثعمي عندما قال:

دعوت بني قحافة فاستجابوا فقلت رِدوا فقد طاب الورود
عزمت على إقامة ذي صباح لأمرٍ ما يسوّد ما يسودُ
كأن غمامةً نزلت عليهم من الأصياف ترجسها الرعودُ

أتعرف رسمًا كالطرازِ المذهبِ لعمرة ركبًا غير موقف راكبِ

فلما وصل إلى قوله:

أجالدهم يوم الحديقة حاسرًا كأن يدي بالسيف مخراق لاعبِ

قال النبي -عليه الصلاة والسلام-: أكان كما يقول؟ فأجابه خطيب الإسلام ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي قائلًا: نعم يا رسول الله، فوالذي بعثك بالحق، قد خرج إلينا في سابع يوم من عرسه، عليه غلالة وملحفة، فجالدنا بالسيف، وهو حاسر.

أحد أشهر صناديد العرب في الجاهلية، وشعرائهم الفحول، المشهورين بالفخر والحماسة، شاعر الأوس وفارسها، أبو يزيد قيس بن الخطيم بن عدي بن عمرو بن سواد بن الحارث الغطريف الظفري الأوسي.

ولد قيس بن الخطيم الأوسي في يثرب في حقبة تاريخية مليئة بالصراعات الدموية بين قبيلة الأوس وإخوانهم الخزرج، فأثرت هذه الظروف تأثيرًا واضحًا على حياته، خاصة بعد أن يتِّم وهو صغير، حيث قُتل أبوه الخطيم وجده كذلك، وقيس لا يزال صغيرًا.

شب قيس بن الخطيم فارسًا لا يشق له غبار، ومحاربًا ومصارعا عظيمًا، وما أن علم بمقتل أبيه وجده، حتى هام في طلب الثأر، فتمكن من قاتل أبيه، فقتله رجل من بني الحارث بن الخزرج –، ثم تابع قاتل جده حتى ظفر به، وهو رجل من بني عبد القيس، قال في ذلك مفتخرًا:

ثأرت عديا والخطيم فلم أضع ولاية أشياخ جُعلتُ إزاءها
ضربت بذي الزرّين ربقة مالكٍ فأبت بنفسٍ قد أصبت شفاءها
طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائرٍ لها نفذٌ لولا الشعاع أضاءها
ملكت بها كفي فأنهرت فتقها يرى قائِمٌ من دونها ما وراءها

ذاع صيت قيس بن الخطيم، ولم يشتهر بالشجاعة والفتك فحسب، بل كان من أجمل الرجال وأتمهم خلقةً، أدعج العينين برّاق الثنايا، وكان يتلثم دائمًا بعمامته مخافة افتتان النساء به.

في تلك المرحلة التاريخية كانت الحروب على أشدها بين الحيين اليمانيين في يثرب، وكانت الخزرج تتميز عن الأوس بوجود شاعرها ولسانها حسان بن ثابت الخزرجي، وكان للشعر في هذه المرحلة مكانة خاصة، فما أن شب قيس بن الخطيم حتى قال الشعر، ونبغ فيه، فتغيرت المعادلة، وتعادل ميزان القوى في هذا الجانب، حتى أن البعض يفضله على شاعر الخزرج حسان بن ثابت[1]، وقد وقع بين الشاعرين الكبيرين صولات وجولات شعرية، افتخر كل منهما بقومه ونفسه، وهذه القصائد لا يزال الكثير منها مخزون في كتب الأدب العربي.

يعد قيس بن الخطيم الأوسي من فحول الشعراء العرب، وله الكثير من القصائد الرائعة المليئة بجوامع الكلم، وعظيم المعاني، ومن هذه القصائد قصيدته الرائعة في يوم بعاث الذي كان له عظيم الأثر فيه:

(١) عندما انشد قيس بن الخطيم قصيدته اتعرف رسمًا كاطراد المذاهب للنابغة الذبياني بوجود حسان بن ثابت، قال النابغة الذبياني، يا ابن أخي أنت أشعر الناس.

أتَعرِفُ رَسمًا كَاطِّراد المَذاهِبِ ... لَعمرَةَ وَحشًا غَيرَ مَوقِفِ راكِبِ
ديارَ الَّتي كادت وَنَحنُ على مِنىً ... تَحُلُّ بِنا لَولا نَجاءُ الرَكائِبِ
تَبَدت لَنا كَالشَمسِ تَحتَ غَمامَةٍ ... بَدا حاجِبٌ مِنها وَضَنَّت بِحاجِبِ
وَلَم أَرَها إِلّا ثَلاثًا على مِنىً ... وَعهدي بِها عذراءُ ذاتَ ذَوائِبِ
وَمِثلُكَ قَد أَصبَيتُ لَيسَت بِكَنَّةٍ ... وَلا جارَةٍ وَلا حَلِيلَةِ صاحِبِ
دعوتُ بَني عوفٍ لِحَقنِ دمائِهِم ... فَلَمّا أَبوا سامَحتُ في حَربِ حاطِبِ
وَكُنتُ اِمرِءًا لا أَبعَثُ الحَربَ ظالِمًا ... فَلَمّا أَبَوا أَشعلتُها كُلَّ جانِبِ
أَرِبتُ بِدفعِ الحَربِ حَتّى رَأَيتُها ... عَنِ الدفعِ لا تَزداد غَيرَ تَقارُبِ
فَإِذ لَم يَكُن عَن غايَةِ المَوتِ مَدفَعٌ ... فَأَهلًا بِها إِذ لَم تَزَل في المَراحِبِ
فَلَمّا رَأَيتُ الحَربَ حَربًا تَجَرَّدت ... لَبِستُ مَعَ البُردَينِ ثَوبَ المُحارِبِ
مُضاعَفَةً يَغشى الأَنامِلَ فَضلُها ... كَأَنَّ قَتيرَيها عُيونُ الجَنادِبِ
أَتَت عَصَبٌ مِنَ الكاهِنَينِ وَمالِكٍ ... وَثَعلَبَةَ الأَثرينَ رَهطِ اِبنِ غالِبِ
رِجالٌ مَتى يَدعوا إِلى المَوتِ يَرقَلوا ... إِلَيهِ كَإِرقالِ الجِمالِ المَصاعِبِ
إِذا فَزِعوا مَدوا إِلى اللَيلِ صارِخًا ... كَمَوجِ الأَتِيِّ المُزبِدِ المُتَراكِبِ
تَرى قَصَدَ المُرّانِ تَهوي كَأَنَّها ... تَذَرُّعُ خِرصانٍ بِأَيدي الشَواطِبِ
صَبَحنا بِها الآطامَ حَولَ مُزاحِمٍ[1] ... قَوانِسُ أُولى بَيضَنا كَالكَواكِبِ
لَوَ انَّكَ تُلقي حَنظَلًا فَوقَ بَيضِنا ... تَدَحرَجَ عَن ذي سامِهِ المُتَقارِبِ
إِذا ما فَرَرنا كانَ أَسوَأَ فِرارِنا ... صُدودَ الخُدودِ وَازوِرارَ المَناكِبِ
صُدودَ الخُدودِ وَالقَنا مُتَشاجِرٌ ... وَلا تَبرَحُ الأَقدامُ عِندَ التَضارُبِ
إِذا قَصُرَت أَسيافُنا كانَ وَصلُها ... خُطانا إِلى أَعدائِنا فَنُضارِبِ
أُجالِدُهُم يَومَ الحَدَيقَةِ حاسِرًا ... كَأَنَّ يَدي بِالسَيفِ مِخراقُ لاعِبِ
وَيَومَ بُعاثٍ أَسلَمَتنا سُيوفُنا ... إِلى نَسَبٍ في جِذمِ غَسّانَ ثاقِبِ

(١) مزاحم: حصن لأحد زعماء الخزرج، وهو عبدالله بن أبي بن سلول.

يعرّينَ بيضًا حينَ نَلقى عدوّنا ... وَيغمَدنَ حُمرًا ناحِلات المَضارِبِ
أَطاعت بَنو عوفٍ أَميرًا نَهاهُم ... عنِ السِلمِ حَتّى كانَ أَول واجِبِ
أَوَيتُ لِعوفٍ إِذ تَقولُ نِساؤُهُم ... وَيرمينَ دفعًا لَيتَنا لَم نُحارِبِ
صَبَحناهُمُ شُهباءَ يبرُقُ بَيضُها ... تُبينُ خَلاخيلَ النِساءِ الهَوارِبِ
أَصابَت سَراةً مِنَ الأَغَرِّ سُيوفُنا ... وَغودرَ أَولاد الإِماءِ الحَواطِبِ
وَمِنّا الَّذي آلا ثَلاثينَ لَيلَةً ... عنِ الخَمرِ حَتّى زارَكُم بِالكَتائِبِ[1]
رَضيتُ لَهُم إِذ لا يريمونَ قَعرَها ... إِلى عازِبِ الأَموالِ إِلّا بِصاحِبِ
فَلَولا ذُرى الآطامِ قَد تَعلَمونَهُ ... وَتَركُ الفَضا شورِكتُمُ فِي الكَواعِبِ
فَلَم تَمنَعوا مِنّا مَكانًا نُريدهُ ... لَكُم مُحرِزًا إِلّا ظُهورَ المَشارِبِ
فَهَلّا لَدى الحَربِ العوانِ صَبَرتُم ... لِوَقعتِنا وَالبَأسُ صَعبُ المَراكِبِ
ظَأَرناكُمُ بِالبَيضِ حَتّى لَأَنتُمُ ... أَذَلُّ مِنَ السُقبانِ بَينَ الحَلائِبِ
وَلَمّا هَبَطنا الحَرثَ قالَ أَميرُنا ... حَرامٌ عَلَينا الخَمرُ ما لَم نُضارِبِ
فَسامَحَهُ مِنّا رِجالٌ أَعِزَّةٌ ... فَما بَرِحوا حَتّى أُحِلَّت لِشارِبِ
فَلَيتَ سُوَيدًا راءَ مَن جُرَّ مِنكُمُ ... وَمَن فَرَّ إِذ يَحدونَهُم كَالجَلائِبِ
فَأُبنا إِلى أَبنائِنا وَنِسائِنا ... وَما مَن تَرَكنا في بُعاثٍ بِآئِبِ
وَغُيبتُ عن يومٍ كَنَتني عَشيرَتي ... وَيومُ بُعاثٍ كانَ يومَ التَغالُبِ

(١) قيل إنه حضير الكتائب، وقد حلف أن لا يشرب الخمر إلا بعد النصر في المعركة، وقيل أبي عامر بن صيفي أحد زعماء الأوس، وهو والد حنظلة غسيل الملائكة.

وقد كان ابن الخطيم جوادا كريمًا ذا سخاء، قال في ذلك:

وليس بنافع ذا البخل مالٌ ولا مُزرٍ بصاحبهِ السخاءُ
وبعض الداء ملتمس شفاهُ وداء النّوكِ ليس لهُ شفاءُ
يود المرء ما تَعد الليالي وكان فناؤُهُنَّ لهُ فناءُ
كذاك الدهر يصرف حالتيهِ ويعقِبُ طلعة الليل المساءُ
فإن الضغط قد يحوي وعاءً ويتركهُ إذا فرغ الوعاءُ
وما مُلِئ الإناء وشُد إلا ليخرج ما بهِ امتلأ الإناءُ

ولهُ في مدح قومه الأوس، والفخر بهم، وبأفعالهم:

أتت عصبةٌ للأوس تخطر بالقنا كمشي الأسود في رشاش الأهاضبِ
فإن غِبتُ لم أغفل وإن كنت شاهدا تجدني شديدا في الكريهة جانبي
بسيف كأن الماء في صفحاتهِ طحارير غيمٍ أو قرون جنادبِ

ومن جيد قوله في الغزل، وهذه الأبيات من قصيدة طويلة:

بين شكول النساءِ خِلقتُها قصد فلا جَبلَةٌ ولا قضَفُ
تغترق الطّرف وهي لاهيةٌ كأنما شَفّ وجهها نُزُفُ
قضى لها الله حين يخلقها الـ ـخالق ألّا يكنّها سَدفُ
تنام عن كُبرِ شأنِها فإذا قامت رويدا تكاد تنغَرِفُ
حوراءُ جيداءُ يستضاء بها كأنها خوط بانةٍ قَصِفُ

بعد أن بُعث النبي -عليه الصلاة والسلام- في مكة، التقاه قيس بن الخطيم، فقرأ عليه النبي -عليه الصلاة والسلام- القرآن بعد أن دعاه إلى الإسلام، فأعجب قيس بذلك، وطلب من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يمهله حتى ينظر في أمره، وقد أوصاه النبي بزوجته – حواء بنت يزيد الأنصارية –، وكانت قد أسلمت، فاستوصى بها قيس، فلما بلغ ذلك النبي -عليه الصلاة والسلام-، قال: (وفى الأديعج)[1].

بعد أن هدأت الحرب نسبيا بين الأوس والخزرج بعد يوم بعاث، تذاكر نفر من الخزرج قيس بن الخطيم الأوسي ونكايته بهم، فتآمروا على قتله، وعزموا على ذلك.

وفي عشية إحدى الليالي خرج قيس بن الخطيم من منزله، فمر بجانب أطم – حصن – لبني حارثة بن الخزرج، فرمي من الأطم بثلاثة أسهم، فوقع أحدها في صدره، فصاح صيحة عظيمة سمعها بعض من قومه بني ظفر، فجاءوا إليه، فحملوه إلى منزله، ثم عزموا على قتل كفؤ له من الخزرج، فاختاروا أبا صعصعة يزيد بن عوف بن مدرك النجاري الخزرجي، فأنسل إليه نفر منهم إلى منزله فقتلوه، وجاءوا إلى قيس، وهو في الرمق الأخير، فأخبروه أننا قد أخذنا بثأرك، فقال لهم: ويلكم إن لم يكن أبا صعصعة، قالوا: بل هو أبو صعصعة، فلم يلبث حتى مات، وذلك قبل الهجرة بحوالي عامين.

(١) وقيل إن هذه القصة وقعت لقيس بن شماس الخزرجي.

عمرو بن بّراق

أخو همدان –أحلاس الخيل– وشاعرها، أحد الفُتّاك العرب المعروفين، ومن العدائين الذين يسابقون الخيل، عمرو بن الحارث بن عمرو بن منبّه النهمي الهمداني، وبرّاق اسم أمه، واشتهر بها، وقيل برّاقة، وهو صاحب الأبيات المشهورة:

متى تجمع القلب الذكي وصارمًا وأنفًا حميا تجتنبك المظالمِ
وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم فهل أنا في ذا يآل همدان ظالمِ
فلا صلح حتى تعثر الخيل بالقنى وتضرب بالبيض الرّقاق الجماجمِ

شب عمرو بن برّاق شجاعًا مقدامًا فاتكًا، وله الكثير من الأخبار في الجاهلية، وقيل إنه تصعلك، وهام في البراري والقفار مع الشنفرى، وتأبط شرًّا، وأمثالهم، وكان شاعرًا مجيدا غلب على شعره الفخر، والحماسة، ولكنه لم يكن يخلو من حكمه، ومن أقواله:

ألا هل للهموم من انفراجِ وهل لي من ركوب البحر ناجِ
أكلُّ عيشةٍ روراء تهوي بنا في مظلم الغمران ساجي
كأن قواذف التيار فيها نِعاجٌ يرتمين إلى نِعاجِ
يشق الماء كلكِلها مُلِمًّا على تِبَجٍ من الملح الأجاجِ

طال عمر عمرو بن بَرّاق، وأدرك الإسلام، وقيل إنه وفد على الفاروق عمر بن الخطاب، وهو شيخ كبير أعرج، وأنشده هذه الأبيات:

إنك مُسترعا وإنَّا رعيةٌ وإنّك مدعوَّ بسيماك يا عمر
أرى يوم شرٍّ شرُّهُ متفاقِمٌ وقد حمَّلتك اليوم أحسابها مُضر

ولعل من أشهر قصائده التي بقيت محفوظة في ذاكرة الأدب العربي، ميميته المشهورة التي قال فيها:

تقول سَليمى لا تعرّض لِتلفةٍ وليلك عن ليل الصعاليك نائِمُ
وكيف ينام الليل من جل مالِهِ حسام كلون الملح أبيض صارِمُ
صموتٌ إذا عضّ الكريهة لم يدع بها طَمعا طوع اليدين مكارِمُ
ألم تعلمي أن الصعاليك نوحهم قليلٌ إذا نام الخلي المُسالِمُ
جُرازٌ إذا مَس الضريبة لم يدعِ بها طمعا طوعِ اليدين مُكارِمُ
إذا الليل أدجى واَلفهد ظلامه وصاح من الأَفراط بومٌ جواثِمُ
ومال بأصحاب الكرى غالباتُهُ فإني على أمر الغواية حازِمُ
كذبتم وبيت الله لا تأخذونها مراغمةً ما دام للسيف قائِمُ
تحالف أقوامٌ عليّ ليسلموا وجرّوا علي الحرب إذا أنا سالِمُ
أفاليوم أدعى للهوادة بعدما أُجيل على الحي المُذاكي الصلادِمُ
كأن حريمًا إذ رجا أن أردها ويذهبُ مالي يا ابنة القوم حالِمُ
متى تجمع القلب الذكي وصارمًا وأنفًا حميًّا تجتنبك المظالِمُ
ومن يطلب المال المُمنّع بالقنا بعيش مُثريًا أو تخترمهُ المخارِمُ
وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم فهل أنا في ذا يآل همدان ظالِمُ
فلا صلح حتى تقدح الخيل بالقنا وتضرب بالبيض الرقاق الجماجِمُ
ولا أمن حتى تغشم الحرب جهرةً عبيدة يومًا والحروب غواشِمُ
أمستبطئٌ عمرو بن نعمان غارتي وما يشبه اليقظان من هو نائِمُ

إذا جرّ مولانا علينا جريدةً صبرنا لها إنا كرامٌ دعائمَ
وننصر مولانا ونعلم أنهُ كما الناس مجرومٌ عليهِ وجارِمُ[1]

(١) قال هذه القصيدة عندما أغار رجل من همدان يدعى حُريم على إبل وخيل لعمرو بن بّراق، فاستاقها، فأتى عمرو بن بّراق امرأة كان يتحدث إليها، فأخبرها أن حريم أخذ إبله وخيله، وإنه عازم على استعادتها، فقالت له: ويحك لا تعرض لتلفات حُريم – وكان حريم فاتكًا مشهورًا –، فإني أخافه عليك، فخالفها عمرو بن براق، فأغار على أنعام حريم، فاستعاد إبله وخيله، وفوقها من أموال حريم، فلحق به حريم، وطلب منه أن يرد أمواله، فرفض ابن بّراق، وقال هذه القصيدة المشهورة بميمية العرب.

الأسد الرهيص الطائي

وزر بن جابر بن سدوس بن أصمع النبهاني الطائي، وقيل زرّ بن جابر، أحد فُتّاك العرب وفرسانهم المشاهير، وليس بغريب، فالشجاعة والفتك والفروسية من خصال قبيلته طيء اليمانية الشهيرة.

عاش وزر بن جابر النبهاني في منطقة تسمى الشراة بالقرب من جبلي آجا وسلمى ـ وهي من بلاد طيء ـ وكانت منطقة الشراة تشتهر بأنها مليئة بالأسود والضواري، وكان وزر بن جابر النبهاني يمارس صيد الاسود بمفرده، فذاع صيته عند العرب واشتهر عندهم بلقب الأسد الرهيص أو الليث الرهيص.

وقد ذكر أهل التاريخ والأنساب أن الأسد الرهيص هو الذي قتل الفارس العربي المشهور عنترة بن شداد العبسي[1]، قال صاحب الأغاني: أغار عنترة بن شداد على ديار بني نبهان الطائيين فطرد لهم طريدة وهو شيخ كبير فجعل يرتجز:

آثار ظُلمانٍ بقاع محربِ

فخرج اليه الأسد الرهيص ـ وكان في فتوّة ـ فرماه وقال: خذها وأنا ابن سلمى، فقطع مطاه ـ اي ظهره ـ فتحامل عنترة بالرمية حتى اتى اهله وهو جريح وقال:

---

١ – أبو الفوارس عنترة بن شداد العبسي الغطفاني ثم القيسي المضري العدناني، أحد فرسان العرب وشعرائها المشهورين بالفخر والحماسة، ولد لأمة حبشية وابوه من سادات عبس، فألحقه ابوه بنسبه لما رأى من شجاعته وفروسيته، ولعنترة الكثير من الأخبار والاشعار في الذاكرة العربية وكان فارسًا شهمًا وشاعرًا فحلًا غلب على شعره الفخر والحماسة وعزة النفس والغزل العفيف، قتل وهو شيخ كبير على يد وزر بن جابر النبهاني الطائي كما تقول الروايات العربية.

وإن ابن سلمى عندهُ فاعلموا دمي
وهيهات لا يرجى ابن سلمى ولا دمي
يحل بأكناف الشعاب وينتمي
مكان الثريا ليس بالمتهضمِ
رماني ولم يدهش بأزرق لهذمٍ
عشية حلوا بين نعفٍ ومخرمِ

ثم مات منها.

وقال ابن الكلبي: وكان الذي قتل عنترة يلقب بالأسد الرهيص الطائي؛ وذكر بعض الرواة والإخباريين ان الاسد الرهيص وفد على الملك النعمان بن المنذر اللخمي -ملك الحيرة- فسأله النعمان: كيف كان قتلك لأسود عبس؟ فقال: ألخفتهُ في الكبة، فطعنته في السُبة، فأخرجتها من اللبّة، فقال الملك: هل قلت في ذلك شعرًا؟ قال: نعم، قال: فانشدنيه، فقال الأسد الرهيص:

ايها السائل عني إنني غير رعديد ولا وانٍ رعش
القح الحرب إذا ما حملت وأرد الخيل بالطعن الحفش
والاقي القرن ان نازلني في احتدام الروع في الجلد الأفش
ولقد أوجرت يوماً عنترا طعنةً كالعط في الشن القبش
فثوى منها على خيشومهِ ساجدًا والحرب تحمي وتحش

وفي مقتل عنترة قال أحد سادات عبس وهو الربيع بن زياد العبسي:

فإن تكُ طيءٌ خلجت أخانا وما نلنا بهِ منهم بواءَ
فإن الوتر بعد الموت يحيى كما أذكيت بالحطب الصلاءَ

ومما قاله الأسد الرهيص في قتل عنترة:

انا الأسد الرهيص فمن يسلني أخبرهُ كبـائـر ما فـعـلتُ
قتلتُ محلّمًا وأسرتُ عـمـرًا وعنترة الفوارس قد قتلتُ[1]

أدرك الأسد الرهيص الاسلام وكان في الوفد الذي وفد على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة المنورة ومنهم زيد الخيل بن مهلهل الطائي، فأسلم الوفد جميعًا الا الأسد الرهيص فقد قال: إني لأرى رجلًا ليملكن رقاب العرب، والله لا اجعله يملك رقبتي أبدًا، ثم توجه إلى بلاد الشام فحلق رأسه وتنصر ومات على ذلك والله أعلم.

١ – وهناك روايات اخرى تقول ان عنترة اسر الاسد الرهيص وسمل عينيه فأعماه، فاخذ الأسد الرهيص يتعلم الرماية بالنبل على الصوت فلا يخطئ، وقد عزم على قتل عنترة، فأمر احد عبيده أن يأخذه لمضارب عنترة فما ان سمع صوته حتى رماه بسهم مسموم فأصابه ومات عنترة من هذا السهم، والله اعلم.

يزيد بن عبدالمدان الحارثي

يزيد بن عبدالمدان بن الديان بن قطن بن زياد الحارثي المذحجي، أحد أشراف اليمن ووجهاؤهم، أخو الحارث بن كعب –جمرة العرب– السيد المطاع في قومه، صاحب الأخبار المذكورة في الجاهلية، قال فيه الشاعر والفارس العربي دريد بن الصمة الجشمي الهوازني:

مدحت يزيد بن عبدالمدان فأكرم بهِ من فتىً ممتدح
إذا المدح زان فتى معشرٍ فإن يزيد يزين المدح
حللت به دون أصحابهِ فأورى زنادي لمّا قدح
ورد النساء بأطهارها ولو كان غير يزيد فُضح
وفك الرجال فكل امرئٍ إذا أصلح الله يومًا صلح
رأيت أبا النضر في مذحجٍ بمنزلة الفجر حين اتضح
إذا قارعوا عنه لم يقرعوا وإن قدموه لكبشٍ نطح
فذاك فتاها وذو فضلها وإن نـابـجٍ بـفـخارٍ نـبـح[1]

ذكر ابن الكلبي والأصمعي أن يزيد بن عبدالمدان وعامر بن الطفيل العامري كانا في سوق عكاظ، فقدم أمية بن الأسكر المدلجي الكناني إلى السوق، ومعه ابنةً له من أجمل نساء زمانها، فخطبها يزيد وعامر، فقالت أم الفتاة: من هؤلاء؟ قال أمية: هذا يزيد بن عبدالمدان الحارثي، وهذا عامر بن الطفيل العامري، فقالت: أعرف

(١) هذه القصيدة قالها دريد بن الصمة بعد أن قام قيس بن عاصم المنقري التميمي بأسر عدد من أهله، فطاف هذا الشاعر بعدد من قبائل العرب كي يتدخلوا عند قيس بن عاصم ليفك الأسرى، فلم يجبه أحد، فلما لجأ إلى يزيد بن عبدالمدان رحب به، وأرسل إلى عاصم المنقري بفك الأسرى وله ما شاء من الفداء، فقام عاصم بفك الأسرى.

بني الديان، ولا أعرف عامرًا. قال أمية: هل سمعت بملاعب الأسنة، قالت: نعم، قال هذا ابن أخيه، ثم تفاخر عامر ويزيد، فقال أمية بن الأسكر: بخ بخ مرعىً، ولا كالسعدان، فأرسلها مثلًا، فقال يزيد بن عبدالمدان العامر: يا عامر هل تعلم شاعرًا من قومي رحل بمدحه إلى رجل من قومك؟ قال عامر: اللهم لا، قال: فهل تعلم أن شعراء قومك يرحلون لمدح قومي؟ قال عامر: اللهم نعم، قال يزيد: فهل لكم نجم يمانٍ؟ أو بُرد يمان؟ أو سيفٍ يمانٍ، أو ركنٍ يمانٍ؟ قال: لا، قال: هل ملكناكم ولم تملكونا؟ قال: نعم، فنهض يزيد وأنشأ يقول:

أَمي يا بن الأسكر بن مدلج لا تجعلن هوازنًا كمذحج
إنك أن تلهج بأمرٍ تلجج ما النبع في مغرسهِ كالعوسج
ولا الصريح المحض كالممزج

فزوج أمية بن الأسكر ابنته ليزيد بن عبدالمدان الحارثي، فقال يزيد في ذلك:

يا للرجال الطارق الأحزانِ ولعامر بن طفيلٍ الوسنانِ
كانت إتاوة قومه لمحرقٍ زمنًا وصارت بعد للنعمانِ(١)
عد الفوارس في هوازن كلها فخرًا علي وجئتُ بالديانِ
فإذا لي الشرف المبين بوالد ضخم الدسيعة زانني وزماني
فاسأل عن الرجل المنوّه باسمه والمدافع الأعداء عن نجرانِ
يعطى المقادة في فوارس قومهِ كرمًا لعمرك والكريم يماني

أدرك يزيد بن عبدالمدان الحارثي البعثة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم، وكان على رأس وفد قومه الحارث بن

(١) محرَّق والنعمان: ملكين من ملوك الغساسنة والمناذرة، وكلهم يمانية.

كعب إلى المدينة المنوّرة، هو وقيس بن الحصين، ذي الغصة، وغيرهم من أبطال اليمانية، حيث أعلنوا إسلامهم، وبايعوا النبي -عليه الصلاة والسلام-، ثم عادوا إلى نجران، ولم تمض مدة يسيرة حتى توفي النبي -صلى الله عليه وسلم-.

مسهر بن يزيد الحارثي

قال الفارس عامر بن الطفيل العامري(١):

لعمري وما عمري علي بهينٍ لقد شان حرّ الوجه طعنة مسهرِ
فبئس الفتى إن كنت أعور عاقرًا جبانًا وما أغني لدى كل محضرِ

مُسهر بن يزيد بن عبد يغوث الحارثي المذحجي، أحد فرسان العرب وفتاكها المشاهير، وليس بغريب أن يكون شجاعا فاتكًا، فالشجاعة والفروسية والفتك من صفات قبيلته، فهو من بني الحارث بن كعب جمرة العرب المذحجيين.

نشأ يزيد بن مسهر الحارثي في قومه الحارث بن كعب، فشب على الفروسية والشجاعة، وخاض معهم الكثير من الغزوات والحروب.

ويوم أن وقع يوم فيف الريح الشهير بين بني عامر ومن معهم من هوازن، وبين الحارث بن كعب – قبيلة مسهر – ومن معهم من قبائل اليمن، كان مسهر بن يزيد مقيمًا في بني عامر، ومنافرًا لقومه، فلما كانت المعركة واشتد القتال، رأى مسهر بن يزيد عامر بن الطفيل العامري، وهو يحرض قومه على القتال ضد الحارث بن كعب،

(١) عامر بن الطفيل الجعفري العامري ثم الهوازني المضري، أحد فرسان العرب المشاهير، ومن زعماء قيس عيلان بن مضر، التقى النبي عليه الصلاة والسلام، فلم يسلم، وتوعد النبي أن يغزوه إلى المدينة قائلًا له: لإملأنها عليك يا محمد خيلًا جُردًا، وفتيانًا مُردا، فرد عليه النبي عليه الصلاة والسلام قائلًا: "يأبى الله ذلك وأبناء قيلة – أي الأوس والخزرج – وكان أسيد بن حضير الأوسي الأنصاري يقرع خوذة عامر بحربته، ويقول له ولمرافقه زيد: أخرجا أيها الهجرسان – أي الثعلبان – ثم غدر عامر بالمسلمين في بئر معونة، وقتل الكثير منهم، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأصابته غدة، فمات منها".

وكان عامر من فرسان العرب المشاهير، فأخذت مسهر الحمية لقومه، ونسي ما كان بينه وبينهم، فاتجه متلثمًا بعمامته صوب عامر بن الطفيل، فناداه، فالتفت إليه عامر، فطعنه مسهر بن يزيد بالرمح، ففقأ عينه، وانسحب عامر بن الطفيل باتجاه قومه تاركًا فرسه وسلاحه، قال مسهر بن يزيد في هذا اليوم:

وهصت بخرص الرمح مقلة عامرٍ فأضحى بخيصًا في الفوارس أعورا
وغادر فينا رمحُه وسلاحه وأدبر يدعو في الهوالك جعفرا

وقال فارس العرب عمرو بن معدي كرب:

سائل بفيف الريح عنا عامراً هل بات ذو سهرٍ لطعنة مسهرِ

ذات مرة التقى فارس جشم دريد بن الصمة[1]، ومعه فوارس من قومه، بمسهر بن يزيد الحارثي ليس معه إلا امرأته، فلما رأوه وحيدا – ولم يعرفوه – قالوا: الغنيمة هذا فارس واحد يقود ضعينته، فقال دريد بن الصمة: هل منكم رجل يمضي بقتله ويأتينا بالضعينة؟ فتقدم إليه فارس من فرسانهم، فحمل عليه، فالتقاه مسهر بن يزيد، فاختلفوا ضربتين، فقتله مسهر، ثم حمل عليه الآخر، فكان مصيره مثل الأول، والثالث والرابع، فلحقوا بمن سبقهم، فلما رأى ذلك دريد بن الصمة أقبل إليه – وكان دريد محاربًا عظيمًا – فألقى مسهر الخطام من يده

(١) دريد بن الصمة الجشمي ثم الهوازني المضري العدناني، أحد دهاة العرب وفرسانهم وشعرائهم، له الكثير من الوقائع والأيام، وهو صاحب البيت الشعري الشهير:

وما أنا إلا من غزيّة إن غَوَت غويتُ وإن ترشد غزية أرشدِ

وكذلك البيت القائل:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغدِ

أدرك الإسلام، فلم يسلم، وقتل في يوم حُنين، وهو شيخ كبير، جاؤوا به محمولًا ليستشيروه في أمور الحرب، والقتال لخبرته فيها.

وأعطاه المرأة وقال: خذي خطامك، فقد أقبل إلي فارس ليس كالفرسان الذين تقدموه، ثم اتجه نحو دريد، وهو يقول:

أما ترى الفارس بعد الفارس أرداهمُ عاقل رمحٌ يابس

فقال دريد: من أنت؟ قال: رجل من الحارث بن كعب، قال دريد: أنت الحصين؟ قال: لا، قال: فالمحجّل هوذة؟ قال: لا، قال: فمن؟ قال: مسهر بن يزيد، فانصرف دريد، وهو يقول:

أمن ذكر سلمى ماء عينيك يهملُ كما انهمر خرز من شعيب مشلشلُ
وماذا ترجّى بالسلامة بعدما نأت حقبٌ وأبيضَّ منك المِرجلُ
وحالت عوادي الحرب بيني وبينهم وحربًا تعل الموت صرفًا وتنهلُ[1]

أدرك الفارس اليماني المذحجي مسهر بن يزيد الإسلام، ولم يعلم له خبر فيه.

(١) ويرى البعض أن هذه القصة وقعت لربيعة بن مكدم الكناني.

الفصل الثاني

مقدمة الفصل الثاني

عندما بعث النبي -عليه الصلاة والسلام- خلال القرن السادس الميلادي كان العالم أجمع يعيش في جاهلية شملت كل نواحي الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والدينية والثقافية وقد كان إنقاذ البشرية مما هي فيه أمرًا أشد إلحاحًا وضرورة من أي وقت مضى، ولابد أن ينفرد هذا المُنقذ بشيء لا يملكه غيره وأن يستمد مؤهلاته من قوة عظمى، ولن تكون هذه القوة سوى قوة الله سبحانه وتعالى خالق البشرية جمعاء.

إن الله سبحانه وتعالى قد أنقذ البشرية عبر تاريخها الطويل بإرسال رسل من عنده يقودون قافلة البشرية إلى دروب الأمان، وهذا من رحمته وعدله ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الأسراء: ١٥).

بعث المُنقذ العظيم، والمرشد الحكيم، وخير داع إلى الصرط المستقيم، وسطع بظهوره النور الذي أضاء للبشرية درب النجاة، فقد خرج محمد بن عبدالله -صلى الله وعليه وسلم- يدعو إلى تصور جديد يقلب موازين الناس كلها، دعوة تُفرِد الله سبحانه وحده بالسلطان المطلق وتنزع من البشر أي سلطان، وقد استطاع -عليه الصلاة والسلام- في السنوات الأولى أن يقتطع من المجتمع الجاهلي في مكة نخبة من الرجال كانوا هم اللبنات الأولى في بناء هذه الأمة الإسلامية.

فقد آمن هذا الرعيل الأول بأن هذا النبي يحمل في دعوته النور والسعادة للبشرية، وقد كان في مقدمة هذا الرعيل الأول من

المؤمنين بالرسالة المحمدية في بدايتها رجالٌ ونساءٌ من أهل اليمن؛ منهم زيد بن حارثة الكلبي وابنه أسامة بن زيد وأسرة آل ياسر العنسية المذحجية والمقداد بن عمرو وغيرهم.

لاقى النبي -عليه الصلاة والسلام- في دعوته الكثير من المصاعب والمتاعب، من تكذيب وإيذاء وبلاء له ولأصحابه المستضعفين، وقد كان يتزعم تلك الحرب الشرسة التي قامت ضده وضد من صدَّقه وتبعه قبيلة قريش، وهم أقرب الناس إليه فقد رأوا إن هذا الدين يسلبهم الكثير من الحقوق والمزايا التي كانوا يحصلون عليها دون وجه حق، كما لم يتقبلوا فكرة الدين الذي يجعل ميزان الأفضلية بين البشر هو الإيمان والتقوى والعمل الصالح وليس القبيلة والنسب والحسب والسلطان والجاه!!

فلو أن محمد بن عبدالله -عليه الصلاة والسلام- قد جاء بملك أو سلطان لأسرته أو قبيلته كما يزعم معظم الكهنة اليوم لكانت قريش أول من آمن به وصدقه ووقف إلى جانبه، فكيف لهم أن يرفضوا دينًا يملكهم على سائر الخلق؟! بل إنهم عرضوا على رسول الله أن يكون ملكًا عليهم فرفض، لكن الحقيقة، أن عصبيتهم الجاهلية جعلتهم يرفضون هذا الدين الذي جعل من بلال الحبشي رضي الله عنه بإيمانه وتقواه أفضل من كل أشراف مكة المشركين مجتمعين.

عندما اشتد الخطب وعظم الكرب على رسول الله وأصحابه في مكة أخذ -عليه الصلاة والسلام- يبحث عن نصير ومعين يحميه وأصحابه من الصلف والعنجهية القرشية فأخذ يذهب إلى الأسواق والتجمعات ويلتقي بوفود القبائل العربية يطلب منهم حمايته هو

وأصحابه ليبلغ هذه الرسالة العظيمة فلم يقبل بعرضه أحد سوى ما كان من قبيلتي كندة وبني شيبان؛ إذ عرضوا علية الحماية والنصرة مقابل أن يكون لهم الأمر من بعده وذلك أنهم في البداية لم يستوعبوا حقيقة هذه الدعوة العظيمة التي يحملها.

وبما أن أهل اليمن عبر تاريخهم كانوا سباقين إلى النصر وإغاثة الملهوف؛ فقد عرض على رسول الله صلى الله وعليه وسلم عدد من رجال اليمن وأبطالها أن ينصروه ويحموه ومن هؤلاء الأبطال الطفيل بن عمرو الدوسي الزهراني الأزدي ومالك بن نمط الأرحبي الهمداني فاستبشر بذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وتواعد معهم ثم شاء الله سبحانه وتعالى، أن يلتقي رسول الله بعدد من شباب الخزرج في مكة فعرض عليهم أمره فوافقوه وتواعدوا معه أن يعودوا إليه، فكانت هذه نقطة تحول في تاريخ الإسلام؛ بل وفي تاريخ البشرية جمعاء، فحصل ما حصل من بيعتي العقبة الأولى ثم الثانية بينه وبين الأوس والخزرج ثم الهجرة من مكة إلى يثرب –المدينة المنورة، وبدأت من هناك مرحلة التمكين لدولة الإسلام التي كان لأبناء قيلة اليمانية الفضل الأكبر بعد الله ورسوله في تثبيت دعائهما وإرسائها. قال شاعرهم حسان بن ثابت الأنصاري:

نَصَرْنا وآوَينا النّبيَّ مُـحـمّـدًا على أنفِ راضٍ من مَعدٍّ وراغِمِ
وَنحنُ ضرَبْنا الناسَ حتى تتابَعوا على دينِهِ، بـالْمُرْهَفاتِ الصّوَارِمِ

وبعد أن مكن الله سبحانه لرسوله الكريم وللمسلمين أرسل النّبيُّ -عليه الصلاة والسلام- الرسل إلى كثير من المناطق والقبائل يدعوهم فيها إلى الإسلام فكان أهل اليمن من أول المستجيبين لهذه الدعوة وهذا الدين العظيم ولم يكن هذا التجاوب من فراغ بل لأن

أهل اليمن كان لهم علم بالديانات القديمة –مع انه قد شابها الكثير من الأخطاء– وقد كانوا أهل كتاب، وقد قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لمعاذ بن جبل الأنصاري عندما أرسله إلى اليمن:

"إِنَّكَ ستأتي قَوْمًا أهل كتابٍ، فإذا جئتَهم فادعهم إلى أنْ يشهدوا أنْ لا إِلَهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمَّدا رسولَ اللهِ، فإِنْ هم أطاعوا لَكَ بذلِكَ، فأخبرْهم أنَّ اللهَ قَد فرَضَ عليهِمْ خمسَ صلَوَاتٍ في كُلِّ يومٍ وليلَةٍ، فإِنْ هم أطاعوا لَكَ بذلِكَ، فأخبرْهم أنَّ اللهَ قد فَرَضَ عليهم صَدقَةً، تُؤْخَذُ منْ أغنيائِهم، فترد على فقرائِهم، فإِنْ هم أطاعوا لَكَ بِذَلِكَ، فإياكَ وكرائِمَ أموالِهم، واتَّقِ دعوَةَ المظلومِ، فإِنَّه ليسَ بينها وَبينَ اللهِ حجابٌ".

ولم يكن إسلام أهل اليمن في يوم واحد أو شهر واحد كما يروج بعض الإخباريين.

لقد أستجاب أهل اليمن للدعوة الإسلامية عن اعتقاد راسخ ورغبة صادقة وإيمان عميق وقد أقبلت وفود قبائلهم على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في عاصمة دولة الإسلام الفتية المدينة المنورة.

ولا بأس أن نذكر بعض وفود قبائل اليمن على سبيل المثال لا الحصر.

وفد الأشعريون من تهامة على رسول الله في المدينة المنورة وفيهم عدد من كبرائهم وزعمائهم وعندما أقبلوا أخذوا يرددون:

غدًا نلقى الأحبّة محمّدًا وصحبه

ثم أخذوا يتصافحون فيما بينهم فكانوا أول من جاء بالمصافحة.

ثم أقبلت وفود القبائل الأزدية الذين كانت تسميهم العرب – أسد الله ثم وفد الحارث بن كعب المذحجيين -جمرة العرب- وعندما أقبلوا، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: من هؤلاء الذين كأنهم من رجال الهند؟ وكانوا أهل كتاب.

ثم وفد همدان أحلاس الخيل وعليهم العمائم العدنية على الإبل الأرحبية؛ وهم يرددون ويزملون كعادة أهل اليمن منذ القدم:

إليك جاوزن سواء الريف في هبوات الصيف والخريف
مخطمات بحبال الليف

ووفدت كندة – كندة الملوك – في وفد لم تشهد له المدينة مثيلا من قبل، ٨٠ راكبًا من أبناء الملوك والأقيال وعليهم الأشعث بن قيس الكندي.

ثم وفدت طيء وفي وفدهم فارس اليمانية زيد الخيل بن مهلهل الطائي. ثم وفود حضرموت وفيهم القيل وائل بن حجر الحضرمي ثم توالت وفود القبائل الحميرية والكهلانية اليمانية، ومنها وفود خولان وزبيد والنخع وجعفي وصداء ومراد وجيشان وعك ودوس وذي رعين، ثم بهراء وبُلي وجهينة وغيرها.

وقد تأخرت بعض القبائل اليمانية إلا انها أسلمت فقد وفدت الأصابح من لحج وقبائل اخرى في زمن الخليفة ابي بكر الصديق رضي الله عنه.

بعد وفاة النبي -عليه الصلاة والسلام- آلت امور الخلافة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فحصل أن ارتدت بعض القبائل العربية عن الإسلام أما مسألة ردة أهل اليمن فهي محل خلاف بين

الباحثين حتى اليوم فهل ارتد اليمانيون عن الإسلام ردة كاملة كافرين بما جاء به رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ أم كانت ردتهم هي الامتناع عن دفع الصدقات التي كانوا يرون فقراءهم أحق بها من غيرهم؟ وهنا نذكر بحديث النبي -عليه الصلاة والسلام- عندما نزل عليه قول الله سبحانه وتعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِى ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة:٥٤). فأشار رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بشيء كان في يده إلى أبي موسى الأشعري وقال: هم قوم هذا[1].

بعد أن استقرت الأمور للخليفة الجديد أبي بكر الصديق رضي الله عنه عزم على توجيه الجيوش الإسلامية لفتح بلاد فارس والروم وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ولتحقيق هذا الأمر كان لابد من قدوم أهل اليمن أهل العدد والقوّة أهل الحرب والكفاح، وكان رسول الخليفة إلى أهل اليمن انس بن مالك الأنصاري رضي الله عنه فاستجاب أهل اليمن لتلك الدعوة من دون تردد، وما هي إلا أيام حتى عاد أنس بن مالك إلى الخليفة مبشرًا بقدوم أهل اليمن فقال له: يا خليفة رسول الله ما قرأت كتابك على أحد إلا بادر إلى طاعة الله ورسوله وقد تجهزوا في العدد والعدة

١ - أخرجه ابن أبي شيبة (٣٨٧/٦، رقم ٣٢٢٦١) وابن عساكر (٣٣/٣٢)، وآخرون، حديث عياض الأشعري، وهو صحيح على شرط مسلم، قال الهيثمي في المجمع (١٩/٧)، رجاله رجال الصحيح، وقال البوصيري في الإتحاف (مختصر ٢/ ١٦٩ ب)، رواته ثقات.

وأجابوك شعثًا وغبرًا وهم أبطال اليمن وشجعانها، وقد ساروا إليك بالذراري والأموال والنساء والأطفال، وكأنك بهم قد اشرفوا عليك.

أقبلت الجحافل اليمانية والكتائب القحطانية بعدتها وعتادها على شكل وحدات عسكرية ومجاميع قبلية كأنها فرق حربية، ومن شتى أنحاء اليمن قوم في إثر قوم، تتقدمهم كتائب حمير، ثم جحافل مذحج الطعان ثم الفرسان الكندية، والأبطال الهمدانية والأزدية ثم جحافل حضرموت وخعثم وبجيلة والأشاعر والمهرة وخولان، وغيرهم.

وقد استمر تدفقهم، على المدينة المنورة حتى روي أنه في يوم واحد قدم حوالي ٢٠ ألف مقاتل من أهل اليمن، وكان بهؤلاء القوم وإخوانهم من المسلمين النصر والفتح المبين.

لقد كان لليمانيين اليد الطولى في نصرة الإسلام وتمكينه، فقد خرجوا فاتحين ومجاهدين بدافع القيمة المعنوية، وليست المصلحة النفعية فبلغوا المشارق والمغارب ناشرين رسالة الإسلام وناقلين ثقافاتهم إلى البلدان المفتوحة عبر تلاقح الحضارات، فخروجهم في أعظم رحيل تاريخي من بلادهم هو القوام الحقيقي والاجتماعي والعسكري الذي أكسب العالم العربي والأمصار المفتوحة هويتها العربية والإسلامية.

وعندما اجتاحت جيوش الإسلام امبراطوريتي فارس والروم وجد اليمانيون أنفسهم وجهًا لوجه أمام قوتين عظيمتين، قد سبق وإن اصطدموا بها من قبل. ولهذا عندما قال أحد القادة البيزنطيين للقيل ذي الكلاع الحميري: نحن نعلم إنما اخرجكم الجوع والقحط

من بلادكم فخذوا ما شئتم وعودوا إلى بلادكم. رد عليه ذو الكلاع الحميري قائلًا: قد أخطأت يا هذا، إنما نحن نتبع خطى أسلافنا.

ثم كان اليمانيون في مقدمة الملاحم الإسلامية التاريخية التي أنهت الامبراطورية الفارسية إلى الأبد وقلصت نفوذ الامبراطورية الرومانية وانهكتها، وعندما اضطر المسلمون إلى ركوب البحر في فتوحاتهم تلك، كان لأهل اليمن السبق في ذلك، فقد كانت قبائل مهرة بن حيدان القضاعية الحميرية هم أول من ركب البحر كرأس حربة للجيش الإسلامي الذي فتح مصر، وذلك لخبرتهم في هذا الجانب وقد قال فيهم قائد الجيش الإسلامي الذي فتح مصر وهو عمرو بن العاص -رضي الله عنه- "أما مهره فيَغلِبون ولا يغُلَبون"، وفي رواية " أما مهرة فقوم يقتُلُون ولا يقتَلون"[1].

أما في المجالات الأخرى فقد أسهم اليمانيون جنبًا إلى جنب مع إخوانهم العرب في مجالات العلم والمعرفة ونشر دين الله في الأرض، كما أسهموا في المجالات الثقافية والتجارية، واثبتوا وبقوة أنهم لم يكونوا عالة على الإسلام بل كانوا في المقدمة في كل المجالات، مثلما كان بروزهم في الجانب العسكري والحربي أما في الجانب العمراني فقد كانوا رواد الأعمار والبناء وما تزال قلاعهم وحصونهم التي بنوها في البلدان المفتوحة شامخه إلى يوم الناس هذا كشموخ تاريخهم وحضارتهم.

وفي هذا الفصل نتحدث عن كوكبة من الأعلام والهامات اليمانية من أقيال وأذواء وزعماء وحكماء وشعراء أدرك معظمهم النبي -

١ – راجع، فتوح مصر وأخبارها، أبوالقاسم عبدالرحمن بن الحكم، دار الفكر بيروت، طبعة١٩٩٦م، ص٨٨ ج١.

عليه الصلاة والسلام- ثم الخلافة الراشدة وبرزت اسماؤهم في تلك الحقبة معرجين باختصار عن مواقفهم كما وجدناها في معظم مصادر التاريخ العربية ناقلين المشهور منها بكل أمانة في النقل.

فضائل أهل اليمن

إن لليمن الميمون أرضًا وإنسانًا، فضائل جمة وخصال عظيمة ذكرت في الكتب السماوية التي كان آخرها المصدر الموثوق القرآن الكريم ثم جاء على لسان رسول الله صلى الله وعليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين عشرات الأحاديث التي شرفت هذه الأمة اليمانية ورفعت ذكرها وصيتها ومكانتها.

صحيح أن هناك عدد من الأحاديث النبوية التي ميزت بعض المناطق وذكرتها بالفضل –كالشام مثلا– إلا أن الحقيقة الواضحة أن هذه الأحاديث ميزت هذه البلاد كأرض فقط أما بخصوص اليمن فقد ميزها أرضاً وإنساناً وهذا هو الشرف الكبير والفضل العظيم. وبما أن النبي –عليه الصلاة والسلام– قد أحب أهل اليمن وأحبوه وناصروه وأزروه فقد قال فيهم العشرات من الأحاديث التي ميزتهم عن غيرهم وأعطتهم حقهم وهنا نذكر بعدد من هذه الأحاديث النبوية وباختصار.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ (النصر: ١). قال –صلى الله عليه وسلم–: أتاكم أهل اليمن هم أرقُ قلوبًا الإيمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية. (صحيح أخرجه أحمد في مسنده، وصححه الألباني).

وعن سلمة بن نفيل السكوني رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله وعليه وسلم: "إني لأجد نفس الرحمن من هنا – يشير إلى اليمن". (صحيح أخرجه البخاري وصححه الألباني).

وعن عبدالله بن عمرو قال خرَج علينا رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- ونحن جلوسٌ فأوسَعْنا له فجلَس فقال أين أصحابي الَّذين أنا منهم وهم منِّي وأدخُلُ الجنَّة ويدخُلونَها معي فقُلْنا يا رسولَ اللهِ أخبِرْنا قال نعم أهل اليمن المُطَّرِحينَ في أطرافِ الأرضِ المدفوعونَ عن أبوابِ السُّلطانِ يموتُ أحدُهم وحاجتُه في صدرِه لم يقضِها"، رواه الهيثمي، مجمع الزوائد.

وعن ابي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "لا تقوم الساعة حتّى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه" (رواه البخاري ومسلم). وإلى قحطان تنتهي أنساب العرب اليمانية من حمير وكهلان.

وعن عمرو بن عبسة السلمي قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعرض يوما خيلا وعنده عيينة بن حصن بن بدر الفزاري فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنا أفرس بالخيل منك فقال عيينة وأنا أفرس بالرجال منك فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم- وكيف ذاك، قال خير الرجال رجال يحملون سيوفهم على عواتقهم جاعلين رماحهم على مناسج خيولهم لابسو البرود من أهل نجد. فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كذبت؛ بل خير الرجال رجال أهل اليمن والإيمان يمان إلى لخم وجذام وعاملة، ومأكول حمير خير من آكلها، وحضرموت خير من بني الحارث، وقبيلة خير من قبيلة، وقبيلة شر من قبيلة، والله ما أبالي أن يهلك الحارثان كلاهما، لعن الله الملوك الأربعة: جمدا، ومخوسا، ومشرحا، وأبضعة، وأختهم العمردة ثم قال: "أمرني ربي عز وجل أن ألعن قريشا مرتين، فلعنتهم، وأمرني أن أصلي عليهم، مرتين فصليت عليهم مرتين" ثم قال: "عصية عصت الله ورسوله، غير قيس

وجعدة وعصية" ثم قال: "لأسلم وغفار ومزينة وأخلاطهم من جهينة خير من بني أسد وتميم وغطفان وهوازن عند الله عز وجل يوم القيامة" ثم قال: "شر قبيلتين في العرب نجران، وبنو تغلب، وأكثر القبائل في الجنة مذحج". صحيح أخرجه أحمد والطبراني والحاكم والبخاري وصححه الألباني.

وعن أبي مسعود رضي الله عنه قال: أشار النبي -صلى الله عليه وسلم- بيده نحو اليمن فقال إلا إن الإيمان ههنا وإن القسوة وغلظ القلوب في الفدادين عند أصول أذناب الأبل حيث يطلع قرنا الشيطان في ربيعة ومضر. صحيح أخرجه البخاري (٣٣٠٢)، ومسلم (٥١).

مالك بن مرارة الرهاوي[1]

صاحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ومبعوثه إلى ملوك وأقيال اليمن، مالك بن مُرارة الرهاوي المذحجي، أحد الصحابة اليمانيين الذين لم ينصفهم الكُتَّاب والمؤرخين.

أسلم مالك بن مرارة الرهاوي، والتقى النبي -عليه الصلاة والسلام- في المدينة، قال ابن مسعود: أتيت النبي -صلى الله عليه وسلم- وعنده مالك بن مرارة الرهاوي.

وقيل إن مالك بن مرارة الرهاوي رسول ملوك وأقيال اليمن إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- يبشره بإسلامهم، فكتب إليهم النبي بكتاب، وأعاده مع مالك.

وكان الكتاب موجهاً إلى أقيال اليمن، الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان، قيل "ذي رعين"، وكان في الكتاب:

"أما بعد، فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو، فقد وقع بنا رسولكم مقفلنا من أرض الروم، فلقينا بالمدينة، فبلّغ ما أرسلتم، وخبّر ما قِبلكم، وأنبأنا بإسلامكم، وقتلكم المشركين، وأن الله عز وجل قد هداكم بهدايته، إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأعطيتم من المغانم خمس الله تعالى، وسهم نبيه وصفيه.

---

(١) قبيلة الرها بطن عظيم من مذحج، ولهم بقية كبيرة في اليمن اليوم، وهم أهل بأس وكرم وشهامة، وقد ظهر منهم عبر تاريخهم فرسان وأعلام، وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم، فأسلموا وأهدوه فرسًا يقال له المرواح، وأجازهم عليه الصلاة والسلام، وقد شارك جزء من هذه القبيلة في الفتوحات الإسلامية، وما تلاها من صراعات سياسية خلال العهد الأموي.

روى عن النبي -عليه الصلاة والسلام- الحديث: "لا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، ولا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان"، قال عبدالله بن مسعود: أتيت النبي، وعنده مالك بن مرارة الرهاوي – أخرجه الثلاثة –، فأدركت من آخر حديثهم، وهو يقول: "يا أيها الرسول إني امرؤ قسم لي من الجمال ما قد ترى، فما أحبُّ أن أحدا فضّلني بشراكين، فما فوقهما، أفمن البغي هو؟ قال: لا، ولكن البغي من سَفِه الحق، وغمص الناس".

وكان النبي -عليه الصلاة والسلام- عندما كاتب ملوك وأقيال حمير أوصاهم قائلًا: "فإذا جاءكم رُسُلي، فآمركم بهم خيرًا، معاذ بن جبل، وعبدالله بن زيد، وعقبة ابن مُر، ومالك بن مرارة الرهاوي".

وكتب النبي -عليه الصلاة والسلام- إلى زرعة بن ذي يزن: "وأن مالك بن مرارة الرهاوي قد حدثني أنك قد أسلمت من أول حمير، وأنك قاتلت المشركين، فأبشر بخير، وآمرك بحمير خيرًا، فلا تحزنوا، ولا تجادلوا، وأن مالكًا قد بلّغ الخبر، وحفظ الغيب، فآمرك به خيرًا، والسلام عليكم".

زيد الخيل بن مهلهل الطائي

أقاتل حتى لا أرى لي مقاتلًا وأنجوا إذا لم ينجُ إلا المكيّسُ
ولستُ بذي كهُرورةٍ غير أنني إذا طلعتُ أُولى المغيرة أَعبُسُ

وقال -صلى الله عليه وسلم- "ما وصف لي أحد في الجاهلية فرأيته في الإِسلام إِلا رأيته دون الصفة غيرك"، (أي زيد الخيل)[1].

صاحب المغازي والغارات، أحد سادات العرب وأعلامها وفرسانها المشاهير، زيد بن مهلهل بن يزيد بن منهب النبهاني الطائي الكهلاني اليماني، والذي اشتهر في التاريخ العربي بلقب زيد الخيل – لكثرة خيله وفروسيته – سارت بذكره الركبان، وله الكثير من الأخبار والوقائع، وقد كان من كرماء العرب، ومن أفرس فرسانها، ورماتها.

كان زيد الخيل بن مهلهل الطائي من أجمل الرجال، وأتمهم خلقة، إذا ركب خطت رجلاه الأرض، كما كان شاعرًا مجيدا، وخطيبًا لسنًا، وقد نشأ في بيت زعامة ورئاسة في قومه بني نبهان، ثم في طيء. قال مفتخرًا:

أنا الفارس الحامي الحقيقة والذي لهُ المكرماتُ واللُّهى والمآثِرُ
وقومي رؤوس الناس والرأس قائد إذا الحرب شبَّتها الأكف المساعرُ
فلستُ إذا ما الموت حوذر وردهُ وأُترِع حوضاهُ وحُمِّج ناظرُ
بوقّافةٍ يخشى الحتوف تهيبًا يباعدني عنها من القُبُّ خامِرُ
ولكنني أغشى الحروب بصعدتي مجاهرةً أن الكريم يجاهرُ

١ – راجع، ابن الأثير، "جامع الأصول في أحاديث الرسول"، ج١٢، ص٤١٠.

وأروي سناني من دماءٍ عزيزةٍ على أهلها إذا لا تُرجّى الأياصِرُ

وهو صاحب الأبيات المشهورة في الشجاعة والإقدام:

أخا الحرب أن عضَّت به الحرب عضَّها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمّرا
ويحمي إذا ما الموت كان لقاؤهُ قِدى الشبرِ يحمي الأنف أن يتأخرا

خاض زيد الخيل بن مهلهل النبهاني في حياته الكثير من الحروب والصراعات في حقبة تاريخية امتلأت بالغزوات والثارات بين القبائل العربية قبل بعثة النبي -عليه الصلاة والسلام-، وقد كان زيد الخيل مظفّرًا في الكثير من حروبه وغزواته، ومع ذلك فقد كان يعفوا عند المقدرة والغلبة، وهذه من عادات العرب، وقد امتلأت كتب الأدب العربي بهذه القصص عن سماحة العرب وعفوهم[1].

سمع زيد الخيل بأخبار النبي -عليه الصلاة والسلام-، ووقف على شيء مما يدعو إليه، فأعد راحلته، وجمع كبراء قومه، ودعاهم إلى زيارة يثرب – المدينة المنورة –، ولقاء النبي -عليه الصلاة والسلام-، فاجتمعوا في وفدٍ ضم عدداً من أشراف طيء وفرسانها، فلما وصلوا المدينة المنورة اتجهوا نحو المسجد النبوي، وصادف

(١) أسر زيد الخيل بن مهلهل الطائي فارس هوازن عامر بن الطفيل العامري، فأطلقه، وقال في ذلك:

إنا لنكثر في قيس وقائعنا وفي تميم وهذا الحي من أسدِ
وعامر بن طفيل قد نحوت لهُ صدر القناة بماضي الحد مضطردِ
لما أحس بأن الموت مدركهُ وصارمًا وربيط الجأش ذو لبدِ
نادى إلي بسلمٍ بعدما أخذت منه المنية بالحيزوم واللُّغدِ
ولو تصبّر لي حتى أخالطهُ اسعرتهُ طعنة تكتار بالزبدِ

وصولهم وقت خطبة الجمعة، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يخطب في أصحابه. وبعد أن أكمل قام زيد الخيل، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-- وهو لا يعرفه: "الحمد لله الذي أتى بك من سهلك وحزنك، وسهل قلبك للإيمان، ثم قبض على يده، فقال: من أنت؟ فقال: أنا زيد الخيل بن مهلهل، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك عبد الله ورسوله"[1].

وعن ابن مسعود قال: كنا عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم، فأقبل راكب حتى أناخ فقال: يا رسول الله، إني أتيتك من مسيرة تسع، أنضيت راحلتي وأسهرت ليلي وأظمأت نهاري لأسألك عن خصلتين أسهرتاني، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ما اسمك؟ قال: أنا زيد الخيل، قال له: بل أنت زيد الخير! فاسأل! فرب معضلة قد سئل عنها؛ قال: أسألك عن علامة الله فيمن يريده وعلامته فيمن لا يريده، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت أحب الخير وأهله ومن يعمل به، وإن عملت به أيقنت بثوابه، وإن فاتني منه شيء حننت إليه؛ فقال له -صلى الله عليه وسلم-: هذه علامة الله فيمن يريده وعلامته فيمن لا يريد، ولو أرادك بالأخرى هيأك لها ثم لا يبالي في أي واد هلكت - وفي لفظ: سلكت"[2].

قال ابن إسحاق: "قدم على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وفد طيء، فيهم زيد الخيل، وهو سيدهم، فلما انتهوا إليه كلموه،

---

١ - راجع "الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام"، أبوالقاسم السهيلي، تحقيق عمر السلامي، ج٧، ص ٤٧٣و٤٧٤.

٢ - راجع "كنزل العمال"، علاء الدين المتقي (المتوفي ١٥٦٧م)، ج١١، ص١٠٥، ط٥ للعام ١٩٨١.

وعرض عليهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الإسلام، فأسلموا، فحسن إسلامهم؛ وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل: فإنه لم يبلغ كل ما فيه»[1].

تبادل زيد الخير رضي الله عنه، مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، الهدايا، إذ وهب زيد الخيل لرسول الله سيفين: محذماً ورسوبا، وأجازه رسول الله "بمالٍ كان أرفع ما يجيز به رئيس". يقول ابن حزم في سياق حديثه عن زيد الخيل رضي الله عنه "له صحبة محمودة ونية في الاسلام، أثنى عليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثناء عالياً رضي الله، وسماه زيد الخير"[2].

كانت المدينة في تلك الفترة موبوءة بالحمى، فما أن برحها زيد الخير حتى أصابته، فقال لمن معه: جنبوني بلاد قيس، فقد كانت بيننا وبينهم حماسات وحماقات في الجاهلية، ولا والله أقاتل مسلمًا حتى ألقى الله عز وجل، وتابع سيره نحو دياره، وكانت الحمى تشتد عليه.

كان زيد الخير رضي الله عنه وأرضاه يتمنى أن يصل إلى قومه كي يسلموا على يديه، ولكن المنية سبقته، فما أن وصل إلى ماء من مياه نجد يدعى فردة، اشتد به المرض، فلما أحس بدنو أجله، قال قصيدته الأخيرة:

---

١ – راجع كتاب " زاد المعاد في هدي خير العباد"، ابن القيم الجوزية، ج٣، ص٥٣٨-٥٣٩، ط٥.

٢ – راجع "شعر زيد الخيال الطائي"، جمع ودراسة وتحقيق أحمد مختار البرزة، ط١ عام ١٩٨٨م، ص ٢٢ و٢٣.

أمرتحلُ قومي المشارق غدوةً وأُتركُ في بيتٍ بفردة مسجدِ
سقى الله ما بين القُفيل فطابةٍ فما دون إرمامٍ فما فوق منشدِ
هنالك إني لو مرضتُ لعادني عوائد من لم يشفَ مِنهُنَّ يجهَدِ
فليت اللواتي عدنني لم يعدنني وليت اللّواتي غِبن عنّي عوَّدي

توفي رضي الله عنه وأرضاه، في السنة العاشرة من الهجرة، مات الفارس اليماني العربي الشهير، ولم يمت ذكره وأخباره، وقد ترك للتاريخ والأدب العربي سجلًا حافلًا ناصعا لن يمحى أبد الدهر.

الطفيل بن عمرو الدوسي

يا ذا الكفين لست من عبّادكا
ميلادنـا أقــدم من ميلادكا
إني حشوت النار في فـؤادكا

هكذا كان يرتجز عندما قام بتحطيم وحرق صنم "ذي الكفين"الذي كانت تعبده وتتقرب إليه قبيلة دوس الزهرانية الأزدية اليمانية.

الطفيل بن عمرو بن طريف بن العاص بن ثعلبة بن سليم بن فهم بن غنم بن دوس بن عدثان بن عبدالله بن زهران الدوسي الزهراني الأزدي اليماني، أحد أشراف العرب، وساداتهم المرموقين، زعيم قبيلة دوس، وفارسها وفتاها الكريم، الجواد، والشاعر الأديب، أحد السباقين إلى الإسلام.

ذهب الطفيل بن عمرو الدوسي إلى مكة، وقد بعث فيها النبي -عليه الصلاة والسلام-، وكان ذهابه إليها لأداء فريضة الحج؛ إذ كانت العرب تحج قبل البعثة، فاستقبلت قريش سيد دوس استقبالًا لائقًا لمكانته المعروفة، ومنزلته عند العرب، وقد كان همهم الأكبر ألا يلتقي الطفيل بن عمرو برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، خوفًا منهم أن يسلم، ويكون بإسلامه دعم كبير للمسلمين.

فأخذ شياطين قريش يحذرون الطفيل بن عمرو الدوسي من النبي -عليه الصلاة والسلام-، فما زالوا يحذرونه حتى وضع في أذنيه الكرسف، كي لا يسمع كلام محمد -عليه الصلاة والسلام-.

يقول الطفيل: فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله قائم يصلي عند الكعبة، فقمت قريبًا منه، فأبى الله سبحانه إلا أن يسمعني بعض ما

يقول، قال الطفيل: إني لرجل لبيب شاعر، ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فمكثت حتى انصرف النبي إلى بيته، فلحقته، ودخلت عليه، فأخبرته من تحذير قريش لي، وطلبت منه أن يعرض عليّ أمره، فعرض علي الإسلام، وقرأ عليّ شيئًا من القرآن، فوالله ما سمعت قولًا قط أحسن، ولا أمرًا أعدل منه، فأسلمت، وشهدت شهادة الحق.

علمت قريش بإسلام الطفيل، فأقاموا الدنيا، ولم يقعدوها، فهم يعلمون جيدا معنى أن يسلم رجل بمكانة الطفيل، فحاولوا أن يعدلوه عن موقفه، فأبى، ثم استخدموا لغة التهديد والوعيد، لكن التهديد والوعيد لا ينفع مع فارس شجاع، وبطل مقدام كالطفيل بن عمرو، وقال لهم بكل جرأة: إن ورائي قبيلة دوس، فأحجموا عنه، وهابوه.

وقد قال رضي الله عنه:

ألا أبلغ لديك بني لؤي ... على الشنآن والعضب المرَدِ
بأن الله رب الناس فرد ... تعالى جده على كل ندِ
وأن محمد عبد رسولٌ ... دليل هُدىً وموضع كل رشدِ
ففزتُ بما حباه الله قلبي ... وفاز محمّد بصفاء ودي

وكان الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه قد عرض على النبي -عليه الصلاة والسلام- أن يهاجر إلى دياره -بلاد دوس- هو وأصحابه المسلمون كي يحموهم من بطش قريش وأذاها، وهذا دليل واضح على شجاعة الطفيل بن عمرو، ومكانته ومنزلته في قبيلة دوس أهل العز والمنعة.

بعد أن أسلم أمرَهُ النبي -عليه الصلاة والسلام- أن يعود إلى قبيلة دوس، وأن يدعوهم إلى الإسلام، فارتحل الطفيل إلى قومه، وأخذ

يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم معظمهم، وتأخر آخرون، وقد قدم الطفيل بن عمرو بمن أسلم من قومه في غزوة خيبر – وهم حوالي ثمانين بيتًا من دوس –، فأسهم لهم النبي -عليه الصلاة والسلام-، وكان ممن قدموا مع الطفيل أبو هريرة الدوسي رضي الله عنه، وجندب بن عمرو بن حمحمة الدوسي رضي الله عنه، وكان جندب يقول قبل البعثة: إن للخلق خالقًا، ولكن لا أدري من هو.

وكان الطفيل قد تعلم القرآن، وروى الأحاديث عن رسول الله -عليه الصلاة والسلام-.

أرسل النبي -عليه الصلاة والسلام- الطفيل بن عمرو على رأس سرية مقاتلة إلى ذي الكفين في شوال سنة ثمان للهجرة، فهدم صنم ذي الكفين، وأحرقه، ثم وافى النبي -عليه الصلاة والسلام- في الطائف، ومع الطفيل وسريته دابة ومنجنيق.

عاد الطفيل بن عمرو الدوسي مع النبي -عليه الصلاة والسلام- من غزوة الطائف إلى المدينة المنورة، ومكث هناك حتى توفي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وعندما وقعت حروب الردة، وأرسل الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه الجيوش لقتال المرتدين، كان الفارس والشاعر والصحابي الجليل الطفيل بن عمرو الدوسي من ضمن الجيش الذي اتجه إلى اليمامة لمحاربة مسيلمة الكذاب.

وكان قبلها قد شارك في حرب المرتدين بقيادة طليحة الأسدي.

استشهد رضي الله عنه وأرضاه في حروب اليمامة، وقطعت يد ابنه هناك.

مالك بن نمط الأرحبي[1]

أخو همدان أحلاس الخيل، السيد النبيل، والصحابي الجليل، والشاعر المجيد أبو ثور – ذو المشعار – مالك بن نمط بن قيس بن مالك بن سعد بن مالك بن لأي بن سلمان الأرحبي البكيلي الهمداني، أحد زعماء همدان ووجهائهم قبل البعثة وبعدها.

التقى مالك بن نمط الأرحبي بالنبي -عليه الصلاة والسلام- في مكة بعد البعثة، حين كان النبي في تلك الفترة يبحث عن نصير ومعين ضد العنجهية القرشية، فأسلم مالك على يديه وبايعه.

وعندما رأى مالك شدة الأذى من قريش على النبي -عليه الصلاة والسلام- وأصحابه عرض عليه أن يهاجر معه إلى بلاد اليمن، فسأله النبي -عليه الصلاة والسلام-: هل عند قومك من منعة، قال مالك: نحن أمنع العرب يا رسول الله، وقد خلفت ورائي فارسًا مطاعا في قومه يدعى أبو عمرو الأرحبي، فأكتب إليه.

عاد مالك بن نمط الأرحبي إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، وقد آمن معه بعضهم، ثم وفد مالك بن نمط فيما بعد في وفد همدان على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مرجعه من غزوة تبوك، وكانت عليهم العمائم العدنية على الرواحل المهرية، فخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لاستقبالهم، فأخذوا يرتجزون أمامه كعادة أهل اليمن، وفي مقدمتهم مالك بن نمط يقول:

(١) هذا قول ابن الكلبي، وذكر بعضهم أنه من خارف ويام، وقد اختلف بعض المؤرخين الذين ترجموا لمالك بن نمط وأخيه قيس بن نمط، ونسبوا هذه الأحداث تارة لقيس، وتارة لمالك.

إليك جاوزنَ سواد الريفِ
في هبوات الصيف والخريفِ
مخطمات بحبال اللّيفِ

وذكروا للنبي -عليه الصلاة والسلام- كلامًا كثيرًا فصيحًا، فكتب لهم رسول الله كتابًا أقطعهم فيه، ومنهم مالك بن نمط الأرحبي، حيث استمرت هذه الأرض التي أقطعها إياه رسول الله معه، ومع أولاده إلى أن صادرها منهم الهادي الرسي فيما بعد.

ثم أن النبي -عليه الصلاة والسلام- استعمل مالك بن نمط الأرحبي رضي الله عنه على من أسلم من قومه، وأمره بقتال ثقيف، وكان لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه مالك، وكان رضي الله عنه مع مكانته في قومه، شاعرًا مجيدا حسنًا، ومن أقواله مفتخرًا بقومه همدان:

همدان خير سوقة وأقيال ليس لها في العالمين أمثال
محلها الهضب ومنها الأبطال لها إطاباتٌ بها وآكال

ومن جيد أشعاره رضي الله عنه قوله:

ذكرتَ رسول الله في لحمة الدجى ونحنَ بأعلى رحرحان وصلدد
وهُن بنا خوصٌ قلائص تعتلي بركبانها في لاحِبٍ متمدد
على كل فتلاء الذراعين جعدةٍ تمر بنا مر الهجيف الخضيدد
حلفتُ برب الراقصات إلى مِنىً صوادر بالركبان من هضب قردد
بأن رسول الله فينا مصدقٌ رسولٌ أتى من عند ذي العرش مهتدِ
فما حملت من ناقةٍ فوق رحلها أشد على أعدائهِ من محمّدِ

وأعطى إذا ما طالب العرف جاءهَ وأمضى لحد المشرفي المهنّدِ

وهو القائل:

يريشُ اللهُ في الدنيا ويبري ولا يبري اليعوقُ ولا يريشُ

زيد بن حارثة الكلبي

حِب رسول الله، وما أحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلا طيبًا، أبو أسامة، زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبدالعزى – وهو كعب – ابن عامر ابن النعمان بن عامر الكلبي القضاعي الحميري، ولم يسمِ الله سبحانه في كتابه القرآن الكريم صحابيًّا إلا زيدَ بنَ حارثة.

ذات يوم خرج زيد بن حارثة مع أمه – ولا يزال غلامًا صغيرًا – في قافلة من بلادهم في صعدة اليمن، في زيارة إلى أخواله بني معن، فحصل أن أغارت عصابة من اللصوص على ديار بني معن – أخواله –، واختطفوا زيدا، فلما علم أبوه حارثة بن شراحيل بذلك، خرج في فرسان من قبيلته بني كلب يبحثون عنه، ومن الذي يتجرأ في تلك الفترة أن يعتدي على قبيلة كلب الحميرية السبأية، أحفاد ملوك اليمن، ومن أشرس القبائل، بحثوا عنه طويلًا، لكنهم مع الأسف لم يجدوه، فعاد أبوه حزينًا على فقده، متأثرًا على فراقه، وأخذ ينشد الأشعار في زيد، وكان مما قال:

بكيتَ على زيد ولم أدرِ ما فعل ... أحَي يرجّى أم أتى دونه الأجلْ
تذكرنيه الشمس عند طلوعها ... وتُعرض ذكراهُ إذا غربُها أَفلْ
وإن هبَّت الأرواح هيجن ذكرهُ ... فيا طول ما حزني عليه ويا وجَلْ
سأُعمل نص العيس في الأرض جاهدا ... ولا أسأم التطواف أو تسأمُ الإبلْ
حياتي أو تأتي إليَّ منيتي ... وكل امرئٍ فانٍ وإن غرَّهُ الأملْ
سأوصي به قيسًا وعمرًا كليهما ... وأوصي يزيدا ثم من بعدهِ جَبَلْ

مضت مدة، فصادف أن رأى أحد حجاج اليمن زيدا في مكة، فعرفه، وعاد فأخبر أباه، وكان اللصوص قد باعوا زيداً الغلامَ الصغير، لأحد تجار مكة، وهو حكيم بن حزام بن خويلد، الذي اشتراه لعمته خديجة بنت خويلد، وأهدته خديجة لزوجها محمد بن عبدالله صلوات ربي وسلامه عليه.

بعد أن استقر القرار بزيد بن حارثة عند محمد بن عبدالله علم أن أهله يبحثون عنه، فأرسل إليهم مع أحد المسافرين إلى بلاد اليمن قائلًا:

أحنُّ إلى قومي وإن كنتُ نائيا ... فإني قعيد البيت عند المشاعرِ
فكفوا عن الوجه الذي قد شجاكمُ ... ولا تعملوا في الأرض نص الأباعرِ
فإني بحمد الله في خير أسرةٍ ... كِرام مَعد كابرًا بعد كابرِ

ما أن علم حارثة بأن ولده زيد في مكة، حتى شد الرحال في نفر من قومه ليلتقي بابنه ويراه، فلقيه مع محمد بن عبدالله صلوات ربي وسلامه عليه في مكة، فقال حارثة: يا ابن عبدالمطلب يا ابن سيد قومه، أنتم تفكون العاني، وتطعمون الأسير، جئناك في ولدنا، فأمنن علينا، وأحسن في فدائه.

فأجابهم النبي -عليه الصلاة والسلام-: "خيروا زيدا، فإن اختاركم، فهو لكم بغير فداء، وإن اختارني، فوالله ما أنا بالذي اختار على من اختارني فداء".

فقال زيد: ما أنا بالذي اختار عليك أحدا، فقام رسول الله، وأمسك بيده، وخرج إلى فناء الكعبة، ونادى: "أشهدوا أن زيدا ابني

يرثني وأرثه"، فطاب لذلك حارثة وقومه، فزيد أصبح حرًّا، ورفيقًا للصادق الأمين.

ما أن بُعث النبي -عليه الصلاة والسلام- حتى كان زيد ثاني من أسلم، بل قيل أولهم، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يحبه حبًا عظيمًا، وكانوا ينادونه زيد الحب، وزيد بن محمّد، إلى أن أبطل الله سبحانه عادة التبني بقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، (الأحزاب:٥). فعادوا ينادونه زيد بن حارثة.

تتلمذ زيد بن حارثة رضي الله عنه على يد خير معلم عرفته البشرية جمعاء، وكان محل ثقة النبي -عليه الصلاة والسلام- ورفيقه، قالت عائشة رضي الله عنها: "ما بعث رسول الله زيد بن حارثة في جيش قط إلا أمّره عليهم، ولو بقي حيا بعد رسول الله لاستخلفه"، وكان زيد رضي الله عنه قصيرًا أسمرًا.

زوج النبي -عليه الصلاة والسلام- زيد بن حارثة من ابنة عمته زينب بنت جحش، ولم تمض مدة حتى انفصل زيد عن زينب، فتزوجها رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، واختار لزيد زوجة جديدة، هي أم كلثوم بنت عقبة، وفي ذلك حكمة من الله سبحانه، ليبطل تحريم الزواج من أدعياء التبني، قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾، الأحزاب ٣٧. وقال عز من قائل ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ (الأحزاب ٤٠).

شهد زيد بن حارثة رضي الله عنه المشاهد والغزوات مع رسول الله -صلى الله وعليه وسلم-، وأبلى فيها البلاء الحسن، فقد كان من الرماة المعدودين، وأرسله النبي -عليه الصلاة والسلام- على كثير من السرايا والبعوث أميرًا لثقته فيه، وفي شجاعته وإخلاصه، وقد كان زيد من اللبنات الأولى في جدار الإسلام.

تمضي الأيام، وتتثبت دعائم دولة الإسلام الفتية، وأخذ النبي -عليه الصلاة والسلام- يرسل الرسل إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وشاء الله أن يقتل أحد هؤلاء الرّسل، وهو الحارث بن عمير الأزدي على يد ملك بصرى.

جهز النبي -عليه الصلاة والسلام- جيشًا من المسلمين، ولإدراك رسول الله أهمية هذه الغزوة، فقد اختار لقيادتها ثلاثة من رهبان الليل وفرسان النهار، وهم زيد بن حارثة، فإن أصيب، فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب، فعبدالله بن رواحة، فالتقى الجيش الإسلامي بالنصارى، وكانت راية الإسلام وراية رسول الله مع حب رسول الله زيد بن حارثة، فقاتل قتال الأبطال، وألقى بنفسه بين السيوف والرماح حتى استشهد رضي الله عنه، واستشهد بعده الأميران جعفر وابن رواحة، قال شاعر الإسلام حسان:

يا عين جودي بدمعك المنزورِ وأذكري في الرخاء أهل القبورِ
وأذكري مؤتة وما كان فيها يوم راحوا في وقعة التغويرِ
حين راحوا وغادروا ثم زيدا نِعم مأوى الضريك والمأسورِ

ذهب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى بيت أهل زيد ليبلغهم بخبر استشهاده، وعندما رأته ابنته الصغيرة تعلقت برقبته وبكت بشدة، فبكى رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، وانتحب

حتى ارتفع صوته، وكانت هذه المرة الأولى والأخيرة التي بكى فيها هكذا، فقال له سعد بن عبادة رضي الله عنه وأرضاه: ما هذا يا رسول الله؟ قال -عليه الصلاة والسلام-: شوق الحبيب إلى حبيبه، وقد كان استشهاد زيد بن حارثة رضي الله عنه في السنة الثامنة للهجرة.

وقد كان متزوجًا من أم كلثوم بنت عقبة، ودرّة بنت أبي لهب، وهند بنت العوام، وله من الولد أسامة بن زيد، وزيد بن زيد، ورقية بنت زيد.

أبو موسى الأشعري

قال له النبي -عليه الصلاة والسلام-: لو رأيتني وأنا استمع قراءتك البارحة لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود، قال: يا رسول الله لو علمت أنك تسمع قراءتي لحبرته لك تحبيرًا.

القارئ الحافظ، والحليم الورع، والقائد الفارس، أخا الجماهر، أبو موسى عبدالله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن عامر بن عنز بن بكر بن عامر[1] من الجماهر، أحد بطون الأشاعر الكبيرة، وقد اشتهر هذا العلَم اليماني في التاريخ الإسلامي، بكنيته أبي موسى الأشعري.

أسلم أبو موسى الأشعري رضي الله عنه في مكة، ثم عاد إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، فآمن معظمهم، قال رضي الله عنه: بلغنا مخرج النبي صلى الله عليه وسلم ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهم، أحدهما أبو بردة، والآخر أبو رهم، إما قال: بضع، وإما قال: في ثلاثة وخمسين، أو اثنين وخمسين رجلا من قومي، فركبنا سفينة، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعا، فوافقنا النبي صلى الله عليه وسلم حين افتتح خيبر"[2]. وقبل قدومهم أخبر

(١) بنو الأشعر، أو الأشاعرة، إحدى قبائل كهلان السبأية العريقة، ذكرت في نقوش المسند القديم، وهم شعب عظيم، أهل كرم وسماحة وحلم، كما أنهم أهل بأس ونجدة، قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نِعم الحي الأزد والأشعريون، لا يفرون في القتال، ولا يغلون، هم مني وأنا منهم" الحديث عن أبي عامر الأشعري، شاركت قبائل الأشاعر في الفتوحات الإسلامية، وكانت لهم صولات وجولات فيها، وانتشروا في البلدان المفتوحة، ولهم بقية عظيمة في بلاد تهامة.

٢ - صحيح البخاري.

النبي -صلى الله عليه وسلم- أصحابه قائلًا: "يقدُم عليكم غدًا أقوامٌ هم أرَقُّ قلوبًا للإسلامِ منكم"[1]، فقدم الأشعريون، وعند دنوهم من المدينة جعلوا يرتجزون كعادة أهل اليمن، قائلين:

غدا نلقى الأحبة محمّدًا وصحبه

فلما وصلوا أخذوا يتصافحون فيما بينهم، فكانوا هم أول من جاء بالمصافحة، وأحدثوها بين العرب، فأسهم لهم النبي -عليه الصلاة والسلام- من غنائم خيبر، وقال لهم: "لكم الهجرة مرتين، هاجرتم إلى النجاشي، وهاجرتم إلي".

أخذ أبو موسى الأشعري مكانته المرموقة بين صحابة رسول الله، فقد كان رجلًا حصيفًا ذكيا، ومن قضاة الأمة المشاهير، كما كان قارئًا مجيدا للقرآن الكريم، قال فيه رسول الله: "يا أبا موسى! لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود"[2].

ومع كل ما أتصف به أبو موسى الأشعري رضي الله عنه من العلم والحلم والمعرفة والفقه، كان مقاتلًا جسورًا وفارسًا مقدامًا، قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- في إحدى المعارك: "سيد الفوارس أبو موسى"(٣)، وليس بغريب عليه، فالشجاعة والإقدام من خصال قبيلته.

بعد غزوة حنين أرسل النبي -عليه الصلاة والسلام- جيشًا إلى أوطاس لقتال فلول هوازن، وكان على رأس الجيش أبو عامر

---

١ - حديث عن أنس بن مالك، أخرجه أبو داود (٥٢١٣) مختصراً، وأحمد (١٢٥٨٢) واللفظ له، صححه الألباني في "السلسلة الصحيحة".

٢ - أخرجه البخاري (٥٠٤٨) واللفظ له، ومسلم (٧٩٣).

(٣) دعا له النبي عليه الصلاة والسلام قائلًا: "اللهم أغفر لعبدالله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلًا كريمًا".

الأشعري – عم أبي موسى –، فقتل في هذه المعركة دريد بن الصمة الهوازني، وهو شيخ كبير، واستشهد أبو عامر الأشعري، رماه أحد المشركين بسهم فأصابه، فلحق به أبو موسى الأشعري، فقتله.

عاش أبو موسى الأشعري مع النبي -عليه الصلاة والسلام- عدة سنوات، وسمع منه الحديث النبوي، وروى عنه ذلك، وقد عد له الإمام الذهبي ١٦٣ حديثًا، منها ٤٩ في الصحيحين، ثم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ولّى أبا موسى الأشعري على لحج، وعدن، وأبين، وقد أرسله مع معاذ بن جبل.

بعد وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم-، عاد أبو موسى الأشعري إلى المدينة المنورة، ثم عندما أرسلت الجيوش الإسلامية لمحاربة فارس والروم، ونشر دين الإسلام، شارك أبو موسى الأشعري فيها وبقوة، وقد ظهرت براعته وحنكته العسكرية عندما قاد قوة عسكرية، فافتتح أصبهان، ثم لم يلبث أن قام بعملية رائعة في معركة تستر الرهيبة، إذ حاصر المدينة بقواته، وقام بالالتفاف عليها من الخلف، وفتح أسوارها، وانقض عليها بقواته بهجوم خاطف وسريع، ففتحوها وتم أسر الهرمزان الفارسي، وأرسله أبو موسى الأشعري إلى المدينة مكبلًا في الأصفاد، وكان أبو موسى قد ولّي البصرة حتى استشهد الفاروق عمر رضي الله عنه.

وتمضي الأيام والسنون، ويقتل عثمان رضي الله عنه مظلومًا، وتقع الفتنة بين المسلمين، فيعتزل الصحابي الجليل أبو موسى هذه الأحداث الدامية والمؤلمة، وكان من أبرز الداعين إلى الخير، وعدم الاقتتال.

مع الأسف فقد تعرض تاريخ هذا الصحابي العَلَم للجرح والتشويه من قبل بعض الرواة والمدلّسين فيما بعد – في قضية التحكيم بين علي ومعاوية –، وقد حاول البعض من هؤلاء إظهار الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري بمظهر الغبي الجاهل الذي من السهل خداعه وإغوائه.

لقد فنّد ودحض عدد من علماء التاريخ الإسلامي هذه الاتهامات لهذا الصحابي الجليل، الذي كان محل ثقة النبي -عليه الصلاة والسلام-، الذي ولّاه تهامة وعدن ولحج وأبين، ثم كان محل ثقة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فولاه البصرة، وكان مشهودا له بالذكاء والفطنة.

لم يكن عبدالله بن قيس، أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، ذلك الرجل المنخدع الأبلة المسكين الذي أظهره به بعض الإخباريين أمام عمرو بن العاص، والقارئ المتمعن في مراجع التاريخ الصحيحة، يرى أن مصادر هذه الروايات هي مصادر غير موثوقة، والحقيقة أن أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص قد اتفقا على عزل الرجلين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، على أن يعهدا بأمر الخلافة إلى الموجودين على قيد الحياة من صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الذي توفى، وهو راضٍ عنهم، وقد كان أبو موسى الأشعري رضي الله عنه صريحًا صارمًا في رده على عمرو بن العاص، عندما تحدث عمر بن العاص أن معاوية ابن سيد مكة وشريفها، فقال أبو موسى: اتق الله يا عمرو، فأما ما ذكرت من شرف معاوية، فإن هذا ليس على الشرف يولاه أهله، ولو كان على الشرف لكان هذا الأمر لآل أبرهة بن الصباح الحميري إنما هو لأهل الدين والفضل.

اختلفت الروايات في موت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، فقيل مات سنة ٤٢ للهجرة، وقيل ٤٤ للهجرة، وقيل ٤٩ للهجرة، وقيل غير ذلك، إلا أن الإمام الذهبي، وابن الجزري رجحا وفاته في ذي الحجة سنة ٤٤ للهجرة، وقد اختلفوا أيضًا في مكان دفنه، فقيل في الثوبة بالقرب من الكوفة، وقيل في مكة.

عمار بن ياسر العنسي

أبو اليقضان، عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة بن قيس بن الحصين بن الوذيم بن ثعلبة بن عوف بن حارثة العنسي[1] المذحجي.

كان والد عمار، ياسر بن عامر قد قدم مكة من بلاد اليمن مع اثنين من أخويه، وهم الحارث، ومالك، يبحثون عن أخٍ لهم، فرجع الحارث ومالك إلى بلاد اليمن، وأقام ياسر العنسي في مكة، وقد تحالف مع أبي حذيفة بن المغيرة المخزومي.

تزوج ياسر العنسي من سمية بنت خياط في مكة، فولدت له عمارًا.

وعندما بعث النبي محمد -عليه الصلاة والسلام- داعيا إلى نور الإسلام، كان عمار وأبواه من أوائل المصدقين برسالته والمؤمنين بما جاء به، وبما أن آل ياسر لم تكن لهم منعة أو عشيرة في مكة، فقد نالوا النصيب الأكبر من عذاب قريش، وقد كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يمر بآل ياسر وهم يُعذَّبون، ولا يستطيع أن يدفع عنهم، فيقول لهم: "صبرًا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة"، وكان القائمون على عذاب آل ياسر هم بنو مخزوم، وعلى رأسهم عدو الله أبو جهل.

قُتلت سمية أم عمار على يد عدو الله أبي جهل، فكانت أول شهيدة في الإسلام، ثم قتل ياسر بعدها، وكانوا يعذبون عمارًا حتى

(١) عنس بطن مشهور من مذحج الطعان، ومن قبائل اليمن المشهورة، ومن عنس فرسان وأعلام ومشاهير عبر تاريخهم.

لا يدري ما يقول، وقد أجبروه على النيل من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ببعض الكلمات، فأتى عمار إلى رسول الله، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ما وراءك؟ قال عمار: شر يا رسول الله، والله ما تركت حتى نلت منك، وذكرت آلهتهم بخير، قال النبي: فكيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن بالإيمان، فقال -عليه الصلاة والسلام-: فإن عادوا فعد[1]. وقد نزل في ذلك قول الله سبحانه ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(النحل: ١٠٦). فقال له رسول الله: "قد عذرك الله يا عمار، وإن عادوا، فعد".

هاجر عمار رضي الله عنه إلى يثرب – المدينة المنورة – فارًا بنفسه ودينه من الصلف القرشي، وقد آخى النبي بينه وبين حذيفة بن اليمان، وقد سار عمار بن ياسر رضي الله عنه على طريق الجهاد في سبيل الله، فشهد المشاهد كلها مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأبلى فيها البلاء الحسن، وكان في مقدمة الجيوش الإسلامية دائمًا.

وبما أن عمارًا رضي الله عنه كان مقربًا من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقد روى الحديث عنه، وعن أمين سره حذيفة بن اليمان، وروى عن عمار عدد من الصحابة الأجلاء -رضي الله عنهم أجمعين-.

---

١ – أخرجه الحاكم (٣٣٦٢)، والبيهقي (١٧٣٥٠)، وقال العسقلاني "إسناده صحيح إن كان محمد بن عمار سمعه من أبيه".

كان رسول الله -عليه الصلاة والسلام- يحب عمار بن ياسر رضي الله عنه، ويقربه إليه دائمًا، وذات يوم استأذن عمار على النبي، فقال له رسول الله: من هذا؟ قالوا: عمار. قال: مرحبًا بالطيب المطيب، وروت عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "ما خُيّر ابن سمية بين أمرين إلا اختار أيسرهما"، قال خالد بن الوليد: كان بيني وبين عمار كلام، فأغلظت له، فاشتكاني إلى رسول الله، فقال لي: من عادى عمارًا عاداه الله، ومن أبغض عمارًا أبغضه الله"، قال خالد: فجزعت، فما شيء أحب إليَّ من رضا عمار، فلقيته، فرضي.

ذات يوم والمسلمون يبنون مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في المدينة، أخذ الحنان رسول الله إلى عمار، فاقترب منه، ونفض بيده الغبار الذي كسى رأسه، وتأمل رسول الله وجه عمار الوديع المؤمن، ثم قال على ملأ من أصحابه: "ويح ابن سمية تقتله الفئة الباغية".

بعد وفاة النبي -عليه الصلاة والسلام- شارك عمار بن ياسر رضي الله عنه في حروب الردة، ثم في الفتوحات الإسلامية، وفي يوم اليمامة المشهور عندما سقط الكثير من قتلى المسلمين، أخذ عمار رضي الله عنه يحرض الجيش الإسلامي بحماس منقطع النظير، وكان يصرخ ويقول: يا معشر المسلمين أمن الجنة تفرون؟ أنا عمار بن ياسر هلموا إلي، وكانت أذنه قد قطعت في ذلك اليوم.

وفي خلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولاه الكوفة، وجعل ابن مسعود معه على بيت المال، وكتب إلى أهل الكوفة: إني

أبعث إليكم عمار بن ياسر أميرًا وابن مسعود معلمًا ووزيرًا، وإنهما لمن النجباء من أصحاب محمد، ومن أهل بدر.

بعد أن قتل عثمان، ووقع الخلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهم أجمعين، وقف عمار إلى جانب علي بن أبي طالب، وفي يوم من أيام صفين المهولة، سقط عمار بن ياسر قتيلًا، وهو حاملًا الراية، وكان لمقتله أثرٌ عظيمٌ في النفوس، فرضي الله عن أبي اليقضان عمار بن ياسر العنسي المذحجي، وعن والديه، وقد قتل في عام ٣٧ للهجرة، وعمره حوالي ٩١ سنة.

الأنصار اليمانية

أبناء قيلة الأوس والخزرج

لا يوجد قوم أو قبيلة نالت من الشرف العظيم، والثناء الجزيل، والذكر الحسَن من الله سبحانه وتعالى، كما نالت قبائل الأنصار اليمانية الأوس والخزرج، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩).

وقال سبحانه وتعالى ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، (التوبة: ١٠٠).

وقال جل شأنه ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٧).

وقال تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ (الأنعام: ٨٩).

كرام الأنساب، عظماء الأحساب، أهل العدد والمدد، والعز والمنعة، والكرم والنخوة، فخر العرب اليمانية، وفخر الأمة الإسلامية، أنصار الرسالة، وأهل الجهاد والبسالة.

قال شاعرهم مفتخرًا:

لنا الجفنات الغُرّ يلمعن في الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدةٍ دما
ورثنا بني العنقاء وابني محرقٍ فأكرم بنا خالًا وأكرم بنا ابن ما
لنا حاضرٌ فعمٌ وباد كأنه شماريخ رضوى عزةً وتكرّما
ألسنا نرد الكبش عن طية الهوى ونقلب مرّان الوشيج محطّما
بكل فتىً عاري الأشاجع لاحَهُ قراع الكماة يرشح المسك والدما
إذا استدبرتنا الشمس درّت متوننا كأن عروق الجوف ينضحن عندما

الأوس والخزرج، أبناء حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد، وأمّهم قيلة بنت الأرقم بن عمرو من بني جفنة، وقيل إنها قضاعية حميرية، ولهذا عرفوا واشتهروا عبر تاريخهم باسم أبناء قيلة.

اختلف المؤرخون في تحديد زمن هجرة الأوس والخزرج من بلاد اليمن إلا أنها دون شك قبل البعثة المحمدية بزمن طويل، وفي هجرتهم من بلاد اليمن مع قبائل أخرى من إخوانهم الأزد، استقروا على ماء في تهامة يقال له غسان، فشربوا منه، فأسموهم الغساسنة، قال حسان مفتخرًا:

أما سألتِ فإنا معشرٌ يمنٌ الأزد نسبتنا والماء غسانُ
شُمّ الأنوف لنا مجد ومكرمةٌ كانت لنا كجبال الطّود أركانُ

ثم حاربتهم قبائل عك الأزدية حتى اضطروا للجلاء عن تهامة، فواصلوا مسيرهم، فانخزع عنهم – أي انفصل عنهم – إخوانهم بني عمرو، واستقروا في ضواحي مكة، فغلب عليهم لقب خزاعة[1]، وكانت مكة تسكنها قبيلة جرهم اليمانية.

أما بنو حارثة بن ثعلبة، وهم قبيلتا الأوس والخزرج، فاستقروا في ضواحي يثرب التي كانت تسكنها ثلاث قبائل يهودية – وهم قريضة، والنضير، وقينقاع –، بينما استمر بنو جفنة في مسيرهم حتى استقروا في بلاد الشام، وأسسوا مملكتهم الشهيرة هناك، وهي مملكة الغساسنة.

مكثت قبيلتا الأوس والخزرج مدة من الزمن، في ضواحي يثرب في ضنك من العيش، حتى ولو أمرهم مالك بن العجلان الخزرجي، فأوقع بزعماء اليهود، وقيل إنه استعان بإخوانهم بني جفنة عليهم، فغلبت الأوس والخزرج على يثرب، وزاحموا اليهود فيها، حتى اضطرت قبائل اليهود على التحالف مع الحيين اليمانيين في يثرب، والبقاء تحت حمايتهم.

استقر أمر أبناء قيلة في يثرب مدة من الزمان في سلام ووئام، فهم إخوة الدم والنسب، ثم ما لبث أن تنافس الحيّان على الشرف والزعامة، فوقعت بينهم حروب وأهوال استمرت أكثر من مئة عام لم يطفأها إلا قدوم النبي الكريم -عليه الصلاة والسلام- إلى يثرب،

---

١ – خزاعة بطن عظيم من الأزد وهم بني عمرو بن حارثة، وإنما قيل لهم خزاعة لأنهم انفصلوا من إخوتهم أثناء رحلتهم، واستقروا في ضواحي مكة. قال الشاعر:

فلما هبطنا بطن مر تخزعت خزاعة عنا في جموعٍ كراكرِ

ثم سيطرت خزاعة على الحرم وأجلت جرهم عنه ولخزاعة تاريخ حافل بالبطولات والأمجاد.

وكان لليهود وبعض قبائل العرب المجاورة الجانب البارز في إذكاء هذه الفتن.

قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ (آل عمران: ١٠٣).

وقال سبحانه: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، (الأنفال:٦٣).

وقبل الخوض في حروبهم وأيامهم في الجاهلية، نستعرض باختصار تفصيل بطونهم وعشائرهم.

- الأوس

هم بنو الأوس بن حارثة بن ثعلبة، وتنقسم الأوس على خمسة بطون كبرى، وهي: بنو عوف وبنو عمرو وبنو مرة وبنو جشم وبنو امرئ القيس، وجميعها من أبناء مالك بن الأوس.

وقد انقسم **بنو عوف** بن مالك بن الأوس إلى بطون عديدة أهمها؛ **بنو تزيد** الذين انقسموا بدورهم إلى، بني ضبيعة، وبني أمية، وبني عبيد، وبني معاوية، وبنو جحجبى، وبني لوزان. وتنقسم هذه البطون إلى عشائر أصغر منها يطول شرحها، وقد سكنوا جميعا منطقة قباء جنوب المدينة، ما عدا بني معاوية سكنوا شرق البقيع، وبني أمية سكنوا إلى الجنوب منهم.

وانقسم **بنو عمرو** بن مالك بن الأوس، وهم –النّبيت– إلى بطون عديدة أهمها:

بنو ظفر، وبنو حارثة، وبنو عبد الأشهل، وبنو زعوراء، وكانت مساكن معظم قبائل النبيت إلى الشرق من حرة واقم، ما عدا بني زعوراء، وبني الجريش، وبني عمرو، فكانت مساكنهم عند راتج.

وانقسم **بنو جشم** بن مالك بن الأوس إلى بطون عديدة أهمها:

بنو خطمة – قيل إن جدهم أسر رجلًا في الجاهلية، وخطمه بحمائل السيف، فلقبوه خطمة، فغلب عليهم هذا الاسم.

أما امرؤ القيس بن مالك بن الأوس، فانقسموا إلى:

بني واقف، وبني السلم، وكانت منازلهم بالعوالي بين منازل قريضة والنضير، وكان الجعاذرة، وبنو واقف، وبنو خطمة يسمونهم (أوس الله).

وتنقسم كل هذه البطون المذكورة إلى عشائر أصغر منها يطول شرحها.

– الخـــزرج

وتنقسم الخزرج إلى خمسة فروع كبرى، والخزرج أكثر من الأوس عددا، وهذه البطون الخمسة هي:

عمرو بن الخزرج، وعوف بن الخزرج، وجشم بن الخزرج، وكعب بن الخزرج، والحارث بن الخزرج، وقد انقسمت هذه البطون الكبرى إلى بطون وعشائر كثيرة أصغر منها.

فانقسم بني عمرو بن الخزرج إلى بطون متعددة وهم:

بني مالك، وبني عدي، وبني مازن، وبني دينار، وكل هؤلاء يقال لهم بنو النجار، إذ قيل إن جدهم تيم اللاة بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج، نجر رجلًا في الجاهلية – أي ضربه بيده –، فكسر يده، فلقبوه النجار، وغلب عليهم هذا اللقب، وتسكن بطون بني النجار في وسط يثرب.

وانقسمت بنو عوف بن الخزرج إلى بطون عديدة أهمها:

بني سالم، وبني غنم، وبني عنز، وقد عرفوا واشتهروا بالقواقل؛ لأنهم كانوا إذا نزل بهم أحد أو أجاروا شخصاً، دفعوا إليه سهمًا، وقالوا له: (قوقل به، حيث شئت)، أي تنقل به حيث شئت لا تخش أحدا، وذلك من عظمتهم وجبروتهم، وقد سكن القواقل على طرف الحرة الغربية، ومن بطون عوف بن الخزرج -أيضًا- بني الحبلى الذين منهم عبدالله بن أبي بن سلول، وكانت منازلهم بين قباء وشرق وادي بطحان.

وانقسم بنو جشم بن الخزرج إلى عدة بطون أهمها:

بني بياضة، وبني زريق، وبني سلمة، وعشائر أخرى دخلت فيهم، ومن بني سلمة، بني حرام، وبني عدي، وبني عبيد، وتمتد مساكنهم من سلع إلى وادي العقيق. أما بنو بياضة، وبنو زريق، فسكنوا جنوب المدينة.

وأما **بنو كعب بن الخزرج**، فمن أهم بطونهم: بنو ساعدة، الذين انقسموا إلى بطنين هما: بنو طريف، وبني عمرو، ومن بني طريف: بني دليم بن حارثة، بيت الكرم والشهامة المعروف، الذين كان منهم

فيما بعد سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة، وقد سكنوا عند المكان المشهور بسقيفة بني ساعدة شرق سوق المدينة، كما كان لبني سلمة كذلك منازل عند وادي بطحان.

أما بنو الحارث ابن الخزرج، فمن أشهر بطونهم:

بنو مالك الأغر، وبنو جشم بن الحارث، وبنو زيد مناة بن الحارث، وبنو خدرة، وبنو جدارة، وبنو صخر، واشتهر بنو الحارث باسم (بلحارث)، وقد سكنوا العوالي شرق وادي بطحان، ما عدا بني جشم، وبني زيد مناة، فقد سكنوا السنح شرق مسجد الرسول -صلى الله عليه وسلم-. وبنو خدرة وبنو جدارة، سكنوا بالقرب من سوق المدينة.

أيامهم وحروبهم في الجاهلية:

استقر حال الحيين اليمانيين في يثرب مدة في سلام ووئام، ولكن اليهود وبعض القبائل العربية المجاورة لم يرضوا بذلك، فأخذوا يوقعون الضغائن، ويزرعون الأحقاد بين الحيين اليمانيين، وما هي إلا مدة حتى فتح باب الشر على مصراعيه، وقدحت شرارة حرب ضروس، من أشهر الحروب في تاريخ الجاهلية العربية، قدر لها أن تستمر لأكثر من مئة عام لم يطفئها إلا قدوم النبي الكريم مهاجرًا من مكة إلى يثرب.

- حرب سُمير:

وفد وافد من ذُبيان اسمه كعب الثعلبي إلى يثرب، ونزل على زعيم الخزرج مالك بن العجلان الخزرجي، وحالفه وأقام في جواره، ثم خرج كعب الثعلبي ذات يوم إلى سوق يثرب، فرأى رجل من غطفان، ومعه فرس أصيل، وهو يقول: ليأخذ هذا الفرس أعز أهل يثرب[1]، فقال كعب الثعلبي: أعز أهل يثرب حليفي مالك بن العجلان الخزرجي، وقال آخر: أعز أهل يثرب أحيحة بن الجلاح الأوسي، وكثر الكلام، فقبل صاحب الفرس قول كعب الثعلبي، فدفع إليه الفرس، ليعطيها مالك بن العجلان الخزرجي.

حضر هذا الموقف رجل من الأوس يدعى سُمير بن يزيد الأوسي، فغضب وتوعد الثعلبي، وتابعه سمير، فلحقه بالقرب من قباء، فقتله.

علم مالك بن العجلان الخزرجي بمقتل حليفه، فأرسل إلى بني عمرو بن عوف الأوسيين – قبيلة سمير – أن أرسلوا إلينا سمير نقتله بحليفنا، أو أعطونا الدية.

بعد مفاوضات كثيرة رفضت الأوس تسليم سمير بن يزيد، وقبلوا بدفع الدية، وكانت دية الحليف نصف دية الصريح عند العرب، فرفض مالك بن العجلان إلا الدية كاملة، وتدخل بينهم عمرو بن امرئ القيس الحارثي الخزرجي[2]، وحكم أن تدفع دية الحليف

(١) قيل إن الذي بعثه هو عبد ياليل الثقفي.
(٢) جد الصحابي عبدالله بن رواحة.

فقط، كما هي عادة العرب، فرفض مالك بن العجلان، فغضبت لذلك بلحارث بن الخزرج حين رد قضاء عمرو بن امرئ القيس.

فقال في ذلك مالك بن العجلان الخزرجي:

إن سَميرًا أرى عشيرته ... قد حدبوا دونه وقد أنِفَوا
إن يكن الظن صادقًا ببني النّجـ ... ـار لا يطعموا الذي علِفَوا
لا يسلمونا لمعشرٍ أبدا ... ما دام منا ببطنها شرفُ
لـكن موالي قد بدا لهمُ ... رأي سوى ما لدي أو ضعفوا
بين بني جحجبى وبين بني ... زيد فأنّى لجاري التّلفُ
يمشون في البيض والدروع كما ... تمشي الجمال مصاعبٌ قُطُفُ
وكما تمشّى الأسود في رهج المـ ... ـوت إليهِ وكلّهم لَهِفُ

فرد عليه درهم بن يزيد الأوسي، أخو سمير بن يزيد:

يا قوم لا تقتلوا سميرًا فإن ... القتل فيه البوار والأسفَ
إن تقتلوه ترنَّ نسوتكم ... على كريمٍ ويفزع السَّلفُ
إني لعمر الذي يحج له النـ ... ـاس ومن دون بيته سَرِفُ
يمين برٍّ بالله مجتهد ... يحلف إن كان ينفع الحَلَفُ
لا نرفع العبد فوق سنّتهِ ... ما دام منا ببطنها شرفُ
إنكَ لاقٍ غدا غواة بني ... عمي فانظر ما أنت مُزدهِفُ
فأبدِ سيماك يعرفوك كما ... يبدون سيماهم فتعترفُ(١)

(١) كان مالك بن العجلان الخزرجي إذا نزل الحرب تتكر، وأخفى ملامحه، كي لا يُعرف، ولهذا عيرهُ درهم بن يزيد بذلك.

ثم تواعدوا الحرب، واستعدوا لها، وحشد الحيان، فزحف مالك بن العجلان بمن معه من الخزرج، وزحفت الأوس، فالتقوا في أول يوم من أيام هذه الحرب المشؤومة بالقرب من قباء، فاقتتلوا قتالًا شديدا، وكثرت القتلى والجرحى، ثم التقوا مرة أخرى عند أطم بني قينقاع، فاقتتلوا أشد قتال حتى حجز بينهم الليل، وكان الظفر فيها للأوس، قال أبو قيس بن الأسلت الأوسي:

لقد رأيت بني عمرو فما وهنوا عند اللقاء وما همّوا بتكذيبي
ألا فدىً لهمُ أمّي وما ولدت غداة يمشون إرقال المصاعيبِ
بكل سلهبة كالأَيم ماضية وكل أبيض ماضي الحد مخشوبِ

واستمرت هذه الحرب عشرين سنة، مسلسل قتل لا ينقطع، وقد عرفت في التاريخ الجاهلي بحرب سمير، وكان الظفر في معظم أيامها للأوس.

ولمّا رأت الأوس أن مالك بن العجلان الخزرجي لن يتركهم، فأرسلوا إليه أن يحكّم بينهم المنذر بن حرام الخزرجي[1]، فأجابهم إلى ذلك، فأرسلوا إلى المنذر بن حرام، فأخذ منهم العهود والمواثيق أن يقبلوا بحكمه، فعاهدوه، فحكم أن تدفع دية الصريح في حليف مالك بن العجلان على أن تعود السنّة فيما بعده على ما كانت عليه، الصريح على ديته، والحليف على ديته، وأن يحصى القتلى من الطرفين، وتدفع الدية لمن كان له فضل في القتلى، وقد طلب المنذر بن حرام من قبيلته بني النجار الخزرجيين أن يدفعوا نصف الدية معونة لإخوانهم الأوس، والنصف الآخر على الأوس، فرأى الأوسيون أنهم لم يدفعوا إلا النصف فقط، ورأى مالك بن

(١) جد الصحابي الجليل وشاعر الإسلام حسان بن ثابت بن المنذر.

العجلان أنه استلم دية كاملة في حليفه، فرضوا بذلك، وهدأت الحرب إلى حين.

وفي هذه الحرب تناشد شاعر الأوس قيس بن الخطيم الأوسي، وشاعر الخزرج حسان بن ثابت فيما بعد – وكانوا لم يحضروها؛ إذ كانت قبلهم بمدة – قال قيس بن الخطيم:

رد الخليط الجمال فانصرفوا ... ماذا عليهم لو أنهم وقفوا
لو عرّجوا ساعة نُسائلهم ... ريث يضحي جماله السَّلفُ

إلى أن قال:

أبلغ بني جحجبي وإخوتهم ... زيدا بإنا وراءهم أُنُفُ
إنا وإن قلّ نصرنا لهم ... أكبادنا من ورائهم تَجِفُ
لمّا بدت نحونا جباههم ... حنّت إلينا الأرحام والصَحفُ
نفلي بحد الصفيح هامَهم ... وفلْينا هامَهم بها جِنفُ
يتبع آثارها إذا اختلجت ... سخنٌ عبيطٌ عروقهُ تكِفُ
إن بني عمنا طغوا وبغوا ... ولجَّ منهم في قومهم سرَفُ

فرد عليه حسان بن ثابت الخزرجي، ولم يدرك هذه الحرب أيضًا:

ما بال عينيك دمعها يكفُ ... من ذكر خود شطّت بها قَذَفُ
بانت بها غربة تؤم بها ... أرضًا سوانا والشكل مختلفُ
ما كنت أدري بوشك بينهمُ ... حتى رأيت الحدوج تنقذفُ
ودع ذا وعد القريض في نفرٍ ... يرجون مدحي ومدحي الشرفُ
إن تدعِ قومي للمجد تلفهمٍ ... أهل فعال يبدو إذا وصِفوا
إن سُميرًا عبدا طغى سفهًا ... ساعدهُ أعبد لهم نَطفُ

- حرب كعب

ما إن هدأت حرب سمير حتى نشبت حرب أخرى، وسببها أن كعب بن عمرو المازني الخزرجي تزوج امرأة من بني سالم – بطن في الخزرج –، وكان يختلف إليها، ويمر في طريقه على مضارب بني جحجبى الأوسيين، فأمر أحيحة بن الجلاح الأوسي رجالًا من بني جحجبى أن يكمنوا له، ويقتلوه، ففعلوا.

فبلغ ذلك أخاه عاصم بن عمرو الخزرجي، فأعلن النفير في قبائل بني النجار الخزرجية، فحشدوا للحرب، فالتقت بنو النجار ومن معهم من الخزرج ببني جحجبى ومن معهم من الأوس في منطقة الرّحابة، فاقتتلوا أشد قتال، فانهزمت بنو جحجبى، وانتصرت الخزرج.

فلحق عاصم بن عمرو الخزرجي بأحيحة بن الجلاح الأوسي، وقد وصل إلى باب حصنه، فرماه بسهم، فوقع السهم في باب الحصن، ونجا أحيحة.

ثم أن عاصم بن عمرو كان يكمن لأحيحة بن الجلاح ليلًا أمام حصنه، ويأخذ معه التمر، فإذا ما نبحت الكلاب عليه رمى لها التمر، فسكتت، ومكث على ذلك ليالي، فأحس به أحيحة ذات ليلة، فصاح بقومه، فجرى عاصم بن عمرو، ونجا منهم، فقال في ذلك أحيحة بن الجلاح الأوسي:

نُبِّئت أنك جئت تسـ ـري بين داري والقبابة
فلقد وجدت بجانب الضحيـ ـان[1] شُبانًا مهابة
فتيان حرب في الحديـ ـد وحاسرين كأسد غابة
هم نكبوك عن الطريـ ـق فبتَّ تركب كل لابة
أعصيم لا تجزع فإن الـ حرب ليست بالدعابة
فأنا الذي صبحتكم بالقوم إذ دخلوا الرّحابة
وقتلت كعبًا قبلها وعلوت بالسيف الذؤابة

وبلغ قوله هذا عاصمًا، فأجابه:

أبلغ أحيحة إن عرضـ ـت بداره عنّي جوابه
وأنا الذي سامرتهُ عن مقعد ألهي كلابه
ورميته سهمًا فأخـ ـطأهُ وأغلق ثمَّ بابه

وكان الظفر في هذه الحرب للخزرج.

ثم نشب صراع مرير بين بني عمرو بن عوف الأوسيين، وبلحارث بن الخزرج، وذلك أن رجلًا من بلحارث بن الخزرج قتل رجل من بني عمرو بن عوف على خلاف، فلحقوا به، وقتلوه، فنشبت الحرب بينهم، واشتركت فيها عامة الأوس والخزرج، واستمرت هذه الحرب لمدة. قال شاعر الخزرج حسان بن ثابت:

(١) الضحيان: حصن لزعيم الأوس أحيحة بن الجلاح، وله حصن آخر اسمه المستظل.

لعمر أبيك الخير بالحق ما نبا علي لساني في الخطوب ولا يدي
فلا الجهد ينسيني حياتي وحفظتي ولا وقعات الدهر يغفلن مبردي
فلا تعجلن يا قيس وأربع فإنما قصاراك أن تُلقى بكل مهندِ
حسام وأرماح بأيدي أعزةٍ متى ترهم يا بن الخطيم تلبّدِ

رد عليه شاعر الأوس قيس بن الخطيم بمطوّله، ومنها:

لنا حائطان للموت أسفل منهما وجمع متى تصرخ بيثرب يصعد
ترى اللابة السوداء يحمّر لونها ويسهل منها كل ربع وفد فد

إلى أن قال:

فما المال والأخلاق إلا معارة فما استطعت من معروفها فتزوّد
متى ما تَقُد بالباطل الحق يأتهِ فإن قُدتَ بالحق الرواسي تنقد
إذا ما أتيت الأمر من غير بابهِ ظللت وأن تدخل من الباب تهتدي

واستمرت هذه الحرب لمدة، وكانت سجالًا بين الطرفين.

- حرب ربيع الظفري:

ثم وقعت حرب بين بني ظفر من الأوس، وبني مالك بن النجار الخزرجيين، وسببها أن ربيع الظفري كان يمر في حائط رجل من بني النجار كانت على طريقه، فمنعه النجاري أن يمر في هذه الطريق، وحصل بينهم خلاف، فقتله ربيع الظفري، فحشد الحيان لبعضهم، والتقوا واقتتلوا أيامًا لا يحجز بينهم إلا الليل.

ثم انهزمت بنو مالك بن النجار، وكان الظفر للأوس، فقال في ذلك شاعر الأوس قيس بن الخطيم قصيدة، ومنها:

ونحن الفوارس يوم الربيع لقد علموا كيف أبدانها
تراهنّ يخلجن خلج الدلال يبادر بالنزع أشطانها

فأجابه حسن بن ثابت في قصيدة منها:

ويثرب تعلم أنسابها إذا التبس الحق ميزانها
ويثرب تعلم إذا حاربت بأنا لدى الحرب فرسانها

حرب فارع:

ما إن تهدأ حرب حتى تقدح شرارة حرب أشد منها، وفارع هذا غلام من قضاعة الحميرية، كان جارًا وحليفًا للنعمان بن امرئ القيس الأشهلي الأوسي – جد الصحابي الجليل سعد بن معاذ بن النعمان، فقتلت الخزرج ذلك الغلام، فأرسل بنو عبد الأشهل الأوسيون إلى الخزرج أن يدفعوا ديته، أو يسلموهم القاتل، فأبت الخزرج، فتعاهدت بنو عبد الأشهل إن لم تستجب الخزرج لمطلبهم، سيقتلون به عمرو بن الأطنابة الخزرجي.

وعمرو بن الأطنابة هذا ليس من أبطال الخزرج فحسب، بل من فرسان وشعراء العرب المشاهير، فحشد الحيان اليمانيان – الأوس والخزرج – لهذه الحرب، فالتقوا في أول أيامها عند حصن لليهود، يقال له فارع، فتقاتلوا قتالًا شرسًا، ومكثوا على ذلك لمدة حتى كثر القتل في الجانبين، وكان اليهود هم من يؤجج ذلك الصراع ويسعى لإطالته، وفي أحد أيام هذه الحرب قال عمرو بن الأطنابة الخزرجي

قصيدته الرائعة بعد أن همَّ بالهزيمة، ثم عاد وثبت ثبوت الأبطال، وتعد هذه القصيدة من أقوى ما قالته العرب في الشجاعة والإقدام:

أبت لي عفتي وأبى بلائي وأخذي الحمد بالثمن الربيح[1]

طالت هذه الحرب، وعلم عمرو بن الأطنابة أن بني عبد الأشهل لن يتركوه، فتدخل بعض عقلاء القبيلتين، وجمعوا دية الغلام فارع، وانتهت هذه الحرب.

ثم نشبت حرب بين بني وائل بن يزيد من الأوس، وبين بني مازن بن النجار من الخزرج، وذلك أن الحصين بن الأسلت الأوسي تنازع مع رجل من بني مازن على حائط، فقتل الحصين المازني، فلحقت بنو مازن بالحصين، فقتلوه.

فبلغ ذلك أبا قيس بن الأسلت الأوسي – أخا الحصين –، وكان من صناديد الأوس، فجمع قومه، وانضمت لهم بقية الأوس، والتقوا ببني مازن، ومن معهم من الخزرج، فاقتتلوا أيامًا، وكانت الحرب سجالًا بين الطرفين.

(١) ذكرنا هذه القصيدة في ترجمته.

- حرب حاطب

وهي من أشد حروبهم، وأكثرها دموية قبل يوم بعاث الشهير، وذلك أن حاطب بن قيس الأوسي كان كبير القدر سيدا مطاعا في قومه، وكان قد نزل عليه رجل من ذبيان، فأقام عنده وجاوره.

ذات يوم، وبينما كان الذبياني – جار حاطب – في سوق يثرب رآه رجل يدعى يزيد بن الحارث الخزرجي، واشتهر بابن فسحم – وفسحم أم يزيد –، فقال ابن فسحم لرجل من اليهود لك ردائي هذا إن كسعت[1] ذلك الذبياني، فذهب اليهودي وكسع الذبياني وسط السوق، فصرخ الذبياني حتى سمعه من في السوق، وقال: يا آل حاطب كُسِع ضيفكم وفُضِح، فعلم حاطب بن قيس الأوسي بذلك، وكان قريبًا من السوق، فلحق باليهودي وضربه بالسيف، ففلق هامته.

فعلم ابن فسحم –وكان شجاعا فاتكًا–، فلحق بحاطب ولم يدركه، فوجد رجلًا من الأوس في طريقه، فقتله.

فوقع الشر، وأخذ الحيان يحشدان لبعضهم، فالتقوا في مضارب بلحارث بن الخزرج، وكان على الخزرج عمرو بن النعمان البياضي الخزرجي، وعلى الأوس حضير الكتائب بن سماك الأشهلي –والد الصحابي الجليل أسيد بن حضير–، فاقتتلوا أشد قتال، وصبروا لبعضهم، ومكثوا على ذلك أيامًا، فعلمت بذلك بعض القبائل العربية المجاورة، فتدخلت بنو فزارة للصلح، فوصل وفدهم والقوم قد تزاحفوا، فرأى الفزاريون من هول القتال ما راعهم، وأيسوا من

(١) الكسع: هو ضرب الرجلين في المؤخرة، ولم توضح المصادر لماذا فعل ابن فسحم هذه الفعلة.

الصلح، واشتد الحقد بين الأوس والخزرج، وكانت الحرب سجالًا بين الطرفين.

ثم وقعت بينهم أيام مهولة امتدادا لحرب حاطب، ومنها يوم الربيع، انتصرت فيه الخزرج، وكانوا أكثر عددا وعدة، ثم يوم البقيع، انتصرت فيه الأوس، قال عبيد بن ناقد الأوسي:

لما رأيت بني عوفٍ وجمعهمَ ... جاءوا وجمع بني النجار قد حفلوا
دعوت قومي وسّهلت الطريق لهم ... إلى المكان الذي أصحابه حللوا
جاءت بأنفسها من مالك عُصب[1] ... يوم اللقاء، فما خافوا وما فشلوا
وعاوروكم كؤوس الموت إذ برزوا ... شطر النهار وحتى أدبر الأصلُ
تكشّف البيض عن قتلى ذوي رحمٍ ... لولا المسالم والأرحام ما نُقِلوا
تقول كل فتاةٍ غاب قيمُها ... أكلٌّ من خلفنا من قومنا قُتِلوا؟

فأجابه عبدالله بن رواحة الخزرجي بقصيدة، ومنها:

لمّا رأيت بني عوف وإخوتهم ... كعبًا وجمع بني النجار قد حَفِلوا
قُدمًا أباحوا حِماكم بالسيوف ولم ... يفعل بكم أحد مثل الذي فعلوا

وكان أبو قيس بن الأسلت الأوسي – وهو أحد الكُمَّل في أبناء قيلة[2] – قد غاب لمدة عن أهله منشغلًا بأمور الحرب، فقد آثرها على كل شيء، فلما عاد إلى أهله، وكان قد تغير لونه، وشحب وانهكته الحرب، فتحت له زوجته الباب، ولم تعرفه إلا بصوته فقط،

(١) هم بني مالك بن الأوس.
(٢) كانوا يطلقون لقب الكامل على كل من يحسن القراءة والكتابة والفروسية والرماية والعوم والسباحة.

فتأثر من ذلك تأثرًا كبيرًا، وقال قصيدته الرائعة يصف الحرب وأهوالها، وتعد من روائع الشعر العربي:

قالت ولم تقصد لقيل الخنا مهلًا فقد أبلغت أسماعي
أنكرتهِ حين توسمتهِ والحرب غولٌ ذات أوجاع
من يذقِ الحرب يجد طعمها مُرًّا وتتركهُ بجعجاع
قد حصَّت البيضة رأسي فما أطعم نومًا غير تهجاع
أسعى على جُلّ بني مالكٍ كل امرئٍ في شأنهِ ساعي
أعددت للأعداء موضونةً فضفاضةً كالنّهي بالقاع
أحفزها عنّي بذي رونقٍ مهنّد كالملح قطّاع
لا نألم القتل ونجزي بهِ الأعداء كيل الصّاع بالصّاع
هلا سألتِ الخيل إذ قلصت ما كان إبطائي وإسراعي
هل أبذل المال على حبّهِ فيهم وآوي دعوة الداعي
وأضرب القونس يوم الوغى بالسيف لم يقصر به باعي
أزين الرّحل بمعقومة حاريةً أو ذات أقطاع
أقضي بها الحاجات أن الفتى رهن بذي لونيه خداع

ثم وقع بينهم يوم الفجار الأوّل، وفي هذا اليوم كان قيس بن الخطيم الأوسي يتنزه في حائط له، وكان حديث عهد بعرس، فمر عليه القوم ذاهبين للحرب، ولم يكن معه إلا السيف فقط، فخاف أن رجع إلى عدته أن يتأخر عنهم، فخرج معهم حاسرًا بسيفه فقط، فقاتل قتالًا عظيمًا حتى أعظمته الأوس والخزرج لما رأوا منه، حتى إن النبي -صلى الله عليه وسلم- تعجب من شجاعته فيما بعد عندما سمع قوله:

أقاتلهم يوم الحديقة حاسرًا كأن يدي بالسيف مخراق لاعبِ

ثم وقعت بينهم أيام عظيمة ومهولة، ومنها يوم مغبّس ومضرّس ثم يوم الرَّعل – وفيه جرح سعد بن معاذ جرحًا بليغًا، وكان شابًا – ، فاحتمله بنو سلمة بن الخزرج، فعالجوه، وأكرموه، وأطلقوه، فجازاهم يوم بعاث فيما بعد أن منع الأوس من إحراق دورهم، ومزارعهم.

وكانت معظم هذه الأيام للخزرج على الأوس.

- يوم بُعاث

آخر أيامهم وحروبهم، وأعظمها وأشدها ضراوة، وقد قالت عائشة رضي الله عنها- إن يوم بعاث كان توطئة وتمهيد من الله سبحانه وتعالى للنبي -صلى الله عليه وسلم-، إذ قُتل في هذا اليوم معظم عظماء الحيين وكبرائهم الذين كانوا من المتوقع أن يعارضوا الدعوة الإسلامية.

في تلك الفترة كانت قبيلتا قريظة والنضير اليهوديتان قد حالفتا قبيلة الأوس، ويدعمونهم ضد الخزرج، بينما كانت القبيلة اليهودية الثالثة في يثرب –بنو قينقاع– قد حالفت الخزرج ضد الأوس.

أرسلت الخزرج إلى بني قريظة وبني النضير تتوعدهم بالحرب والهلاك إن هم استمروا في دعم الأوس، فهابتهم اليهود، فطلبت الخزرج من قريظة والنضير أن يدفعوا إليهم برهائن – كضمان لعدم دعمهم للأوس–، فبعثوا إليهم بأربعين غلاماً، فأخذهم الخزرج، وفرّقوهم في دورهم.

ثم إن زعيم الخزرج في ذلك الحين –عمرو بن النعمان البياضي– أرسل إلى قريظة والنضير أن خلّوا بيننا وبين دياركم

نسكنها وإلا قتلنا الرهائن، فهمت اليهود أن تفعل، فمنعهم كعب بن أسد القرضي.

فقام عمرو بن النعمان البياضي الخزرجي بذبح الرهائن بمن أطاعه من الخزرج، وعارضه في ذلك بطون أخرى، وعلى رأسهم عبدالله بن أبي بن سلول – كان من زعماء الخزرج–، ورفضوا قتل من عندهم من الرهائن، وقال عبدالله بن أبي بن سلول لعمرو بن النعمان البياضي: هذا عقوق منك، ومأثم وبغي، وكأني أنظر إليك قتيلًا تحملك أربعة في عباءة.

بعد هذه الحادثة حشدت الأوس والخزرج لبعضهم، وعزم كل طرف على استئصال الآخر، وجدوا في أمر الحرب، وأرسل كل منهم إلى حلفائه، واجتمع أمر الأوس على قيادة حضير بن سماك الأشهلي المعروف بحضير الكتائب، وأجمعت الخزرج على قيادة عمرو بن النعمان البياضي في هذه الحرب، ومكثوا أربعين ليلة يتجهزون ويتهيأون للمعركة.

التقى الحيان ببُعاث، ولم يتخلف منهم أحد في هذه المعركة، وكلهم عازم على استئصال شأفة الآخر، فلما رأت الأوس الخزرج أعظموهم، وكانت الخزرج كثيرة العدد، فتكلم بعض عقلاء الأوس في الصلح، فأخذ حضير الكتائب قوسًا في يده، ثم قال: الآن وقد نظر إلي القوم؟ الموت أهون من ذلك.

نشب القتال، والتحم الجيشان في قتال شرس، وقبل أن ينتصف النهار بدا أن هزيمة الأوس واضحة، فبدأوا يولّون باتجاه حرّة قورى، وصاحت بهم الخزرج: أين الفرار؟ فلما سمع حضير الكتائب ذلك، طعن بسنان رمحه فخذه، ونزل وصاح واعقراه، والله لا أريم حتى

أُقتل، فإن شئتم يا معشر الأوس أن تسلموني فأفعلوا، فعطفت عليه الأوس عطفة رجلٍ واحد، وقام على رأسه غلامان من بني عبد الأشهل ذوا بطش، فجعلا يرتجزان:

أي غلامي ملكٍ ترانا في الحرب إذ دارت بنا رحانا
وعدد النـاس لنا مكـانا

فقاتلوا قتالًا شرسًا حتى قتلوا، وأقبل سهم حتى أصاب زعيم الخزرج عمرو بن النعمان البياضي، فقتله، لا يدرى من رمى به، ثم انهزمت الخزرج، ووضعت الأوس فيهم السلاح، وانقلبت موازين المعركة، وأخذت الأوس تحرق دور الخزرج، وبساتينهم، فخرج سعد بن معاذ الأشهلي الأوسي أمام مضارب بني سلمة بن الخزرج، وأجارهم هم وأموالهم جزاء لهم بما فعلوه معه يوم الرعل[1]، ثم نادى منادٍ يا معشر الأوس اسجحوا ولا تهلكوا إخوتكم –أي امسكوا–، فجوارهم خير من جوار الثعالب –أي اليهود–، فأمسكت الأوس.

عادت الأوس وهم يحملون قائدهم حضير الكتائب، وهو جريح، وهم يرتجزون حوله، ويقولون:

كتيبة زينها مولاها لا كهلها هُد ولا فتاها

وكان حضير الكتائب قد أقسم أن يهدم مزاحم –حصن عبدالله بن أبي بن سلول–، وأن يركز رمحه فيه، فاحتملوه إلى هناك، فلما

(١) في يوم الرّعل انهزمت الأوس، وأصيب سعد بن معاذ بإصابة بالغة، فأخذه بنو سلمة بن الخزرج، وعالجوه وأكرموه، وردوا إليه أمواله، وأطلقوه، فجازاهم بذلك الفعل يوم بعاث بأن منع الأوس من إحراق دورهم ومزارعهم.

علم بموقف عبدالله بن أبي بن سلول أخذ قليلًا من جدار الحصن، وركز رمحه في أصله كي يبر بقسمه، ثم عادوا به، فلم يلبث أن مات من جراحه بعد أيام، وفي هذه المعركة قتل معظم كبراء الحيين اليمانيين في يثرب.

في هذه المرحلة التاريخية كان أفضل الخلق -عليه الصلاة والسلام- قد بُعث في مكة، وشاء الله سبحانه أن يلتقي بنفر من شباب الخزرج -بعد يوم بعاث- ذهبوا إلى مكة يعقدون الأحلاف، ويشترون الأسلحة لمواصلة حربهم مع إخوانهم الأوس[1]، فدعاهم إلى الإسلام، فأسلموا وكان ما كان من أمر بيعة العقبة الأولى ثم الثانية، وكانت هذه نقاط تحوّل فاصلة في تاريخ أبناء قيلة، بل في تاريخ الأمة الإسلامية جمعاء، وقد أراد الله جل جلاله أن يكون لهذين الحيين اليمانيين الفضل في نصرة هذا الدين العظيم، وأن يكونوا مع إخوانهم المهاجرين الأوائل هم اللبنات الأولى في صرح الإسلام، ولله در شاعرهم حسان عندما قال:

سمَّاهم الله أنصارًا بنصرهمُ دين الهُدى وعوان الحربِ تستعرُ

وبعد بيعة العقبة الثانية هاجر النبي -صلى الله عليه وسلم- من مكة إلى يثرب التي سميت المدينة أو مدينة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهاجر المستضعفون المسلمون، وبدأت مرحلة التمكين والعزة والنصر لدين الله، وتغيرت المعادلة تمامًا، أو كما قال رسول الله -عليه الصلاة والسلام-: إن الله قد أمدني بأطول الناس ألسنة وأشدها أذرعة، ثم وقعت الملاحم والمشاهد

(١) ويقال إنهم ذهبوا معتمرين.

والغزوات المشهورة في التاريخ الإسلامي، ونصر الله دينه ورسوله، وأشرقت شمس الإسلام على جزء كبير من أجزاء المعمورة.

قال الشاعر ابن الشاعر كعب بن زهير بن أبي سلمى في الأنصار:

من سرّهَ كرم الحياة فلا يزل ... في مقنب من صالحي الأنصارِ
تزن الجبال رزانة أحلامهم ... وأكفّهم خُلفٌ من الأمطارِ
المكرهين السمهري بأذرع ... كصواقل الهندي غير قصارِ
والناظرين بأعينٍ محمّرةٍ ... كالجمر غير كليلة الأبصارِ
والذائدين الناس عن أديانهم ... بالمشرفي وبالقنا الخطّار
والباذلين نفوسهم لنبيهم ... يوم الهياج وسطوة الجبار
رُميت نطاة من الرسول بفيلقٍ ... شهباء ذات مناكب وفقار
بالمرهفات كأن لمع ظباتها ... لمع السواري في الصبير الساري
لا يشتكون الموت إذ نزلت بهم ... شهباء ذات معاقمٍ وأوارِ
وإذا نــزلــت ليمنعوك إليهم ... أصبحت عند معاقل الأعقار
ورثوا السيادة كابرًا عن كابرٍ ... إن الخيار همُ بنوا الأخيار
صدموا عليًا[1] يوم بدرٍ صدمةً ... دانت لوقعتها جميع نزارِ
يتطهرون كــأنــه نسك لهمُ ... بدماء من علقوا من الكفارِ
لو يعلم الأقوام علمي كله ... فيهم لصدقني الذين أماري
قوم إذا حوت النجوم فإنهم ... للطارقين النازلين مقاري
في الغر من غسـان من جرثومة ... أعيت محافرها على المنقارِ

وبما أن الأنصار أبناء قيلة – الأوس والخزرج – حيان عظيمان وآلاف مؤلفة من الرجال الأبطال والنساء الماجدات، فقد اخترنا في

(١) يريد علي بن كنانة ومنهم قريش.

هذا الكتاب عشرين رجلاً من أبطالهم وهاماتهم، عشرة من الأوس، وعشرة من الخزرج، ممن اشتهروا في تلك الحقبة التاريخية، وسجلوا مواقف خالدة في ذاكرة الأمة الإسلامية، على أمل أن نتطرق لغيرهم من أمثالهم في أجزاء أخرى إن شاء الله سبحانه.

سعد بن معاذ الأوسي الأنصاري

قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ"[1].

الصحابي الجليل، والسيد النبيل، زعيم الأوس وفتاها، وخيرة شبابها، البطل المقدام، والجواد الشهم، الذي اهتز لموته عرش الرحمن عز وجل، أبو عمرو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد الأشهلي الأوسي، أحد كبار الصحابة، ومن زعماء يثرب قبل البعثة وبعدها.

نشأ سعد بن معاذ في يثرب بين قومه بني عبد الأشهل من النّبيت، وشبّ شجاعا مقدامًا، وزعيمًا مطاعا في قومه رغم صغر سنه، وكان من أجمل الرجال صورة، وأكملهم خلقة، وسيمًا أبيضًا طويلًا مهيبًا.

شارك سعد بن معاذ في شبابه في الحروب المريرة التي كانت تدور رحاها بين الأوس والخزرج، واكتوى بنارها كغيره من أبناء قيلة، وقد جُرح جرحًا بليغًا في يوم الرعل -ولا يزال في مقتبل العمر-، فاحتملته بنو سلمة بن الخزرج، وعالجوه، وأكرموه، وأطلقوا سراحه، فجازاهم فيما بعد خير جزاء عندما منع قبيلته الأوس من إحراق دور ومزارع بني سلمة بن الخزرج في يوم بعاث.

أسلم سعد بن معاذ هو، وابن عمه، وصديقه أسيد بن حضير الكتائب، فكان في إسلامهم عزٌ ومنعة، وقد أسلموا على يد سفير الإسلام مصعب بن عمير، وهنا تجلّت مكانة سعد في أبهى صورها!

(١) صحيح رواه الشيخان البخاري ومسلم.

جمع سعد قومه بني عبد الأشهل – وهم من النبّيت أكبر بطون الأوس –، فلما اجتمعوا سألهم؟ يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ فأجابوه: سيدنا وأكثرنا فضلًا، فقال: فإن كلامكم علي حرام، رجالكم ونساءكم حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فما بقي دار من بني عبد الأشهل، إلا وأسلموا رجالًا ونساءً، فأخذ سعد هو وأسيد بن حضير الكتائب ينشرون الإسلام بين بني عبد الأشهل.

ذهب سعد بن معاذ بعد إسلامه بمدة إلى مكة لحاجة له، وكان صديقًا لأحد زعماء مكة، وهو أمية بن خلف، فكان أمية إذا جاء يثرب نزل على سعد، وإذا ذهب سعد إلى مكة نزل على أمية.

انطلق سعد بن معاذ معتمرا، فقال أمية لسعد: انتظر، حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس، انطلقت فطفت، فبينا سعد يطوف إذا أبو جهل، فقال: من هذا الذي يطوف بالكعبة؟ فقال سعد: أنا سعد، فقال أبو جهل: تطوف بالكعبة آمنا وقد آويتم محمدا وأصحابه؟! فقال: نعم، فتلاحيا بينهما، فقال أمية لسعد: لا ترفع صوتك على أبي الحكم؛ فإنه سيد أهل الوادي، ثم قال سعد: والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام، قال: فجعل أمية يقول لسعد: لا ترفع صوتك، وجعل يمسكه، فغضب سعد فقال: دعنا عنك؛ فإني سمعت محمدا صلى الله عليه وسلم يزعم أنه قاتلك، قال: إياي؟ قال: نعم.."[1]، ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً[2].

وهب سعد بن معاذ سيفه ونفسه ومكانته وحياته كلها نصرةً لله ورسوله، وفي غزوة بدر ظهرت شجاعة سعد وجراءته في أبهى

---

١ – رواه البخاري عن عبدالله بن مسعود، حديث رقم ٣٦٣٢.

(٢) وذلك إنهم أجبروه فيما بعد على الخروج إلى بدر، ولم يكن راغبًا، فقتل هناك، وهو على الشرك، والعياذ بالله.

صوره، فعندما خرج المسلمون لاعتراض قافلة قريش – وكانت الأنصار قد بايعوا النبي على أن يمنعوه في المدينة فقط –، قال – عليه الصلاة والسلام-: أشيروا علي أيها الناس، فتكلم عدد من المهاجرين، فيهم أبوبكر، وعمرو والمقداد بن الأسود، والنبي -عليه الصلاة والسلام- يكرر ويقول: أشيروا علي أيها الناس.

ففطن الأنصار لذلك فهم سواد الجيش ومادته، فقام السعدان زعيما الأنصار، سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، فتكلموا، فكان في كلامهم البشارة، والفتح، ومما قال سعد بن معاذ: "أمض يا رسول الله لما أُمرت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر، فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غدا، إنا لصبرٌ في الحرب، صدقٌ في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله".

فلما سمع ذلك النبي -عليه الصلاة والسلام- استبشر، وقال: "سيروا وأبشروا، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم".

وعندما التقى الجمعان في بدر يوم الفرقان كُسِرت قريش، ووسّد جُلّ سادتها في التراب، وأبلى سعد بن معاذ والمسلمون أجمعهم يوم ذاك البلاء الحسن.

وتأتي بعدها معركة أحد تلك المعركة التي كانت امتحانًا صعبًا للمسلمين؛ إذ انهارت صفوفهم، وولّى بعضهم هاربين، وثبت الشجعان الأبطال حول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكان سعد كعادته في المقدمة، أسدا جسورًا لا يهاب المنايا، فأبلى يوم ذاك البلاء العظيم، فقد كان محاربًا من الطراز الأول، وكانت شجاعته بالمكان الذي لا يجهل.

تمر الأيام والسنون، وسعد واهبًا نفسه لله ولرسوله سلمًا وحربًا، ثم وقعت غزوة الخندق، تلك الغزوة التي جمع فيها المشركون أعظم جيوشهم، حاصروا المدينة، وتخندق المسلمون مدافعين عن دينهم ونبيهم، وعندما اشتد الحصار، وخانت اليهود العهد، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، بعث النبي -عليه الصلاة والسلام- إلى سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة زعيما أبناء قيلة، واستشارهم في أمر خطير، وهو أن يصالح قبائل غطفان على ثلث ثمار المدينة، حتى ينفضوا عن قريش، فقال له السعدان: هل هذا أمر من الله سبحانه؟ قال: لا، وإنما أردت أن أخفف عنكم، فقالوا له: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء – غطفان – على الشرك وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا من مدينتنا تمرة واحدة إلا قرى (أي كرمًا) أو بيع، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

وفي أحد أيام الخندق خرج زعيم الأوس وزينة شباب الأنصار يجري إلى ميدان المعركة، وقد سمعته عائشة يرتجز، ويقول:

لبّث قليلًا يدرك الهيجا جمل ما أجمل الموت إذا حان الأجل

وكان رضي الله عنه وأرضاه طويلًا جسيمًا، وكانت عليه درع قصيرة، وكانت أمه تقول له: "ألحق يا بني قد والله أخرت"، فرأت عائشة فرجة في درع سعد، فقالت لأمه: "لوددت أن درع سعد أسبغ"، فخافت أمه عليه، وما أن وصل البطل الجسور إلى المقدمة حتى أُصيب بسهم في أكحله في ذراعه المكشوفة، فأخذ الدم ينزف منه.

فشل الأحزاب في اقتحام الخندق، وتفرق جمعهم، وتخاذلوا فيما بينهم، وهزمهم الله سبحانه، ونصر المسلمين عليهم، فنادى منادي الإسلام من كان يؤمن بالله ورسوله، فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة؛ لأنهم قد خانوا العهد الذي بينهم وبين المسلمين، وكان سعد بن معاذ قد دعا الله سبحانه – وكان مستجاب الدعوة – اللهم إن بقي شيء من حرب قريش، فأبقني لها، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة، وكان -رضي الله عنه- مستجاب الدعوة؛ فاستجب دعاؤه!.

حُوصرت يهود بني قريظة – وكانوا حلفاء الأوس في الجاهلية –، ثم طلبوا أن يحكم فيهم حليفهم سعد بن معاذ، فأتوا به محمولًا جريحًا، فلما أقبلوا به قال النبي -عليه الصلاة والسلام-: " قوموا إلى سيدكم فجاء، فجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: إن هؤلاء نزلوا على حكمك، قال: تقتلُ مُقَاتلهم، وتَسْبِي ذراريهم"، قال: لقد حكمت فيهم بحكم الملك"، وفي لفظ آخر "بحكم الله"[1].

بعد أن أنقضى شأن بني قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ رضي الله عنه وأرضاه، وأخذ ينزف، وكان النبي -عليه الصلاة والسلام- قد نصب له خيمة بجوار المسجد؛ ليعوده، وكان النبي وأبوبكر وعمر يبكون عند رأسه.

مات سعد الأوسي الأنصاري، وما مات تاريخه، فهو الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، اهتز عرش الرحمن لموته. قال رجل من الأنصار:

---

١ – رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري، ٣٠٤٣ و٤١٢١.

ما اهتز عرش الله من موت هالكٍ سمعنا بهِ إلا لسعد أبي عمرو

وكانت أمه كبشة بنت رافع الخزرجي تندبه، وتقول:

سعدا سعدا صرامةً وحدَّا
وسؤددا ومجدا وفارسًا معدَّا
سُد بهِ مسدا يقد هامًا قدَّا

فقال -عليه الصلاة والسلام-: "كل نائحةٍ تكذب إلا نائحة سعد بن معاذ". قال فيه شاعر الإسلام حسان بن ثابت يرثيه:

لقد سجمت من دمع عيني عبرة وحقٍ لعيني أن تفيض على سعدِ
قتيل ثوى في معرك فجعت بهِ عيونٌ ذواري الدمع دائمة الوجدِ
على ملّة الرحمن وارث جنةً مع الشهداء وفدها أكرم الوفدِ
فإن تك قد وعدتنا وتركتنا وأمسيت في غبراء مظلمة اللحدِ
فأنت الذي يا سعد أُبت بمشهد كريمٍ وأثواب المكارم والمجدِ
بحكمك في حيي قريظة الذي قضى الله فيهم ما قضيت على عمدِ
فوافق حكم الله حكمك فيهم ولم تعفُ إذ ذُكرت ما كان من عهدِ
فإن كان ريب الدهر أمضاك في الألى شروا هذه الدنيا بجناتها الخُلدِ
فنعم مصير الصادقين إذا دعوا إلى الله يومًا للوجاهةِ والقصدِ

سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري

يحكى أن أبا سفيان بن حرب سمع مناديا في إحدى الليالي في مكة من على جبل أبي قبيس – وذلك قبيل الهجرة – ينادي ويقول:

فإن يسلم السعدان يصبح محمدا بمكة لا يخشى خلاف مخالفِ

فأخذ أبو سفيان يتساءل؟! أسعد هذيل؟ أم سعد مذحج؟ أم سعد بن بكر؟ فما أن بايعت الأنصار بيعة العقبة الثانية حتى سمع أبا سفيان بن حرب، ومن معه من قريش الصارخ والمنادي نفسه يقول:

أيا سعد سعد الأوس كن خير ناصرٍ ويا سعد سعد الخزرجين الغطارفِ
أجيبا إلى داعي الهدى وتمنّيا على الله في الفردوس مُنية عارفِ
فإن ثواب الله للطالب الهُدى جنان من الفردوس ذات رفافِ

الصحابي الجليل، الجواد الكريم، والفارس المقدام زعيم الأنصار اليمانية، وصاحب رايتهم في المشاهد كلها، سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن النعمان بن أبي خزيمة بن ثعلبة بن طريف الساعدي الخزرجي الأنصاري اليماني.

نشأ سعد بن عبادة في بيت شرف عريق من بيوت الخزرج أهل مجد وزعامة وكرم، فهو من بني دليم بن حارثة من أكرم بيوتات العرب قاطبة ومضرب مثل عندهم، فقد كانت توقد لهم نارًا عظيمة على مشارف يثرب في الجاهلية كي يهتدي إليها المسافر والجائع والخائف، وينادي مناديهم: من أراد الزاد، فليأت إلى أطم أو نار

دليم بن حارثة، ولهذا فإن سعد بن عبادة قد ورث الزعامة والكرم كابرًا عن كابر.

اكتسب سعد بن عبادة الخزرجي صفات الزعامة والرئاسة منذُ شبابه، وقد كان أبناء قيلة – الأوس والخزرج – في الجاهلية يلقبون كل من يحسن القراءة والكتابة والسباحة والرماية والفروسية بـ"الكامل"؛ ولأن سعد قد بَرع فيها كلها، فقد اشتهر بهذا اللقب "الكامل".

وعندما ظهر وسطع نور الإسلام كان سعد بن عبادة من أوائل من اعتنقوه، ثم كان أحد النقباء الاثني عشر في بيعة العقبة الأولى، ثم شهد الثانية، ومنذُ أن أسلم سعد رضي الله عنه، فقد وهب نفسه وحياته لنصرة دين الله الإسلام، ونصرة رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، وقد كان لصولاته وجولاته ومكانته المرموقة الأثر الكبير في تمكين هذا الدين.

كان سعد بن عبادة رضي الله عنه من المقربين للنبي عليه الصلاة والسلام، وكان النبي يحبه، ولطالما كان يدعو له، قال -صلى الله عليه وسلم-: "اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة"[1].

ورث سعد بن عبادة رضي الله عنه الكرم والسخاء كابرًا عن كابر، وقد كانت له جفنة تدور مع النبي -عليه الصلاة والسلام- في بيوته كلها، وكان الرجل من الأنصار ينطلق إلى داره بالرجل أو الرجلين أو الثلاثة من فقراء المهاجرين لإطعامهم. أما سعد بن عبادة فقد كان ينطلق بالثمانين ليطعمهم، وكان دائمًا يدعو ويقول: "اللهم إنه

١ – أخرجه أبو داود والنسائي عن قيس بن سعد، وإسناد جيد.

لا يصلحني القليل، ولا أصلح عليه"، ولهذا كان خليقًا بدعاء النبي له، وكان إذا مرض سعد يأتيه النبي -عليه الصلاة والسلام-، ويعوده ويبكي عند رأسه، وذلك لمحبته له.

لم يكن زعيم الأنصار سعد بن عبادة مشهورًا بالكرم والصرامة فحسب، بل كان رمزًا من رموز الشجاعة والفروسية – كيف لا، وهو من الخزرج –، فقد كان محاربًا عظيمًا، فعل بسيفه الأفاعيل في حروبه للمشركين، وقد كان من رماة العرب المعدودين، قال ابن عباس:

كان لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- في المواطن كلها رايتان، راية المهاجرين مع علي بن أبي طالب، وراية الأنصار مع سعد بن عبادة، وقد تجلت شجاعة سعد وصرامته في غزوة بدر عندما قال النبي -عليه الصلاة والسلام-: "أشيروا علي أيها الناس – وهو يريد الأنصار؛ لأنهم عامة الجيش –، فكان مما قاله سعد بن عبادة: "إيانا تريد يا رسول الله؟ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحار لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكباد الإبل الغماد لفعلنا"، ثم جاءت غزوة أحد، فكان من الثابتين الصامدين بجوار رسول الله.

عرِف سعد بالجرأة والصراحة حتى أن الأنصار رضوان الله عليهم إن أرادوا أمرًا من رسول الله، واستحوا أن يكلموه فيه، كلموا فيه زعيمهم سعد بن عبادة، فكان يخاطب رسول الله بكل صراحة ودون تردد، وله الكثير من المواقف المشهورة في هذا الجانب، ومنها موقفه مع النبي -عليه الصلاة والسلام- بعد غزوة حنين. عندما رأت الأنصار النبي -عليه الصلاة والسلام- قد وزع الغنائم بعد غزوة حنين على المؤلفة قلوبهم، ولم يكن للأنصار نصيب منها، كلموا

سعد بن عبادة في ذلك، فقام سعد بصراحته وجرأته المعهودة، وقال: يا رسول الله أن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت!!

فقال النبي -عليه الصلاة والسلام-: وأين أنت من ذاك يا سعد؟ فقال سعد مقولته المشهورة: ما أنا إلا من قومي يا رسول الله، فطلب النبي -عليه الصلاة والسلام- أن يجتمع الأنصار، فلما اجتمعوا، قال لهم -عليه الصلاة والسلام-: "أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لعاعة الدنيا تألفت بها قومًا أسلموا، ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام؟! أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم؟"، فقالت الأنصار: رضينا برسول الله.

جمع سعد بن عبادة الأنصاري رضي الله عنه من المناقب أعظمها، مجدًا وسؤددًا، وكرمًا وسماحة، وشجاعة وإقدامًا، وإيمانًا عظيمًا بالله سبحانه، وفوق هذه كلها كان شديد الغيرة، قال ابن عباس رضي الله عنه: لما نزل قول الله سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ (النور: ٤). قال سعد بن عبادة: أهكذا نزلت يا رسول الله؟ فقال -عليه الصلاة والسلام-: ألا تسمعون يا معشر الأنصار ما يقول سيدكم؟

فقالوا له: يا رسول الله لا تلمه، فإنه رجل غيور ما تزوج امرأة قط، إلا بكرًا، وما طلق امرأة له قط، فاجترأ رجل منا على أن يتزوجها من شدة غيرته، فقال سعد: يا رسول الله، والله إني أعلم أنها لحق، ولكني قد تعجبت لو أني وجدت لكاعا تفخّذها رجل لم يكن لي

أن أهيجه ولا أحرّكه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله لا آتي بهم حتى يقضي حاجته، ومن شدة غيرته رضي الله عنه وأرضاه، كانت زوجته إذا ركبت الفرس لا يبيعها لأحد وينحرها بضربة سيف كي لا يركب مكان ركوبها أحد.

وعندما وقع فتح مكة، وسارت جيوش الإسلام لتطهيرها من دنس الأصنام والأوثان كان سعد بن عبادة في المقدمة كعادته حاملًا راية الأنصار اليمانية، فتذكر الأذى الذي أوقعته قريش بالمسلمين وبه شخصيا ذات يوم بعد بيعة العقبة، فأراد أن يعاقبهم على ذلك، فلما أشرف على مكة قال بجرأته وصلابته المعهودة: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة.

فسمعه بعض الصحابة رضوان الله عليهم، وخافوا أن يبطش سعد بقريش، فأخبروا النبي -عليه الصلاة والسلام- بذلك، فأخذ الراية منه، وأعطاها لولده داهية الإسلام قيس بن سعد بن عبادة.

في ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ الموافق ٧ يونيو سنة ٦٣٢م توفي النبي -عليه الصلاة والسلام-، فكانت أولى القضايا التي واجهتها الأمة هي مسألة قيادة المسلمين بعد وفاته، والمحافظة على إنجازاته من دين ودولة.

وبما أنه لم يرد نص واضح في كتاب الله يحدد أسس انتخاب خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم- إلا أنه دعا للشورى بين المسلمين ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾(الشورى: ٣٨)، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾(آل عمران: ١٥٩)، فقد كانت الأنصار يرون أنفسهم أحق بهذا الأمر وأهلًا له.

اجتمع جمع من الأنصار في سقيفة بني ساعدة الخزرجيين، وهو مكان مشهور لعقد اجتماعاتهم، فاتفق الحاضرون –أوسهم وخزرجهم– على مبايعة سعد بن عبادة، فأجلسوه وعصبوه بعصابة – وكان مريضًا يومها –بينما كان عدد من الصحابة– مهاجرين وأنصار– منشغلين بتكفين النبي –عليه الصلاة والسلام–، وعدد آخر مجتمعين عند أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

علم أبوبكر وعمرو رضي الله عنهما باجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة، فاتجهوا نحوهم، وبعد نقاشات وحوارات –أسهب المؤرخون في ذكرها– تمت بيعة أبي بكر الصديق خليفة للمسلمين، ولم تتم بيعة سعد بن عبادة.

بقي سعد بن عبادة الأنصاري رضي الله عنه في المدينة لفترة، ثم غادرها باتجاه الشام، ثم وجد ميتًا رضي الله عنه، وأرضاه في منطقة حوران، واشتهر خبر موته على أن الجن قد قتلته، وأنهم سمعوا قائلًا يقول:

نحن قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة
فرمينـاه بسهمين فلم نخطي فـــــؤاده [1]

ذكر عدد من المؤرخين حادثة مقتل سعد بن عبادة الأنصاري على يد الجن، لكن الألباني شكك في صحة هذه الرواية وقال إنه لا تصح بيد أنها مشهورة عند المؤرخين[2]، بينما يكتفي أهل السنة بالقول أنه وجد ميتًا في مغتسله، ويسمحون بالرواية التي تقول بقتله عن طريق الجن، إلا أن هناك مؤرخين من الجانب السني ومنهم ابن

١ – الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١، ص٢٧٠.
٢ – الألباني، إرواء الغليل، الجزء الأول ص ٩٤، ٩٥.

عبدربه[1]، والبلاذري، تكلموا على حادثة اغتيال سعد بن عبادة، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك. إذ ذكروا وحددوا اسم الذي اغتال سعد بن عبادة، أما معظم المؤرخين الشيعة، وعدد من المتأخرين، فيرون أنه أول اغتيال سياسي في الإسلام، بينما يرى آخرون أنه توفي وفاة طبيعية.

وتعد نهاية الصحابي الجليل زعيم أبناء قيلة سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري من أكثر النهايات الجدلية في تاريخ الإسلام، وذلك لكثرة الروايات المتداخلة حول طبيعة موته –طبيعية أم اغتيالًا–، ولا يزال الملف مفتوحًا للبحث التاريخي، وهو ما لم يحدث مع صحابي آخر بوزن سعد السياسي والديني، رحم الله سعد بن عبادة، وجمعنا به وبرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وصحابته أجمعين في جنات النعيم.

١ – ابن عبد ربه الأندلسي، كتاب العقد الفريد، الجزء ٥، ص١٤.

محمد بن مسلمة الأوسي الأنصاري

حارس رسول الله والهارب من الفتن

أعطاه النبي -عليه الصلاة والسلام- سيفًا، وقال له: "يا محمد بن مسلمة، جاهد بهذا السيف في سبيل الله حتى إذا رأيت أمتي يضرب بعضهم بعضًا، فأت به أُحداً -أي الجبل-، فأضرب به حتى ينكسر، ثم أجلس في بيتك، حتى تأتيك يد خاطئة أو منية قاضية".

أحد عظماء الأنصار وأبطالهم، حارس رسول الله، محمد بن مسلمة بن سلمة بن خالد بن عدي بن مجدعة بن حارثة بن الحارث الأوسي الأنصاري اليماني.

ولد سنة ٣١ قبل الهجرة في مدينة يثرب، معقل الأوس والخزرج أبناء قيلة، وشارك مع قومه الأوس في الحروب التي كانت بينهم وبين إخوانهم الخزرج، والتي كان آخرها يوم بعاث الشهير.

أسلم محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه على يد سفير الإسلام مصعب بن عمير رضي الله عنه قبل أن يسلم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير رضي الله عنهما، وبعد أن هاجر النبي -عليه الصلاة والسلام- إلى يثرب المدينة المنورة، وهب محمد بن مسلمة حياته نصرة لله ورسوله.

شهد مع النبي -صلى الله عليه وسلم- المشاهد كلها -إلا غزوة تبوك- وأبلى البلاء الحسن، فقد كان من الأبطال المعدودين والفرسان المميزين، وفي أحد ثبت ثباتًا عظيمًا، وقاتل قتال

الشجعان، وكان دائمًا ما يحرس النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويقوم بحمايته.

عينه النبي -عليه الصلاة والسلام- قائدا لعدد من السرايا المهمة، منها سرية القرطاء، وسرية ذي القصة، وكان قائد المفرزة التي قامت بقتل عدو الله كعب بن الأشرف، وفي فتح مكة قدمه النبي -صلى الله عليه وسلم- على مئة من الخيل في مقدمة الجيش، وعندما طاف النبي بالكعبة كان محمد بن مسلمة الأنصاري يحرسه، وممسكًا بزمام ناقته، وكان رضي الله عنه وأرضاه طويلًا أسمرًا أصلعا.

بعد وفاة النبي -عليه الصلاة والسلام- شارك الفارس محمد بن مسلمة في الفتوحات الإسلامية، وكان ممن حاصروا حصن بابليون مع الزبير بن العوام، وكان على مقدمة جيش عمر بن الخطاب حين قدم إلى الجابية.

كان محمد بن مسلمة الأنصاري -رضي الله عنه- يمتلك شخصية قوية، حازمًا صارمًا لا يخاف في الله لومة لائم، وقد كان يبعثه الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمراقبة ولاته، ومحاسبتهم، وهو الذي أحرق على سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قصره في العراق، وهو الذي قاسم عمرو بن العاص ماله في مصر.

ذات يوم مر الفاروق عمر -رضي الله عنه- في خلافته على مضارب بني حارثة بن الأوس، فوجد محمد بن مسلمة، فقال: يا محمد كيف تراني؟ قال ابن مسلمة: أراك كما أُحِب، وكما يحب من يحب لك الخير، قويا على جمع المال، عفيفًا عنه، عدلًا في قسمة، ولو ملت لعدلناك كما يعدل السهم في الثقاف، فقال الفاروق: الحمد لله الذي جعلني في قوم إذا ملت عدلوني.

لما وقعت الفتنة، وقتل عثمان رضي الله عنه، اعتزل محمد بن مسلمة الفتنة، واتخذ سيفًا من خشب، وانتقل إلى منطقة الربذة، وهذه وصية رسول الله -صلى الله عليه وسلم- له بأن يعتزل الفتن، وقد روى أبو بردة أن أبا موسى الأشعري مر بالربذة، وذهب لخيمة محمد بن مسلمة، وقال له: لو خرجت إلى الناس، فأمرت ونهيت، فقال محمد: قد قال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يا محمد ستكون فرقة واختلاف، فأكسر سيفك، وأقطع وترك وأجلس في بيتك.

وقد كان حذيفة بن اليمان يقول: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، يقول عن محمد بن مسلمة رضي الله عنه: "لا تضره الفتنة".

عاد محمد بن مسلمة رضي الله عنه إلى المدينة المنورة، فأقام بها لمدة، فدخل عليه رجل من أهل الأردن، كان متغيظا اعتزاله للفتنة، فقتله في بيته، وهو شيخ كبير عمره حوالي ٧٧ عامًا، وذلك سنة ٤٦ للهجرة، وقد صلى عليه مروان بن الحكم، وكان له رضي الله عنه وأرضاه عشرة بنين وست من البنات، ودفن في المدينة المنورة، حيث نشأ وترعرع، وصال وجال، فرحم الله حارس رسول الله.

عبادة بن الصامت الخزرجي الأنصاري

الأسمر الداهية عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر من بني غنم بن عوف بن الخزرج، كانوا يسمونهم القواقل، فقد كانوا يعطون كل من نزل بهم في يثرب سهمًا، ويقولون له: قوقل به حيث شئت – أي تنقل به – لا تخش أحدا، وذلك لعزتهم ومنعتهم.

أحد نقباء الأنصار الميامين، فقد شهد بيعتي العقبة الأولى والثانية، وكان من ذوي الحل والعقد، شجاعا مقدامًا، أسمر اللون، ضخم الجثة، وقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، وأبلى فيها البلاء الحسن، وقد استعمله النبي -عليه الصلاة والسلام- على بعض الصدقات لأمانته.

كان عبادة بن الصامت الخزرجي الأنصاري رضي الله عنه حافظًا لكتاب الله متمكنًا فيه، وكان يعلّم أهل الصفّة، قال محمد بن كعب القرضي: "جمع القرآن في زمن النبي -عليه الصلاة والسلام-، خمسة من الأنصار، معاذ، وعبادة، وأُبي بن كعب، وأبو أيوب، وأبو الدرداء".

بعد وفاة النبي -عليه الصلاة والسلام-، شارك الفارس عبادة بن الصامت في الفتوحات الإسلامية، وقد تولى إمرة حمص، وقضاء فلسطين، وفي فتح مصر كان على رأس المدد الذي أُرسل لعمرو بن العاص، وقد كتب الفاروق عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص: "إني أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف رجلٌ منهم رجل بألف، وكان عبادة بن الصامت أحد القادة الأربعة، وقد ذهب الفارس عبادة بن الصامت على رأس وفد لمقابلة ملك مصر في تلك الفترة، فلما رآه الملك المصري قال: لا تقترب أيها الأسمر، فإني أهابُك، فقال

عبادة: إن في الجيش خلفي ألف رجل بهيئتي، وخلقتي، ثم فتحت مصر بعدها بفضل الله".

وبما أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه كان من الرعيل الأول الذين عاشوا مع النبي -عليه الصلاة والسلام-، وعانقوا الإسلام رغبةً ومحبةً من دون رهبة، فقد كان صادقًا جريئًا، لا يخاف في الله لومة لائم، وقد بايع النبي -عليه الصلاة والسلام- على قول الحق، ونكران الباطل، وهكذا كان عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

وفي زمن خلافة عمر بن الخطاب ساءت العلاقات بين معاوية وعبادة، وهو في الشام، لأشياء أنكرها عليه عبادة، وقال لمعاوية لا أساكنك بأرض، فرحل إلى المدينة، فقال له عمر: ما أقدمك يا عبادة؟ فأخبره بخبر معاوية، فقال عمر: "أرحل إلى مكانك، فقبح الله أرضًا لست فيها، وأمثالك، فلا إمرة له عليك".

ذات يوم كان عبادة بن الصامت في بلاد الشام، ومعاوية بن أبي سفيان أمير عليها، فقام خطيب يمدح معاوية ويثني عليه، فقام عبادة بن الصامت وفي يده تراب، فحشاه في فم الخطيب، فغضب لذلك معاوية، فقال عبادة: إنك لم تكن معنا في العقبة حين بايعنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وألاّ ننازع الأمر أهله، وأن نقوم بالحق حيث كنا، ولا نخاف في الله لومة لائم، وقد قال لنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "إذا رأيتم المداحين، فأحثوا في أفواههم التراب"، وقد كتبّ معاوية إلى الخليفة عثمان بن عفان "أن عبادة بن الصامت قد أفسد علي الناس في الشام، فأما أن تكفه إليك، وأما أن أخلي بينه وبين الشام"، فكتب إليه عثمان أن يرحّل عبادة إلى المدينة المنورة.

ومن صراحته المعهودة أنه رأى ذات يوم، وهو في بلاد الشام، قطارة مرت عليه تحمل الخمر، فسأل ما هذه؟ أزيت؟ قالوا: لا، بل خمر يباع لفلان، فأخذ شفرة، فقام إليها، فلم يذر فيها راوية إلا بقرها، ولم يجرؤ أحد على اعتراضه، فأرسل أحدهم إلى أبي هريرة –وكان في الشام–، فقال له: ألا تمسك عنا أخاك عبادة؟ – لأنهم يمانية – فذهب إليه أبو هريرة يراجعه، فقال له عبادة: يا أبا هريرة إنك لم تكن معنا حين بايعنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على السمع والطاعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن لا نخاف في الله لومة لائم، فسكت أبو هريرة رضي الله عنهم أجمعين.

ألا يكفيه أن الله سبحانه قد أنزل فيه قرآنًا يتلى إلى قيام الساعة، وذلك أن الخزرج كانوا حلفاء قبل الهجرة ليهود بني قينقاع، فلما أضمروا الشر والعداء للمسلمين نبذ عبادة بن الصامت الخزرجي الأنصاري عهدهم، وقال بكل شجاعة وصراحة وحزم: إنما أتولى الله ورسوله والمؤمنين، فنزل قول الله سبحانه وتعالى في هذا الموقف العظيم: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ (المائدة: ٥٦).

توفي رضي الله عنه وأرضاه سنة ٣٤ للهجرة في فلسطين، ودفن هناك[1].

(١) وقيل: نزلت هذه الآية في الأنصار جميعهم.

عاصم بن ثابت الأوسي الأنصاري

الصحابي الذي حمت جسمه الدبر

روي أن النبي -عليه الصلاة والسلام- سأل الأنصار "كيف تقاتلون؟"، فقام عاصم بن ثابت، فقال: إذا كان القوم قريبًا من مائتي ذراع كان الرّمي، وإذا دنوا حتى تنالهم الرماح كانت المداعسة حتى تقصف، فإذا تقصّفت وضعناها وأخذنا بالسيوف، وكانت المجالدة، فقال النبي -عليه الصلاة والسلام-: "هكذا نزلت الحرب، من قاتل، فليقاتل كما يقاتل عاصم".

إنه الشجاع الفاتك، والمقاتل الصنديد، أحد رماة العرب المشاهير، الصحابي الجليل عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح بن عصمة، من بني ضبيعة بن زيد، ثم الأوسي الأنصاري اليماني، وكان يكنى بأبي سليمان.

أسلم عاصم بن ثابت الأوسي الأنصاري مُبكرًا، وكان ممن بايعوا ليلة العقبة، وكان رضي الله عنه وأرضاه ممن أنعم الله عليهم بالعلم والفهم. أما الشجاعة والإقدام والفتك، فقد كان أشهر من نار على علم، وقد تجلت هذه الصفات الحربية عنده في أبهى صورها في معارك الإسلام الأولى الخالدة بدر وأُحد.

في معركة بدر، اقتحم عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأنصاري صفوف المشركين، وقتل عدد من كبرائهم، وكان ممن قتل يوم بدر، عقبة بن أبي معيط الأموي، الذي وضع سلى الجزور على كتف النبي -عليه الصلاة والسلام-.

وفي معركة أحد، كان الفارس الصنديد في وسط جيش المشركين، بل قريبًا من لوائهم ورايتهم، وقد قتل عددا من حملة لواء قريش رميا بالسهام، فقد كان من أمهر الرماة العرب، وممن قتل: مسافع بن طلحة بن أبي طلحة، والحارث بن طلحة بن أبي طلحة – وهم من أبطال قريش –، وكان مسافع بن طلحة قبل أن يموت من سهم عاصم قد قال لأمه سلافة: سمعت رجلًا حين رماني يقول: خذها، وأنا ابن أبي الأقلح، فنذرت سلافة أنها إن تمكنت من عاصم بن ثابت لتشربن في رأسه الخمر، وجعلت لمن جاء برأسه مئة ناقة.

بعد غزوة أحد، جاء إلى النبي -عليه الصلاة والسلام-، نفر من قبيلة هذيل، وطلبوا منه أن يبعث معهم نفرًا يعلمونهم الإسلام، ويفقهونهم فيه، وقد أرسل النبي -عليه الصلاة والسلام- معهم ستة نفر من خيار الصحابة كان من بينهم الصحابي الجليل عاصم بن ثابت الأنصاري.

فلما وصل القوم إلى ماء الرجيع – ماء لهذيل – غدروا بهم، فاستصرخوا عليهم هذيل، فاجتمع عليهم مائة رجلٍ تقريباً، فلم يدعهم، وهم في رحالهم إلا وقد غشتهم القوم بأسيافهم، فأخذ الستة أسيافهم ليقاتلوا القوم، فقالوا لهم: استأسروا، فإنا والله لا نريد قتلكم، ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئًا من أهل مكة، فأما عاصم بن ثابت، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخالد بن البكير، فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهدا، ولا ذمة، ولا عقدا أبدا.

فأحاطوا بهم، فقاتلهم عاصم، ومن معه قتال الأبطال، فقتلوا، وأصابوا منهم، ثم استشهد رضي الله عنه.

بعد أن قتل عاصم أراد المشركون أن يحتزوا رأسه، ليبيعوه من سلافة بنت سعد التي نذرت أن تشرب الخمر فيه لقتله ابنيها في أحد، فجاءت الدبر –ذكور النحل-، فاجتمعت على جثته، فمنعته، فقال المشركون: دعوه حتى يمسي، فنأخذه، فنزل المطر، وبعث الله الوادي، فاحتمل جثة عاصم بن ثابت رضي الله عنه، وقد كان عاهد الله سبحانه أن لا يمس جسده مشرك، وقال قبل أن يستشهد: "اللهم إني أحمي لدينك، وأدفع عنه، فأحمي لحمي وعظمي، لا تظفر بهما أحد من أعداء الله، اللهم إني حميت دينك أول النهار، فأحمي جسدي آخره".

وعندما سُئل النبي -عليه الصلاة والسلام- فيما بعد عن جثة عاصم بن ثابت، قال: "في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر".

وقال الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما علم أن عاصمًا حمته الدبر: "يحفظ الله العبد المؤمن، كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك، ولا يمس مشركًا أبدا في حياته، فمنعه الله بعد وفاته، كما امتنع في حياته".

وكان عمر بن الخطاب متزوجًا من جميلة بنت ثابت أخت عاصم بن ثابت، وهي أم عاصم بن عمر بن الخطاب.

وقد كانت وفاة عاصم رضي الله عنه في السنة الرابعة للهجرة.

الحُباب بن المنذر الخزرجي الأنصاري

رحى الحرب وفتاها، الملقب ذو الرأي، السيد النبيل، والجواد الشهم، صاحب الرأي والمشورة، أبو عمرو الحُباب بن المنذر بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة الخزرجي الأنصاري.

ولِد الحُباب بن المنذر الخزرجي في يثرب معقل أبناء قيلة سنة ٣١ قبل الهجرة، ونشأ وترعرع فيها، وقد كان من بيت كرم وشهامة ونخوة وشجاعة، وبما أن يثرب في تلك الحقبة التاريخية كانت تموج بالصراعات والحروب بين الحيين اليمانيين –الأوس والخزرج –، فقد أثر ذلك على شخصية الحباب بن المنذر، والكثيرين من أبناء قيلة، فقد شارك في تلك الحروب والصراعات، واكتوى بنارها، واعترك بتجاربها، فشب من أهل الرأي والمشورة والدهاء الحربي والعسكري، وقد كانوا ينادونه بذي الرأي.

أسلم الحباب بن المنذر رضي الله عنه مع قومه الأنصار، وقد وهب نفسه وماله نصرةً لله ورسوله، وقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وأبلى فيها البلاء الحسن المشهود، فمثل الحباب بن المنذر دائمًا ما يكون في المقدمة.

ظهرت براعة الفارس الحباب بن المنذر وخبرته ومكيدته الحربية في غزوة بدر، فعندما نزل النبي –عليه الصلاة والسلام– بالجيش الإسلامي على أدنى ماء من مياه بدر، جاءه الحباب بن المنذر، وقال له: يا رسول الله، أمنزل أنزلكهُ الله ليس لنا أن نتعداه، ولا نقصر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم-: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، قال الحباب بن المنذر: يا رسول الله، ليس بمنزل، ولكن انهض بنا حتى تجعل القُلُب كلها من وراء ظهرك، ثم غوّر كل قليبٍ بها إلا قليبًا واحدا، ثم أحفر عليه حوضًا، فنقاتل القوم، ونشرب، ولا يشربون حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال -عليه الصلاة والسلام-: "قد أشرت بالرأي"، ففعل ذلك.

وهذا الموقف العظيم من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يشير بوضوح على تواضعه وقبوله الرأي الصواب من أصحابه، واستشارته لهم في مثل هذه المواقف كُلًا حسب خبرته وتخصصه، وكذلك يدل على ذكاء الحباب بن المنذر وخبرته العسكرية الفائقة، وقد انتصر المسلمون في يوم بدر يوم الفرقان بفضل الله وحده، وتغيرت المعادلة لصالح المسلمين.

وتمضي الأيام، وتحشد قريش، ومن معها جيشًا عظيمًا لاستئصال المسلمين، وتلتقي قوى الحق والباطل في أُحد على مشارف يثرب، فينتصر المسلمون انتصارًا واضحًا في بداية المعركة، لكن بعد أن خالف الرماة أوامر رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، وتركوا مواقعهم، استغل المشركون ذلك، والتف فرسانهم من خلف الجيش الإسلامي الذي اختل نظامه، خاصة بعد أن أصيب النبي -عليه الصلاة والسلام-، وأشيع أنه قد قتل.

وفي مثل هذا الظرف العصيب تظهر معادن الرجال، وتقدم عدد من أبطال الإسلام لمبايعة النبي -صلى الله عليه وسلم- على الموت، وكان من هذه المفرزة؛ النخبة المبايعة على الموت، أخو الخزرج الحباب بن المنذر الذي أظهر من ضروب الشجاعة والإقدام ما تعجز الأقلام عن وصفه.

لم يكن الصحابي الجليل ذو الرأي والمشورة فارسًا نبيلًا وسيدا مطاعا فحسب، بل كان شاعرًا، لكننا مع الأسف لم نجد من شعره سوى هذه الأبيات التي يفتخر بها بأفعال قومه ونصرتهم لرسول الله:

ألم تعلما لله درّ أبيكما وما الناس إلا أكمةٌ وبصيرُ
بأنّا وأعداء النبي محمد أسود لها في العالمين زئيرُ
نصرنا وآوينا النبي وماله سِوانا من أهل الملّتين نصيرُ

شهد الحباب بن المنذر الأنصاري رضي الله عنه ما بقي من مشاهد رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، وبعد أن بلغ النبي -عليه الصلاة والسلام- الرسالة، وترك الأمة على المحجة البيضاء، انتقل إلى الرفيق الأعلى صلوات ربي وسلامه عليه، فاجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة، وقد جاءوا بزعيمهم سعد بن عبادة رضي الله عنه محمولًا – لمرضه –، وأرادوا مبايعته.

وبما أن الحباب بن المنذر كان من أهل الحل والرأي والمشورة في يثرب، فقد قالها صراحةً وعلنًا بعد أن كثر الكلام، وقال مقولته المشهورة: أنا جذيلها المُحكّك، وعذيقها المرجّب، منا أمير، ومنكم أمير يا قريش، لكن لم تلبث الأمور أن استقرت بالبيعة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

توفي الحباب بن المنذر الأنصاري رضي الله عنه في خلافة عمر بن الخطاب، وقد تجاوز الخمسين عاماً، وكان له من الولد خشرم بن الحباب، وأم جميل بنت الحباب، وأمهما زينب بنت صيفي بن صخر الخزرجية.

أسيد بن حضير الاوسي الأنصاري

أحد زعماء الأوس وأشرافها، قبل البعثة وبعدها، ورث الزعامة والرئاسة كابرًا عن كابر، كيف لا؟! وهو ابن حضير الكتائب أحد صناديد العرب ورؤوسهم في الجاهلية، وقائد الأوس في يوم بعاث الشهير، إنه الرجل النبيل والفارس الشهم، أبو عمرو – وقيل: أبو حضير – أسيد بن حضير الكتائب بن سماك بن عتيك بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل الأوسي الأنصاري.

ورث أسيد بن حضير الزعامة والرئاسة عن أبيه، فكان من زعماء يثرب، رجلًا جوادا كريمًا مطاعا في قومه، ذو شخصية قوية وفذّة، وصاحب رأي ثاقب، وقد عرِف بشدته في القتال، فقد كان مقاتلًا عنيدا، ومن رماة العرب المعروفين.

بعد بيعة العقبة الأولى، أرسل النبي -عليه الصلاة والسلام- مصعب بن عمير – أوّل سفير في الإسلام – إلى يثرب؛ كي يعلم الناس الإسلام تمهيدا لمقدم النبي وهجرته من مكة إلى المدينة، وذات يوم كان أسيد بن حضير مع صديقه وابن عمه سعد بن معاذ يمشيان في أحد طرقات يثرب[1]، فرأوا جمهرةً من الناس مجتمعة بإنصات عند مصعب بن عمير يستمعون له، وكان مصعب في ضيافة أسعد بن زرارة الخزرجي، فقال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير، أذهب وأنظر لهذا الذي يسفه أحلام أبنائنا، فأخذ أسيد حربته، واتجه إليهم، فلما رآه مصعب قادمًا وبيده حربته دعاه قائلًا: "هل لك في أن تجلس وتسمع، فإن رضيت أمرنا قبلته، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره"، فقال أسيد: هات ما عندك، وراح مصعب يقرأ القرآن ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ

(١) كلهم من بني عبد الأشهل من الأوس.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، (الزخرف: ١–٣)، وما هي إلا لحظات حتى رق قلب هذا الرجل الداهية، وأشرق وجهه، وقال متعجبًا: ما أحسن هذا الكلام وأجمله!! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قال مصعب: تطهر بدنك وثوبك، وتشهد شهادة الحق، ثم تصلي، فلحق أسيد بن حضير من فوره بصاحبه سعد بن معاذ، وسرعان ما أعلنا إسلامهما، بإيمان صادق، وبإسلامهم كسب المسلمون أركانًا عظيمة في يثرب، فأسيد وسعد لم يكونا رجلين عاديين، بل هم من زعماء أبناء قيلة، وأبطالهم المعروفين.

منذُ أن أسلم أسيد بن حضير، ثم بايع بيعة العقبة الثانية، وكان أحد نقباء الأنصار، وهب حياته دفاعا عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، ودين الإسلام، وكان له المواقف المشهودة لأحداث التي تلت الهجرة النبوية.

لم يشهد أسيد بن حضير بدرًا، فقد كان يظن أن المسلمين خرجوا للعير، ولن يشهدوا قتالًا وإلا لما تخلف أبدا، ثم شهد معركة أحد، وظهرت شجاعته وفروسيته، وقد أصيب فيها إصابات عديدة، ثم شهد المشاهد الأخرى كلها، وأبلى فيها البلاء الحسن.

كان أسيد بن حضير رضي الله عنه من المقربين من رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، ولطالما امتدحه وأثنى عليه، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: "ثلاثةٌ من الأنصارِ لم يكن أحدٌ يغْتدِ عليهم فضلًا كلُّهم من بني عبدِ الأشهلِ: أُسَيدُ بنُ حُضَيرٍ وسعدُ بنُ مُعاذٍ وعبادُ بنُ بِشرٍ"، وكان أسيد رضي الله عنه مع مكانته وصرامته، صاحب مزاح ونكتة، كما كان من أعذب الناس صوتًا.

ذات ليلة، جلس الزعيم الفارس أسيد بن حضير، صاحب الصوت الرائع، وبجانبه ولده الصغير يحيى، وفرسه التي أعدها للحرب

والجهاد، فبدأ يقرأ القرآن من سورة البقرة، فأخذت الفرس تجول من حوله، فخشي أن تدوس الفرس ولده الصغير يحيى، فسكت عن القراءة والتلاوة، فوقفت الفرس!! فلما أصبح أخبر النبي -عليه الصلاة والسلام- بما حصل معه، فقال له: "تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم".

كان النبي -عليه الصلاة والسلام- يبادل أسيد بن حضير شعور المحبة والمودة بالمثل، وكان يعرف له قدره ومكانته في قومه، فإذا أشفع في أحد منهم شفّعه، وقد روى أسيد بن حضير عددا من الأحاديث عن رسول الله.

ذات يوم أقبل فارس القيسية عامر بن الطفيل العامري، ومعه رجل آخر يدعى زيد إلى المدينة، والتقوا بالنبي -عليه الصلاة والسلام-، وطلبوا من رسول الله أن يصالحهم على ثلث ثمار المدينة على أن يكفوا عنه!!

وكان زعيم الأوس أسيد بن حضير حاضرًا، فوقف عند رأس عامر بن الطفيل وصاحبه، فأخذ يقرع رأسيهما بحربته، ويقول: أخرجا أيها الهجرسان – الثعلبان –، فقال عامر بن الطفيل: من هذا؟ وكان لا يعرفه، إذ كان أسيد شابًا، قالوا: هذا أسيد بن حضير، فقال عامر: ابن حضير الكتائب؟ قالوا: نعم، قال عامر: قد كان أبوك حضير الكتائب خيرًا منك – وكان صديقًا للعامريين –، قال أسيد: كذبت أنا خير منك، ومن أبي – أنا مسلم، وأنتما كافران".

ثم كان له الموقف المشهور ضد عبدالله بن أبي بن سلول[1] – زعيم المنافقين – عندما قال بتكبر وخيلاء: لئن رجعنا المدينة ليخرجن الأعز

(١) هو عبدالله بن أبي بن سلول، من بني الحبلى الخزرجيين، أحد زعماء الخزرج قبل البعثة، وقد ورد ذكره في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام كشخصية معادية للإسلام، فقد كانت الأوس

منها الأذل، فبلغ ذلك – رسول الله، فقال لأسيد بن حضير: أو بلغك ما قال صاحبكم؟، فأخبره الخبر، فقال أسيد: فأنت والله يا رسول الله الأعز، وأنت تخرجه منها إن شاء الله، هو والله الذليل، وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله أرفق به، فوالله لقد جائنا الله بك، وأن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه عليهم ملكًا، فهو يرى أن الإسلام قد سلبهُ ملكًا.

بعد حياة حافلة بالأمجاد والمواقف المشهودة التي سطرها التاريخ في أروع صفحاته، توفي الزعيم الأنصاري أسيد بن حضير الكتائب سنة ٢٠ من الهجرة، ودفن في البقيع، وقد وجدت عليه ٤٠٠٠ أربعة آلاف درهم دينًا، فبيعت أرضه لسدادها، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا أترك بني أخي عالة، فرد الأرض، وباع ثمرها أربع سنوات كل سنة بألف.

والخزرج على وشك أن يملكوه عليهم، فلما هاجر النبي إلى المدينة دخلوا في الإسلام، وانصرفوا عن تتويج ابن أبي ولم يملكوه، فهو يرى أن الإسلام قد سلبه ملكه، وهو والد الصحابي عبدالله بن عبدالله بن أبي.

البراء بن مالك الخزرجي الأنصاري

مهلكة المهالك

عندما سير الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجيوش الإسلامية لفتح بلاد فارس والروم، ونشر دين الله الإسلام في الأرض، كتب إلى قادة جيوشه قائلًا: "لا تؤمروا البراء بن مالك، فإنه مهلكة من المهالك، يقدم بهم".

فمن هو هذا المحارب الذي نصح الفاروق قادة جنده أن لا يضعوه على جيش، وذلك بسبب اندفاعه وإقدامه وهرولته في الحروب؟! إنه أخو الحرب؛ وفتاها البراء بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب النجاري الخزرجي الأنصاري اليماني.

لا تذكر الشجاعة والبسالة والبأس والفروسية، إلا ويذكر البراء بن مالك الأنصاري، كيف لا، وهو من أبناء قيلة أهل البسالة والشجاعة.

ولد البراء بن مالك في مدينة يثرب وعاش فيها شبابه، ولما أسلمت الأوس والخزرج كان فيهم البراء بن مالك مسلمًا موحدا لله سبحانه، مصدقًا برسالة نبيه الكريم -عليه الصلاة والسلام-، وهو أخو الصحابي الجليل أنس بن مالك، وقد وهب البراء حياته نصرة لدين الله ورسوله.

شهد البراء بن مالك رضي الله عنه المشاهد كلها مع رسول الله ضد الكفار والمشركين، وكان كالبلاء المنصب على أعداء الإسلام،

فقد عرف عن البراء الشجاعة والجرأة والبسالة والإقدام في الحرب، قل نضيرها، فقد كان من المحاربين العظماء، وقد روي أنه ممن يركبون الخيل، وهي تعدو، وقد أبلى البلاء الحسن في تلك المشاهد، وقيل بأنه قتل العشرات من الكفار مبارزة بالسيف.

كان البراء بن مالك رضي الله عنه فقيرًا معدمًا، ولكنه مستجاب الدعوة، قال فيه النبي -عليه الصلاة والسلام-: "ربّ أشعثٍ أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبّره، منهم البراء بن مالك".

بعد وفاة النبي -عليه الصلاة والسلام- أرتدت بعض قبائل العرب عن الإسلام، فأرسلت الجيوش الإسلامية لصدهم، فكان البراء بن مالك في الجيش الذي حارب المرتدين في اليمامة، وكان زعيم المرتدين هناك (مسيلمة الكذاب)، الذي تجمع حوله الآلاف من أنصاره لمحاربة المسلمين.

نشبت معركة اليمامة المشهورة، وعانا فيها المسلمون كثيرًا، وفقدوا الكثير من أبطالهم وشجعانهم، فلما رأى ذلك قائد الجيش الإسلامي خالد بن الوليد، قال: تكلم يا براء، فهو يعلم مكانة البراء وتأثيره في هذا الموطن بالتحديد.

فصاح البراء بن مالك بكلمات عظيمة وبقوة وعزيمة: "يا أهل المدينة، لا مدينة لكم اليوم، إنما هو الله والجنة"، فسرت هذه الكلمات في الجيش الإسلامي مسرى الريح، وألهبت الحماسة فيهم، فقد أدركوا الخطر الذي سيعم لو أنهم انهزموا في هذه المعركة.

أشتد القتال، وحمي الوطيس، وتحصن المرتدون في حديقة الموت، واستعصى على المسلمين فتحها، واقتحامها، وكانت الإصابات قد كثرت فيهم.

وفي هذا الموقف العظيم، والظرف العصيب، خطرت على بال البراء بن مالك فكرة وخطة ربما ما كان لغير البراء أن يفكر فيها، أو أن يفعلها.

صاح البراء بمن حوله من أبطال الإسلام: أحملوني على الترس، وألقوني عليهم في الحديقة أفتح لكم بابها، فانبهر القوم وتعجبوا، ثم أدركوا بسرعة أن هذا الرجل لا يمزح، فهو البراء بن مالك مهلكة المهالك، فحملوه على الترس، وعلى أسنة الرماح، فألقوه فوق سور الحديقة، فقفز من فوقه، فتفاجأ المرتدون بوجود هذا الشجاع الأنصاري في حديقتهم، فأخذ يجالدهم بالسيف حتى فتح باب الحديقة، وكان أول من تبعه من أبطال المسلمين، ذو العصابة الحمراء أبو دجانة الخزرجي الأنصاري، فاقتحم المسلمون الحديقة، وكان النصر المبين، وكان البراء رضي الله عنه قد أصيب بضعا وثمانين إصابة في ذلك اليوم المهول، وكان خالد بن الوليد بعد المعركة يزور البراء بن مالك، ويشرف على علاجه بنفسه، ويبكي عند رأسه، وكان البراء يقول لمن حوله، وهو على فراشه: أتظنون أن البراء بن مالك يموت على الفراش؟ لا والله لن يحرمني الله الشهادة، وبالفعل شفي البراء، وشارك فيما بعد في معارك الفتح الإسلامي.

ولما بُعث أبو موسى الأشعري إلى البصرة كان ممن بعث معه البراء بن مالك الأنصاري، فقال له أبو موسى الأشعري: اختر عملًا

يا براء، فقال البراء: ومعطي أنت ما سألتك؟ قال: نعم، فقال البراء: أما أني لا أسألك جباية، ولا إمارة، ولا خراج، ولكن أعطني قوسي، ورمحي، وفرسي، وسيفي، وذرني إلى الجهاد في سبيل الله، فكان له ما أراد.

وفي معركة تستر الرهيبة بعد أن حاصر المسلمون المدينة، قال أبو موسى الأشعري: قد دللنا على مكان يخرج إلى وسط المدينة، فقام البراء بن مالك، ومجزأة بن ثور، وعدد من أبطال الإسلام، فاقتحموا ذلك السرب أو النفق، وتسللوا إلى داخل المدينة، وقاتلوا قتال الأبطال حتى فتحت أبوابها، ودخلها الجيش الإسلامي.

وقد كان المشركون يرمون بخطاطيف من على أسوار المدينة، وكلاليب محماة، فتعلق بالإنسان فيسحبونه، فعلق إحدى هذه الخطاطيف بأنس بن مالك، فصاح الناس بالبراء: أدرك أخاك، فأخذ يعالج الخطاطيف من أخيه، وهي حامية كالجمر، حتى أفلت أخوه منها، وتقطعت يدي البراء حتى بان عظمه، وقد استشهد رضي الله عنه وأرضاه في هذه المعركة سنة ٢٠ للهجرة.

أبو الهيثم بن التيهان الأوسي الأنصاري

أبو الهيثم مالك بن التيهان بن مالك بن عتيك بن عمرو الأوسي الأنصاري، صحابي جليل، وسيد نبيل، ومن أوائل السابقين إلى الإسلام، فقد كان رضي الله عنه وأرضاه أحد النقباء الاثني عشر الذين بايعوا رسول الله في العقبة، وكان أول من بايع رسول الله، بينما تزعم الخزرج أن أول من بايعه أسعد بن زرارة الخزرجي.

ولد مالك بن التيهان في مدينة يثرب، ونشأ فيها، وكانت نشأته نشأة صالحة، فقد كان من العرب القلائل الذين يكرهون الأصنام في الجاهلية، ويأنفون منها، وكان من الموحدين الأحناف.

وما إن سطع نور الإسلام في مكة مؤذنًا ببداية عصر جديد في تاريخ البشرية جمعاء، شاء الله سبحانه أن يلتقي هذا الرجل الكريم الحر العفيف، بنبي الرحمة صلوات ربي وسلامه عليه، وكان من أول المؤمنين المسلمين بما جاء به.

تتابعت الأحداث، وهاجر النبي من مكة إلى المدينة، بعد أن بايعه الأوس والخزرج على السمع والطاعة، والعون والنصر، وقد آخى النبي -عليه الصلاة والسلام- بين أبي الهيثم بن التيهان، وعثمان بن مضعون رضي الله عنهما.

شهد أبو الهيثم التيهان المشاهد كلها مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأبلى فيها أحسن البلاء، وقد كان رضي الله عنه من أهل الكرم والفضل، قال أبو هريرة: "خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذات ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالا: الجوع يا رسول الله، فقال: أما والذي

نفسي بيده أخرجني الذي أخرجكما، فأتوا رجلًا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فقالت امرأته: مرحبًا وأهلًا، فإذا بالأنصاري قد جاء، فقال الأنصاري: ما أحد اليوم أكرم أضيافًا مني، فانطلق فجاءهم بعذق فيه تمر ورطب، فقال: كلوا، فأخذ المدية، فقال النبي: إياك والحلوب، فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ثم شربوا، فلما أن شبعوا، قال -عليه الصلاة والسلام- لصاحبيه: والذي نفسي بيده لتسألن عن نعم هذا اليوم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم"، وكان هذا الصحابي الذي استضافهم هو أبو الهيثم بن التيهان رضي الله عنه.

وقد كان أبو الهيثم محل ثقة رسول الله، إذ كان يستخدمه خارصًا إلى خيبر يقدر ثمن زروعها، وذلك بعد استشهاد عبدالله بن رواحة، فأراد أبوبكر أن يستخدمه لذلك فيما بعد، فأبى، وقال: "قَدْ خَرَصْتَ لِرَسُولِ اللهِ".

اختلف المؤرخون في موته رضي الله عنه، فقيل مات في زمن عمر بن الخطاب سنة ٢٠ للهجرة، وقيل قتل في صفين، وهو مع علي بن أبي طالب، رضي الله عن صحابة رسول الله أجمعين.

قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري

داهية الإسلام

بعث ملك الروم إلى معاوية بن أبي سفيان بكتاب، وكان رسول ملك الروم من أعظم الرجال خلقه وأطولهم قامة، وقد تعمد ملك الروم ذلك، كي يري العرب ضخامة هذا الرجل، فيهابون الروم.

ففطن معاوية بن أبي سفيان لذلك، وأرسل إلى قيس بن سعد بن عبادة، فجاء قيس ورفض أن يقف بجانب الرومي، ثم تنحى جانبًا في ستر، وخلع سرواله، وقال: ألبسوها الرومي، فألبسوها إياه، فبلغت حتى ثدييه، وأطرافها في الأرض، فلما عتبت الأنصار على سيدهم قيس بن سعد بسبب هذه الفعلة، قال قيس:

أردت بها كي يعلم الناس أنها ... سراويل قيسٍ والوفود شهودُ
وأن لا يقولوا غاب قيس وهذهِ ... سراويل عادٍ أو بقايا ثمودُ
وإني من الحي اليماني سيدا ... وما الناس إلا سيد ومسودُ

سيد الأنصار وزعيمهم، وابن سيدهم وزعيمهم، السيد النبيل، والصحابي الجليل، والفارس الشهم، والجواد الكريم، والعملاق الوسيم، داهية الإسلام قيس بن سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة الساعدي الخزرجي الأنصاري، ورث الزعامة والرئاسة، والكرم والشجاعة، والدهاء والحكمة كابرًا عن كابر، فأبوه الملقب بالكامل زعيم أبناء قيلة، وجده صاحب النار المشهورة عند العرب في الجاهلية، دليم بن حارثة، وقد كانت الأنصار الأوس والخزرج

يعاملون قيس بن سعد منذُ الصغر معاملة الزعماء الرؤساء، وقد كان شابًا وسيمًا أمردا، وقد كانت الأنصار تقول: "لو كانت اللحى تباع لأشترينا لقيس بن سعد لحية".

نشأ قيس بن سعد بن عبادة في بيت زعامة ومجد، فهو من بني ساعدة الخزرجيين، أصحاب السقيفة، ثم أسلم مع قومه الأنصار رضوان الله عليهم، وحمل رايتهم ولواءهم في عدد من المشاهد، ومنها فتح مكة[1]، وقد كان هذا الشاب الشهم محل ثقة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقد كان منه بمثابة الشرطي من الأمير، وقد كان لقيس بن سعد رضي الله عنه صولات وجولات في المشاهد التي شهدها، فهو من فرسان الأنصار، ومحاربيهم العظماء.

كان قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه، وعن أبيه، مع ما يتمتع به من شجاعة وكرم، وضخامة في الجسم، وجمال الخلقة، كان ذا دهاء، وذكاء خارق، وكانت العرب تحسب له ألف حساب، ولكن بعد أن دخل الإسلام، وتمكن الإيمان من قلبه، قال مقولته الشهيرة: "لولا الإسلام، لمكرت مكرًا لا تطيقه العرب".

وكان رضي الله عنه كريمًا جوادا معطاء، بل كان من أكرم العرب وأسخاهم، وله الكثير من القصص والنوادر في هذا الجانب، فقد كان في أسفاره مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يطعم الناس،

(١) في فتح مكة أخذت راية الأنصار من أبيه سعد بن عبادة، وأعطيت لقيس، فقد خاف المسلمون أن يبطش سعد بن عبادة بقريش بعد أن سمعوه يقول:
اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة

ويكرمهم، فإذا انتهى ما عنده، استدان وينادي مناديه في كل يوم "هلموا إلى اللحم والثريد".

ذات مرّة أصيب بمرض، فقل عوّاده وزوّاره، فسأل زوجته: لم قل عوّادي؟ قالت: لأنهم يستحيون من أجل دينك الذي عليهم، فأمر منادي ينادي: من كان عليه دين، فهو له، فأتى الناس يزورونه حتى هدموا درجة كانوا يصعدون عليها إليه، وذلك من كثرتهم.

تحدث أبوبكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما عن كرم قيس وسخائه، فقالا: لو تركنا هذا الفتى لسخائه لأهلك مال أبيه، فسمع بذلك سعد بن عبادة، فذهب إلى النبي -عليه الصلاة والسلام-، فقال: من يعذرني من ابن أبي قحافة، وابن الخطاب، يبخّلان علي ابني.

ذات يوم جاءت إليه امرأة عجوز تشكي فقرها وحاجتها، فقال قيس بن سعد: املأوا بيتها خبزًا وسمنًا وتمرًا.

توفي النبي -عليه الصلاة والسلام-، ووقع ما وقع في يوم السقيفة، فلما سمع قيس عمر بن الخطاب يقول: اقتلوا سعدا قتله الله، قام إليه، وأمسك بلحيته، وقال: لو كان سعدا قائمًا لسمعت له بين لابتيها زئيرًا يخرجكم حيث كنتم أذلة صاغرين[1].

فيما بعد وقف قيس بن سعد إلى جانب علي بن أبي طالب، وولاه على مصر، فيأس منها معاوية، فقد كان يحسب لقيس حسابه، فهو رجل الحرب والحزم والدهاء، وقد كان قيس يرسم الخطة – أثناء معارك صفين – التي تودي بمعاوية ومن معه، ثم يذكر قول الله

(١) لابتيها: يعني المدينة المنورة، وقد كان سعد ذلك اليوم مريضًا جاءوا به يحملونه، والقصة هذه ذكرها الهمداني.

سبحانه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر: ٤٣)، ثم يتراجع عنها، ويستغفر الله.

وبعد مقتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان لقيس بن سعد خمسة آلاف مقاتل يأتمرون بأمره، فجمعهم وخاطبهم قائلًا: إن شئتم جالدت بكم حتى يموت الأعجل منا، وإن شئتم أخذت لكم الأمان، فاختار جنوده الأمان والموادعة والصلح.

فيما بعد عندما استقرت الأمور لمعاوية بن أبي سفيان، ذهب قيس بن سعد ليبايعه، فلما التقاه قال له معاوية: يا قيس وددت لو أني ظفرت بك قبل هذا، قال قيس: وأنا وددت أني لم أحيك تحية مثلما حييتك في مقامي هذا، قال معاوية، لم يا قيس؟ فهل أنت إلا من أحبار يهود[1]، قال قيس: وهل أنت يا معاوية إلا صنم من أصنام الجاهلية دخلت الإسلام مكرهًا!!

فقال معاوية: مد يدك، قال قيس: لو زدت لزدنا.

توفي داهية الإسلام قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه وعن أبيه في أواخر خلافة معاوية بن أبي سفيان.

(١) يقصد أن الأنصار كانوا حلفاء اليهود في المدينة.

عباد بن بشر الأوسي الأنصاري

قالت عائشة رضي الله عنها: ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد يعتد عليهم فضلًا، كلهم من بني عبد الأشهل، سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وعباد بن بشر.

عباد بن بشر بن وقش بن زغبة بن زعوراء الأشهلي الأوسي الأنصاري اليماني أحد الشجعان الموصوفين، ومن زعماء الأوس المعروفين، ومن رجال الجود، والكرم، والشهامة، والحكمة.

ولد عباد بن بشر الأوسي في يثرب، ونشأ بها، فكان من شباب الأوس الأفاضل، فقد شب متصفًا بالكثير من الخصال الحميدة، وكان من ذوي الشجاعة، والمروءة، وكانت له مكانة مرموقة في قومه بني عبد الأشهل الأوسيين.

أسلم عباد بن بشر على يد مصعب بن عمير، فلما قدم النبي -عليه الصلاة والسلام- فيما بعد إلى المدينة، آخى بينه وبين أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة.

كانت لعبّاد بن بشر مواقف ومشاهد بارزة في نصرة الدين الإسلامي- مثل غيره من أبطال الأنصار، فقد شهد المشاهد والغزوات مع رسول الله، ثم استعمله على صدقات بني مزينة وبني سُليم، ثم كان من ضمن السرية الخاصة التي قتلت كعب بن الأشرف اليهودي، قال عباد:

صرخت لهُ فلم يعرض لصوتي ... ووافى طالعا من رأس جذرِ
فعدت لهُ فقال من المنادي ... فقلت أخوك عباد بن بشرِ

وهذي درعنا رهنًا فخذها لشهرٍ إن وفى أو نصف شهرِ
فقال معاشر سغبوا وجاعوا وما عدموا الغنى من غير فقرِ
فأقبل نحونا يهوي سريعا وقال لنا لقد جئتم لأمرِ
وفي أيماننا بيضٌ حداد مجرّبة بها الكفار نفري
فعانقه ابن مسلمة المردي به الكفار كالليث الهزبرِ
وشد بسيفه صلتًا عليهِ فقطّره أبو عبس ابن جبرِ
وكان الله سادسنا فأُبنا بأنعم نعمةٍ وأعز نصرِ

وعباد بن بشر رضي الله عنه هو الذي روى عن النبي -عليه الصلاة والسلام- قوله: "يا معشر الأنصار، أنتم الشعار والناس الدثار، فلا أوتين من قبلكم"، وكان رضي الله عنه قائد حرس النبي -عليه الصلاة والسلام- في غزوة تبوك.

شارك فيما بعد في معركة اليمامة، وقد نُظر إليه رضي الله عنه، وهو يصيح في الميدان: أحطموا جفون السيوف، فقاتل قتال الأبطال حتى استشهد رضي الله عنه وأرضاه.

أبو دجانة الخزرجي الأنصاري

ذو العصابة الحمراء

عندما التقى الجمعان في غزوة أحد، ورص الجيشان صفوفهم استعدادًا لخوض معركة دامية، طرفاها هم الحق والباطل، الإسلام والكفر، أراد النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يشجع أصحابه ويرفع من معنوياتهم، نظرًا لكثرة جيش الكفار وقلة عدد الجيش الإسلامي، فأخرج -عليه الصلاة والسلام- سيفه وأشهره أمام المسلمين وقال:

من يأخذ هذا السيف بحقه؟

فتأخر القوم قليلًا عن المبادرة فهم يعلمون أن حق سيف رسول الله كبيرًا وعظيمًا، ثم سأله بعض الصحابة أن يعطيهم إياه فلم يعطهم، فانبرى إليه أحد أبناء قيلة، رجل محارب من قبيلة الخزرج اليمانية الأنصارية فقال: وما حقه يا رسول الله؟ فقال رسول الله: أن تقاتل به في سبيل الله حتى يفتح الله عليك أو تُقتل، وفي رواية: أن تضرب به العدو حتى ينحني، فأخذ ذلك الرجل الشجاع الفاتك سيف رسول الله وأخرج عصابة حمراء من جيبه وعصب بها رأسه وأخذ يتبختر بين الصفّين ويرتجز قائلًا:

أنا الذي عاهدني خليلي إذ نحن بالسفح لدى النخيلِ
ألا أقيم الدهر في الكيولِ أضرب بسيف الله والرسولِ

وعندما رآه النبي يتبختر بين الصفين قال "إنها لمشية يبغضها الله ورسوله إلا في هذا الموطن".

إنه البطل المقدام والمحارب العظيم والشجاع الفاتك، المختال عند الحرب، ذو العصابة الحمراء، أبو دجانة سماك بن خرشة بن لوذان بن عبد ود بن زيد الساعدي الخزرجي الأنصاري اليماني.

ولد أبو دجانة الأنصاري في يثرب ونشأ فيها نشأة كريمة، فهو من بيت شرف وزعامة في قومه، ساعدي خزرجي من أصحاب السقيفة، وقد اشتهر أبو دجانة بالشجاعة والفتك، وكانت له عصابة حمراء يعصبها على رأسه إذا حضرت الحرب وعزم أن يستقتل، فإذا ما لبسها أدركت الأوس والخزرج أنه سيقاتل حتى الموت، وكان قد شارك في شبابه في الحروب التي وقعت بين الحيين اليمانيين في يثرب قبل الهجرة.

أسلم أبو دجانة الأنصاري رضي الله عنه ووهب ذراعه وسيفه ونفسه نصرة لله ودينه ونبيه وآخا النبي بينه وبين عتبة بن غزوان، وكان أبو دجانة رضي الله عنه مع شجاعته الفائقة وصلابته وإقدامه، فقيرًا معدمًا بسيطًا متواضعًا، شهد المشاهد كلها مع رسول الله وفعل بسيفه الأفاعيل في الغزوات كلها، وفي بدر كان في مقدمة الجيش الإسلامي؛ يهد صفوف المشركين من قريش، وهو الذي قتل أحد صناديدهم في تلك المعركة، وهو زمعة بن الأسود القرشي.

وفي غزوة أحد بعد أن أعطاه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سيفه، ولبس عصابته الحمراء قال الزبير بن العوام رضي الله عنه "وجدت في نفسي حين سألت رسول الله السيف ومنعنيه وأعطاه أبو دجانة، وقلت في نفسي أنا ابن صفية عمته، ومن قريش، وقد قمت إليه قبله فسألته إياه فأعطاه وتركني، والله لأنظرنَّ ما يصنع، فأتبعته فأخرج عصابة حمراء فعصب بها رأسه فقالت الأنصار: أخرج أبو

دجانة عصابة الموت، فجعل لا يلقى أحدًا إلا قتله ولا يرتفع له شيء إلا هتكه، وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحًا إلا أجهز عليه، فجعل كل واحد منهما يدنو من الآخر، فدعوت الله أن يجمع بينهما، فالتقيا، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاها بدرقته، فضربه أبو دجانة فقتله".

وفي هذا اليوم قال أبو دجانة: رأيت إنسانًا يخمش الناس خمشًا وصمدت له، فلما حملت عليه بالسيف وَلوَل، فإذا امرأة، فأكرمت سيف رسول الله أن أضرب به امرأة. وكان أبو دجانة في يوم أحد قد قتل أحد عظماء قريش وفرسانها وهو عبيد بن حاجز العامري ثم ثبت عند النبي صلى الله عليه وسلم عندما انكشف المسلمون في نهاية المعركة، وقد أثنى عليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قائلًا: "لقد رأيتني يوم أحد وما في الأرض قربي مخلوق غير جبريل عن يميني وطلحة عن يساري وكان سيف أبي دجانة غير دميم".

وفي غزوة خيبر برز أحد أبطال اليهود وفرسانهم فقتل اثنين من المسلمين مبارزة، فخرج إليه ذو العصابة الحمراء أبو دجانة الأنصاري رضي الله عنه فقتله ثم استبسل إلى أن فُتِحت خيبر.

وفي حُنين جُرح جُرحًا بليغًا فشفي منه، وفي غزوة العسرة أعطاه النبي -عليه الصلاة والسلام- راية الخزرج، وفي حجة الوداع عندما خرج رسول الله إلى مكة استعمله النبي على المدينة المنورة فكان أهلًا لها ومحل ثقة رسول الله.

كان أبو دجانة الأنصاري رضي الله عنه مع كل هذه الصفات العظيمة، طيب القلب كريم النفس، بسيطًا متواضعًا، قال زيد بن أسلم: دُخِل على أبو دجانة وهو مريض وكان وجههُ يتهلل، فقيل له

لم وجهك يتهلل؟! فقال: ما من عمل شيء أوثق عندي من اثنتين، كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، وكان قلبي للمسلمين سليمًا.

شارك أبو دجانة رضي الله عنه في حروب الردة مع أنه شاخ وكبر، وفي معركة اليمامة ألقى بنفسه في حديقة الموت مع البراء بن مالك الأنصاري، فانكسرت رجله وقاتل وهو مكسور، وكان ممن شاركوا في قتل مسيلمة الكذاب بسيفه مع وحشي بن حرب، وقد أصيب رضي الله عنه وأرضاه في معركة اليمامة واستشهد فيها وذلك في عام ١٢ للهجرة.

.

الأصيرم الأشهلي الأوسي الأنصاري

إن طريق الوصول إلى الشهادة في سبيل الله طريق طويل، ولكن هناك فرص واستثناء، فمن الممكن أن يستشهد الإنسان حتى وإن كان عمره مع الإسلام قصير جدا، عندما تكون هناك رغبة صادقة وحقيقية للشهادة، وما سحرة فرعون الذين انتقلوا من الكفر إلى الإيمان في لحظات، ثم أصبحوا شهداء، إلا خير دليل، وخير شاهد على ذلك.

من هؤلاء الذين نالوا شرف الشهادة في سبيل الله، دون أن يركع لله ركعة واحدة أخو بني عبد الأشهل –الأصيرم– عمرو بن ثابت بن وقش بن زغبة بن زعوراء الأشهلي الأوسي، والأصيرم حسب المعجم العربي تعني – القوة –، وبالفعل فقد كان أصيرم الأوس من الشجعان الصناديد الفُتّاك المشهورين في أبناء قيلة –الأنصار–، وأم الأصيرم هي ليلى أخت الصحابي الجليل صاحب سر رسول الله، حذيفة بن اليمان.

تأخر إسلام الأصيرم الأوسي، ولم يسلم مع قومه بني عبد الأشهل عندما أسلموا مع سيدهم، وسيد الأوس كلها سعد بن معاذ، وقيل إن سبب تأخر إسلامه أنه كان له ربًا من أموال الجاهلية، فخاف إن أسلم أن يذهب عنه، فانتظر إلى أن أخذه، والله أعلم.

فلما أن وقعت غزوة أحد، وجاءت قريش بحدها وحديدها تحارب الله ورسوله، قذف الله الإسلام في قلب الأصيرم الأشهلي، فأخذ يسأل في المدينة المنورة أين بنو عمي؟ قالوا له: ذهبوا إلى القتال في أحد، فانطلق الأصيرم الفاتك الجسور، فلبس لامته

الحربية، وأخذ فرسه الأصيلة، وقد كان من شجعان الأوس، وفرسانهم المعروفين، فانطلق ليلحق بالجيش الإسلامي.

فلما رآه قومه المسلمون قالوا له: إليك عنا يا عمرو، قال: إني قد آمنت.

فلما نشبت المعركة قاتل الأصيرم بصرامته المعهودة، وفعل بسيفه الأفاعيل، حتى أثبتته الجراحة.

فلما كان بنو عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم وجرحاهم بعد المعركة، عثروا على الأصيرم، فقالوا له: ما جاء بك يا عمرو؟ أحَدبًا على قومك؟ أم رغبة في الإسلام؟ قال: بل رغبة في الإسلام، وغضبًا لله ولرسوله، ثم لم يلبث أن مات، فذكروا ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال: "إنه لمن أهل الجنة"، ولم يسجد الأصيرم الأشهلي لله سجدةً واحدة، فهنيئًا لك يا أصيرم الأوس، وهنيئًا لكل من نال الشهادة في سبيل الله.

حسان بن ثابت الخزرجي الأنصاري

شاعر الإسلام

إني من القوم الذين إذا أزَمَ الشتاء مَحالِف الجدبِ
أعطى ذوو الأموال معسرهم والضاربين بموطن الرُّعبِ

شاعر الإسلام، وشاعر الرسول -عليه الصلاة والسلام-، كريم الحسب والنسب، أبو الوليد حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الخزرجي الأنصاري اليماني، من بني النجار، أهل الشرف والعز والمنعة، وجده المنذر بن حرام من زعماء يثرب في زمانه.

ولد حسان بن ثابت في يثرب، ونشأ في بيت كرم ومروءة ومجد من بطون الخزرج أبناء قيلة، ونبغ في الشعر، وهو شاب صغير، فكان شاعر الخزرج من دون منازع، وقد سخر موهبته الشعرية دفاعا عن قومه، وتخليدا لأيامهم وبطولاتهم، وله الكثير من النقائض والمهاجاة مع كثير من فحول الشعراء العرب، خاصة خصمه اللدود شاعر الأوس، وفتاها قيس بن الخطيم.

امتهن حسان بن ثابت الشعر في شبابه، وزار الملوك والأمراء، خاصة أبناء عمومتهم الغساسنة، ملوك الشام، فقربوه وأدنوه منهم، قال فيهم:

لله درّ عصابة نادمتهم يومًا بجلّق في الزمانِ الأوّلِ
أولاد جفنة فوق قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضلِ
يغشون حتى ما تهرَّ كلابهم لا يسألون عن السواد المُقبلِ
بيض الوجوه كريمةً أحسابهم شُم الأنوف من الطراز الأوّلِ

لما بعث النبي -عليه الصلاة والسلام-، وسطع نور الإسلام، ودخلت الأنصار فيه، أسلم حسان مع قومه، وتغيرت حياته، وقد عزم على تسخير موهبته الشعرية العظيمة لخدمة هذا الدين، وللرسول الأمين، ويعد حسان بن ثابت الأنصاري من أكبر الشعراء المخضرمين الذين عاشوا في الجاهلية والإسلام، وقد أسلم وعمره ستين عامًا، وقد قدر لهذا الشاعر الفحل أن يقوم بأعظم وظيفة قام به شاعر في تاريخ الشعر العربي كله، فقد كانت قصائده وكلماته أشد من وقع النبل على المشركين بقيادة قريش، فقد كان يفريهم فريًا، ولطالما دعا له رسول الله بالنصر والعون، قال -عليه الصلاة والسلام-: "وإن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله". وقال له: "اهجهم وروح القدس يؤيدك"، وكان يدعو لحسان، وولده، وولد ولده، فكان رضي الله عنه من أكثر الناس ذرية، وأطولهم عمرًا.

وبقدر ما نافح حسان عن دين الله ورسوله، فقد امتدح نبي الأمة بأجمل القصائد الشعرية التي خلدها الأدب العربي والإسلامي، وما زالت الأجيال تتناقلها جيلًا بعد جيل، وهي أبيات وقصائد كثيرة، ومنها قوله:

وأحسن منك لم ترَ قط عيني وأجمل منك لم تلد النساءُ
خُلِقت مُبرأً من كل عيبٍ كأنك قد خلقت كما تشاءُ

خلف حسان بن ثابت رضي الله عنه ديوانًا من الشعر خاض فيه غمار مواضيع الشعر كلها، من مدح وهجاء وغزل ووصف ورثاء وفخر وحماسة، وقد تميز شعره بالكثير من الخصائص، منها الرقة والسلاسة وقوة الألفاظ والمعاني، وقد تأثر شعره بعد أن أسلم بالقرآن الكريم، ويعدُ شعر حسان مصدر مهم من مصادر التاريخ الإسلامي، وله الكثير من القصائد التي تكتب بماء الذهب، وخلدها تاريخ الأدب العربي في صفحاته المشرقة، قال في إحدى نقائضه مع قيس بن الخطيم الأوسي:

لعمر أبيك الخير يا شعث ما نبا علي لساني في الخطوب ولا يدي
لساني وسيفي صارمين كلاهما ويبلغ مالا يبلغ السيف مذودي
فإن أكُ ذا مالٍ قليلٍ أجد بهِ وإن يهتصر عودي على الجهد يحمدِ
فلا المال ينسيني حيائي وعفتي ولا واقعات الدهر يفللن مبردي
أكثر أهلي من عيالٍ سواهمُ وأطوي على الماء القراح المبردِ
وإني لمعطٍ ما وجدت وقائلٌ لموقد ناري ليلة الريح أوقدِ
وإني لقوّال لذي البث مرحبًا وأهلًا إذا ما جاء من غير مرصدِ
وإني ليدعوني الندى فأجيبهُ وأضرب بيض العارض المتوقّدِ
وإني لحلوٌ تعتريني مرارةٌ وإني لترّاكٌ لما لم أعوّدِ
وإني لمزجاء المطي على الوجى وإني لترّاك الفراش الممهّدِ
فلا تعجلن يا قيس واربع فإنما قصاراك أن تُلقى بكل مهندِ

حسام وأرماحٌ بأيدي أعزةٍ متى ترهم يا ابن الخطيم تلبّدِ
ليوث لها الأشبال تحمي عرينها مداعيس بالخطّي في كل مشهدِ

ومما قال في يوم بدر يعير قريش بهزيمتها، وقتل كبرائها:

ألا ليت شعري هل أتى أهل مكةٍ إبارتنا الكفار في ساعة العسرِ
قتلنا سراة القوم عند رحالهمٍ فلم يرجعوا إلا بقاصمة الظهرِ
قتلنا أبا جهلٍ وعتبة قبله وشيبة يكبوا لليدين وللنحرِ
تركناهمُ للخاصمات تنوبهمٍ ويصلون نارًا بعد حامية القصر
بكفرهمُ بالله والدين قائمٌ وما طلبوا فينا بطائلة الوترِ
لعمرك ما خابت فوارس مالكٍ وأشياعهم يوم التقينا على بدرِ[1]

وهذه الأبيات أيضًا من قصيدة طويلة له:

وخبّر بالذي لا عيب فيه بصدقٍ غير أخبار الكذوبِ
بما صنع المليك غداة بدرٍ لنا في المشركين من النصيبِ
فوافينا هموا منا بجمعٍ كأسد الغاب مُردانٍ وشِيبِ
أمام محمّد قد آزروهٍ على الأعداء في لفح الحروبِ
بأيديهم صوارم مرهفاتٍ وكل مجّرب خاضي الكعوبِ
بنو الأوس الغطارف آزرتها بنو النجار في الدين الصليبِ
فغادرنا أبا جهلٍ صريعا وعتبة قد تركنا بالجيوبِ
وشيبة قد تركنا في رجالٍ ذوي حسبٍ إذا نسبوا نسيبِ
يناديهم رسول الله لمَّا قذفناهم كباكب في القليبِ
ألم تجدوا حديثي كان حقًا وأمر الله يأخذ بالقلوبِ

(١) القصائد طويلة موجودة في ديوان حسان بن ثابت لمن أراد قراءتها كاملة، وإنما اختصرنا منها ما رأيناه مناسبًا ويوفي بالغرض.

فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا صدقت وكنت ذا رأي مَصيبِ

ولحسان بن ثابت في الفخر والحماسة الكثير من الملاحم الشعرية الرائعة، منها قصيدته التي ألقاها أمام النابغة الذبياني:

لنا الجفنات الغرّ يلمعن في الضحى
وأسيافنا يقطرن من نجدةٍ دما[1]

وقال مفتخرًا أيضًا بقومه الأزد:

ألم ترنا أولاد عمرو بن عامرٍ لنا شرفٌ يعلوا على كل مرتقي
رسى في قرار الأرض ثم سمت له فروع تسامي كل نجمٍ مُحلّقِ
ملوك وأبناء الملوك كأننا سواري نجومٍ طالعاتٍ بمشرقِ
إذا غاب منها كوكبٌ لاح بعدهُ شهابٌ متى ما يبد للأرض تشرقِ

إلى أن قال فيها:

أتانا رسول الله لما تجهّمت له الأرض يرميهِ بها كل مُوفِقِ
تطرّدهُ أفناء قيسٍ وخندفٍ كتائب إن لا تغد للروع تطرقِ
فكان له من سائر الناس معقلًا أَشمَّ منيعا ذو شماريخ شهَّقِ
مكلكلة بالمشرفي وبالقنا بها كل أظمى ذي غرارين أزرقِ
تذود به عن أرضها خزرجية كأُسد كِراءٍ أو كجنّةِ نمقمقِ
تؤازرها أوسيةٌ مالكيةٌ رقاق السيوف كالعقائق ذلّقِ
نفى الذّم عنّا كل يوم كريهةٍ طعانٌ كتظريم الأباءِ المحرّقِ

(١) ذكرناها في بداية الكتاب في تعريضنا بقبائل الأنصار.

فنحن ولاة الناس في كل موطنٍ متى ما نقل في الناس قولًا نُصدقِ
توفق في أحكامنا حكماؤنا إذا غيرهم في مثلها لم يوفَّقِ

كان لحسان بن ثابت الكثير من العداوات في الجاهلية، وقد اشتدت عداوتهم بظهور الإسلام، من قريش خاصة والمشركين عامة، لكونه جبهة إعلامية كبيرة أثرت فيهم كثيرًا، وقد كان المشركون – ومن تعصب لهم فيما بعد – يحاولون جاهدين أن يقدحوا في شخص هذا الرجل وتشويهه.

وقد افترى بعض الجهلة فيما بعد فرية عظيمة، وتابعهم عليها الكثير من الببغاوات دون علم أو دراية، وقالوا بأن شاعر الإسلام حسان بن ثابت كان جبانًا ولا يحب القتال، وكانت حجتهم الواهية في ذلك أنه لم يحضر المشاهد مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، وكذلك قصة اليهودي الذي تسلل لمنازل المسلمين، وقالوا إن حسان جبن عن قتله وسلبه وقتلته امرأة، وهي صفية بنت عبدالمطلب، ونرد على هؤلاء الجهلة بقليل من الأدلة التي تثبت بطلان وزيف ادعاءاتهم.

تشاعر وتهاجا حسان بن ثابت في الجاهلية والإسلام مع عشرات، بل ربما مئات الشعراء العرب، ولو كان حسان جبانًا لا يحسن القتال لنعتوه بهذا الوصف، وساموه به الخسف والهوان، فالجبن والعجز من أقبح الصفات عند العرب، ولكن لم يثبت إطلاقًا أن اتهمه أحد بهذه الصفة، ونتحدى أن يأتي أحد ببيت شعري واحد يثبت ذلك.

كما نسي هؤلاء أن شاعر الإسلام قد أسلم وهو شيخ كبير عمره ٦٠ عامًا، وكان رضي الله عنه قد أصيب في حروبهم مع الأوس في شبابه، فقطع منه الأكحل، ولم يعد يستطيع حمل السيف بقوة، قال حسان:

أضرَّ بجسمي مرّ الدهور وخان قراع يدي الأكحلِ
وقد كنت أشهد عين الحروب ويحمرُّ في كفي المنصلِ

ولطالما امتدح حسانُ بنُ ثابت رضي الله عنه نفسه وأفعاله بين يدي رسول الله، فهل كان يكذب بين يدي رسول الله، ويقبل رسول الله منه ذلك! -حاشاهم والله-.

اشتدت شوكة الإسلام، وما هي إلا أعوام حتى كان حسان يهدد قريشاً بدخول مكة نفسها، التي أخرجوا منها المسلمين، وطردوهم، وقال في ذلك قصيدته الرائعة التي تعد من أروع قصائده، وأجملها ألفاظًا ومعاني:

عفتْ ذاتَ الأصابعِ فالجواءُ، إلى عذراءَ منزلها خلاءُ
ديارٌ مِنْ بَني الحَسْحاسِ قَفْرٌ، تعفيها الروامسُ والسماءُ
وكانَتْ لا يزَالُ بِهَا أَنِيسٌ، خِلالَ مُرُوجِهَا نَعمٌ وَشَاءُ
فدع هذا، ولكن منْ لطيفٍ، يؤرّقُني إذا ذَهَبَ العشاءُ
لشعثاءَ التي قد تيمتهٌ، فليسَ لقلبه منها شفاءُ
كَأَنَّ خَبيأَةً من بَيتِ رَأسٍ يكونُ مِزاجَها عسَلٌ وَماءُ
على أنْيابِهَا، أَو طَعمَ غَضٍّ منَ التفاحِ هصرهُ الجناءُ
إذا ما الأسرباتُ ذكرنَ يوماً، فَهُنّ لِطَيبِ الرَاحِ الفِداءُ
نُوَلّيها المَلامَةَ، إنْ أَلمْنَا، إذا ما كانَ مغثٌ أَو لحاءُ
ونشربها فتتركنا ملوكًا، وأسدًا ما ينهنهنا اللقاءُ

عدمْنَا خَيلَنا، إنْ لم تَرَوْهَا ... تُثِيرَ النّقْع، مَوْعدها كَداءُ
يبَارِينَ الأسنّةَ مُصْعدات، ... علَى أكْتَافِهَا الأسَلُ الظِّماءُ
تَظَلُّ جِيادنَا مُتَمَطِّرَاتٍ، ... تلطمهنَّ بالخمرِ النساءُ
فإما تعرضوا عنا اعتمرنا، ... وكانَ الفَتْحُ، وانْكَشَفَ الغِطاءُ
وإلا، فاصبروا لجلاد يومٍ، ... يعزُّ اللّهُ فيه منْ يشاءُ
وجِبْرِيلٌ أمِينُ اللَّهِ فِينَا، ... وَرُوحُ القُدسِ لَيسَ لَهُ كِفَاءُ
وَقَالَ اللَّهُ: قَد أرْسَلْتُ عبْدًا ... يقولُ الحقَّ إنْ نفع البلاءُ
شَهِدتُ بِه، فَقُومُوا صَدقُوهُ! ... فقلتمْ: لا نقومُ ولا نشاءُ
وَقَالَ اللَّهُ: قَد يسّرْتُ جُنْدًا، ... هُمُ الأنصارُ، عرضتها اللقاءُ
لنا في كلّ يومٍ منْ معد ... سِبابٌ، أو قِتَالٌ، أو هِجاءُ
فنحكمُ بالقوافي منْ هجانا، ... ونضربُ حينَ تختلطُ الدماءُ
ألا أبلغْ أبا سفيانَ عني، ... فأنتَ مجوفٌ نخبٌ هواءُ
وأن سيوفنا تركتك عبدا ... وعبد الدار سادتها الإماء
كَأنّ سَبِيئَةً مِنْ بَيتِ رَأسٍ، ... تُعفيها الرّوَامِسُ والسّمَاءُ
هجوتَ محمدًا، فأجبتُ عنه، ... وعند اللهِ في ذاكَ الجزاءُ
أتَهْجُوهُ، وَلَسْتَ لَهُ بكُفْءٍ، ... فَشَرُّكُما لخيرِكُمَا الفِداءُ
هجوتَ مباركًا، برًا، حنيفًا، ... أمينَ اللّهِ، شيمتهُ الوفاءُ
فَمَنْ يهْجو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ، ... ويمدحهُ، وينصرهُ سواءُ
فَإنّ أبي وَوَالِدهُ وَعِرْضِي ... لعرضِ محمد منكمْ وقاءُ
فإما تثقفنّ بنو لؤي ... جُذَيمَةَ، إنّ قَتْلَهُمُ شِفَاءُ
أولئكَ معشرٌ نصروا علينا، ... ففي أظفارنا منهمْ دماءُ
وَحِلْفُ الحارِثِ بْنِ أبِي ضِرَارٍ، ... وَحِلْفُ قُرَيظَةَ منّا بَرَاءُ
لساني صارمٌ لا عيبَ فيهِ، ... وَبَحْرِي لا تُكَدِّرُهُ الدّلاءُ

توفي خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات ربي وسلامه عليه، فكان لوفاته الأثر الكبير في حياة صاحبه وصديقه حسان، ورثاه بأعظم المراثي وأصدقها قولًا ومعنىً في تاريخ الإسلام، ومما قال في إحداها:

فبكّي رسول الله يا عين عبرةً ولا أعرفنّكِ الدهر دمعكِ يجمدُ
ومالك لا تبكين ذا النعمة التي على الناس منها سابغٌ يتغمّدُ
فجودي عليه بالدموع وأعولي لفقد الذي لا مثله الدهرُ يوجدُ
وما فقد الماضون مثل محمد ولا مثله حتى القيامة يفقدُ

توفي حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه في زمن معاوية بن أبي سفيان ما بين عام ٥٠، إلى ٥٤ للهجرة عن عمر ناهز المائة والعشرين عامًا، بعد أن عَمِيَ في آخر أيامه، وكان رضي الله عنه كثير الذرية والولد بفضل الله وبدعوة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- له، فرحم الله شاعر الإسلام حسان الذي وهب حياته منذُ أسلم دفاعا عن دين الله ورسوله الكريم، كيف لا وهو القائل:

فمن يهجوا رسول الله منكم ويمدحهُ وينصرهُ سواءُ
فإن أبي ووالدهُ وعرضي لعرض محمد منكم وقاءُ

حنظلة بن أبي عامر الأوسي الأنصاري

غسيل الملائكة

قال أنس بن مالك: تفاخر الحيان من الأنصار – الأوس والخزرج –، فقالت الأوس: منا غسيل الملائكة (حنظلة بن أبي عامر –، ومنا من اهتز لموته عرش الرحمن (سعد بن معاذ)، ومنا من حمت جسمه الدبر (عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح)، ومنا من أجيزت شهادته بشهادة رجلين (خزيمة بن ثابت)، فقالت الخزرج: ومنا الأربعة الذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، لم يجمعه غيرهم، زيد بن ثابت، وأبو زيد، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل.

بعد المعركة في أحد، وبينما كان النبي -عليه الصلاة والسلام- يتفقد القتلى والجرحى من أصحابه، وجدوا شابًا شهيدا يقطر رأسه ماء، وليس بقربه ماء، فقال -عليه الصلاة والسلام-: إن صاحبكم تغسله الملائكة، وكان جسمه ينضح بالماء، وكأن أحد يصب عليه صبًا، فسُئلت زوجته جميلة بنت عبدالله بن أبي بن سلول الخزرجية عن خبره، فقالت: عندما سمع الحيعلة قام إلى الحرب، وكان جُنُبًا، واستشهد، ولم يغتسل، ولهذا قال -عليه الصلاة والسلام-: تغسله الملائكة، واشتهر بذلك.

حنظلة بن أبي عامر – واسمه عمرو – بن صيفي بن مالك بن أمية بن ضبيعة بن زيد بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك الأوسي الأنصاري، غسيل الملائكة.

نشأ في يثرب، وكان أبوه من وجهاء الأوس وزعمائها – ولم يسلم –، وقد قدر لهذا الشاب الأوسي الأنصاري أن يختصه الله بالشهادة في سبيله، فهي شأن عظيم، ومن أعلى الدرجات والمنازل، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾، (النساء: ٦٩).

وكان حنظلة بن أبي عامر من ذلك الجيل الشاب الذي نهل من منهل نبي الأمة، ودرس في مدرسته، وغرس فيهم حب التضحية والفداء لنصرة الله ورسوله، فباعوا الدنيا، واشتروا الآخرة، وكان ما كان من خبره واستشهاده في غزوة أحد.

ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي الأنصاري

خطيب الإسلام

خطيب أبناء قيلة، وخطيب الإسلام، وصاحب النبي -عليه الصلاة والسلام-، الصحابي الجليل ثابت بن قيس بن شماس بن زهير بن امرئ القيس بن مالك بن الحارث الخزرجي، أحد خطباء العرب المشاهير، وفصحائهم المعروفين.

ولد ثابت بن قيس بن شماس في يثرب، ونشأ فيها، وشارك في شبابه في الحروب والصراعات الواقعة بين الأوس والخزرج، واكتوى بنارها كغيره من أبناء قيلة، وكان ثابت من الأبطال المعدودين في قومه، فهو ينتمي إلى بلحارث بن الخزرج إحدى بطون الخزرج المشهورين بالشجاعة والإقدام، وأمه هند من قبيلة طيء، وهو أخو الشاعر عبدالله بن رواحة لأمه.

أسلم ثابت بن قيس بن شماس على يد مصعب بن عمير، فهو من السابقين إلى الإسلام، وبعد الهجرة آخى النبي بينه وبين عمار بن ياسر العنسي، وقد اشتهر ثابت بمحبته لرسول الله -عليه الصلاة والسلام-.

شهد المشاهد كلها، وأبلى فيها خير بلاء، فقد كان محاربًا عنيدا، وهذه من سمات قبيلته، وقد عرف بصوته الجهوري، وفصاحته وبلاغته.

عندما نزل قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن

تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، (الحجرات: ٢)، تجنب ثابت بن قيس الذهاب إلى مجالس رسول الله، وحزن حزنًا عظيمًا، وكان كما ذكرنا جهوري الصوت، فافتقده النبي -عليه الصلاة والسلام-، وأرسل في طلبه، فلما علم النبي أن ثابت اختفى لذلك السبب، طلبه فلما قدم عليه قال له: "لست من أهل النار، بل أنت من أهل الجنة" البخاري ومسلم.

إذًا فخطيب الإسلام من المبشرين بالجنة، وما أعظمها من بشارة لا ينالها إلا الصفوة من كبار صحابة رسول الله، والصادقين المؤمنين.

في عام الوفود، قدم وفد بني تميم، فأرادوا أن يفاخروا رسول الله وأصحابه، وجاء معهم شاعرهم وخطيبهم، فأرسل النبي في طلب شاعر الإسلام وخطيب الإسلام حسان بن ثابت، وثابت بن قيس – وكلهم خزرج–، فوقف خطيب بني تميم، عطارد بن حاجب، فقال:

الحمد لله الذي جعلنا ملوكًا، ووهب لنا أموالًا عظامًا يُفضل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق، وأكثره عددا، وأيسره عدة، فمن مثلنا في الناس أولو فظل، فمن فاخرنا، فليعدد مثلما عددنا، ولو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكن نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نُعرف بذلك.

فقام ثابت بن قيس، فقال:

الحمد لله الذي السماوات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يكُ شيء قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا أئمة، واصطفى من خير خلقه رسولًا، فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خلقه، ثم كنا نحن الأنصار أول الخلق إجابةً،

فنحن أنصار الله ورسوله وردؤه، نقاتل الناس حتى يؤمنون، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن نكث جاهدناه في الله أبدا، وكان قتله علينا يسيرًا، أقول هذا واستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات.

فأثرت خطبته في بني تميم، وبعد أن ألقى شاعرهم قصيدته، وأجابه حسان بن ثابت، قال بنو تميم: خطيبهم أخطب من خطيبنا، وشاعرهم أشعر من شاعرنا، فأسلموا.

وقد سر النبي -عليه الصلاة والسلام- لحسان وثابت بن قيس.

قال -عليه الصلاة والسلام-: "نعم الرجل ثابت بن قيس بن شماس" رواه الترمذي.

بعد وفاة النبي -عليه الصلاة والسلام- ارتدت بعض قبائل العرب، ومنها قبيلة بني حنيفة؛ أصحاب اليمامة، فأرسل الخليفة أبوبكر جيشًا لمحاربتهم، وكان خطيب الإسلام ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري في ذلك الجيش قائدا للأنصار في تلك المعركة ضد مسيلمة الكذاب وأتباعه، وقد عانا الجيش الإسلامي في بداية المعركة، وانهزم جزء منه، وخسروا الكثير من خيرة المسلمين.

فلما انكشف المسلمون قال ثابت بن قيس، وسالم مولى أبي حذيفة: ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله، وحفر كل واحد منهم لنفسه حفرة، وكان ثابت يقول: يا معشر الأنصار، خلوا بيني لعلي أصلى بحرها ساعة، ثم قاتلوا قتال الأبطال، وثبتوا ثبوت الجبال، فعاد من انسحب من المسلمين إلى المعركة، وكان لهذه المواقف تأثير بالغ في قلب موازين الحرب رأسًا على عقب، إلا أن خطيب الإسلام ثابت بن قيس قد أصيب واستشهد رضي الله عنه وأرضاه، وكانت معركة اليمامة قد وقعت في السنة الثانية عشرة للهجرة.

خزيمة بن ثابت الأوسي الأنصاري

ذو الشهادتين

قال النبي -عليه الصلاة والسلام-: "من شهد له خزيمة، فحسبه"؛ أي جعل شهادته بشهادة رجلين، وأطلق عليه رسول الله لقب "ذو الشهادتين".

خزيمة بن ثابت بن الفاكِه الخطمي الأوسي الأنصاري، أحد الرجال الصادقين المخلصين الذين مضوا على منهاج نبيهم إلى أن التحقوا بالرفيق الأعلى.

وعن قصة تسميته بهذا اللقب الكريم، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- اشترى فرسًا من أعرابي، ولم يكن مع النبي الثمن، فاصطحب الأعرابي معه ليعطيه ثمن فرسه، وقد أسرع النبي وأبطأ الأعرابي، فلقيه أناس عرضوا عليه في فرسه ثمنًا أكبر، فطمع الأعرابي، ونادى على رسول الله: أتشتري هذا الفرس أم أبيعه لغيرك؟ قال رسول الله: أو ليس قد ابتعته منك؟ قال الأعرابي: لا والله ما بعته لك، قال الأعرابي: هل من شاهد على ما تقول؟ – ولم يكن أحد شهد المبايعة –، فسمع خزيمة بن ثابت كلام الأعرابي، فقال: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل رسول الله على خزيمة قائلًا: بم تشهد؟ قال خزيمة: يا رسول الله: أأصدقك في كل ما جئت به، ثم أكذبك في هذه؟! فسرّ رسول الله من هذا الاستنباط، وأراد أن يكرّم خزيمة بن ثابت، فقال: "من شهد له خزيمة، فحسبه"؛ أي أن شهادته بشهادة رجلين، فأصبح يعرف بذي الشهادتين.

ولما أن أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر الصديق بجمع القرآن، أمر زيد بن ثابت الأنصاري بجمعه، فجمعه، وكان زيد لا يسجل الآية إلا إذا وجدها مكتوبة، واثنين من الصحابة يحفظونها في صدورهم، فلم يبق إلا آيتين أواخر سورة التوبة وجدت مكتوبة لكن محفوظة من صحابي واحد فقط، وهذا الرجل هو خزيمة بن ثابت الأنصاري، فتذكروا حكمة رسول الله: "من شهد له خزيمة، فحسبه"، فسجلت الآية بشهادة خزيمة، وهي قول الله سبحانه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ (التوبة: ١٢٨–١٢٩).

شهد خزيمة بن ثابت الأوسي الأنصاري المشاهد مع رسول الله من غزوة أحد وما بعدها، ثم شارك في معركة مؤته الشهيرة، وكان له أهمية كبيرة فيها، وهو الذي حمل راية بني خطمة الأوسيين في فتح مكة.

وقد كان شاعرًا رضي الله عنه، ولكن للأسف لم ينقل لنا من شعره إلا النزر اليسير، وقد امتاز شعره بالجمالية والوضوح.

استشهد رضي الله عنه في معارك صفين المشؤومة سنة ٣٧ للهجرة، وهو مع علي بن أبي طالب.

عبدالله بن رواحة الخزرجي

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الملاء قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

النقيب الشاعر، والفارس المغامر، عبدالله بن رواحة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن عمرو بن امرئ القيس بن مالك الأغر الحارثي الخزرجي الأنصاري، خال الصحابي النعمان بن بشير، وأخو الصحابي أبي الدرداء لأمه.

أحد السابقين إلى الإسلام، ومن النقباء الاثني عشر في بيعة العقبة، ومن القلائل الذين كانوا يجيدون القراءة والكتابة في يثرب، وهو الذي آخا بينه النبي -عليه الصلاة والسلام- بعد الهجرة بينه وبين فارس السبحة المقداد بن عمرو الكندي رضي الله عنهم أجمعين.

في شبابه شارك عبدالله بن رواحة مع قبيلته الخزرج في الحروب والصراعات التي كانت بينهم وبين إخوانهم الأوس قبل الهجرة النبوية، وكان شاعرًا فحلًا وفارسًا محاربًا مقدامًا.

بعد أن أسلم عبدالله بن رواحة وهب مهاراته الشعرية والحربية لخدمة دين الإسلام، وكان رضي الله عنه محل ثقة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ومن المقربين منه، شهد بدرًا وأحدًا والخندق وخيبر والحديبية، فكان بالمكان الذي لا يجهل.

وفي عمرة القضاء قال له رسول الله: أنزل يا ابن رواحة، وحرّك بنا الركاب، فأخذ يرتجز أمام رسول الله بأبياته المشهورة:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

وكان قد ولاه النبي -عليه الصلاة والسلام- على المدينة عندما خرج في غزوة بدر الموعد، وبعثه على رأس سرية من ثلاثين رجلًا لقتال أسيد بن رزام اليهودي، فتمكن من قتله.

قال أبو الدرداء: لقد رأيتنا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في بعض أسفاره في اليوم الحار الشديد الحر حتى أن الرجل ليضع يده فوق رأسه من شدة الحر، وما في القوم صائم إلا رسول الله وعبدالله بن رواحة. رواه أحمد والبخاري ومسلم.

كان عبدالله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت –وكلهم من الخزرج– يناظرون قريشاً ويردون عليها في أشعارها ويمدحون رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، ومن أقوال ابن رواحة:

إني تفرست فيك الخير أعرفه والله أعلم أن ما خانني البصرُ
أنت النبي ومن يحرم شفاعتهُ يوم الحساب فقد أزرى به القدرُ
فثبت الله ما آتاك من حسنٍ تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

وكان شعار عبدالله بن رواحة الأنصاري في حروبه وغزواته:

خلوا بني الكفار عند سبيله خلّوا فكل الخير في رسوله

عندما بعث النبي الرسل إلى الملوك والدول المجاورة، كان منهم الحارث بن عمير الأزدي رسولًا إلى عظيم بصرى، فاعترض طريقه

شرحبيل بن عمرو الغساني عامل الرومان، فقتله، وكان قتل السفراء من أبشع الجرائم، وهو بمثابة إعلان حرب.

فجهز النبي -عليه الصلاة والسلام- جيشًا من ثلاثة آلاف مقاتل جعل أميرهم زيد بن حارثة الكلبي، فإن أصيب، فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب، فعبدالله بن رواحة. ولما هم الجيش بالمغادرة جعل الناس يودعونهم ويدعون لهم بالنصر والعودة سالمين، لكن ابن رواحة الأنصاري قال:

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حرّان مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثي يا ارشد الله من غازٍ وقد رشدا

وصل الجيش الإسلامي إلى أرض معان على تخوم البلقاء، وعرفوا أن الروم ونصارى العرب قد أعدوا لهم جيشًا عظيمًا يفوقهم أضعافًا مضاعفة، فتردد البعض، وأرادوا مراسلة رسول الله، فانبرى ابن رواحة قائلًا:

يا قوم نحن لا نقاتل الناس بعدد ولا بعدة، وإنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فإنما هي إحدى الحسنيين، النصر أو الشهادة، فثبت القوم، وقرروا المواجهة.

التقى الجيشان والتحما في معركة غير متكافئة لكن المسلمين ثبتوا ثباتًا عظيمًا، استشهد زيد بن حارثة، ثم استشهد جعفر بن أبي طالب، ثم حمل الراية عبدالله بن راحة وقال:

يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صُليتِ
وما تمنيت فقد أُعطيتِ إن تفعلي فعلهما هديتِ

ثم نظر إلى صاحبيه زيد وجعفر وتردد قليلًا، ثم قال:

أقسمت يا نفسي لتنزلنه لتـنـزلـنَّ أو لتكـرهنَّه
إن أجلب الناس وشدوا الرّنه مالي أراك تكرهين الجنة
لطالما قد كنت مطمئنة هل أنت إلا نطفة في شنّه

ثم حمل وقاتل قتالًا عظيمًا حتى استشهد ولحق بصاحبيه رضوان الله عليهم أجمعين.

أخبر النبي -عليه الصلاة والسلام- عبر الوحي بما جرى في معركة مؤتة، وما آلت إليه أمور الجيش بيد خالد بن الوليد الذي استطاع أن ينسحب ببراعة، وأن ينقذ ما تبقى من الجيش من براثن الرومان ومن معهم.

قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في ابن رواحة: "يرحم الله ابن رواحة إنه يحب المجالس التي تتباها بها الملائكة" رواه أحمد.

سعد بن خيثمة الأوسي

بعد أن صدع النبي -عليه الصلاة والسلام- بدعوته في مكة، ولاقى ما لاقى من الأذى من قريش، كان -عليه الصلاة والسلام- يوافي المواسم، ويتبع الحجيج، ويذهب إلى عكاظ ومجنة وذي المجاز، يدعو القبائل أن يمنعوه وأن ينصروا دعوته حتى يبلغ رسالة ربه، ولهم بالمقابل جنة عرضها السماوات والأرض، فلم يجبه أحد، وكان يطوف بالقبائل واحدة تلو الأخرى، ويقول لهم: "يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب، وتذل لكم العجم، وإذا آمنتم كنتم ملوكًا في الجنة"، وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه، فإنه صابئ كاذب، وكان معظمهم يردون عليه الرد القبيح، وبعضهم يقول له: أسرتك وعشيرتك أعلم بك، إذ لم يتبعوك.

وهكذا استمر رسول الله، والتقى الكثير من وفود القبائل ولكم من دون جدوى، ثم ساقه الله سبحانه وتعالى إلى حي عظيم من العرب شاء الله أن يكون لهم شرف الدنيا والآخرة بنصرة نبيه الكريم ودين الإسلام، فالتقى بنفر من شباب أبناء قيلة – الأنصار اليمانية – فاستجابوا له، وكانوا والله أطول الناس ألسنة وأحدهم سيوفًا.

وقد كان من هؤلاء النفر الذين التقى بهم رسول الله، الشاب الفارس، سعد بن خيثمة بن الحارث بن مالك بن كعب بن النحاط الأوسي أخو بني السلم الأوسيين.

أسلم سعد بن خيثمة، وكان من النقباء الاثني عشر في بيعة العقبة الأولى، ثم شهد بيعة العقبة الثانية مع السبعين من الأنصار، وعندما هاجر النبي -عليه الصلاة والسلام- من مكة إلى المدينة نزل في

قباء على كلثوم بن الهدم، وكان يقابل الناس عند سعد بن خيثمة رضي الله عنه، وكانت أول صلاة جمعة تقام في المدينة جرت في دار سعد بن خيثمة الأنصاري، وكانوا اثني عشر رجلًا صلى بهم مصعب بن عمير في قباء، وكان رسول الله قد آخا بين سعد بن خيثمة الأوسي وأبي سلمة بن عبد الأسد.

ولما وقعت غزوة بدر أراد خيثمة بن الحارث أبو سعد أن يخرج هو وابنه مع رسول الله، فأمر رسول الله أن يخرج أحدهما فقط، فاستهما، فخرج سهم سعد، فخرج مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى بدر، فاستشهد هناك رضي الله عنه وأرضاه.

معاذ بن جبل الخزرجي

كنز العلماء، وإمام الفقهاء، أفضل شباب الأنصار زينة وعلمًا وسخاء وحياء، الجميل الوسيم، الشجاع المقدام، التقي الورع، أعلم الأمة بالحلال والحرام، معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدي بن كعب الجشمي الخزرجي، ولد في يثرب عام ١٨ قبل الهجرة، وأمه هند بنت سهل من قبيلة جهينة، أسلم باكرًا مع قومه، وشهد العقبة الثانية، وهو شاب أمرد.

قال له النبي -عليه الصلاة والسلام-: "يا معاذ والله إني لأحبك، والله إني لأحبك، وقال: أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك".

شهد معاذ بن جبل الخزرجي الأنصاري المشاهد كلها مع رسول الله، وكان محاربًا بارعا ومقاتلًا عنيدا ولا غرابة، فهذه من خصال قومه وعاداتهم، وعندما ذهب النبي لفتح مكة خلف على المدينة عتاب بن أسيد يصلي بهم، وخلف معاذ بن جبل يقرؤهم ويفقههم.

قال أنس: جمع القرآن على عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- أربعة كلهم من الأنصار، أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وأبو زيد -أحد عمومتي -، وزيد بن ثابت.

وقال -صلى الله عليه وسلم-: "خذوا القرآن من أربعة، عبدالله بن مسعود، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة".

وقد كان معاذ بن جبل رضي الله عنه من القلة الذين سُمِح لهم بالفتيا على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال سهل بن أبي خيثمة: كان الذين يفتون على عهد رسول الله ثلاثة من المهاجرين، عمر وعثمان وعلي، وثلاثة من الأنصار أبي بن كعب، ومعاذ، وزيد بن ثابت.

ارتبط اسم معاذ بن جبل رضي الله عنه ارتباطًا تاريخيا وثيقًا باسم اليمن، فقد اختاره النبي -عليه الصلاة والسلام- مبعوثًا إلى بلاد اليمن والإيمان، وذلك في السنة التاسعة للهجرة، وكان من أكثر صحابة رسول الله تطوافًا في اليمن، وقد اختار الجند نقطة انطلاق إلى مناطق اليمن الأخرى، وبنى مسجد الجند المشهور باسمه رضي الله عنه.

وقد أوصاه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قائلًا: يا معاذ، إنك ستقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم، فإذا صلوا، فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة في أموالهم، تؤخذ من غنيهم وترد على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك، فخذ منهم وتوقَّ كرائم أموال الناس. رواه البخاري.

ومن المناطق التي كان يتردد إليها معاذ في اليمن، تعز، الضالع، لحج، عدن، أبين، حضرموت، والبيضاء، ومناطق أخرى، ومنها دثينة والرضمة وخولان وخيوان وتهامة.

ومن وصايا رسول الله لمعاذ وهو يودعه، عن معاذ بن جبل قال: خرج معي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوصيني، معاذ راكب ورسول الله يمشي بجانب راحلة معاذ، فلما فرغ قال: يا معاذ إنك

عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا، لعلك أن تمر بمسجدي وقبري – فبكى معاذ خشعا لفراق رسول الله، ثم التفت رسول الله، وقال: إن أهل بيتي هؤلاء يرون أنهم أولى الناس بي، وإن أولى الناس بي المتقون من كانوا، وحيث كانوا، اللهم إني لا أحل لهم فساد ما أصلحت، وأيم الله ليكفؤون أمتي عن دينها كما يكفأ الإناء في البطحاء. صحيح ابن حبان.

بعد وفاة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عاد معاذ إلى المدينة المنورة، ثم أرسله الفاروق عمر بن الخطاب في خلافته إلى الشام، لتعليم الناس هناك أمور دينهم، فلما مات أبو عبيدة أمير الشام استخلفه الفاروق عمر بن الخطاب أميرًا عليها، فمكث على ذلك أشهر قليلة حتى لقي ربه.

وعند موته جعل ينظر إلى السماء ويقول: اللهم إني كنت أخافك لكنني اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا، وطول البقاء فيها، لغرس الأشجار وجري الأنهار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء عند حلق الذكر، اللهم فتقبل نفسي بخير ما تقبل به نفسًا مؤمنة.

وتوفي وعمره ٣٣ سنة.

قال الفاروق عمر بن الخطاب قبل أن يموت: لو أدركت معاذًا، ثم وليته، ثم لقيت ربي، فقال: من استخلفت على أمة محمد؟ لقلت: سمعت نبيك وعبدك محمد يقول: يأتي معاذ بن جبل بين يدي العلماء برتوة.

وقال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أيضًا: لو كان معاذ حيا لوليته، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا لوليته.

قال ابن مسعود: إن معاذ كان أمةً قانتًا لله حنيفًا، ولقد كنا نشبهه بإبراهيم عليه السلام.

* * *

انتهى الحديث عن الأنصار أبناء قيلة.

بديل بن ورقاء الخزاعي

بديل بن ورقاء بن عمرو بن ربيعة بن عبد العزى بن ربيعة بن جزي بن عامر الخزاعي الأزدي، أحد أعلام ووجهاء قبيلة خزاعة اليمانية المعروفة، وخزاعة من أمهات القبائل في جزيرة العرب، وهم من بني عمرو بن عامر الأزديين، وقد هاجروا مع إخوانهم الأوس والخزرج وبني جفنة من بلاد اليمن، واستقر القرار ببني عمرو في ضواحي مكة، وقد اشتهروا بلقب خزاعة؛ لأنهم انخزعوا – أي انفصلوا – عن قومهم في رحلتهم، قال شاعر أنصاري:

فلما هبطنا بطن مُرٍ تخزّعت خزاعة عنا في جموع كراكِرِ

وقال إسماعيل بن رافع:

فلما هبطنا بطن مكة أحمدت خزاعة دار الآكل المتحاملِ
نفوا جرهماً عن بطن مكة واحتبوا بعزٍّ خزاعي شديد الكواهلِ

استطاعت قبيلة خزاعة أن تنفي قبيلة جرهم اليمانية عن مكة، وأن تسيطر عليها، وتحكمها لعقود من الزمن، إلى أن آل أمر مكة إلى قصي بن كلاب.

عندما بُعث النبي -صلى الله عليه وسلم-، وبدأ نور الإسلام يسطع في جزيرة العرب، وفي صلح الحديبية بالتحديد، تحالفت قبيلة خزاعة مع النبي -عليه الصلاة والسلام-، وإن كان معظمهم لم يسلم، وانضموا له، بينما تحالفت قبيلة بكر مع قريش، ولم تمضِ مدة من صلح الحديبية حتى قامت بكر تساندها قريش بالغدر بقبيلة

خزاعة لثارات قديمة كانت بينهم، وسرعان ما أرسل الخزاعيون إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- يخبرونه بنقض الصلح والغدر، وكان رسولهم إليه عمرو بن سالم الخزاعي الذي وصل إلى المدينة المنورة، وأنشد بين يدي رسول الله قائلًا:

يا رب إني ناشدٌ محمدا حلف أبيه وأبينا الأتلدا
قد كنتمُ ولدا وكنّا والدا ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فأنصر رسول الله نصرًا أبدا وأدع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجرّدا إن سيم خسفًا وجههُ تربّدا
في فيلق كالبحر يجري مزبدا إن قريشًا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا وجعلوا لي في كِداء رصدا
وزعموا أن لستُ أدعو أحدا فهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هجّدا وقتلونا ركعا وسجّدا

فقال -عليه الصلاة والسلام-: "نُصرت يا عمرو بن سالم"، وكانت تلك الحادثة سببًا في فتح مكة.

أسلم بديل بن ورقاء الخزاعي وابنه عبدالله يوم فتح مكة – وقيل قبلها –، ولما دخلت الجيوش الإسلامية مكة، لجأت قريش إلى بيت بديل بن ورقاء الخزاعي، ودار مولاه رافع، ثم شهد بديل بن ورقاء الخزاعي رضي الله عنه غزوة حنين، وأمره النبي -عليه الصلاة والسلام- أن يحبس السبايا والأموال في منطقة الجعرانة، ففعل كما أمره.

ثم خرج بديل بن رقاء وابنه عبدالله مع رسول الله إلى تبوك، وشهدوا معه حجة الوداع، وكان بديل بن ورقاء الخزاعي راكبًا على جمل أورق، يطوف بين الحجاج في منى، ويقول لهم: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ينهاكم أن تصوموا هذه الأيام، أيام التشريق، فإنها أيام أكل وشرب.

ولما حضرت بديل بن ورقاء الخزاعي الوفاة، دفع إلى ابنه عبدالله كتابًا، وقال له: يا بني هذا كتاب رسول الله، فاستوصوا، فلن تزالوا بخير ما دام فيكم، وكان الكتاب بخط علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفيه: "من رسول الله إلى بديل بن ورقاء، وسروات بني عمرو، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإني لم أثم بالكم، ولم أضع في جنبكم، وأن أكرم أهل تهامة علي لأنتم، وأقربهم حما، ومن تبعكم من المطيبين، وإني قد أخذت لمن هاجر منكم مثل ما أخذت لنفسي، ولو هاجر بأرضه غير سكن مكة، إلا معتمرًا أو حاجًا، وإني لم أضع فيكم إذا سلمتم، وإنكم غير خائفين من قبلي، ولا محضورين".

توفي بديل بن ورقاء الخزاعي رضي الله عنه قبل وفاة النبي -عليه الصلاة والسلام-، ثم كان لابنه عبدالله بن بديل شأن عظيم في الفتوحات الإسلامية، وكان من الفرسان والقادة الأبطال، ولما أن وقعت أحداث الفتنة، ورأى عبدالله بن بديل أن عمار بن ياسر في صف علي، انحاز إليه، وكان على ميمنة جيش علي في معارك صفين المهولة، واستشهد فيها رضي الله عنه وعن أبيه.

المقداد بن عمرو الكندي

أول فارس في الإسلام

البطل المقدام، والشجاع الهمام، وأول فارس في الإسلام، فارس السبحة[1]، المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة الكندي، وقيل إنه من بهراء القضاعية الحميرية، وإنما اشتهر بالكندي؛ لأن أباه كان قد أصاب دمًا في قومه – وكان فارسًا مقدامًا –، فذهب إلى كندة، وتحالف معهم، فقيل الكندي، ثم عاد إلى مكة، واستقر بها، وكان حليفًا للأسود بن عبد يغوث القرشي.

كان المقداد بن عمرو رضي الله عنه من السابقين إلى الإسلام، وكان من أوائل الذين أظهروا الإسلام، وجهروا به، لما عرف عنه من شجاعة وجرأة وإقدام، وقد كان رضي الله عنه رجلًا ضخمًا طويلًا، وقد زوجه النبي -عليه الصلاة والسلام- من ابنة عمه ضباعة بنت الزبير بن عبدالمطلب الهاشمي القرشي.

اشتهر عن المقداد بن عمرو رضي الله عنه أنه أول من قاتل على فرس في الإسلام، وكان مقاتلًا عظيمًا، ومن الرماة المعدودين في التاريخ الإسلامي، وكان على المقداد وأمثاله من أبطال الإسلام عبء كبير في الذود عن دين الله، وعن رسوله، وقد قاموا بذلك خير قيام، وقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله -عليه الصلاة والسلام- ، وكان في المقدمة دائمًا، ومن مواقفه المشهودة مقولته الشهيرة يوم بدر: "يا رسول الله أمض لما أمرت به، فنحن معك، والله لا نقول

(١) كانت له فرس تسمى السبحة، وهي الفرس الوحيدة للمسلمين في معركة بدر.

لك، كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ (المائدة:٢٤)، ولكن أذهب أنت وربك، فقاتلا إنا هاهنا معكما مقاتلون"، وقد كانوا يحسبونه بألف رجل، كما قال عمرو بن العاص رضي الله عنه، ومع هذه الشجاعة والقوة كان المقداد بن عمرو رضي الله عنه طيب القلب، رفيع الخلق، صبورًا عند الشدائد، وكان من الصحابة المقربين من رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، وقد قال النبي أن الجنة تشتاق إلى علي، وعمار، وسلمان، وأبي ذر، والمقداد.

كان المقداد بن عمرو رضي الله عنه من الصحابة الذين مضوا بعد وفاة رسول الله، ولم يغيروا على منهاج النبوة، وما زال على ذلك حتى فارق الحياة، ولم يزل المقداد قائمًا قابضًا على قائم السيف في عهد الخلافة ينتظر متى يؤمر في سبيل الله، فيمضي.

توفي رضي الله عنه في الجدف بالقرب من المدينة المنورة، ودفن في البقيع.

أبو هريرة الدوسي

الفقيه، العابد المجتهد، والحافظ المقرئ، المجاهد الزاهد، سيد الحفّاظ، الصحابي الجليل، عبدالرحمن بن صخر الدوسي الزهراني الأزدي اليماني رضي الله عنه، وقد اشتهر بأبي هريرة لهرّة صغيرة كانت له، وترافقه في رعيه.

أسلم أبو هريرة الدوسي على يد زعيم قبيلته، وفارسها الطفيل بن عمرو الدوسي، ثم وفد مع قومه في السنة السابعة للهجرة خلال غزوة خيبر.

لم يفارق أبو هريرة النبي -عليه الصلاة والسلام- منذُ أن التقى به، وخلال مرافقته تلك حصل على علم لم يحصل عليه أحد من صحابة رسول الله، ثم روى عنه الكثير من الصحابة، وقد كان أبو هريرة رضي الله عنه فقيرًا معدمًا من أهل الصفّة.

عاش الصحابي أبو هريرة في هذه الدنيا لا يبتغي سوى رضا الله سبحانه، ومحبة عباده المسلمين، وقد أجمع أهل الحديث أن أبا هريرة رضي الله عنه أكثر الصحابة روايةً وحفظًا لحديث رسول الله، فقد روى عنه أكثر من خمسة آلاف حديث.

ذات يوم، وهو برفقة صاحب الخلق العظيم -عليه الصلاة والسلام-، قال أبو هريرة: يا رسول الله، أدع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين، ويحببهم إلينا، فقال -عليه الصلاة والسلام-: "اللهم حبب عُبيدك هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين"، قال أبو هريرة: فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني.

حزن أبو هريرة حزنًا عظيمًا لوفاة رسول الله، ثم استمر بعده في رواية الحديث النبوي. ثم ولّي أبو هريرة إمارة البحرين في خلافة الفاروق عمر رضي الله عن، ثم كان نائبًا لمروان بن الحكم على المدينة المنورة، وإذا غاب مروان، فهو واليها، وكان أبو هريرة -رضي الله عنه- يتمتع بروح المرح والدعابة، وهذا مما زاد محبة الناس له.

ذات يوم، وهو مارٌ في أحد شوارع المدينة، وهو يحمل حزمة من الحطب، قال لأحدهم: يا ابن مالك، أفسح الطريق كي يمر الأمير والحزمة التي فوق ظهره.

في آخر أيامه رضي الله عنه كان يبكي شوقًا إلى لقاء ربه، سألوه ذات يوم ما يبكيك؟ فقال: من قلّة الزاد، وشدة المفازة، وكان يقول: اللهم إني أحب لقائك، فأحب لقائي.

توفي أبو هريرة رضي الله عنه في المدينة المنورة عن عمر يناهز ٧٨ عامًا، وكانت وفاته في عام ٥٧ للهجرة، وقد دفن رضي الله عنه في مقبرة البقيع.

جرير بن عبدالله البجلي

يوسف هذه الأمة

ذات يوم بينما كان النبي -عليه الصلاة والسلام- يخطب في أصحابه، قال لهم: "سيدخل عليكم من هذا الباب – أو من هذا الفج – رجل من خير ذي يمن على وجهه مسحة ملك، وما هي إلا لحظات حتى دخل عليهم رجل من أجمل الرجال، وأتمهم خلقة"، فلما رآهم ينظرون إليه قال لهم: أوَسمّاني رسول الله؟ قالوا: نعم.

إنه الفارس والشاعر والخطيب والعالم والزعيم، جرير بن عبدالله بن جابر بن مالك بن نصر بن ثعلبة البجلي، وبجيلة من قبائل اليمن المعروفة، ويقال لهم، هم وقبيلة خثعم: بنو أنمار، وهم من بني كهلان بن سبأ.

كان جرير بن عبدالله البجلي سيدا مطاعا في قومه، وكان رضي الله عنه من أجمل الناس وجهًا، وأتمهم خلقة، حتى اشتهر بلقب يوسف هذه الأمة، كما قال ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال ابن كثير: كان جرير ذا شكل عظيم، كانت نعله طولها ذراع، وكان من أحسن الناس وجهًا، وكان مع ذلك من أغض الناس طرفًا.

رآه يومًا عبدالملك بن نمير، فقال: رأيت جريرًا كأن وجهه شِقة قمر، وقد كان طويل القامة، يصل إلى سنام البعير.

أسلم جرير بن عبدالله رضي الله عنه، ووهب حياته ومكانته نصرةً لله ثم رسوله ودينه، وكان رسول الله يحبه، ويحفظ له قدره ومكانته، قال جرير: ما حجبني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- منذُ

أسلمت، ولا رآني إلا ابتسم في وجهي، وقد قال له رسول الله: "إنك امرؤ قد حسَّن الله خَلَقَك، فحسّن خُلُقك".

بعثه النبي -عليه الصلاة والسلام- في مئة وخمسين فارسًا إلى ذي الخلصة، وهي صنم لخثعم وبجيلة، فأتاها جرير، فحرقها بالنار، وكسرها، فدعا له النبي -عليه الصلاة والسلام- ولقومه، وقد كانت قبائل بجيلة من قبل لم تجتمع على زعامة رجل واحد، لكنها اجتمعت فيما بعد على زعامة جرير بن عبدالله البجلي ورئاسته، وكان صاحب لوائهم ورايتهم فيما بعد في الفتوحات الإسلامية.

لم يكن الصحابي الجليل يوسف هذه الأمة جرير بن عبدالله البجلي ليصل إلى هذه المكانة بحسن خلقته فحسب، فهذا ليس معيارًا عند العرب، بل كان جرير رضي الله عنه يمتلك ذكاء وفطنة وفصاحة وعلم.

ذات يوم وجد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه رائحة من بعض جلسائه، فقال: عزمت على صاحب هذه الرائحة إلا قام فتوضأ، فقال جرير: علينا كلنا يا أمير المؤمنين، فاعزم[1]، فقال عمر: عليكم كلكم عزمت، ثم التفت إلى جرير، وقال: ما زلت يا جرير سيدا في الجاهلية، سيدا في الإسلام.

اشتهر جرير بن عبدالله البجلي بالفصاحة والبلاغة، قال فيه الشاعر ابن الأزور الأزدي:

لعمر أبيك والأنباءُ تنمي لقد جلا بخطبتهِ جريرُ

(١) قال ذلك جرير بفطنة وذكاء، كي لا يخرج صاحب تلك الرائحة لوحده، فطلب أن يقوم الجميع سترًا له.

وكان النبي -عليه الصلاة والسلام- قد أرسله إلى قيل حمير ذي الكلاع بن ناكور الحميري، والقيل ذي عمرو باليمن، فدعاهم إلى الإسلام، فأسلموا، كما أسلمت امرأة ذي الكلاع الحميري ضريبة بنت ابرهة الصباح الحميري.

شارك جرير بن عبدالله البجلي في الفتوحات الإسلامية، وتجلت خبرته العسكرية وشجاعته في معركة القادسية الخالدة، إذ كان على ميمنة الجيش الإسلامي، وحاملًا لواء قبائل بجيلة اليمانية العريقة.

اعتزل جرير بن عبدالله أحداث الفتنة فيما بعد، فهو التقي النقي الورع الخائف من ربه، والمحاسب لنفسه، ولم يسل سيفه على أحد من المسلمين، وقد توفي رضي الله عنه وأرضاه في قرقيسيا سنة إحدى وخمسين للهجرة.

عدي بن حاتم الطائي

الجواد بن الجواد، والكريم ابن الكرام، أحد هامات طيء اليمانية وأعلامها، أبو طريف عدي بن حاتم بن عبدالله بن سعد الطائي الكهلاني السبأي اليماني.

نشأ عدي بن حاتم في بيت كرم وسماحة، وجود وزعامة، منذُ نعومة أظفاره، كيف لا يكون كذلك، وهو ابن جواد العرب المشهور، ومضرب مثلها في ذلك، وقد ورث الزعامة والرئاسة من أبيه وأجداده، وكان من وجهاء طيء في زمانه.

كان عدي بن حاتم مع هذه الصفات والمناقب جسيمًا أعورًا أصيبت عينه في إحدى المعارك والحروب، وكان شجاعا مقدامًا، ذو خبرة في أمور الحرب والقتال، وقد وفد على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في السنة السابعة من الهجرة، وأسلم على يديه، فأكرمه رسول الله، وحفظ له مقامه، فهو أعلم بمقامات الرجال، وقد روى عدد من الأحاديث عن رسول الله، قال عدي عن نفسه: ما أقيمت صلاة منذُ أسلمت إلا وأنا على وضوء، وكان له فضل كبير في ثبات قبائل طيء على الإسلام عندما وقعت أحداث الردة بعد وفاة رسول الله.

شارك عدي بن حاتم في الفتوحات الإسلامية، وأبلى في ذلك البلاء الحسن، ذات يوم أقبل على الفاروق عمر، فقال له: أما عرفتني؟ قال عمر: أعرفك، أقمت إذ كفروا، ووفيت إذ غدروا، وأقبلت إذ أدبروا.

وفي معارك صفين كان عدي بن حاتم من قادة جيش العراق، قال معاوية: قد غمّني رجال من أصحاب علي، منهم سعيد بن قيس الهمداني، والأشتر النخعي، والمرقال، وعدي بن حاتم، وقيس بن سعد بن عبادة.

بعد الصلح في صفين، قال أيمن بن خريم مخوفًا أهل الشام إن عادوا للحرب:

أما والذي أرسى شبيرًا مكانهُ وأنزل ذا الفرقان في ليلة القدرِ
لأن عطفت خيل العراق عليكمُ ولله لا للناس عاقبة الأمرِ
تقحّمها قُدمًا عدي بن حاتمٍ وأشترَ يهدي الخيل في وضح الفجرِ

شاخ عدي بن حاتم، وطال عمره، حتى ناهز ١٢٠ عامًا تقريبًا، وبعد هذه السنين الطويلة التي قضاها من حياته ما بين مواقف الكرم والسماحة والشجاعة والجهاد في سبيل الله، توفي رضي الله عنه سنة سبعة وستين، وقيل ثمانية وستين للهجرة.

أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي

الحِب ابن الحِب

مولى رسول الله، وابن مولاه، وحبه وابن حبه، الصحابي الجليل ابن الصحابي الجليل أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العزى – وهو كعب – ابن عامر بن النعمان بن عامر الكلبي، ثم القضاعي الحميري.

كان -عليه الصلاة والسلام- يأخذ أسامة بن زيد والحسن، ويقول: "اللهم أحبّهما، فإني أحبّهما".

كان أسامة شجاعا مقدامًا، رباه أفضل الخلق صلوات ربي وسلامه عليه، على مكارم الأخلاق، وكان يحبه كثيرًا كأبيه زيد، وكان أسامة بن زيد رضي الله عنه أسودا، وورث ذلك من أمه.

كان لأسامة بن زيد رضي الله عنه وعن أبيه نفس تواقة للجهاد في سبيل الله، وعندما وقعت غزوة أحد جاء أسامة مع نفر من صبيان الصحابة يريدون المشاركة في الجهاد، فأخذ منهم النبي -عليه الصلاة والسلام- من أخذ، ورد من رد، فكان أسامة من المردودين لصغر سنه، ثم أجازه في غزوة الخندق، وهو ابن خمسة عشر سنة.

وفي معركة حنين المعروفة، تجلت شجاعة أسامة بن زيد وبطولته عندما ثبت في جمع من الصحابة رضوان الله عليهم عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعد أن انهزم المسلمون في بداية المعركة، ثم شارك في معركة مؤتة العظيمة تحت لواء أبيه القائد زيد بن حارثة الكلبي.

بعدما وقع للمسلمين في معركة مؤتة، واستشهد قادة الجيش الإسلامي الثلاثة زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبدالله بن رواحة رضي الله عنهم، أمر النبي -عليه الصلاة والسلام- قبل وفاته بتجهيز جيش كبير للإغارة على الروم، ومن معهم من حلفاؤهم العرب، وأمّر على ذلك الجيش أسامة بن زيد، وهو لم يتجاوز العشرين عامًا، فطعن الناس في ذلك، وخاضوا فيه، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: "إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وأيمُ الله إن كان لخليقًا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وأن هذا لمن أحب الناس إلي بعده"، رواه البخاري ومسلم.

وقد كان في هذا الجيش عدد من كبار الصحابة.

توقف الجيش الإسلامي عن المسير عندما اشتد المرض على النبي -عليه الصلاة والسلام-، فلما أن توفي النبي صلوات ربي وسلامه عليه كان أول ما قام به الصديق أبو بكر رضي الله عنه هو إنفاذ جيش أسامة لمهمته الكبيرة، وهي الإغارة على بلاد الروم، فنفذوا ذلك بكل نجاح، وازدادت مهابة المسلمين عند الروم، وقالوا: ما بال هؤلاء القوم يموت صاحبهم، وأغاروا على أرضنا!!.

اعتزل أسامة بن زيد رضي الله عنه وعن أبيه أحداث الفتنة بعد مقتل عثمان -رضي الله عنه- لأن أسامة قد عاهد الله عهدًا أن لا يقاتل رجلًا يقول لا إله إلا الله، وهو لم ينسَ أبدا ما قاله النبي -عليه الصلاة والسلام- في هذا الشأن، فعنه رضي الله عنه قال: "بعثنا النبي -عليه الصلاة والسلام- في سرية، فصبحنا الخرقان من جهينة،

فأدركت رجلًا قال: لا إله إلا الله، فطعنته، فوقع في نفسي، فذكرت ذلك لرسول الله، فقال: قال لا إله إلا الله وقتلته؟! قال أسامة: يا رسول الله إنما قالها خوفًا من السلاح، فقال النبي -عليه الصلاة والسلام-: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟ فما زال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذٍ" البخاري ومسلم.

كان لأسامة بن زيد رضي الله عنه الكثير من الفضائل والخصال الحميدة، كيف لا؟ وهو من مدرسة صاحب الخلق العظيم، كما وصفه الله -سبحانه- وممن تربوا على يديه، ولهذا فقد كانت له مكانة عظيمة عند النبي -صلى الله عليه وسلم-، والدليل على ذلك قول عائشة رضي الله عنها: "عندما أهم قريش شأن المرأة المخزومية التي سرقت قالوا: من يكلم فيها رسول الله؟ فقال بعضهم: ومن يجترئ على ذلك إلا أسامة بن زيد حِب رسول الله وابن حِبه".

ومن هذا القول يتضح لنا مكانة أسامة بن زيد عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ومحبته العظيمة له، ولأبيه رضي الله عنهما.

بعد أن فُتحت بلاد الشام والعراق بمدة، استقر الصحابي الجليل أسامة بن زيد لفترة في منطقة المزّة بالقرب من دمشق، ثم عاد إلى المدينة المنورة مدينة رسول الله التي أحبها وأحب أهلها، فمات أسامة في المدينة في أواخر أيام خلافة معاوية بن أبي سفيان، ودفن فيها، تاركًا للتاريخ الإسلامي سجلًا ناصعا مشرقًا، فرضي الله عن أسامة بن زيد، وعن سائر صحابة رسول الله أجمعين.

سلمة بن الأكوع الأسلمي

قال -عليه الصلاة والسلام- في غزوة ذي قرد: "خير رجالتنا – أي مُشاتنا – سلمة بن الأكوع الأسلمي"، أحد رماة العرب الموصوفين، وشجعانهم المعروفين، ومن العدائين الأشداء، الذين يسابقون الخيل عدوًا، الصحابي الجليل، والجواد الشهم النبيل، سلمة بن الأكوع – واسم الأكوع سنان – بن عبدالله بن قشير بن خزيمة بن مالك الأسلمي(١).

أسلم سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، وكان من المقربين من رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، وكان لقربه من رسول الله أكبر الأثر في تكوين شخصيته المثالية، بما غرسه فيه النبي -عليه الصلاة والسلام-، وفي الكثيرين من غيره من الصحابة، من شجاعة وفداء وتضحية ومروءة وسماحة وكرم، وما كان لمثل هذه الخصال أن تجتمع بسهولة إلا بتربية رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لأصحابه.

كان لسلمة بن الأكوع الكثير من المواقف البطولية في نصرة الإسلام ومقارعة قوى الكفر والشرك، ومن مواقفه، قال رضي الله عنه: بينما نحن قائلون، إذ نادى منادٍ أيها الناس البيعة.. البيعة، فثرنا إلى رسول الله، وهو تحت الشجرة، فبايعناه، فنزل قول الله سبحانه: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي

(١) هذا القول عليه الجمهور، ومنهم ابن الكلبي، والنويري، وأبو الحجاج، والأشعري، وابن عبدربه، أسلم بن أفصى بن حارثة بن عمرو مزيقياء – إخوة خزاعة – من قبائل الأزد اليمانية الكهلانية السبأية. القول الثاني: أسلم بن أفصى بن عامر بن قمعة بن إلياس بن مضر، وهذا القول عند ابن حزم، ويرى أنهم دخلوا في خزاعة.

قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، (الفتح: ١٨). فقال يزيد لسلمة: على أي شيء بايعتم رسول الله؟ قال سلمة: على الموت.

وعند الإمام مسلم أن سلمة بن الأكوع بايع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثلاث مرات، في أول الناس، وفي أوسطهم، وفي آخرهم.

فيما بعد قال العطاف بن خالد: أتينا سلمة بن الأكوع بالربذة، فأخرج إلينا يد ضخمة كأنها خف بعير، وقال: بايعت بيدي هذه رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، قال: فأخذنا يده، فقبلناها، قال مولاه يزيد: رأيت سلمة يصفر لحيته وسمعته يقول: بايعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على الموت، وغزوت معه سبع غزوات.

ظهرت شجاعة سلمة بن الأكوع وبسالته ومهاراته القتالية في غزوة (ذي قرد)، إذ كان أول من لحق بالمشركين، فلما أشرف عليهم صاح فيهم: واصباحاه، ثم خرج يشتد في طلبهم مثل السبع حتى لحق بهم، فأخذ يرميهم بالنبل، وكان رضي الله عنه من أمهر الرماة العرب، وكان يرتجز ويقول:

أنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضّع

فإذا ما عطفت عليه خيل المشركين، أعجزها عدوًا، ثم يعيد الكرة عليهم، ويرميهم، ويقول: خذها وأنا ابن الأكوع.

في تلك الغزوة صعد إليه أربعة من فرسان المشركين، وهو على تلّة، فصاح بهم، ألا تعرفوني؟ قالوا: لا، قال: أنا سلمة بن الأكوع، والله لا أطلب أحدا منكم إلا وأدركته، ولا يطلبني أحدكم، فيدركني،

فرجعوا عنه وهابوه، وما زال بالمشركين حتى استطاع رد العير التي أخذوها كاملة.وفي هذه الغزوة قال النبي -عليه الصلاة والسلام-: "خير فرساننا أبو قتادة[1]، وخير رجالتنا سلمة بن الأكوع".

كانت نفس سلمة بن الأكوع رضي الله عنه تعشق البداوة، تلك الحياة البسيطة التي نشأ عليها في شبابه، وكان قد استأذن رسول الله -عليه الصلاة والسلام- في العيش في البادية، وقد كان -صلى الله عليه وسلم- قد قال لأسلم – قبيلة سلمة –: "أبدوا يا أسلم، فتنسموا الرياح، وأسكنوا الشعاب"، فقالوا: إنا نخاف يا رسول الله أن يضرنا ذلك في هجرتنا، فقال: "أنتم مهاجرون حيث كنتم".

مع ما اتصف به الصحابي سلمة بن الأكوع من شجاعة وبسالة وإقدام كان من أعلم الناس، وكان ممن يفتون في المدينة المنورة هو، وابن عباس، وأبو هريرة، ورافع بن خديج من لدن وفاة عثمان بن عفان إلى أن توفوا، كما كان تقيًا ورعًا عابدًا زاهدًا، ولطالما كان يدعو له النبي -عليه الصلاة والسلام-، ويستغفر له عندما كان مرافقًا له، ويردفه وراءه.

بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، خرج سلمة بن الأكوع من المدينة المنورة إلى منطقة الربذة، وتزوج هناك، ثم عاد إلى المدينة، ولم يطل به المقام حتى توفي عن عمر ناهز السبعين عامًا.

(١) أبو قتادة الخزرجي الأنصاري رضي الله عنه.

فروة بن مسيك المرادي

قال مفتخرًا:

أحلَّ يحابر جدي غطيفًا معين الملك من بين البنينا
وملكًا براقش دون أعلا وأنعم إخوتي وبني أبينا

أحد هامات اليمن، وأذوائها وأعلامها، الفارس الشاعر، الجواد النبيل، صاحب الشرف الموصوف، والنسب المعروف، الصحابي الجليل، فروة بن مسيك بن الحارث بن سلمة الغطيفي المرادي المذحجي، ومراد أشهر من نارٍ على علم[1].

كان فروة بن مسيك قبل البعثة زعيمًا من زعماء قبيلة مراد المذحجية، وفارس من فرسانها، وكان قائدهم في معركة الرزم الشهيرة التي وقعت في نفس اليوم الذي وقعت فيه معركة بدر في السنة الثانية للهجرة، وقد وقعت هذه المعركة بين مراد من جهة، وبين الحارث بن كعب من جهة أخرى، تساندهم بطون من همدان، وقد سمي المكان الذي وقعت فيه المعركة (مجزر) لكثرة من قتل فيه – في الجوف حاليا –، وقد قتل في هذه المعركة عدد من أشراف مراد وفرسانها.

(١) مراد، من أشهر قبائل مذحج، أهل الشجاعة والإقدام، والكبرياء والأنفة، ومراد أشهر من نارٍ على علم، وتاريخهم حافل بالبطولات والأمجاد، وأينما وجدت الأحداث الجسام لا بد أن تجد مراداً، وهي مصنع من مصانع الرجال الأحرار الثوار، وإلى اليوم لا تزال هذه الصفات فيهم.

وقد قال الفارس فروة بن مسيك المرادي في هذه الواقعة أبياتًا تعد من روائع الشعر العربي، ولا زالت العرب تتمثل بها وتتداولها، ومنها:

فإن نَغلِب فغلّابون قدمًا وإن نُغلَب فغير مغلّبينا
وما أن طبّنا جبنٌ ولكن منايانا ودولة آخرينا
كذاك الدهر دولته سجالٌ تكر صروفهُ حينًا فحينا
فلو خلد الملوك إذًا خلدنا ولو بقي الكرام إذًا بقينا
فأفنى ذلكم سروات قومي كما أفنى القرون الأولينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا
إذا ما الموت رفّع عن أناسٍ بكلكلهِ أناخ بآخرينا

وكان فروة بن مسيك قبل البعثة مواليا لملوك كندة، لكن كندة أثرت عدم التدخل في الصراع الذي خاضته قبيلة مراد، ولم تنصر فروة بن مسيك المرادي، وفي تلك الفترة كانت أخبار النبي -عليه الصلاة والسلام- قد شاعت، قال فروة:

لمّا رأيت ملوك كندة أعرضت كالرجل خان الرجل عرق نسائِها
يمّمتُ راحلتي أؤم محمدا أرجو فواضلها وحسن ثنائها

بعد ذلك اتجه فروة بن مسيك المرادي على رأس وفد من قومه مراد إلى المدينة المنورة، فالتقوا بالنبي -عليه الصلاة والسلام-، وأسلموا على يديه، ذات يوم سأله النبي -عليه الصلاة والسلام-: هل ساءك ما أصاب قومك يوم الرزم؟ قال فروة: يا رسول الله من ذا

الذي يصيب قومه مثل الذي أصاب قومي ولا يسوؤه؟! فقال -عليه الصلاة والسلام-: أما أن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيرًا.

ثم ولاه النبي -صلى الله عليه وسلم- على قبائل مذحج كلها، وأمره ببناء مسجد صنعاء، وهو من أقدم المساجد في تاريخ الإسلام، وهو صاحب أول جبّانة – مصلى العيد – في اليمن، وهي جبّانة صنعاء المشهورة.

وفروة بن مسيك رضي الله عنه هو راوي الحديث المشهور عن سبأ، عندما سأل رسول الله قائلًا: يا رسول الله ما سبأ؟ أرض أم امرأة؟ فقال رسول الله: ليست بأرض ولا بامرأة، ولكنه رجل أولد عشرة من العرب، تيامن منهم ستة – أي استقروا باليمن –، وتشاءم أربعة، أي ذهبوا باتجاه الشمال أو الشام، فالذين تيامنوا هم حمير والأشعريون وكندة والأزد ومذحج وأنمار، قيل: وما أنمار؟ قال: هم خثعم وبجيلة، وأما الذين تشاءموا، فلخم وجذام وغسان وعاملة. حديث صحيح أخرجه الترمذي وأبو داؤود والطبراني وصححه الألباني.

بعد وفاة الرسول -عليه الصلاة والسلام- كان لفروة بن مسيك المرادي رضي الله عنه اليد الطولى في تثبيت قومه عندما وقعت الردة، وهو ممن نشروا الإسلام في بلاد اليمن، وبين قبائلها، فقد كان رضي الله عنه ذا كلمة مسموعة، ومكانة رفيعة، ويحظى باحترام أقيال اليمن وأذوائها وزعمائها في تلك الفترة.

توفي رضي الله عنه وأرضاه سنة ثلاثين للهجرة، وقبره في الجامع المعروف الذي بناه في مدينة صنعاء.

وائل بن حُجر الحضرمي

ما أكثر أذواء اليمن وأقيالها الذين لم ينصفهم المؤرخون، ولم تصلنا الكثير من أخبارهم، والبعض منهم لا نجد عنه إلا الأسطر القليلة في عدد قليل من المصادر التاريخية، مع أن الكثيرين منهم يستحقون أن تؤلف عنهم كتب ومجلدات.

من هؤلاء الأقيال اليمانية العظماء، القيل الحضرمي أبو هنيد، وائل بن حجر بن سعد بن مسروق بن وائل بن ضمعج بن وائل بن ربيعة بن وائل بن النعمان بن زيد بن مالك الحضرمي.

أحد أقيال حضرموت، وبقية أبناء الملوك فيها، كان كريمًا جوادًا شجاعًا مهابًا، فيه الكثير من خصال الإمارة والملك، ولا غرابة، فهو قيل من نسل ملوك وأقيال.

علم القيل وائل بن حجر الحضرمي بأخبار النبي -عليه الصلاة والسلام-، فقرر الذهاب إليه، وقد أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أصحابه بقدوم وائل بن حجر قبل أن يأتي إليهم بثلاثة أيام، وقال: "قد جاءكم وائل بن حجر".

التقى وائل بن حجر برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأسلم على يديه، ورحب به رسول الله، وأكرمه، وبسط له رداءه الطاهر تقديرًا لمقامه ومنزلته، وقال لأصحابه: "هذا وائل بن حجر سيد الأشبَّاء[1] جاءكم، لم يجئكم رهبة ولا رغبة، جاء حبًا لله ورسوله، يا بني هاشم، يا بني عبدالمطلب جاءكم هذا، وأنتم تدعون إلى

١ - جمع شَّبِيْبُ، أي الفتى الذي شب.

الإيمان، فلا تجيبون"، ثم بسط له رداءه، وأجلسه إلى جانبه، وضمّه إليه.

قال وائل بن حجر: رحب بي رسول الله، وأدنى مجلسي، وبسط لي رداءه، فأجلسني عليه، ثم دعا بالناس، فاجتمعوا إليه، ثم أطلع المنبر وأطلعني معه، وأنا من دونه، ثم حمد الله، وقال: "يا أيها الناس هذا وائل بن حجر أتاكم من بلاد بعيدة من بلاد حضرموت، طائعا غير مكره، بقية أبناء الملوك، بارك الله فيك يا وائل، وفي ولدك، وفي ولد ولدك"، ثم نزل وأنزلني معه، وأنزلني منزلًا شاسعا من المدينة، وأمر معاوية بن أبي سفيان أن ينزلني إياه، فخرجت وخرج معي.

وفي رواية أن رسول الله قال: "هذا وائل بن حجر سيد الأقيال قد جاءكم حبًا لله ولرسوله"، فلما أن خرج معاوية بن أبي سفيان – وهو شاب – يقود الناقة بوائل بن حجر الحضرمي، اشتكى معاوية إلى وائل حر الرمضاء، وقال: يا وائل أردفني وراءك، قال وائل: لست من أرداف الملوك، قال معاوية: فأعطني حذائك، قال: انتعل ظل الناقة، فشكى معاوية بعد ذلك إلى رسول الله من فعل وائل، فتبسم رسول الله، وقال: "إنه بقية أبناء الملوك"[1].

صَحِب وائل بن حجر الحضرمي النبي -عليه الصلاة والسلام- لمدة، وروى عنه عدد من الأحاديث، ومنها قول رسول الله: "الندم توبة". وعن وائل بن حجر قال إنه "صلى مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكان يكبّر إذا أخفض، وإذا رفع، ويرفع يديه عند التكبير، ويسلّم عن يمينه، وعن يساره".

(١) التقى وائل بن حجر بمعاوية وهو خليفة، فأكرمه معاوية، وأجلسه على سريره، وقال مازحًا: أسريري هذا خير أم ناقتك يا وائل؟ وتسامحوا على ذلك.

أرسل الرسول صلى الله وعليه سلم كتاباً شهيراً مع وائل بن حجر، إلى أقيال حضرموت[١]، وهو خطاب ورد في أكثر من رواية فيها بـ"الأقيال والعباهلة"، وتضمن الكتاب ألفاظاً عربية حميرية مثل "الأرواع[٢] المشابيب[٣]"، و"التيعة[٤]"، و"السيوب[٥]". ومن هذه الصيغ "مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله إلى الاقيال العباهلة من أهل حضرموت، بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، على التيعة السائمة شاة، والتيمة[٦] لصاحبها، وفي السيوب الخمس، لا خلاط، ولا وراط[٧]، ولا شناق، ولا شغار[٨]، ولا جلب، ولا جنب، وعليهم العون".

عاش وائل بن حجر الحضرمي رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم استقر في الكوفة، وعقبه هناك، ثم كان على راية قبائل حضرموت في معارك صفين من ضمن جيش علي وأهل العراق.

---

١ – الطبراني في المعجم الكبير، ج٢٢ ص٤٦، ابن عبدربه الاندلسي في العقد الفريد، ج١ ص٣٠٦-٣٠٧، الهيثمي، مجمع الزوائد والفوائد ج٣، ص٧٥.

١- الأرواع: قيل جمع رائع، حسان الوجوه.

٣ – المشابيب: قيل أي سادة الرؤوس.

٤ – التيعة: أدنى ما تجب فيه الزكاة من الحيوان.

٥ – السيوب: جمع سيب وهي الركاز أي المعادن.

٦ – اليتمة: الشاة التي تزيد على الأربعين حتى تبلغ الفريضة الأخرى.

٧ – الوراط في الصدقة: الجمع بين متفرق أو عكسه.

٨ – الزواح بالمبادلة، أي تزوج رجلاً في مقابل أن يزوجك أخرى، بغير مهر صداق للمرأة.

دحيـــة الكلبي

شبيه رسول الله، وهو مضرب مثل في حسن الهيئة، وجمال الصورة، وكمال الخلقة، الصحابي الجليل، ذو الخلق النبيل، والوجه الجميل، دحية بن خليفة بن فروة الكلبي القضاعي الحميري.

كان دحية بن خليفة الكلبي رجلًا تاجرًا معروفًا فرض بأخلاقه ونبله وعقله وشهامته احترامه على الجميع، وقد اكتسب من تنقلاته بالتجارة بين البلدان لغات عديدة كان يتقنها، ومنها اللغة الرومية، والسريانية، والآرامية، وكان قد تزوج من ابنة عبد العزى بن عبدالمطلب المعروف بأبي لهب، وهو عم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

اختلفت المصادر التاريخية في إسلام دحية الكلبي هل كان قبل غزوة بدر أم بعدها، ولأن هذا الرجل كان من أتم الرجال خلقة وأخلاقًا وجمالًا، فقد كان جبريل عليه السلام ينزل بالوحي على رسول الله في صورة دحية الكلبي.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "يأتيني جبريل في صورة دحية الكلبي"، وقد كان دحية الكلبي من أكثر الناس شبهًا برسول الله، قال عامر الشعبي: شبه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثلاثة نفر، فقال: "دحية الكلبي يشبه رسول الله، وعروة بن مسعود الثقفي يشبه عيسى بن مريم، وعبد العزى بن غصن يشبه المسيح الدجال".

بعد غزوة الخندق، وفي طريق المسلمين إلى يهود بني قريظة، مر النبي -عليه الصلاة والسلام- بجمع من أصحابه بالصورين،

فسألهم: هل مرّ بكم أحد؟ قالوا: نعم يا رسول الله، مرّ بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء على سرجها قطيفة من ديباج، فقال -عليه الصلاة والسلام-: "ذلك جبريل، بُعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم، ويقذف الرعب في قلوبهم".

وبما أن دحية الكلبي كان من أعلم الناس ببلاد الروم، وذلك لأسفاره وتنقلاته، فقد بعثه النبي إلى هرقل عظيم الروم يدعوه إلى الإسلام، وقد كان هرقل يعلم من كتبهم بظهور نبي آخر الزمان، وقد همّ بالإسلام لولا أن منعه قومه، وخاف على ملكه، فلم يسلم.

بعد وفاة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، شارك دحية الكلبي رضي الله عنه في بعض الفتوحات الإسلامية، ومنها معركة اليرموك، ثم استقر بعدها في منطقة المزة، بالقرب من دمشق، وتوفي هناك، ولا يزال قبره فيها حتى اللحظة.

فأي شرف يا دحية أن تكون شبيهًا برسول الله، وأن ينزل الروح الأمين جبريل عليه السلام على صورتك، فرضي الله عنك وأرضاك.

توفي دحية سنة ٥٠ هجرية.

قيس بن مكشوح المرادي

قالت قبائل مُضر: قيس غُدر، فقال قيس: لست غُدر، ولكني حتف مُضر.

رحى الحرب وفتاها، الفارس المغوار، والقائد العسكري الفذ، قاتل الملوك والجبابرة، أشهر من نارٍ على علم، أبو شداد قيس بن هبيرة – الملقب بالمكشوح – بن عبد يغوث المرادي المذحجي، وقيل الأحمسي البجلي، وإنما حالف مراد، وانتمى إليهم، ومراد وبجيلة كلهم فخر وشرف وحسبٌ ونسب.

كان قيس بن مكشوح المرادي من فرسان العرب المشاهير، ومن زعماء قبائل مذحج الطعان، له الكثير من الوقائع والأيام المشهورة في شبابه، وليس بغريب أن يكون من هامات العرب اليمانية، فأبوه المكشوح من فرسان اليمن، وخاله فارس العرب عمرو بن معدي كرب، وكان قيس بن مكشوح قد خاض حروبًا مع الملوك المناذرة اللخميين، وهو الذي قتل عمرو بن أمامه أخا الملك عمرو بن هند.

بُعث النبي -عليه الصلاة والسلام- في مكة، ثم هاجر إلى المدينة المنورة، فوصلت أخباره إلى أهل اليمن، فعرض فارس العرب عمرو بن معدي كرب على صديقه وابن أخته قيس بن مكشوح أن يذهبا إلى رسول الله في المدينة، ويلتقيانه ويسمعا منه، فرفض قيس بن مكشوح رأي خاله، وتجادلا في ذلك، فذهب عمرو بن معدي كرب، فأسلم قبل قيس.

كان قيس بن مكشوح المرادي ثائرًا حرًا، وكان من أشد المعارضين للوجود الفارسي في اليمن، فاليمن وحكمه وخيراته لأهله الصرحاء، كما يرى قيس، وقد حارب الفرس بشدة، وثار ضدهم، وقام بترحيل

الكثير من الأبناء الفرس إلى بلادهم، وقيل بأنه هو من قتل ذادويه، وهرب الفارسي فيروز من قيس بن مكشوح.

وقد ذكر الطبري أن عددا من الأبناء الفرس الذين كانوا في اليمن، شاركوا قومهم في معركة البويب ضد المسلمين، ومنهم مهران بن باذان الفارسي، الذي قتل على يد جرير بن عبدالله البجلي.

أسلم قيس بن مكشوح المرادي في أيام الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد ذهب قيس على رأس أبطال قومه للمشاركة في الفتوحات الإسلامية، فلما قدموا المدينة جعل يرتجز:

أنتك كتائب منا سراعا ذوو التيجان أعتى من مرادِ
فقدمنا أمامك كي ترانا نبيد القوم بالسيف النجادِ

أُرسل قيس بن مكشوح المرادي على رأس سبعمائة فارس مددا لأبي عبيدة بن الجراح، وكتب الخليفة قائلًا: قد أرسلت لك رجلًا عظيم الشرف من فرسان العرب، ليس للمسلمين غناء عن رأيه ومشورته وبأسه في الحرب، فأدنه وقرّبه منك، وقد علم الخليفة فيما بعد أن قيس بن مكشوح بارز عظيمين من عظماء الروم، وقتلهم، وذلك في معركة اليرموك، فقال الخليفة: صدق قيس ووفى، وكان قيس قد فقد إحدى عينيه في هذه المعركة.

وفي ملحمة القادسية كان الفارس اليماني قيس بن مكشوح المرادي قائدا لميسرة الجيش الإسلامي، وعلى الميمنة بطل يماني آخر هو جرير بن عبدالله البجلي، وقد أبدع قيس كعادته في فن الحرب والقتال في هذه المعركة، إذ قيل بأنه هو من قتل قائد الجيش الفارسي رستم، قال مفتخرًا:

جلبت الخيل من صنعاء تردى بكل مدجج كالليث سامي
فناهضنا هنالك جمع كسرى وأبناء المرازبة الكرامِ
فلما أن رأيت الخيل جالت قصدت لموقف الملك الهمامِ
فأضرب رأسهُ فهوى صريعا بسيفٍ لا أفلَّ ولا كهامِ
وقد أبلى الإله هناك خيرًا وفعل الخير عند الله نامي

قتل عثمان رضي الله عنه، فنشبت الفتنة بين المسلمين، ثم وقع ما وقع بين علي ومعاوية، وتقاتل أهل الشام وأهل العراق في معارك صفين المشؤومة، التي راح ضحيتها الآلاف من خيرة المسلمين حينها، وكان قيس بن مكشوح المرادي ممن شاركوا في تلك الحرب في جيش أهل العراق.

وفي يوم من أيام تلك المعارك المهولة، قالت قبيلة بجيلة لقيس بن مكشوح المرادي: يا أبا شداد، خذ رايتنا اليوم، فقال: غيري خير لكم، قالوا: ما نريد غيرك، فقال: فوالله لأن أعطيتموني إياها لا أنتهي بكم دون صاحب الترس المذهب، وكان على رأس معاوية رجل يحمل ترسًا يستر به معاوية من الشمس، فدفعوا لقيس الراية – وكان قد شاخ وكبر حينها –، ثم زحف وحمل حملة منكرة، فاقتتل الناس أشد قتال، فحمل قيس على صاحب الترس المذهب، فاعترض طريقه رومي لمعاوية، فضرب قدم قيس فقطعها، فشد عليه قيس فقتله، ثم كثرت الجراح فيه ونزف دمه، فمات منها رضي الله عنه وأرضاه تحت صليل السيوف وقعقعة الرماح، تلك الساحات التي طالما أدار رحاها، وأبدع فيها، فرحم الله الفارس القيل قيس بن مكشوح المرادي.

عمرو بن معدي كرب الزبيدي

فارس العرب

والقادسية حيث زاحم رستمٌ كأنّا الحُماة نهزُّ كالأشطانِ
الضاربين بكل أبيض مخذمٍ والطاعنين مجامع الأضغانِ

فارس اليمن خاصة، والعرب عامة، صاحب الصمصامة، مضرب المثل عند العرب في الشجاعة والإقدام، في الجاهلية والإسلام، الفارس المعروف، والشاعر الموصوف، أبو ثور عمرو بن معدي كرب بن عبدالله بن عمرو بن عصم بن عمرو بن عمرو الزبيدي المذحجي[1]، قالت العرب ضاربة المثل: "فارس ولا كعمرو".

كان في شبابه مدمنًا على الأكل والشرب واللهو، وكانوا يسمونه مائق زُبيد، وكان أبوه معدي كرب فارس زبيد وسيدها، وفي أحد الأيام جاءتهم إحدى قبائل العرب غازية لبلادهم، فجاء عمرو إلى أخته وقال لها: أشبعيني إن غدا الكتيبة، فسألته ما يشبعه؟ قال: فرق من ذرة وعنز رباعية!! وفي الصباح وقعت المعركة، فنظر عمرو إلى لواء أبيه فرآه قد زال: فذهب إلى أبيه، وقال له: أنزل عن فرسك واعطني إياه، ففعل، فحمل عمرو على الأعداء حملات منكرة،

(١) زُبيد: قبيلة عظيمة من بني سعد العشيرة، ثم من مذحج الطعان، أهل بأس ونخوة وكرم ومروءة، لهم وقائع وأيام مشهورة في الجاهلية والإسلام، كانت لهم مهابة عند أعدائهم في الجاهلية، ثم شاركوا في الفتوحات الإسلامية، واستوطنت بطون كبرى منهم في بلاد الشام والعراق، ولهم بقية عظيمة في أراضي المملكة العربية السعودية حاليًا، وفي بلاد اليمن الميمون.

فجعل يخترق صفوفهم، فعادت زبيد للحرب لما رأوا بأسه وأفعاله فانتصروا، فأسموه من ذلك اليوم فارس زُبيد.

تغيرت حياة الشاب عمرو بن معدي كرب بعد وفاة والده، وقد ذاع صيته وانتشر ذكره، وقد كانت قبائل العرب تسمي فرسانها، فيقال في كل قبيلة فارس بني فلان إلا عمرو بن معدي كرب، فقد أجمعت العرب على تسميته بفارس العرب كلها، ولم يسمى أو يلقب غيره بهذا اللقب أبدا، وقد كان ولا يزال عبر التاريخ العربي مضرب مثل في الإقدام والشجاعة، قال الشاعر أبو تمام:

إقدام عمرو في سماحة حاتمٍ في حلم أحنف في ذكاء إياس

في تلك الحقبة من التاريخ العربي الجاهلي قبل بعثة النبي -عليه الصلاة والسلام-، عاش الفارس عمرو بن معدي كرب الزبيدي المذحجي فترة مليئة بالحروب والصراعات بين القبائل العربية، فخاض غمارها وخلّدها في أشعاره، وكان مظفرًا مهابًا، كما كان كريمًا شهمًا يعفو عند المقدرة.

علم فارس العرب عمرو بن معدي كرب بظهور النبي -عليه الصلاة والسلام- في مكة، ومن ثم هجرته إلى المدينة، واستقراره فيها، فعرض على ابن أخته وصديقه الفارس المشهور قيس بن مكشوح المرادي أن يذهب معه ليلقيا النبي -صلى الله عليه وسلم- ، فرفض قيس ذلك، فذهب عمرو بن معدي كرب في نفر من قومه زُبيد، فالتقوا النبي -عليه الصلاة والسلام- في المدينة، وأعلنوا إسلامهم على يديه، وعادوا إلى ديارهم.

بعد وفاة النبي -عليه الصلاة والسلام- قيل بأن عمرو بن معدي كرب ارتد عن الإسلام، ولكن هناك خلاف كبير في مفهوم الردة،

هل كانت ردة عن الدين الإسلامي، ونكران بما جاء به النبي -عليه الصلاة والسلام-؟ أم أنها كانت امتناع عن دفع الزكاة، بحيث يرون أن فقراءهم أحق بها من غيرهم؟

كان فارس العرب عمرو بن معدي كرب صديقًا مقربًا من الفاروق عمر بن الخطاب، كما كان له شبهٌ به، وللاثنين أحاديث رائعة عن أخبار العرب وأيامهم ومآثرهم.

ذات يوم وهم في مجلس إخوة ومحبة، أخذ الفاروق عمر بن الخطاب الصمصامة سيف أبي ثور عمرو بن معدي كرب، فاستلها وضرب بها في جذع شجرة سميكة، فلم يؤثر كثيرًا، فالتفت إلى فارس العرب وقال مازحًا: أهذه الصمصامة يا أبا ثور؟ فضحك أبو ثور وقال: يا أمير المؤمنين، قد أعطيتك السيف، ولم أعطك الساعد، وكان عمرو بن الخطاب دائمًا عندما يراه يقول له: سبحان الذي خلقنا وخلقك يا عمرو!! تعجبًا من هول خلقته، وضخامة جثته، فقد كان رضي الله عنه وعن صديقه من عمالقة العرب المعروفين، قال أحد الشعراء يصفه:

كأن ذراعيه ذراعا شِمِلّةٍ وإصبعه الوسطى تزيد على شبرِ

وعندما انطلقت جيوش الفتح الإسلامي مكتسحة إمبراطوريتي فارس والروم، وتنشر دين الله في الأرض، احتاج المسلمون إلى صناديدهم أمثال عمرو، فأرسل الخليفة عمر بن الخطاب في طلب صديقه وصاحبه، فما إن وصل إليه حتى أرسله هو وطليحة الأسدي، وقيل الأشتر النخعي مددا إلى أبي عبيدة بن الجراح للمشاركة في معركة اليرموك، وكتب الفاروق كتابه الشهير قائلًا: "قد أرسلت لك

برجلين هم بألفين"، وقد أوصى الفاروق قادة الجيوش الإسلامية قائلًا: واستشيروا عَمْرًا في المعارك، فإن كل صانع أعلم بصنعته[1].

شارك في معركة اليرموك، وفي القادسية، تلك الملحمة التي أنهت الإمبراطورية الفارسية وإلى الأبد، تجلت شجاعة فارس العرب، وأظهر للجميع بأنه أهلٌ لهذا اللقب، مع أن عمره حينها قد تجاوز المائة وعشرة أعوام، فقد كان شيخًا كبيرًا، قال نيار بن مكرم الأسلمي: اشتد القتال في أحد أيام القادسية، ورأينا فارسًا يهد صفوف الفرس هدا، فقلنا من ذاك جزاه الله خيرًا؟! قالوا: ذاك فارس العرب عمرو بن معدي كرب، وقد كان للفرس فارسًا عظيمًا ورواميا بارعا، فرأى عمرو بن معدي كرب يتقدم صفوف المسلمين، ويحثهم على القتال، فعلم مكانته فيهم، فرماه بسهم أصابت كتفه، ولم تخترق الدرع، فحمل عليه عمرو حملة منكرة، فاحتمله من على ظهر فرسه، فخبط به الأرض، ثم قتله، وأقبل يجر فرسه باتجاه المسلمين، وقال لهم: هكذا افعلوا معشر المهاجرين، ثم عاد وحمل حملة منكرة على الفرس، وأخذ يرتجز ويقول:

أنا أبو ثور وسيفي ذو النون
أضربهم ضرب غلام مجنون
يآل زُبيد إنهم يموتون

(١) سأله الفاروق ذات يوم عن الحرب، فقال: مرّة المذاق، إذا قلصت عن ساق، من صبر فيها عُرِف، ومن ضعف عنها تلف، ثم أنشد:

الحرب أول مـا تكون فتيةً تسعى بزينتها لكل جهولِ
حتى إذا استعرت وشب ظرامها عادت عجوزًا غير ذات حليلِ
شمطاء جزّت رأسها وتنكرت مكروهة للشم والتقبيلِ

فأصيبت فرس عمرو، فأخذ برجل فرس مقاتل من الفرس فأمسكها، وأن الفارس ليضرب فرسه كي تتحرك وتفلت، فما استطاعت أن تفلت من يد عمرو، فضرب الفارسي وأخذ فرسه، وهو الذي حمل على فيل رستم العظيم وعقره، بعد أن احجمت عنه الخيل في ذلك اليوم المهول، قال مفتخرًا:

قد علمت سلمى وجاراتها ما قطّر الفارس إلا أنا
شككتُ بالرمح حياز يمهُ والخيل تعدو زيمًا بيننا

ثم عبرت القوات الإسلامية نهر القادسية، وفي مقدمتهم أبطال اليمانية، ومنهم فارس العرب، والأشتر النخعي، وقيس بن مكشوح المرادي.

ثم شارك بعد معركة القادسية في عدد من معارك الفتح الإسلامي، ومنها معركة جلولاء، ثم معركة نهاوند الشهيرة.

لم يكن يضاهي شجاعة فارس العرب وفروسيته وبأسه وإقدامه، إلا شعره، فقد كان من فحول الشعراء العرب، غلب على شعره الفخر والحماسة والاعتزاز بالنفس، ووصف الحرب والسلاح، كما كان لا يخلو من الحكم والنصائح والغزل كذلك، ولا يزال عشاق الشعر والأدب العربي يتناقلون أشعاره حتى اليوم، ويزينون بها كتبهم ومقالاتهم، ولعل من أكثر قصائده التي تناقلها أهل الشعر والأدب قصيدته الرائعة "ليس الجمال بمئزر"، والتي تعد من روائع الشعر العربي.

يا أيـهـــــا المغتابَنا جهلًا بنا وولدت عبدا
ليس الجمال بمئزرٍ فأعلم وإن رديت بُردا
إن الجمال معادنٌ ومناقب أورثن حمدا

أعددت للحدثان سا بغةً وعداء علندا
نهدا وذي شطب يقد البيض والأبدان قدا
وعلمت أني اليوم ذاك منازلًا كعبًا ونهدا
قوم إذا لبسوا الحديد تنمّروا حلقًا وقدا
كل امرئٍ يجري إلى يوم الهياج بما استعدا
لمّا رأيت نساءنا يفحصن بالمعزاء شدا
وبدت لميس كأنها بدر السماء إذا تبدا
وبدت محاسنها التي تخفي وكان الأمر جدا
نازلت كبشهمُ ولم أرى من نزال الكبش بدا
هم ينذرون دمي وأنـ ـذر إن لقيت بأن أشدا
كم من أخٍ لي صالحٍ بوّأته بيدي لحدا
ما إن جزعت ولا هلعت ولا يرد بكاي زندا
ألبسته أثوابه وخُلِقت يوم خلقت جلدا
أغني غناء الذاهبين أُعد للأعداء عدا
ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فردا

ولطالما افتخر فارس العرب عمرو بن معدي كرب بيمانيته وانتمائه القحطاني وبتاريخ قومه أهل اليمن وأفعالهم ومآثرهم، وهذه الأبيات من قصيدة طويلة رائعة، منها:

إني من القوم الذين جيادهم طلعت على كسرى بريح صرصرِ
فأثرن نقعا ما انثنت أثناؤه حتى ثنّت فوق هامة قيصرِ
آبائي من كهلان أرباب العلا وبنو الملوك عمومتي من حميرِ
قدنا من اليمن الجياد فما انثنت حتى حَوَت بالصين مهجة يعبرِ
لولا صوارم يعرب ورماحها لم تسمع الآذان صوت مكبّرِ
سائل بفيف الريح عنا عامرٍ هل بات ذو سهرٍ لطعنة مُسهرِ[1]

وقال مفتخرًا بقومه قبائل مذحج الطعان، وهذه الأبيات من قصيدة طويلة:

وأود ناصري وبني زبيد ومن بالخيف من حكم بن سعدِ
لعمرك لو تجرد من مراد عرانينٌ على دهمٍ وجُردِ
ومن عنسٍ مغامرة طحون مدرّبة ومن عله بن جلدِ
ومن سعدٍ كتائب معلمات على ما كان من قربٍ وبُعدِ
ومن جُنبٍ مجنبةٍ ضروبٌ لهام القوم بالأبطال تردي
وتُجمع مذحجٍ فيرأسوني لأبرأت المناهل من معدِ[2]
بكل مجرب فيٍّ البأس منهم أخي ثقةٍ من القصمين نجدِ
أولئك معشري وهمُ جبالي وحزني فيٍّ كريهتهم وحدي
فما جمع ليغلب جمع قومي مكاثرة ولا فرد لفردِ

(١) فيف الريح: هو يوم من أيام العرب في الجاهلية تقاتلت فيه قبائل بني عامر بن صعصعة ومن معهم من هوازن، وقبائل الحارث بن كعب جمرة العرب ومن معهم من قبائل خثعم ونهد وشهران وزبيد اليمانية، وعامر هو عامر بن الطفيل العامري فارس بني عامر، ومسهر هو ابن يزيد أخو الحارث بن كعب المذحجيين، حيث طعن مسهر بن يزيد في ذلك اليوم عامر بن الطفيل ففقأ عينه، وذكر ذلك عمرو في قصيدته.

(٢) يريد بذلك معدّ بن عدنان، وهم قبائل عظيمة تلتقي في هذا النسب.

وهو صاحب البيتين الشهيرين التي تناقلتها العرب عبر تاريخها وإلى اليوم:

لقد أسمعت لو ناديت حيًّا ولكن لا حياة لمن تنادي
ونارًا لو نفخت بها أضاءت ولكن ضاع نفخك في الرماد

ومن جيد قوله في السماحة والعفو عن قومه مهما كانت عداوتهم له:

يبرون عظمي وهمي جبر أعظمهم شتّان ما بيننا في كلما سببِ
أهوى بقاءهم جهدي وأكثر ما يهوون أن أغتدي في حفرة الترِبِ

ويرى بعض العرب أن أقوى ما قيل في الشجاعة والإقدام هو قول عمرو:

فلما رأيت الخيل زورًا كأنها جداول زرع أرسلت فاسبطرّتِ
فجاشت إلي النفس أول مرّة ورُدت على مكروهها فاستقرّتِ

وهو صاحب البيت الشعري الشهير:

وليس يعاب المرء من جبن يومهِ إذا عرِفَت منه الشجاعة بالأمسِ

ولفارس العرب عمرو بن معدي كرب الكثير من الأشعار والنقائض مع عدد من شعراء وفرسان العرب المشاهير، يتفاخرون

فيما بينهم، ومن هؤلاء العباس بن مرداس السلمي، وعامر بن الطفيل العامري[1].

ومع أن شعر عمرو بن معدي كرب قد غلب عليه طابع الفخر والحماسة ووصف الحرب، إلا أن له إحساس مرهف وقصائد غزلية رائعة الألفاظ وجميلة المعاني، وهذه الأبيات من قصيدة له:

هاج لك الشوق من ريحانة الطربا ... إذ فارقتك وأمست دارها غُرُبا
مازلت أحبس يوم البين راحلتي ... حتى استمروا وأذرت دمعها سَرَبا
حتى ترفّع بالحزّان يركضها ... مثل المهاة مَرَته الريح فاضطربا
والغانيات يقتّلن الرجال إذا ... ضرّجن بالزعفران الرّيط والنُقُبا
من كل آنسةٍ لم يغذها عدمٌ ... ولا تشد لشيءٍ صوتها صخبا
إن الغواني قد أهلكنني وأرى ... حبالَهُنَّ صفيفات القوى كُذُبا

كان فارس العرب عمرو بن معدي كرب الزبيدي رضي الله عنه جريئًا صريحًا لا يسكت عن الضيم والظلم إن رآه أو أحس به، سواءً أوقع الظلم عليه خاصة أو وقع على اليمانية عموماً، حتى بعد إسلامه، وقد تجلى ذلك بوضوح في موقفه بعد معركة القادسية، عندما حُرِموا الزيادة من غنائم المعركة بحجة أنهم لم يكونوا يحفظوا الكثير من كتاب الله – القرآن الكريم – فاغتاظ لذلك هو

(١) قال فيه العباس بن مرداس السلمي:
إذا مات عمرو قلت للخيل أوطئوا ... زُبيدًا فقد أودى بنجدتها عمرو
فأما وعمـــرو في زبيدٍ فلا أرى ... لكم غزوهم فارضوا بما حكم الدهرُ

وفارس يماني آخر هو بشر بن أبي ربيعة الخثعمي، واحتجوا بأن الجهاد في سبيل الله قد شغلهم عن حفظ القرآن الكريم.

وقد قال عمرو بن معدي كرب في هذا الموقف:

إذا قُتِلنا فلا يبكي لنا أحد قالت قريش ألا تلك المقاديرُ
نُعطى السوية من طعنٍ له نفذٌ ولا سوية إذ تعطى الدنانيرُ(١)

وقد حصل بينه وبين أمير الجيش الإسلامي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه شيء من تهديد ووعيد، فقال عمرو في ذلك:

كانت قريش تحمل الخمر مرّةً تجارًا فأضحت تحمل السم مُنقِعا
أيوعدني سعد وفي الكف صارمٌ سيمنع مني أن أذِلَّ وأخضعا
فوالله لولا الله لا شيء غيرهُ لجللته الصمصام أو يتقطّعا

فعلم بذلك الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأمر بإنصاف عمرو بن معدي كرب، ومن معه ممن لم يأخذوا الزيادة من الغنائم(٢).

---

(١) أقول بأن هذه الأبيات تعبر عن حال العرب اليمانية حتى اليوم.

(٢) قال بشر بن أبي ربيعة الخثعمي اليماني في هذه الحادثة:

تذكّر هداك الله وقع سيوفنا بباب قديسٍ والمُكرّ عسيرُ
عشية ود القوم لو أن بعضهم يُعار جناحي طائرٍ فيطيرُ
إذا ما فرغنا من قراع كتيبةٍ دَلَفنا لأخرى كالجبال تسيرُ
ترى القوم فيها واجمين كأنهم جمالٌ بأحمالٍ لهنّ زفيرُ

كان لفارس العرب عمرو بن معدي كرب الزبيدي المذحجي سيف عظيم يسمى الصمصامة[1]، وهو من أشهر السيوف العربية، بل ربما أشهرها على الإطلاق، اشتهر كشهرة صاحبه، وتناقلت أوصافه الركبان، وتغنت بذكره الشعراء، ولم يبلغ سيف من سيوف العرب ما بلغته الصمصامة من ذكر وشهرة، وما مرّ عليها من أحداث ووقائع وما دار حولها من حكايات وروايات، ولكن الأكيد أنها لم تكن لتشتهر هكذا لو لم تكن مع فارس العرب.

وقد ذكر بعض الرواة والإخباريين أنها من السيوف اليرعشية الحميرية القديمة، وقد صُنعت من حديد جبل نقم في صنعاء، وقالوا بأن القيل الحميري علقمة بن ذي قيفان أهداها لعمرو بن معدي كرب، وفي ذلك يقول عمرو:

وسيفٌ لابن ذي قيفان عندي تخيره الفتى من عهد عاد
يقد البيض والأبدان قدا وفي الهام المُلمع ذو احتداد

ويقال إن وزنه يزيد عن ستة أرطال، ولهُ حد واحد فقط، قال شاعر متأخر يصفه:

أخضر المتن بين حديه نورٌ من فرند تمتد فيه العيونُ

قال ابن عباس رضي الله عنه: أنتم معشر اليمانيين لكم من الكعبة ركنها، ومن السماء نجمها، ومن السيوف صمصامها.

(١) لا يزال البعض في بلادنا اليمن وإلى اليوم يقولون للرجل القوي الشجاع والشهم هذا رجل صمصوم، وربما لهذا علاقة باسم الصمصامة، والله أعلم.

ولطالما تغنى صاحب الصمصامة بسيفه المهيب، وخلد ذكره في أشعاره وملاحمه، ومما قال فيه:

وصـمـصامٌ بكفّي لا يذوق الماء من يرِده

وقال عندما قتل مهران الفارسي:

شددت على مهران لمّا لقيتهُ بكفي صمصام العقيقة مخذمُ
فغادرتهُ يكبوا لحر جبينهِ عليه نسورٌ واقفاتٌ وحوَّمُ

وقد روي أن فارس العرب في آخر أيامه قد وهب هذا السيف العظيم لخالد بن سعيد بن العاص، ويؤكد ذلك قوله:

وهبتُ لخالدا سيفي ثوابًا على امصمصامة امسيف امسلامُ
خليلي لم أهبهُ من قلاةٍ ولكن امتواهب في امكرامُ(١)

تناقل بنو أمية السيف وتوارثوه ثم وصل إلى خلفاء بني العباس، وقيل بأن أحد خلفاء العباسيين وضع الصمصامة في مجلسه، وقال: من يعطي هذا السيف حقه من الشعراء، أهبها إياه، فتوافد الكثير من الشعراء لمدحها فما أعطوها حقها إلى أن جاء شاعرٌ حميري يماني، فقال فيها:

سيف عمرو كان فيما سمعنا خير ما أطبقت عليه الجفونُ
أُوقِدت فوقه الصواعق نارًا ثم شابت به الزعاف المنونُ

(١) إبدال اللام بالميم لهجة مشهورة من لهجات أهل اليمن. وهي لفظة حميرية معروفة تستعمل "أم" بدلاً من "ال" التعريف، وتسمى طمطانية حمير.

فأعطاه إياها، وفي رواية أخرى أن أحد خلفاء بني العباس أهداها لغلام تركي له يدعى فاغرا، فقتله الغلام فيما بعد بها، ثم انقطع ذكرها من حينه.وقد كان منحوت في نصل الصمصامة كما قيل:

ذكرٌ على ذكرٍ يجول بصارمٍ ذكرٌ يماني في يمين يماني

اختلفت الروايات في موت فارس العرب عمرو بن معدي كرب الزبيدي إلا أن أشهرها أنه مات متأثرًا بجراحه من معركة نهاوند[1]، وكان قد شاخ وكبر وتجاوز عمره المائة وخمسة عشر عامًا، وقبره في منطقة روذة بالشام، وتسمى اليوم المنطقة التي فيها قبره – بابا عمرو – في سوريا، والله أعلم.

قالت امرأته الجعفية المذحجية ترثيه، وحق لها أن ترثي أبا ثور:

لقد غادر الركب الذين تحمّلوا بروذة شخصًا لا ضعيفًا ولا غمرا
فقل لزُبيد بل لمذحج كلها فقدتم أبا ثور سنانكمُ عمرا
فإن تجزعوا لا يغنِ ذلك عنكمُ ولكن سلوا الرحمن يعقبكم صبرا

مات فارس العرب، وما مات ذكره، وسيبقى خالدا في ذاكرة التاريخ اليماني والعربي والإسلامي ما بقي التاريخ، وسيظهر من أصلاب اليمانية من هم من أمثال عمرو، رافعين رايات المجد والبطولة والفداء للأمة اليمانية العظيمة والعربية والإسلامية جمعاء.

(١) قال بعد هذه المعركة، وذلك قبل أن يموت:

ألا هل أتاها من نهاوند أنني أمارس أبطالًا لها وفيولا
أمارس فيلًا بعد فيلٍ وأنني أكافح فرسانًا لها وخيولا

الأشعث بن قيس الكندي

ملك كندة

قال فيه الشاعر:

إن للأشعث صولاتٌ إذا لقي الأبطال يمضي قُدما
حظهُ في الحرب بيضٌ رَهفٌ ورماح الخط تحكي الأنجما

آخر ملوك كندة العريقة، وفارسها وفتاها، الهامة اليمانية، ذائع الذكر والصيت، معدي كرب بن قيس بن معدي كرب الكندي، من بني معاوية الأكرمين، بيت الشرف والزعامة في كندة اليمانية الكريمة، وإنما اشتهر بالأشعث لشعثة في رأسه، فغلب عليه هذا اللقب.

ولد في شبوة، كما يرى معظم المؤرخين، حوالي عام ٥٩٩م، أي الموافق ٢٣ قبل الهجرة، وشب في بيت ملك عريق، نشأ شريفًا مطاعا جوادا شجاعا، كما كان فارسًا صعب المراس، وكان موصوفًا بالهيبة، آلت إليه أمور الزعامة والملك في كندة، وهو لا يزال شابًا، وهو صاحب مرباع حضرموت، وكانت كندة حينها في دهرها الثاني، ولم تكن رقعة ملكها كما كانت في عهد ملوكها الأوائل، ومنهم آكل المرار الكندي.

علم زعيم كندة بظهور الإسلام، وتمكين دولته الفتية في المدينة المنورة، فعزم أن يلتقي برسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

وفدت كندة إلى المدينة المنورة في وفد لم تشهد له المدينة مثيلًا من قبل، ٨٠ راكبًا من أبناء الملوك والأقيال، وكان وفدهم بهذه

الضخامة، وهذه الكثافة لإثبات عزتهم ومنعتهم ومكانتهم عند العرب، وهو وفد يتناسب مع مقام كندة اليمانية وعظمتها، وقد خطفوا أبصار الناس، وكانوا مكتحلين، وعليهم الحرير.

أسلم الأشعث بن قيس وقومه على يدي رسول الله، فقاموا واغتسلوا وغيروا ملابسهم، وسر رسول الله لاستجابتهم وتصرفهم ودخولهم الإسلام، ودار بينه وبين زعيم كندة أحاديث، فأخذ رسول الله يعلمه المساواة والتواضع، وقد كان الأشعث أول راكب في الإسلام، مشت الرجال بالأعمدة من بين يديه ومن خلفه.

بعد وفاة النبي -عليه الصلاة والسلام- امتنعت كندة عن إرسال الزكاة إلى المدينة، فهم يرون أن فقراءهم أحق بزكاة أموالهم -وهو ما عرف عند معظم المؤرخين بأحداث الردة-، فأرسل إليهم الخليفة أبو بكر الصديق جيشًا، ووقعت بعض المناوشات، وليس صحيحًا أن كندة أبيدت كما ذكر ابن إسحاق، ولم يبقَ منها إلا تسعة نفر، فكندة بعد مدة يسيرة كانت في أربعة آلاف مقاتل في قلب الجيش الإسلامي في معركة القادسية.

قال فارس العرب عمرو بن معدي كرب:

والأشعث الكندي حين سما لنا ... من حضرموت مجنّب الذكران
قاد الخيول على وجاها شزَّبًا ... قبُّ البطون نواحل الأبدانِ
لمّا رأى الجمع المُصبّح خيلهُ ... مبثوثةً ككواسر العقبانِ
فَدعا وسوّمها وأيقن أنهُ ... لا شك يوم تسايفٍ وطعانِ
فقذفنهُنَّ على كهولٍ سادةٍ ... وعلى شرامحةٍ من الشبّانِ
فأُصيب في تسعين من أشرافهم ... أسرىً مصفدةً إلى الأذقانِ

فشتى وصاف رئيس كندة بيننا في غير منقصةٍ وغير هوانِ

عاد الأشعث بعد ذلك إلى المدينة المنورة، واعتذر من الخليفة أبي بكر الصديق، وقام الخليفة بتزويجه من أخته أم فروة بنت أبي قحافة، وهي أم الأمير محمد بن الأشعث بن قيس، ولما خرج الأشعث من عند أبي بكر بعد أن كلمه بزواج أخته، سل الأشعث سيفه، فلم يبق في السوق ذات أربع من بعير وفرس وشاة إلا عقرها، فقيل لأبي بكر إنه أرتد، قال: انظروا أين هو، فإذا هو في غرفة من غرف الأنصار والناس مجتمعون إليه، وهو يقول: هذه وليمتي، ولو كنت ببلادي لأولمت مثل ما يولم مثلي، فيأخذ كل واحد مما وجد، وأغدوا تجدوا الأثمان، فلم يبق دار من دور المدينة إلا ودخلها اللحم، فكان ذلك اليوم قد شبه بيوم الأضحى.

شارك الأشعث بن قيس الكندي فيما بعد في الفتوحات الإسلامية، وكان على رأس كندة، فشهد فتح أصفهان والمدائن وجلولاء ونهاوند، وفي القادسية كان على رأس كندة في أربعة آلاف مقاتل في قلب الجيش الإسلامي، وقد كانت لكندة في الجاهلية عادة إذا حمي الوطيس في الحرب نزعوا دروعهم وحملوا حاسرين، وقد فعلوا ذلك يوم أرماث في القادسية التي قصمت ظهر الإمبراطورية الفارسية وأنهتها من الوجود.

استقر الأشعث بن قيس الكندي في الكوفة، واختط لكندة دارًا وناحية كبيرة من نواحيها، ثم شهد صفين فيما بعد، ومع أنه في جيش العراق إلا أن له مواقف حازمة في إنهاء ذلك الصراع، وتلك الفتنة العظيمة.

قال أبو الصلت سليم الحضرمي: شهدنا صفين، فإنا لعلى صفوفنا، وقد حلنا بين أهل العراق وبين الماء، فخرج إلينا فارس مقنع بالحديد، فلما وصل إلينا قال: أين معاوية؟ قلنا هو ذا، فأقبل حتى وقف فحسر رأسه، فإذا هو الأشعث بن قيس الكندي، فقال: الله الله يا معاوية في أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، هبوا أنكم قتلتم أهل العراق، فمن للبعوث والذراري؟ أم هبوا أننا قتلنا أهل الشام، فمن للبعوث والذراري، الله الله، فإن الله يقول: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات:٩).

قال معاوية: فما الذي تريد يا أشعث؟ قال: أن تخلوا بيننا وبين الماء، فوالله لتخلن بيننا وبين الماء، أو لنضعن أسيافنا على عواتقنا، ثم نمضي حتى نرد الماء أو نموت دونه، قال معاوية لأبي الأعور: خلوا بين إخواننا وبين الماء، فلم يلبثوا بعد ذلك قليلًا حتى كان الصلح.

روى الأشعث بن قيس الكندي رضي الله عنه أحاديث يسيرة عن رسول الله وعن عمر بن الخطاب، وكان ممن يحذر من الفتن بين المسلمين، ومن الأحاديث التي رواها عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قوله: "لا يشكر الله من لا يشكر الناس" رواه أحمد في مسنده.

توفي الأشعث بن قيس الكندي رضي الله عنه سنة ٤٠ للهجرة بعد مقتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه بأربعين ليلة، وكانت

إحدى بناته تحت الحسن بن علي، فأمر الحسن أن يغسلوه بالكافور، وأن يوضئوه، وأشرف الحسن على ذلك، ثم صلى عليه.

والأشعث هو والد الأمير محمد بن الأشعث، وجد القائد الفارس عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث، صاحب الوقائع المذكورة خلال العهد الأموي، وسنأتي عليه بإذن الله.

أنس بن مدرك الخثعمي

دعوت بني خثافة فاستجابوا فقلت رِدوا فقد طاب الورودَ
عزمت على إقامة ذي صباحٍ لأمرٍ ما يسوّد من يسودُ
كأن غمامة هطلت عليهم من الأصياف ترجسها الرعــودُ[1]

أحد أبرز الهامات اليمانية في عصره، ومن حكام العرب وحكمائها المشاهير بالعدل والإنصاف، الشاعر الفحل، والفارس المغوار، والجواد الكريم، فارس خثعم العريقة وزعيمها، أنس بن مدرك بن عمرو بن سعد بن عامر بن تيم الله الأكلبي الخثعمي[2].

قال عنه أبو عبيدة في كتابه النقائض: يقطر من شمائِله ماء الشجاعة، فقد نال رمح تلك السجية من الملك النعمان بن المنذر اللخمي، كجائزة له كونه من أفرس فرسان العرب، فلا مرية في ذلك، فهو القائل:

إني لتارك هامات بمجزرة لا يزدهيني سواد الليل والقمرُ
أغشى الحروب وسربالي مضاعفةٌ تغشى البنان وسيفي صارمٌ ذكرُ

نشأ أنس بن مدرك في قبيلته أكلب الخثعمية المعروفة، جامعًا الكثير من الخصال الحميدة والشمائل الكريمة من شجاعة ووفاء وكرم وحكمة ودهاء وفروسية، وسرعان ما ساد خثعم كلها، وقد

(١) يرى البعض، ومنهم الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان، أن هذه الأبيات لأنس بن مدرك الخثعمي من أشجع وأقوى الأبيات التي قالتها العرب في الشجاعة والإقدام.

(٢) خثعم: إحدى قبائل كهلان السبأية المشهورة، وخثعم وبجيلة يقال لهم بني أنمار، وقبيلة خثعم ذات تاريخ عريق، ومنها هامات وأعلام، ولا يجهل تاريخها إلا جاهل بالتاريخ العربي.

ذاع صيته وانتشر ذكره، فقد كان حكمًا عربيًا تتحاكم إليه القبائل في نزاعاتها وصراعاتها، وكان يكنى بأبي سفيان، قال ذو الجوشن الضبابي:

جزينا أبا سفيان صاعًا بصاعهِ بما كان أجرى في الحروب وأوضعا

اشتهر أنس بن مدرك الخثعمي بالفروسية وفن الحرب، فقد كان قائدا مظفرًا وفارسًا مهابًا ومحاربًا عظيمًا، وقد كانت قبائل العرب ترسل أبناءهم للتدرب على يديه، ومن هذه القبائل قريش، وكان ممن تدرب القتال على يديه، عمرو بن هشام، الذي عرف فيما بعد بأبي جهل، وخالد بن الوليد، وقد قال خالد بن الوليد فيما بعد: ما أنا إلا حسنة من حسنات أنس، ثم تزوج خالد بن الوليد من أسماء بنت أنس بن مدرك الخثعمي، وهي أم عبدالرحمن بن خالد، ثم تقرب منه الخلفاء الأمويون فيما بعد بمصاهرته عندما استقر في الكوفة[1].

خاض أنس بن مدرك في حياته قبل البعثة الكثير من الحروب والوقائع، وقاد قومه خثعم، وأحيانًا عدد من القبائل اليمانية مجتمعة، في عدد من أيام العرب في الجاهلية، فكان النصر في لوائه دومًا، ومن أشهر الأيام التي قاد فيها عدد من القبائل اليمانية هو يوم فيف الريح ضد بني عامر، ومن معهم من هوازن، قال عامر بن الطفيل العامري:

(١) معاوية بن يزيد بن معاوية ثالث خلفاء بني أمية، جدته لأمه أكلبية خثعمية، وأمها ذبلة بنت أسماء بنت أنس بن مدرك.

فلو كان جمع مثلنا لم نبالهم ولكن أتتنا أسرة ذات مفخرِ
أتونا بشهران العريضة كلها وأكلب طرًّا في لباس السنّورِ

كان أنس بن مدرك الخثعمي معتزًا بيمانيته مدافعا عنها وعن قومه، لا يتوانى في ذلك، فلطالما أشعل الحروب واستل السيف إذا تعرض أحد من اليمانية للمهانة، فعندما اعتدى الصعلوك الفاتك سليك بن سلكة التميمي على امرأة يمانية، ذهب إليه أنس بنفسه وتتبعه حتى أدركه، وفتك به، وعندما طالبوه بدفع ديته قال:

إني وقتلي سليكًا ثم أعقلهُ كالثور يضرب لما هاجت البقرُ

أسلم أنس بن مدرك الخثعمي، وحسن إسلامه، وذلك بعد فتح مكة، وكان صديقًا للفاروق عمر بن الخطاب، وله الكثير من الأحاديث الشيقة معه، قال ذات يوم مازحًا – وكان أنس قد أغار في الجاهلية على سرح لقريش، فاستاقه – قال عمر: كنت فيمن تبعك تلك الليلة يا أنس، فلو أدركناك، قال أنس: لو أدركتني لم تكن الخليفة للناس.

مع كل هذه الصفات الكريمة لهذا الهامة اليمانية، فقد كان شاعرًا فحلًا مجيدا، قال الأصمعي: إن من أحكم ما سيرته العرب في أمثالها هو قول أنس:

عزمت على إقامة ذي صباحٍ لأمرٍ ما يسوّد من يسودُ

استقر الفارس اليماني أنس بن مدرك الخثعمي في الكوفة من أرض العراق، وقد عاش وعمّر طويلًا، قيل إنه عاش مائة وأربعة

وخمسين سنة، واستشهد بأربعة أبيات من أجمل ما قيلت في الهرم وتغيراته:

إذا ما امرؤٌ عاش الهنيدة سالمًا وخمسين عامًا بعد ذلك وأربعا
تبدل مُرّ العيش من بعد حلوهِ وأوشك أن يبلى وأن يتسعسعا
رهينة قعر البيت ليس يريمه لقي ثاويا لا يبرح المهد مضجعا
يخبّر عمّن مات حتى كأنهُ رأى الصعب ذا القرنين أو رأى تبعا

توفي رضي الله عنه في زمن خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

أم عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية

الصحابية الجليلة والمجاهدة الصابرة التي وضعت أسمها بين أعظم وأشجع النساء في تاريخ الإسلام، أم عمارة نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوض بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن بن النجار الخزرجية الأنصارية اليمانية. وبنو النجار كما هو معروف تاريخيًا من أكبر بطون الخزرج وأكثرها عددًا وذكرًا.

ولدت أم عمارة نسيبة بنت كعب في مدينة يثرب ونشأت فيها وما إن سطع نور الإسلام، حتى بادرت نسيبة بنت كعب لاعتناقه وكانت من أوائل أهل يثرب إسلامًا فقد كانت من النساء القلائل التي بايعت النبي -عليه الصلاة والسلام- في بيعة العقبة الثانية وكانت هذه المرأة الأنصارية الخزرجية ذات همة عالية وشجاعة فائقة وصبر وجلد.

وقد تجلت هذه الصفات من خلال مواقفها البطولية في نصرة الإسلام والنبي -عليه الصلاة والسلام-، فعندما وقعت غزوة أحد خرجت أم عمارة في أثر الجيش الإسلامي تحمل الماء وتسقي المقاتلين وتعالج الجرحى ولكن عندما رأت انهزام بعض المسلمين عن رسول الله آخر المعركة، اقتربت منه وحملت السيف والقوس وشاركت في القتال بالقرب من رسول الله ومعها زوجها زيد بن عاصم الأنصاري وابناها حبيب وعبدالله.

قالت وهي تروي عن ذلك اليوم: خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهو في أصحابه، والدولة والريح للمسلمين. فلما

انهزم المسلمون، انحزت إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقمت أباشر القتال، وأذب عن رسول الله وأرمى عن القوس، حتى خلصت الجراح وقد جرحت أم عمارة ذلك اليوم جرحًا بليغًا غائرًا في عاتقها احتاج عامًا كاملا حتى يطيب، وقد عرف عنها أنها الصحابية المجاهدة وقد قال عنها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : "لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان"، ثم شاركت أم عمارة رضي الله عنها في عدد من الغزوات والمعارك مع رسول الله ومنها الحديبية وخيبر وحنين ثم شاركت فيما بعد في حروب الردة وفي معركة اليمامة بعد وفاة رسول الله -عليه الصلاة والسلام-.

كانت أم عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية من أسرة مجاهدة فزوجها زيد بن عاصم كان من الأبطال المجاهدين وكذلك ولداها عبدالله وحبيب كانا من أبطال المسلمين.

وفي معركة اليمامة ضد مسيلمة الكذاب كانت أم عمارة هناك كعادتها وقد أسر ابنها حبيب على يد جيش مسيلمة وقام مسيلمة بتعذيبه وقتله ولما أن بلغ الخبر أم عمارة بمقتل ابنها وفلذة كبدها قالت بصبر وجلد عظميين: "لمثل هذا أعددته وعند الله أحتسبه" ثم عاهدت الله سبحانه أن تموت دون مسيلمة أو تقتل فقاتلت واستبسلت في يوم اليمامة. قالت أم عمارة: "يوم اليمامة تقطعت يدي وأنا أريد قتل مسيلمة. وما كان لي ناهية حتى رأيت الخبيث مقتولًا، وإذا بابني عبد الله بن زيد يمسح سيفه بثيابه فقلت له: أقتلته؟ قال: نعم. فسجدت لله شكرا"، وكان عبدالله قد أجهز على مسيلمة بعد أن رماه وحشي بن حرب.

وقد أصيبت أم عمارة في يوم اليمامة بأحد عشر جرحًا وقطعت يدها ثم توفيت رضي الله عنها بعد عام من معركة اليمامة متأثرة بجراحها وذلك في السنة الثالثة عشر من الهجرة، ودفنت في البقيع.

ضماد بن ثعلبة الأزدي

أول طبيب في الإسلام

الصحابي والطبيب اليماني ضماد بن ثعلبة الأزدي، من أزد شنوءة[1]، وقد كان من زعماء قومه، وهو طبيب ماهرٌ جوالٌ، يتنقل في المدن والمناطق، ويعالج الناس، ومن المدن التي كان يسافر إليها، مكة، وقد كان صديقًا لمحمد بن عبدالله قبل البعثة، قال القرطبي: كان ضماد بن ثعلبة صديقًا للنبي محمد -صلى الله عليه وسلم- في الجاهلية، وكان رجلًا يتطبب، ويرقى، ويطلب العلم.

في أوائل البعثة النبوية، سار ضماد بن ثعلبة الأزدي من بلاده اليمن، ومن منطقته المهجم بتهامة اليمن، متجهًا إلى مكة، فما أن دخلها حتى تلقته قريش، وأخبروه أن صاحبه محمد بن عبدالله قد أصابته رياح، فالتاث عقله، وأن به جنّة، وكانت تهمة الجنون إحدى التهم التي أطلقتها قريش على النبي في بداية البعثة، فأخذ ضماد بن ثعلبة الأزدي يبحث عن صديقه محمد، ويقول: أين محمد؟ لعل الله أن يشفيه على يدي.

بحث ضماد عن رسول الله حتى وجده والتقى به، وقد كانت قريش تأمل أن يعود ضماد بن ثعلبة بما يوافق أهواءهم واتهاماتهم، فهو طبيب مشهور وموثوق به، فلما التقى به، قال ضماد: يا محمد إني أرقى من هذه الرياح، وإن الله يشفي على يدي من يشاء، فهلم،

(١) يقال لمن استقر من قبائل الأزد بعمان، أزد عمان، ومن بقي منهم في تهامة والسراة، أزد شنوءة، أما بقية الأزد الذين استقروا بالحجاز والشام فهم خزاعة وأبناء قيلة الأوس والخزرج، والغساسنة حكام الشام بني جفنة.

فقال -عليه الصلاة والسلام-: الحمد لله نحمدهُ ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. قال الضماد: أعِدْ علي يا محمد كلماتك، فقد بلغن ناموس البحر، فأعاد رسول الله، وقرأ شيئًا من القرآن الكريم، فقال ضماد: والله لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات، فهلم يدك أبايعك على الإسلام، فبايع ضماد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأسلم على يديه، وكان من السابقين إلى الإسلام.

كان إسلام ضماد بن ثعلبة صدمة لقريش وإبطالًا لمزاعمهم واتهاماتهم، وقد رجع ضماد الأزدي إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، فآمن الكثيرون منهم، وقد كان لضماد مكانة متميزة، فهو الطبيب الأول إسلامًا، وقد اختلفوا هل وفد فيما بعد على رسول الله أم لا، لكن الأكيد أن قومه وفدوا، وكان ضماد بن ثعلبة الأزدي رضي الله عنه قد شاخ وكبر وتوفي ما بين السنة السابعة إلى السنة التاسعة على ما يبدو، والله أعلم.

جبلة بن الأيهم الغساني

الغساسنة الأزديون ملوك الشام –بني جفنة– لهم تاريخ حافل بالأمجاد والبطولات، وقد أقاموا في بلاد الشام مملكة مترامية الأطراف، خضعت لها الكثير من قبائل العرب في تلك النواحي، وكانوا على علاقة بالإمبراطورية الرومانية لقربهم منهم، وقد تأثر بعض الغساسنة والقبائل الخاضعة لهم بالديانة النصرانية، فاعتنقوها.

تعاقب العديد من الملوك العظماء على قيادة هذه المملكة، بلغ عددهم ٣٦ ملكا، كما تقول بعض المصادر التاريخية، كان آخرهم الملك جبلة بن الأيهم بن الحارث بن أبي شمر الغساني الأزدي اليماني. ملك من نسل ملوك وزعماء، وكانت أمه من مشاهير النساء العربيات، وهي المشهورة بذات القراطين، مارية بنت الأرقم بن ثعلبة بن عمرو الجفني الغساني.

اختلف المؤرخون في إسلام الملك جبلة بن الأيهم، وقد ذكر ابن الكلبي أن الخليفة عمر بن الخطاب عندما علم بإسلام جبلة بن الأيهم فرح لذلك، واستدعاه إلى المدينة المنورة، ويقال إن جبلة استأذن قدومه، فقدم الملك الغساني في جمع مهيب من قومه، فرحب بهم عمر بن الخطاب وأكرمهم.

وعندما حج جبلة بن الأيهم وعند طوافه بالبيت، وطئ إزاره رجل من بني فزارة[1]، فرفع جبلة يده، ولطم الفزاري، فهشم أنفه، وقيل: قلع عينه، فاشتكى الفزاري ذلك إلى الخليفة عمر بن الخطاب،

(١) فزارة: قبيلة مشهورة من بني غطفان القيسيين العدنانيين، وهم أهل كرم ومجد ونخوة، ولهم ذكر وافر في التاريخ العربي.

فاعترف جبلة بذلك، فقال عمر: أقد الفزاري منك، قال جبلة: كيف وأنا ملك وهو سَوَقه، فقال عمر: إن الإسلام قد ساوى بينكما، قال جبلة: إذًا اتنصر، قال عمر: من ارتد عن الإسلام تضرب عنقه.

فطلب جبلة بن الأيهم إمهاله إلى الليل، فركب من ليلته، وخرج إلى بلاد الشام، وقيل بأنه عاد إلى نصرانيته، ثم ندم على ارتداده عن الإسلام، وقال فيما قال نادمًا:

تنصرت الأشراف من عار لطمة ... وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
تكنفني فيها اللجاج ونخوةٌ ... وبعت بها العين الصحيحة بالعور
فيا ليت أمي لم تلدني وليتني ... رجعت إلى القول الذي قالهُ عمر
ويا ليتني أرعى المخاض بقفرةٍ ... وكنتُ أسيرًا في ربيعة أو مُضر
ويا ليت لي بالشام أدنى معيشةٍ ... أجالس قومي ذاهب السمع والبصر
أدين بما دانوا بهِ من شريعةٍ ... وقد يصبر العود الكبير على الدبر

بينما ينكر بعض المؤرخين هذه الرواية، وقالوا بأن الملك الغساني جبلة بن الأيهم لم يسلم أصلًا، ومنهم ابن عساكر، والواقدي، وسعيد بن عبدالعزيز، والله أعلم.

توفي جبلة بن الأيهم في زمن معاوية بن أبي سفيان.

الفصل الثالث

مقدمة الفصل الثالث

فَإِنْ لا يكُنْ مِنَّا الخَلِيفَةُ وابنهُ فَمَا نَالَهَا إلا وَنَحْنُ شُهُودُ

من هذا البيت الشعري الذي قاله أحد زعماء القبائل اليمانية خلال العهد الأموي، وهو حسان بن مالك بن بحدل الكلبي القضاعي الحميري؛ ندرك بوضوح مدى الثقل السياسي والعسكري الذي كانت تتمتع به القبائل اليمانية خلال تلك الفترة من حكم بني أمية، ذلك العهد الذي استمر لحوالي ٩٠ عامًا، من سنة ٤٠ للهجرة إلى سنة ١٢٧ هجرية.

وكما قامت دولة الإسلام الفتية في بداياتها على كواهل الأنصار اليمانية (أبناء قيلة) وبسيوفهم ومن معهم من المهاجرين الأوائل - والمنة لله ولرسوله – ثم كانوا عماد الخلافة الراشدة فيما بعد وركنها الوثيق، فكذلك الحال لدولة بني أمية التي أقر معظم المؤرخين بأنها قامت على أكتاف اليمانية وبسواعدهم، وقد كان للعرب اليمانية الحضور البارز في مراكز هذه الدولة الإسلامية الفتيّة وعلى كافة الأصعدة.

أسهم اليمانيون إسهامًا بارزًا خلال العهد الأموي في شتى المجالات، كالقضاء والتعليم والدواوين والبناء والتعمير وخدمة البريد وفي الطب وكذلك الجانب الأمني وغيره، أما الجانب العسكري فقد كانوا عصب الجيوش الإسلامية الفاتحة ومادتها، وجُلَّ من فتحوا بلاد السند والترك وبلاد الأندلس وأفريقيا وتوغلوا في عمق أوروبا، هم من أبناء القبائل اليمانية قيادةً وأفرادًا.

وفي هذا الجانب فالتاريخ لن ينسى القادة اليمانيين الفاتحين، كموسى بن نصير اللخمي اليماني، وطريف بن مالك النخعي المذحجي، والسمح بن مالك الخولاني، وعبدالرحمن الغافقي العكّي ويزيد بن المهلّب الأزدي وعبدالرحمن بن الأشعث الكندي وأسد بن عبدالله القسري وغيرهم من القادة العظماء الذين فتحوا البلاد وأمنوا العباد ووسعوا رقعة الإمبراطورية الإسلامية، ولا ننتقص أبدًا من وظيفة بقية العرب والمسلمين الذين كانوا مع إخوانهم اليمانية تحت راية إسلامية واحدة.

كما لن ينسَ التاريخ أبدًا أحد دعائم الدولة الأموية وركن من أركانها وأحد زعماء اليمانية في عصره، وهو الذي ثبت أركان الدولة من الداخل وأمن البلاد والعباد، القائد الفارس النبيل المهلب بن أبي صفرة الأزدي وكذلك القائد الجسور سفيان بن الأبرد الكلبي.

خلال العهد الأموي نشبت صراعات سياسية وعسكرية دموية بين العرب اليمانية وإخوانهم العرب المضرية القيسية وقد كان لهذه الصراعات فيما بعد أثر بالغ على انهيار دولة بني أمية.

ربما استفاد الأمويون أحيانًا من هذه الصراعات وكانوا سببًا في إذكائها وإشغال القبائل بالصراعات فيما بينها أو التقوي بطرف على آخر، وكل ذلك حفاظًا على كرسي حكمهم وملكهم ـ وأحيانًا لا يسلم الأمويون أنفسهم من هذه الحروب والصراعات كما حصل من مقتل الخليفة الأموي الوليد بن يزيد على يد اليمانية ـ لكنها في الأخير كانت من أهم العوامل والأسباب التي أدت إلى انهيار الدولة وزوالها، تلك الدولة التي كانت عربية خالصة بغض النظر عن بعض

سلبياتها، وقد عانا اليمانيون والقيسيون من هذه الصراعات المريرة التي راح ضحيتها عشرات الآلاف من الجانبين[1].

ومن شدة العصبية الجاهلية في تلك الفترة كان الطرفان يعدان انتصاراتهم في حروبهم من أيام العرب في الجاهلية، ويتفاخرون بها وهذا ما يناقض تعاليم الإسلام ومبادئه، قال جواس الكلبي بعد معركة مرج راهط:

كم من أمير قبل مـروان وابنهِ كشفنا غطاء الموت عنه فأبصرا
إذا فاخر القيسي فاذكر بلاءهُ برزّاعة الضحاك شرقيَّ جوبـرا

وقد كانت تلك الحروب سجالًا بين الطرفين.

في تلك المرحلة التاريخية المليئة بالصراعات، كانت الهوية السبأية القحطانية اليمانية حاضرة وبقوة وجامعة لكل قبائل العرب اليمانية، وإن كانت قد استخدمت أحيانًا بطريقة عصبية خاطئة، فنجد الكندي الذي يسكن العراق يتعصب للقضاعي الحميري ساكن الشام، والأزدي يثور إذا ما تعرض اللخمي أو الجذامي إلى عدوان، وهكذا الهمداني والمذحجي والأشعري والحضرمي وبقية قبائل اليمانية، لم تكن تفرق بينهم الجغرافيا السياسية إلا في حالات نادرة، فاليماني يماني أينما حل وارتحل، لا تفارقه هويته ولا يتخلى عن انتمائه، مع أنهم لم يسلموا من الانقسامات السياسية في بعض المراحل.

---

١ – أيذهـبُ يـوم واحـدٌ إن أسـأتـهُ بصالح أيامي وحسن بلائيا
فلا صلح حتى تشحط الخيل بالقنا وتثأر من نسوان كلبٍ نسائيا

هذه الأبيات من قصيدة شعرية رائعة قالها أحد زعماء القيسية بعد هزيمتهم في معركة مرج راهط الدامية، وهو زفر بن الحارث القيسي، إذ انتصرت القبائل اليمانية بقيادة قبيلة بني كلب القضاعية الحميرية.

أما فكرة الحكم والإمارة فقد ظلت تراود عدد من زعمائهم، فها هو حسان بن مالك بن بحدل الكلبي قد أخذ البيعة له بعد مروان بن الحكم ومعاوية بن يزيد بن معاوية، أما ابن الأشعث الكندي فقد قالها جهارًا نهارًا "والله ما رأيت أحدًا قط على منبر يخطب إلا وظننت في نفسي أنني أحق بذلك منه"، وقد بايعه فيما بعد جزء كبير من أهل العراق بالخلافة وقاد معارك الزاوية ودير الجماجم ضد جيوش الأمويين، كذلك الحال ليزيد بن المهلب فقد طالب بالحكم والخلافة لنفسه.

أما اليمن كجغرافيا فلم تسعفنا مصادر التاريخ الإسلامي عن رسم صورة واضحة لأوضاعه خلال العهد الأموي، والحقيقة ان انتقال مركز الثقل السياسي إلى بلاد الشام قد غطى على معظم الأحداث التي جرت في بلاد اليمن، ولم يكن اليمن الجغرافي من الأقطار التي يُهتم لها خلال تلك الفترة وهناك عدة أسباب لذلك، ومن أهمها أن خروج معظم القادة والشخصيات والرجال الأشداء من بلاد اليمن للمشاركة في الفتوحات الإسلامية قد جعل من اليمن تبقى هادئة بعض الشيء لفترة من الفترات.

لقد وليّ على اليمن خلال العهد الاموي حوالي ٢٥ واليًا اتصف بعضهم بالشدة والقسوة، ومن أبرز قساتهم بسر بن أبي أرطأة العامري الذي ولاه معاوية بن ابي سفيان، وكذلك يوسف بن عمر الثقفي، الذي ولاه هشام بن عبدالملك.

انتفض اليمنيون خلال العهد الأموي مرات عديدة، ضد الشدة والقسوة التي مورست من بعض ولاة بني أمية ضدهم. ومن أشهر هذه الثورات ثورة عباد الرعيني ضد الوالي يوسف بن عمر الثقفي،

وقد امتدت هذه الثورة إلى مناطق عديدة من اليمن، واستطاع الأمويون إخمادها، وكذلك ثورة عبدالله بن يحيى الكندي المعروف بطالب الحق، حيث ثار بحضرموت وتوجه بجيشه إلى صنعاء ودخلها عنوة وسيطر عليها بعد حروب ومعارك مع الوالي الأموي القاسم بن عمر، ثم انتهت ثورة الكندي أيام الخليفة مروان بن محمد، وتسارعت الأحداث حيث انتهت الدولة الأموية على يد بني العباس.

كعب الأحبار

على الرغم من أن اليهود كانوا –وما زالوا– من أشد أعداء دين الإسلام، وقد تلقوا الرسالة المحمدية بالتكذيب والرفض والجحود –مع أنهم يعلمون صدقها وحقيقتها– إلا أن هناك ثلّة من اليهود شرح الله صدورهم للإسلام، وأدركوا أن محمد بن عبدالله -عليه الصلاة والسلام- هو خاتم الأنبياء والمرسلين الذي بشرت به وبظهوره الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل، ومن أشهر هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام وخدموه خدمة عظيمة في مجال التفسير والعلم الغزير، المفسر البحر، والعالم والعلامة أبو إسحاق كعب بن ماتع –وقيل مرتع– الحميري اليماني، أحد أشهر العلماء المسلمين من أصول يهودية.

قبل بعثة النبي -عليه الصلاة والسلام- كانت الديانات التوحيدية منتشرة في بلاد اليمن منذُ القدم –حتى إن رسول الله عندما أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: ستجد قومًا أهل كتاب–، وقد ولد كعب في أسرة يهودية حلفاء لبعض قبائل حمير اليمانية، فنشأ كعب قارئًا عالمًا مبحرًا في علوم اليهود، وأخبارهم، ورواياتهم، فكان من أعلم الناس عن أخبار الأمم السابقة.

اختلف المؤرخون في تحديد زمن إسلامه، فهناك من يرى أنه أسلم في زمن أبي بكر الصديق، وقيل في خلافة عمر، وقيل قبل وفاة رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، وأنه قد آمن به بعد أن رأى صفاته في كتبهم ومصادرهم، ثم كان من الجلساء المقربين لعمر

وعثمان وعبدالله بن عباس ومعاوية، وكان قد شارك في الفتوحات الإسلامية.

كان كعب الأحبار رضي الله عنه من أعلم الناس بكتب اليهود وأخبارهم، وكان له علم واسع بالصحيح والباطل منها، وهو مصدر كبير لعدد من المفسرين والرواة حول أخبار الأمم السابقة، وقد حدث عنه أبو هريرة الدوسي وعبدالله بن عباس ومعاوية بن أبي سفيان، وهذه الروايات من الصحابة والتابعين تبين مكانة كعب الأحبار، وهي من النادر العزيز.

توفي رضي الله عنه سنة ٣٢ هجرية في حمص في بلاد الشام، وقيل في دمشق، والله أعلم.

الأشتر النخعي

كبش العراق

إني أنا الأشتر معروف الشتر إني أنا الأفعى العراقي الذكر
لست من الحي ربيعة أو مضر لكنني من مذحج الغرّ الغرر

بطل الزحوف والمعارك، ومقتحم الحتوف والمهالك، الفارس المقدام، والجواد الهمام، القائد العسكري الفذ، أخو مذحج الطعان، مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعة بن الحارث بن جذيمة النخعي[١] المذحجي، وقد عرف واشتهر بلقب الأشتر[٢]؛ لأن إحدى عينيه قد شُترت في معركة اليرموك.

نشأ مالك بن الحارث في بلاد اليمن في أرض النخع المذحجيين، فشب فارسًا مقدامًا وسيدا مطاعا في قومه، ثم هاجر للمشاركة في الفتوحات الإسلامية، وقد روي أن النبي -عليه الصلاة والسلام- قال لجمع من أصحابه فيهم أبو ذر الغفاري: "ليموتن أحدكم في فلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين"، فما كان من أبي ذر الغفاري إلا أن توفي في صحراء الربذة، فجاءت قافلة

(١) النخع من قبائل مذحج الطعان المشهورة، وهم أهل عزٍ ومنعة، أخرجت هذه القبيلة عبر تاريخها الطويل، هامات وأعلاماً كثيرة ممن كان لهم حضورٌ بارز في الفتوحات الإسلامية وما تلاها.

(٢) لا زلنا إلى اليوم في محافظة أبين، وربما في مناطق أخرى من اليمن، نصف الشاب الذكي أو الرجل الصارم قائلين: فلان أشتر، وربما لها علاقة قوية بلقب مالك بن الحارث.

فيها مالك بن الحارث النخعي، فكفنه الأشتر، ودفنوا جثمانه بتكريم بالغ.

ما إن وصل مالك بن الحارث النخعي إلى المدينة على رأس قومه، حتى وجهه الخليفة أبو بكر الصديق مددا لخالد بن الوليد للمشاركة في معركة اليرموك، وكتب الخليفة إلى خالد: قد تقدم إليك أبطال اليمن وأبطال مكة – يكفيك منهم مالك بن الحارث.

شارك مالك بن الحارث النخعي في معركة اليرموك، فأظهر من الشجاعة والإقدام وفن الحرب والقتال ما تعجز الأقلام عن وصفه وتدوينه، وقد شترت عينه هناك، فلقب بالأشتر، ثم شارك في معركة القادسية، ففعل الأفاعيل، وكانت النخع في تلك المعركة في ٢٤٠٠ ألفين وأربعمائة مقاتل في قلب الجيش الإسلامي، وعليهم ثقل المعركة.

استقر الأشتر النخعي في العراق، وكان زعيمًا مهابًا مطاعا، ولشجاعته وفروسيته أسموه كبش العراق، فقد كان محاربًا عظيمًا لا يثبت له أحد، وكانت لديه صفيحة يمانية يقاتل بها، تتنظر الفرسان فيها لهولها وعرضها، ومع تلك الشجاعة الفائقة، كان الأشتر النخعي حليمًا جوادا سمحًا، مترفعا بنفسه عن سفاسف الأمور.

ذات يوم وهو مار في أحد شوارع الكوفة متوشحًا سيفه، متلثمًا يرتدي بعض الملابس المهلهلة، ويمشي منفردا رآه أحد سفهاء الكوفة، فأخذ يأكل التمر، ويرميه بالنوى ساخرًا منه، والأشتر ماشيا لم يلتفت إليه، فقام بعض المارة بنهر ذلك السفيه قائلين له: ويحك ألا تعرف من هذا الذي تهزأ به؟ قال: لا، قالوا: هذا كبش العراق الأشتر النخعي، فارتعب ذلك الرجل، ولحق بالأشتر ليعتذر منه،

فوجده قد دخل المسجد، فصلى ركعتين، فلما أن خرج رمى ذلك السفيه بنفسه بين يديه، خائفًا معتذرًا، فقال الأشتر: لا عليك قد استغفرت لك.

شارك الأشتر في معارك متعددة أخرى من معارك الفتح الإسلامي، فهو الذي قاد الجيوش الإسلامية لفتح آمد وميافارقين بعد أن قتل ملك الأرمن بنفسه في إحدى المعارك.

كان الأشتر النخعي من الناقمين على سياسة عثمان بن عفان، لكن لم يثبت إطلاقًا أنه كان من المشاركين في قتله، ثم كان مع علي بن أبي طالب قائدا لجيوشه، وشارك في معركة الجمل، وحصل أن التقى الأشتر بعبدالله بن الزبير في المعركة، وتقاتلوا أشد قتال، وتصارعا حتى سقطوا في حفرة – وكان عبدالله من فرسان العرب المشاهير –، وجرح ابن الزبير، فصرخ قائلًا وهم يتعاركان: أقتلوني ومالكًا واقتلوا مالكًا معي، فذهبت مثلًا عند العرب، ولم يعرف أصحاب عبدالله بن الزبير من يعني بمالك، فقد كان مشهورًا بلقب الأشتر.

ثم في معارك صفين كان هو القائد الميداني العام لجيش العراق، وكان بلاءً منصبًا على جند الشام، وقد كان معاوية يهابه، ويحسب حسابه، قال الأشتر متوعدًا معاوية:

بقَّيت وفري وانحرفت عن العلا ولقيت أضيافي بوجه عبوسِ
إن لم أشن على ابن هند غارةً لم تخل يومًا من ذهاب نفوسِ

في نهاية معارك صفين المشؤومة أوشك الأشتر على هزيمة جيش الشام بعد أن قام بحملات منكرة وشرسة، وقد سُمع وهو يرتجز ويقول:

أيها السائل عني لا ترع أقدم فإني من عرانين النخع
أطير في يوم الوغى ولا أقع أعددت ذا اليوم لهول المطّلع

فلما أن اقتربت هزيمة جند الشام، والسبب في ذلك هجمات الأشتر النخعي، رُفعت المصاحف على أسنة الرماح، وانشق جيش العراق، ثم وقع ما وقع بعدها من أمر التحكيم، وانسحب الجيشان من دون حسم، وقد راح ضحية تلك المعارك عشرات الآلاف من المسلمين، ولا زال جرح تلك الفتنة لم يندمل إلى يومنا هذا، والجدير بالذكر أن العرب اليمانية هم من خسر أكثر من غيرهم في تلك الصراعات الدامية.

أرسل علي بن أبي طالب الأشتر النخعي واليا على مصر، فيأس منها معاوية، فقرر التخلص منه قبل أن يصلها، فوضعوا له من دس له السم في العسل، فشربه، فمات منه، وقد حزن عليه علي حزنًا عظيمًا، وقال: لله درك مالك ، لو كان جبلًا لكان أعظم أركانه، ولو كان حجرًا لكان صلدا، فعلى مثله فلتبك البواكي، وكان موته سنة ٣٨ للهجرة، وهو والد إبراهيم بن مالك الذي كان على غرار أبيه زعامة وشجاعة وفروسية.

ذو الكلاع الحميري

أنتك حمير بالأهلين والولد أهل السوابق والعالون في الرتبِ
الحرب همتنا والطعن عادتنا وذو الكلاع دعا في الأهل والنسب
دمشق من دون كل الناس أقصدها وساكنيها سأهويهم إلى العطبِ

عندما أرسل الخليفة أبو بكر الصديق رسله إلى قبائل اليمن للمشاركة في الفتوحات الإسلامية – تنفيذًا لكلام رسول الله عندما قال بأن بلاد فارس والروم لن تفتح إلا بأهل اليمن – سرعان ما لبى أهل اليمن النداء وأقبلت جحافلهم كالسيل فرق حربية وكتائب عسكرية قبيلة تتلوها قبيلة، آلاف مؤلفة من الرجال المقاتلين، والكثير منهم اصطحبوا عوائلهم معهم في هجرة جماعية كان تأثيرها واضحًا على البلدان المفتوحة، إذ أنهم هم من صبغوها بصبغتها العربية والإسلامية، وكان في مقدمة تلك الجحافل الجرارة، أحد أقيال اليمن، ورمز من رموزها، ومن أبطالهم وفرسانهم، أبو شراحيل، القيل سميفع بن ناكور الحميري، المشهور بذي الكلاع، وكانت حمير وحدها في حوالي اثني عشر ألف مقاتلاً، وعندما خرج الخليفة لاستقبالهم التقاه القيل ذو الكلاع الحميري مرتجزًا بقصيدته السابقة، وكان ذو الكلاع متزوجًا بضريبة بنت الملك إبرهة بن الصباح الحميري.

كان ذو الكلاع الحميري قيلًا زعيمًا مطاعًا في قومه حمير، ولا يعدلون عن رأيه ومشورته، وحمير كما هو معروف ملوك العرب،

وأصحاب تيجانها، ولهم مكانة مرموقة أينما حلّوا وارتحلوا، خاصة عند العرب اليمانية.

ما إن وصل ذو الكلاع الحميري هو وقومه إلى المدينة المنورة حتى وجههم الخليفة أبو بكر الصديق للمشاركة في فتح بلاد الشام والعراق، وبما أن لأهل اليمن باعًا طويلًا وقديمًا في الغزو الخارجي خارج جزيرة العرب، كما أن لهم ثارات قديمة ووقعات مع الروم والفرس، فقد وضح ذلك ذو الكلاع الحميري عندما التقى بأحد قادة الروم، قال الرومي لذي الكلاع: نحن نعلم أنما أخرجكم الجوع والقحط، فخذوا ما شئتم، وعودوا إلى بلادكم، فرد عليه القيل ذو الكلاع الحميري بكلمات سجلها التاريخ مذكرًا إياه أن العرب واليمانية بالتحديد لطالما قارعوا الروم، قال: أخطأت يا هذا، فإنما نحن نتبع خطى أسلافنا.

بعد أن وقعت الفتنة بمقتل عثمان بن عفان كان ذو الكلاع الحميري في جيش الشام بصفين من المطالبين بالقصاص من قتلته، وكان على راية حمير، وبعد أن قتل عمار بن ياسر العنسي أعاد القيل ذو الكلاع الحميري النظر في موقفه، وأوشك أن يتراجع، ويترك هذا الصراع الدامي إلا أن الأجل قد سبق وقتل في صفين، وقد أرسل ابنه شرحبيل بن ذي الكلاع إلى الأشعث الكندي يستأذنه في دفن جثة أبيه، فأذن له، ودفن هناك رحمه الله تعالى.

حجر بن عدي الكندي

حجر الخير

حجر بن عدي الكندي اليماني، أحد أشراف كندة اليمانية، ومن زعمائهم ونجبائهم، من أتم الرجال، وأفضلهم خلقًا وأخلاقًا، وكان يلقب بحجر الخير.

وفد على النبي -صلى الله عليه وسلم- هو وأخوه هانئ بن عدي، ويرى بعض المؤرخين أنه تابعي وليس بصحابي، وقد أسلم وهو شاب، وكان من النفر الذين دفنوا جثمان الصحابي أبي ذر الغفاري.

شارك حجر بن عدي الكندي في الفتوحات الإسلامية، ومنها معركة القادسية، فأبلى فيها خير بلاء، ثم قاد قوة من الجيش الإسلامي، فافتتح مرج عذراء التي قدر له فيما بعد أن يقتل فيها، وقد روي أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "يقتل بمرج عذراء نفر يغضب لهم أهل السماوات".

كان حجر بن عدي الكندي تقيا ورعا عابدا يحب الخير والصلاح، وكان مع ذلك قائدا عسكريا مجربًا، وكان ممن بايعوا الخليفة علي بن أبي طالب، ومن المقربين منه، وكان من قادة جيشه في صفين، ثم كان قائدا لميمنة جيش علي في معركة النهروان، وقد ظهرت براعته العسكرية في تلك المعارك بوضوح.

وبعد معركة صفين أرسل معاوية بن أبي سفيان جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل من أهل الشام للإغارة على أطراف مناطق العراق،

فخرج إليه جيش بقيادة حجر بن عدي الكندي، فانهزم جيش معاوية، وهرب قائدهم الضحاك بن قيس باتجاه الشام.

قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم تنازل ابنه الحسن بن علي بالحكم لمعاوية فيما عرف بعام الجماعة، ثم قام عامل معاوية زياد بن أبيه بالقبض على حجر بن عدي الكندي، وإيداعه سجن مرج عذراء – التي افتتحها هو من قبل –، ثم أمر معاوية بن أبي سفيان بقتل حجر بن عدي، ومن معه، فتم قتلهم، وقد أوقعت هذه المقتلة ضجة عظيمة عند المسلمين، وانتقادات واسعة، وذلك في عام ٥١ للهجرة.

حزن المسلمون لمقتل حجر بن عدي الكندي وأصحابه، فقد كانوا من خيارهم، وترحموا عليهم كثيرًا، فرحم الله حجر الخير وأصحابه وغفر لهم.

شريك بن الأعور الحارثي

ذو البأس والإقدام والشجاعة، ومن زعماء اليمانية وأشرافهم في زمانه، شريك بن الحارث بن عبد يغوث بن خلفة بن سلمة بن دهني الحارثي، والمشهور بشريك بن الأعور.

كان شريك بن الأعور زعيمًا مطاعا في قومه، وكان ذا بأس وكرم ونخوة، ولا غرابة في ذلك، فالجود والشجاعة من سمات قبيلته عبر تاريخهم، وكان شريك بن الاعور ممن شاركوا في معارك الجمل وصفين مع علي بن أبي طالب، وكان له مكانة بارزة فيها لم ينسها له معاوية بن أبي سفيان وأهل الشام.

دخل شريك بن الأعور الحارثي فيما بعد على معاوية بعد أن استقرت له أمور الخلافة، فأراد معاوية أن ينتقص منه، وذلك بحضور جمع من أشراف العرب، فقال معاوية: ما اسمك؟ فقال: شريك، قال معاوية: ابن من؟ قال: ابن الأعور، فأخذ معاوية يتنكى قائلًا: إنك لشريك، وما لله من شريك، وإنك لابن الأعور، والصحيح خير من الأعور، وإنك لذميم الصورة، فكيف سدت قومك يا شريك؟ فالتفت إليه شريك، وصاح بقوة: قد أحميت أنفي، والله لتسمعن مني، وأنت معاوية، ومعاوية كلبة عوت، فاستعوت منها الكلاب، وأبوك صخر، والسهل خير من الصخر، وجدك حرب، والسلم خير من الحرب، وإنك لابن أمية، وأمية أمة صغرت، فصارت أمية، فكيف صرت أمير المؤمنين؟ قال معاوية: واحدة بواحدة يا شريك، قال شريك: ولكن البادئ أظلم، ثم أنشأ يقول، وقد اشتاط غضبًا:

أيشتمني معاوية بن صخرٍ وسيفي صارم ومعي لساني
وحولي من ذوي يمنٍ ليوث ضراغمة تهشّ إلى الطعانِ
يعيرني الدمامة من سفاه وربّات الخدودُ هي الغواني
ذوات الحُسن والرئبال شثٌّ شتيمٌ وجههُ ماضي الجنانِ
فلا تبسط لسانك يا ابن حربٍ علينا إذ بلغت مدى الأماني
فإن تك للشقاء لنا أميرًا فإنا لا نقر على الهوانِ
وإن تك من أمية في ذراها فإني من ذرى عبد المدانِ
متى ما تدع قومك أدع قومي وتختلف الأسنة بالطعانِ
يجبني كل غطريف شجاع كريم قد توشّح باليماني

ثم خرج مغضبًا، فخرج وراءه عددٌ من اليمانية، غضبوا لغضبه، ثم قام معاوية ماشيًا خلفه معتذرًا له، خوفًا من الفتنة، فقد كان يغضب لشريك بن الأعور الحارثي آلاف السيوف من اليمانية لا يسألونه فيم غضب.

سعيد بن قيس الهمداني

في معارك صفين المشؤومة قال شاعر أهل الشام:

ثلاثة رهطٍ همُ أهلها فإن يقتلوا تخمد الوقدة
سعيد بن قيسٍ وكبش العراق وذاك المسوّد من كندة(١)

سعيد بن قيس بن معدة اليامي الهمداني، زعيم همدان أحلاس الخيل في زمانه، وصاحب لوائهم ورايتهم في كثير من المواطن، أحد هامات العرب اليمانية، وزعمائهم، ومن كبار التابعين المشهود لهم بالزهد والعبادة والصلاح.

أسلم سعيد بن قيس الهمداني مع قومه همدان، وهاجر من بلاد اليمن في حشود من قبائل همدان للمشاركة في الفتوحات الإسلامية، وقد كان لهمدان مكانة كبيرة في تلك الفتوحات، فهم أهل عدد وعدة، وبأس ونجدة، وكان سعيد بن قيس الهمداني صاحب رايتهم في فتح نهاوند سنة ١٩ هجرية.

كان سعيد بن قيس الهمداني مع ما عرف عنه من ورع وعبادة وصلاح، أحد الفرسان الأشداء، ومن القادة العسكريين ذوي الخبرة والكفاءة، عركته المعارك في حياته، فأصبح ذا باع طويل في قيادتها، وخوض غمارها ببراعة والانتصار فيها، وقد كانت له خبرة في إدارة

(١) يقول شاعر أهل الشام: إن هؤلاء النفر الثلاثة هم قادة جيش العراق وفرسانه، فإن قتلوا سيتمكن أهل الشام – جيش معاوية – من هزيمة جيش العراق – جيش علي –، والثلاثة هم: سعيد بن قيس الهمداني، والأشتر النخعي، والأشعث بن قيس الكندي.

الجيوش وضبطها، وقد تجلت خبرته بوضوح في المساهمة في ترتيب جيش العراق، والدخول به في معارك الجمل وصفين.

لما نشبت الفتنة بين المسلمين بمقتل عثمان بن عفان -رضي الله عنه-، وقف سعيد بن قيس الهمداني وقومه مع علي بن أبي طالب، وشارك معه في معركة الجمل، وكان ممن بادروا إلى عقر الجمل كي تنتهي المعركة من حوله.

أرسله علي بن أبي طالب هو وبشير الأنصاري للتفاوض مع معاوية بن أبي سفيان، وذلك قبل نشوب القتال في صفين، فلم تؤدي المفاوضات إلى نتيجة لإيقاف الصراع الوشيك، وكان معاوية وسعيد بن قيس قد أغلظوا لبعضهم في الكلام، وكان مما قاله سعيد لمعاوية: والله يا ابن هند لتَغلبنَّ سيوف صاحبنا ما تود أن أمك لم تلدك، ولم تكن في العالمين.

نشبت الحرب في صفين، فراح ضحية هذا الصراع الدامي عشرات الآلاف من المسلمين، وكان لسعيد بن قيس الهمداني حضور بارز في هذا الصراع، فقد كان على راية همدان، وهم جند كثيف في جيش العراق، وفي إحدى أيام تلك الحرب حمل سعيد بن قيس حملة صادقة بقومه، فاقترب من معاوية، وكاد أن يقتله.

وقد أرسل معاوية بن أبي سفيان كتيبة من جند الشام بقيادة عبيد الله بن عمر بن الخطاب للالتفاف على جيش العراق، ففطن لذلك سعيد بن قيس الهمداني، فلقيهم بقوة من جيش العراق، وصدهم وأفشل خطتهم، وكانت قد وقعت أيام مشهودة في هذه الحرب المشؤومة راح ضحيتها خيرة الرجال من الجانبين، قال معاوية يشير لأفعال همدان، وثباتهم لقومه:

لا عيش إلا خلف نحف الهامِ من أرحب وشاكرٍ وشبامِ
قومٌ همُ أعداء أهل الشامِ كم من كريمٍ بطلٍ همامِ
وكم قتيل وجريحٍ دامي كذاك حرب السادة الكرامِ

فقال سعيد بن قيس الهمداني:

لا همّ رب الحِلّ والحرامِ لا تجعل الملك لأهل الشامِ
فالعام عام ليس كالأعوامِ واليوم يومٌ ليس كالأيامِ

وقد كان سعيد بن قيس الهمداني مع فروسيته وورعه وعبادته، شاعرًا أديبًا، ولكن للأسف لم تسعفنا مصادر التاريخ بالكثير من أشعاره، كما كان تابعيا جليلًا، ولكنه قليل الرواية، ربما لانشغاله بالحروب في تلك الفترة.

النعمان بن بشير الأنصاري

قال مفتخرًا:

وإني لأعطي المال من ليس سائلًا وأدرك للمولى المعاند بالظلمِ
وإني متى ما يلقني صارمًا لهُ فما بيننا عند الشدائد من صرمِ
فلا تعدد المولى شريكك في الغنى ولكنما المولى شريكك في العدمِ
إذا مَتَّ ذو القربى إليك برحمة وغشك واستغنى فليس بذي رحمِ
ومن ذاك للمولى الذي سيخفّهُ أذاك ومن يرمي العدو الذي ترمي

الأمير الجواد، والفارس الشاعر، والزعيم السيد، والخطيب العالم، لسان الأنصار واليمانية في زمانه النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري، وأول مولود في المدينة للأنصار بعد مقدم رسول الله، قال الشاعر:

وابن بشيرٍ أول الأنصارِ وُلد بعد مقدم المختارِ

إذًا فالنعمان من صغار الصحابة، وأمه عمرة بنت رواحة أخت عبدالله بن رواحة، وهي من سروات نساء يثرب، وأكثرهن ذكرًا، وأجلّهن قدرًا، وفيها يثني شاعر الأوس قيس بن الخطيم:

أجد بعمرة غنيانها فتهجر أم شأننا شأنها
وعمرة من سروات النساء تنفح بالمسك أردانها

وبما أن النعمان بن بشير من صغار الصحابة، وقد لزم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقد روى الكثير من الأحاديث عنه بلغ

عددها مائة وأربعة عشر حديثًا، وقد كان أبوه بشير بن سعد من شجعان الأنصار، استشهد في معركة عين التمر مع خالد بن الوليد.

كان النعمان بن بشير الأنصاري من المطالبين بالقصاص من قتلة الخليفة عثمان بن عفان، وقد ولي على الكوفة فيما بعد في زمن معاوية بن أبي سفيان، ثم ولّي قضاء الشام، ثم على حمص، وقد كان جوادا كريمًا سمحًا، وكان معتدا بنفسه وقومه، ومن المنافحين عن اليمانية كلها، وله الكثير من نوادر الكرم والجود والسخاء مذكورة في كتب التاريخ.

تعرض الشاعر أعشى همدان ليزيد بن معاوية في محرمه، ولم يعطه، فمر بوالي حمص النعمان بن بشير الأنصاري، فقال له النعمان: ما عندي ما أعطيك، ولكن معي ٢٠ ألفًا من أهل اليمن في حمص، إن شئت سألتهم لك، فقال الأعشى: قد شئت، فصعد النعمان بن بشير الأنصاري على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال لأصحابه: إن أخاكم أعشى همدان قد أصابته حاجة، ونزلت به جائحة، وقد عمد إليكم، فأحكموا على أنفسكم، فقالوا: دينار دينار، قال النعمان: لا، ولكن بين كل اثنين دينار، إن شئتم عجلتها له من بيت المال من عطائكم، ثم قصصتكم إذا خرجت عطاياكم، قالوا: نعم، فأعطى النعمان للأعشى عشرة آلاف دينار، فقال الأعشى الهمداني:

ولم أرَ للحاجات عند انكما شها كنعمان أعني ذا الندى ابن بشيرِ
إذ قال أوفى بالمقال ولم يكن كَمُدلٍ إلى الأقوام حبل غرورِ
فلولا أخو الأنصار كنت كنازلٍ ثوى ما ثوى لم ينقلب بنقيرِ
متى أُكفِر النعمان لم أكُ شاكرًا ولا خير فيمن لم يكن بشكورِ

كان النعمان بن بشير الأنصاري رضي الله عنه من أشد الناس اعتزازًا بهويته وقومه، ومن أكثر المنافحين عن الأنصار واليمانية وتاريخهم، ولطالما اصطدم بمن يتفاخرون على أهل اليمن، أو يحاولون التقليل من شأنهم، وله الكثير من الأخبار والقصص في ذلك، ذات يوم كان النعمان بن بشير في نفر من قومه الأنصار عند باب معاوية، فأراد عمرو بن العاص أن ينتقص منهم، فأمر الحاجب أن لا يناديهم باسم الأنصار، ففعل الحاجب، على الرغم من أن معاوية كان يتجنب سخط الأنصار، وغضبهم عليه، فغضب النعمان بن بشير لذلك، ودخل على معاوية، وهو يقول:

يا سعد لا تعد النداء فمالنا نسبٌ نجيب بهِ سوى الأنصارِ
نسبٌ تخيرهُ الإله لقومنا أثقِل بهِ نسبًا على الكفارِ

وقال فيما قال مفتخرًا بقومه:

عليهن فتيان يراحون للندى يرون عليهم فعل آبائهم نحبا
بهاليل من أولاد قيلة لم يجد عليها رفيقٌ في مصاحبةٍ عتبا

ذات مرة أمر معاوية عامله على المدينة مروان بن الحكم أن يضرب الشاعرين عبدالرحمن بن حسان بن ثابت، وعبدالرحمن بن الحكم مائة سوط لإفحاشهم في الهجاء، فما كان من مروان بن

الحكم إلا أن ضرب عبدالرحمن بن حسان بن ثابت، ولم يضرب أخاه، فاستجار الخزرجي بأخيه النعمان بن بشير، فدخل النعمان على معاوية، وطلب منه أن يأمر مروان بضرب أخيه، وإنصاف عبدالرحمن بن حسان، فكتب معاوية لمروان يأمره بذلك، وكان النعمان قد أنشد معاوية قائلًا:

يا ابن أبي سفيان ما مثلنا جارَ عليه مَلكٌ أو أمير
أذكر بنا مقدم أفراسنا بالحنو إذ أنت إلينا فقيرُ
وأذكر غداة الساعدي الذي آثركم بالأمر فيها بشيرُ (١)

وعندما هجى الشاعر الأخطل الأنصار، وتطاول عليهم، غضبوا لذلك، ووصل الأمر أن النعمان بن بشير قد تفاخر على معاوية نفسه، وهدده، وتوعده إن لم يقتص من الأخطل، وكان الأخطل قد استجار بيزيد خوفًا من الأنصار، وقد رد النعمان بن بشير على الأخطل بقصيدة رائعة يذكر فيها مفاخر اليمانية وتاريخهم، وهي من أجمل قصائده، ومنها:

(١) يذكره أن أباه بشير بن سعد هو أول من بايع أبابكر الصديق في سقيفة بني ساعده، وذلك عندما اجتمع الأنصار لمبايعة سعد بن عبادة.

لنا من بني قحطان سبعون تبّعا أطاعت لها بالخرج منها الأعاجمُ
وحسان ذو الشعبين منّا ويرعشٌ وذو يزن تلك البحور الخضارمُ
ونحن بنينا سد يأجوج فأستوى بأيماننا هل يهدم السد هادمُ
فمن ذا يعادونا من الناس معشرٌ كرامٌ فذو القرنين منا وحاتمُ
وذو الشوذب السمح الذي كان قد علا أحان له حور النساء النواعمُ
ومنا نبي الله هود وصالحٌ وذو الكفل منا والملوك الأعاظمُ

بعد وفاة يزيد بن معاوية، بايع النعمان بن بشير عبدالله بن الزبير، فلما أن وقعت معركة مرج راهط، وتملك مروان بن الحكم، خرج النعمان بن بشير من حمص، فتعقبه نفر من أهل حمص فيهم خالد بن خلي الكلاعي، فقتلوه رضي الله عنه وأرضاه، وذلك عام ٦٥ للهجرة.

إبراهيم بن الأشتر النخعي

قال فيه الشاعر ابن الزبير الأسدي يرثيه:

سأبكي وإن لم تبك فتيان مذحجٍ فتاها إذا الليل التمام تأوّبا
فتىً لم يكن في مرّة الحرب جاهلاً ولا بمطيع في الوغى من تهيبا
أبان أنوف الحي قحطان قتلهُ وأنف نزار قد أبان فأوعبا
فمن يكُ أمسى خائنًا لأميرهُ فما خان إبراهيم في الموت مصعبا

الأمير بن الأمير، والفارس بن الفارس، أخا مذحج الطعان، إبراهيم بن مالك – الأشتر – بن الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعة بن الحارث النخعي المذحجي.

نشأ إبراهيم بن الأشتر النخعي على غرار أبيه شجاعة وصرامة وفروسية وزعامة، وكان لمرافقته أبيه في حروبه وأيامه أثرٌ كبير في تكوين شخصيته، فقد نشأ شابًا تقيا صارمًا وزعيمًا مطاعا في قومه. أما الفروسية والبأس فهو على قدرٍ كبيرٍ منها.

عاش إبراهيم بن الأشتر النخعي فترة تاريخية مليئة بالصراعات العسكرية والسياسية، ولا تتوفر الكثير من المعلومات عن حياته إلا بعدما التحق بالمختار الثقفي الذي خرج على الأمويين، وادعى أنه يطالب بدم الحسين بن علي، بينما كان يعمل لنفسه في الخفاء، وقد طلب أنصار المختار الثقفي منه أن يدعو إبراهيم بن الأشتر للنهوض معه لما عرف عنه من شخصية قوية، فأجابهم إبراهيم بعد تردد، وكان الشعبي مشاركًا معهم.

ثار المختار وإبراهيم بن الأشتر في الكوفة سنة ستة وستين هجرية، وسيطروا عليها بعد أن قتل إبراهيم الأشتر رئيس شرطة الكوفة إياس بن مضارب، وحاصروا عامل الأمويين عبدالله بن مطيع، ثم تمكن من الفرار.

بعد انتشار أمرهم في العراق تولى إبراهيم بن الأشتر إمارة الموصل، ثم جمع جيشه لملاقاة عبيد الله بن زياد الذي أرسله عبدالملك بن مروان باتجاه العراق.

التقى ابن الأشتر وابن زياد بجيشيهما على شاطئ الخازر قرب الفرات، فدارت بينهم معركة شرسة انتصر فيها ابن الأشتر، وتمكن من قتل ابن زياد، وعدد من قتلة الحسين بن علي.

بعد أن قتل المختار الثقفي أرسل ابن الزبير لإبراهيم ابن الأشتر يدعوه لمبايعته، كما أرسل عبدالملك بن مروان يدعوه أيضًا، فاختار ابن الأشتر ابن الزبير؛ لأنه خشي من عبدالملك بن مروان لقتله ابن زياد، وعدد من أشراف الشام، فقدم عبدالملك بن مروان فيما بعد بقواته لمحاربة مصعب بن الزبير، وكان قد راسل أمراء جيش مصعب مرغبًا إياهم، فكشف إبراهيم ابن الأشتر كتاب عبدالملك بن مروان لمصعب بن الزبير، ولم يكتفِ بذلك فحسب، بل حذر مصعب من أن عبدالملك قد كاتب قادة جيشه، ونصحه بأن يحتجزهم، أو ينفيهم إلى مكة غير أن مصعب بن الزبير رفض ذلك، وسار بجيشه إلى دار الجاثليق في مسكن.

دارت معركة شرسة بين محمد بن مروان، وإبراهيم ابن الأشتر قبل يوم واحد من المعركة الأصلية بين عبدالملك بن مروان، ومصعب بن الزبير، فأبدى إبراهيم ابن الأشتر النخعي شجاعة فائقة

وفروسية قل نظيرها، إلا أن معظم الجند قد تخلوا عنه، وخانوه، وأنشق عنه عتّاب بن ورقاء التميمي بجزء من الجيش بعد مكاتبة عبدالملك له، فقاتل ابن الأشتر قتال المستميت حتى قتل، وقد اختلف المؤرخون في تاريخ مقتله، فالبعض يرى أنه قتل في عام ٧١ للهجرة، والبعض يقول في ٧٢ للهجرة، وكان له مرقد يزار في مدينة سامراء بالعراق، وفي عام ٢٠٠٥ للميلاد قام مجهولون بتفجيره.

معاوية بن خديج التجيبي

القائد الفاتح، والفارس النبيل، أحد زعماء العرب اليمانية في زمانه، أخو كندة الملوك، معاوية بن خديج بن جفنة بن قتيرة التجيبي الكندي، أبو نعيم، صحابي على قول أكثر المؤرخين، وممن استقروا في مصر بعد فتحها.

بعد وفاة النبي -عليه الصلاة والسلام- شارك معاوية بن خديج التجيبي الكندي في الفتوحات الإسلامية لبلاد الروم، ومنها معركة اليرموك، حيث أبلى البلاء الحسن، ثم كان من القادة المشاركين في فتح مصر، واستقر فيها مدة من الزمن.

شهد معاوية بن خديج التجيبي قتال البربر في أفريقيا، وولي قيادة الكثير من الحروب في بلاد المغرب، ثم كان قائدا للكتائب الإسلامية في فتح مناطق واسعة من أفريقيا، ثم اجتاح بقواته بلاد النوبة، وقد خاض هناك حروبًا شرسة تجلت فيها براعته القيادية العسكرية بوضوح، وقد أصيبت عينه في إحدى المعارك تلك، وأصبح أعورًا.

وفي سنة ٤٤ هجرية قاد معاوية بن خديج التجيبي قوات بحرية إسلامية، وشن هجومًا مفاجئًا على صقلية، ثم ولي على برقة سنة ٤٧ هجرية، ثم ولي على مصر كلها، فلم يزل بمصر حتى وفاته عام ٥٢ هجرية.

كان هذا القائد اليماني الفذ من أول الرجال الذين تنبهوا للصراع القائم في تلك الفترة، عندما رأى إخوته العرب اليمانية يتناحرون فيما بينهم ليحكمهم غيرهم، وقال مقولته المشهورة لأهله اليمانية:

يا أشقائي وأصحابي وخيرتي، أنقاتل لقريش في الملك حتى إذا استقام لهم وقعوا يقتلوننا، والله لئن أدركتها ثانية بمن أطاعني من اليمانية لأقولن لهم اعتزلوا بنا قريشًا، ودعوهم يقتل بعضهم بعضًا[1].

وقد قال كلماته هذه بعد أن قام معاوية بن أبي سفيان بقتل حجر بن عدي الكندي، فقد غضب معاوية لذلك غضبًا شديدا مع أنه كان من المناصرين لعثمان، ومن المناهضين لعلي بن أبي طالب.

وقد روى أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن الأحاديث التي رواها، قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: "غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها".

توفي القائد الفاتح، والزعيم المطاع، والفارس الشهم معاوية بن خديج التجيبي الكندي في مصر سنة ٥٢ للهجرة، ودفن بها.

(١) أقول: لا زالت هذه العقدة تلاحق جزءاً كبيراً من اليمنيين، فهم يتقاتلون ليحكمهم غيرهم.

الإمام مسروق بن الأجدع الهمداني

الإمام القدوة، والعلم الثقة، مفتي الكوفة، وأحد كبار التابعين والصالحين، ومن المخضرمين الذين أسلموا في حياة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أبو عائشة مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية بن عبدالله بن مُر بن سلامان بن معمر بن الحارث بن سعد بن عبدالله الوادعي الحاشدي الهمداني.

سُرِق وهو صغير، ثم وُجِد، فسمي مسروقًا، وكان أبوه الأجدع بن مالك من أفرس فرسان اليمن في زمانه، ومن أبطال همدان أحلاس الخيل، ويذكر البعض أن مسروقًا ابن أخت فارس العرب عمرو بن معدي كرب الزبيدي المذحجي.

روى الشعبي عن مسروق أنه قال: لقيت الفاروق عمر بن الخطاب، فقال لي: ما اسمك؟ فقلت: مسروق بن الأجدع، فقال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: "الأجدع شيطان"، أنت مسروق بن عبدالرحمن، قال الشعبي: فرأيته في الديوان باسم مسروق بن عبدالرحمن.

كان مسروق بن الأجدع الهمداني من أكثر البشر طلبًا للعلم في زمانه، قال الإمام الشعبي: ما علمت أحدا كان أطلب للعلم في أفق من الآفاق من مسروق.

وقال أبو السَّفر: ما ولدت همدانية مثل مسروق.

شارك مسروق بن الأجدع في بعض معارك الفتح الإسلامي، وقد ذكر ابن الكلبي أن يد مسروق بن الأجدع أصيبت، وشُلت في القادسية.

عندما وقعت أحداث الفتنة، والصراع بين علي ومعاوية، لم يشارك مسروق في ذلك، وكان من الواعظين الناصحين من الفتن، قيل له: أبطأت عن علي، وعن مشاهده، فقال: أرأيتم لو أنه صف بعضكم لبعض، فنزل بينكم ملك، فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، (النساء: ٢٩)، أكان ذلك حاجزًا لكم؟ قالوا: نعم، قال: فوالله لقد نزل بكم ملك كريم على لسان نبيكم، إنها لمحكمة ما نسخها شيء.

وللإمام مسروق الكثير من الأقوال المأثورة، ومنها قوله: لئن أقضي بقضية وفق الحق أحب إلي من رباط سنة في سبيل الله، أو قال من غزو سنة.

ومن أقواله المأثورة: كفى بالمرء علمًا أن يخشى الله تعالى، وكفى بالمرء جهلًا أن يعجب بعمله، وقال: من سرّه أن يعلم علم الأولين والآخرين، وعلم الدنيا والآخرة، فليقرأ سورة الواقعة.

توفي الإمام مسروق بن الأجدع الهمداني رحمه الله سنة ٦٢ للهجرة، وقيل ٦٣ للهجرة، ودفن في منطقة واسط.

حسان بن مالك بن بحدل الكلبي

أبو سليمان، أمير بادية الشام، وأحد عظماء العرب اليمانية في عصره، حسان بن مالك بن بحدل بن أنيف بن دلجة بن قنافة بن عدي بن زهير بن جناب الكلبي، وبنو كلب كما هو معروف من قبائل قضاعة الحميرية اليمانية العريقة.

نشأ حسان بن مالك بن بحدل في بيت إمارة وزعامة في بني كلب، إحدى أشرس القبائل اليمانية التي استوطن جزء كبير منها بادية الشام، وهو من أحفاد زهير بن جناب الكلبي الغني عن التعريف.

ارتبط اسم حسان بن مالك بن بحدل الكلبي بأشد فترة من فترات الصراع الدامي بين العرب اليمانية، والعرب القيسية، خلال العهد الأموي، وقد كانت عمته ميسون بنت بحدل الكلبية زوجة لمعاوية بن أبي سفيان، وكان من قادة جند الشام في معارك صفين، ثم ولي على فلسطين.

بعد موت يزيد بن معاوية، بويع ابنه الصغير معاوية بن يزيد بالخلافة، ثم جاء الضحاك بن قيس بجموع كبيرة من القبائل القيسية، ومن معهم، فنزلوا بمنطقة الجابية، وخرج مروان بن الحكم، ومعاوية بن يزيد، وحسان بن مالك بن بحدل، ونزلوا بالقرب من جموع القيسية، وتدخل العقلاء منهم للتشاور، وخلال تلك الفترة كانت أمور الدولة بيد حسان بن مالك الكلبي، قال ابن الكلبي: سلموا على حسان بن مالك بن بحدل الكلبي بالإمارة أربعين ليلة، ثم اتفقوا

على بيعة مروان بن الحكم، وكان حسان بن مالك هو من يصلي بالناس.

لم يتفق الطرفان، ونشبت معركة مرج راهط الدامية، جموع القيسية بقيادة الضحاك بن قيس، واليمانية بقيادة حسان بن مالك بن بحدل تؤازر مروان بن الحكم، والشاب معاوية بن يزيد، وقد راح ضحية هذه المعركة آلاف القتلى، وانهزمت القيسية، وقتل أميرهم الضحاك، وفر زفر بن الحارث القيسي، وقال قصيدته التي توضح مدى الحقد بين قيس ويمن في تلك الفترة، قال منها، وهو يعني حسان بن مالك:

لعمري لقد أبقت وقيعة راهط لحسان صدعا بيننا متماديا
أيذهب يوم واحد إن أسأتهُ بصالح أيامي وحسن بلائيا
فلا صلح حتى تشحط الخيل بالقنا وتثأر من نسوان كلبٍ نسائيا

وقد استغل الكلبيون هذا النصر استغلالًا قبيحًا، وعدُّوه يوم من أيام العرب في الجاهلية، قال جواس الكلبي:

كم من أمير قبل مروان وابنهِ كشفنا غطاء الموت عنه فأبصرا
إذا فاخر القيسي فأذكر بلاءهُ برزّاعة الضحّاك شرقي جوبرا

وقال حسان بن مالك بن بحدل الكلبي بيته الشهير الذي يصف قوة العرب اليمانية، وتماسكهم في تلك الفترة التاريخية:

فإن لم يكن منا الخليفةُ وابنهُ فما نالها إلا ونحن شهود

وقال شاعر يماني آخر:

نزلنا لكم عن منبر الملك بعدما ظللتم وما إن تستطيعون منبرا

بويع مروان بن الحكم بالخلافة على أن يليها بعده الشاب معاوية بن يزيد بن معاوية، ثم حسان بن مالك الكلبي، لكن الأمور سرعان ما تغيرت، وانتقل الحكم نهائيا من بيت أبي سفيان إلى بيت مروان بن الحكم، إلى أن انتهت دولة بني أمية.

كانت لحسان بن مالك بن بحدل الكلبي مكانة كبيرة عند أهل الشام، وله كلمته النافذة المسموعة، كيف لا وسيوف بني كلب القضاعية الحميرية تؤيده وتناصره، وكان له قصر عظيم في دمشق، وهو قصر البحادلة، ثم أصبح يعرف فيما بعد بقصر ابن أبي الحديد.

رجاء بن حيوة الكندي

الحكيم الناصح، والوزير العدل، وأحد كبار التابعين، ومن الأئمة المشهورين، رجاء بن حيوة بن جندل بن الأحنف بن السمط بن امرئ القيس الكندي، أبو نصر، أحد زعماء العرب ورؤوسهم في بلاد الشام، فلسطيني المولد. قال الأصمعي: سمعت ابن عون يقول: رأيت ثلاثة ما رأيت مثلهم، محمد بن سيرين بالعراق، والقاسم بن محمد بالحجاز، ورجاء بن حيوة بالشام.

تعلم وتتلمذ رجاء بن حيوة على يد ثلة من الصحابة الأخيار، وعلى يد أمهات المؤمنين، فبلغ من العلم مكانة كبيرة، دفعت مكحول، وهو من كبار التابعين عندما تعرض له مسألة يقول: سلوا شيخنا، يريد رجاء بن حيوة.

كان رجاء بن حيوة رجلًا حكيمًا ناصحًا للخلفاء والأمراء في العهد الأموي، وهو صاحب المشورة المشهورة لسليمان بن عبدالملك بتولية عمر بن عبدالعزيز، واستطاع إقناعه بذلك، وهذا الموقف المشهود دليل على حكمة هذا الرجل وحبه للخير، ولو لم يكن له غير هذا الموقف لكفاه.

حدث رجاء بن حيوة الكندي عن معاذ بن جبل، وعن أبي الدرداء، وعبادة بن الصامت، وعندما قدم رجاء بن حيوة إلى الكوفة سمع منه جمع، ومنهم قتادة، وأبو إسحاق، قال فيه مسلمة بن عبدالملك: برجاء بن حيوة وأمثاله نُنصر.

كان رجاء بن حيوة الكندي مع مكانته وحلمه وعلمه، ذا تقوى وورع، وكان من الناصحين والمحذرين من الفتن بين المسلمين،

وله الكثير من المواقف المشهورة والأقوال المأثورة، ومن كلماته: الحلم أرفع من العقل؛ لأن الله تسمى به، وقال: ما أحسن الإسلام يزينه الإيمان، وما أحسن الإيمان يزينه التقى، وما أحسن التقى يزينه العلم، وما أحسن العلم يزينه الحلم، وما أحسن الحلم يزينه الرفق.

ومن أقواله: من لم يؤاخ من الإخوان إلا من لا عيب فيه قلّ صديقه، ومن لم يرض من صديقه إلا بإخلاصه له دام سخطه، ومن عاتب إخوانه على كل ذنب كثر عدوه.

قال فيه مطر الوراق: ما رأيت شاميا أفقه من رجاء، وسأل هشام بن عبدالملك: من سيد فلسطين؟ قالوا: رجاء بن حيوة، وقال مكحول: رجاء سيد أهل الشام في أنفسهم.

توفي رجاء بن حيوة الكندي رحمه الله سنة مائة وعشرة، وقيل مائة واثني عشرة للهجرة، عن عمر يناهز الثمانين عامًا.

المهلب بن أبي صفرة الأزدي

قال الشاعر:

أمسى العباد لعمري لا غياث لهم إلا المهلب بعد الله والمطرُ
هذا يجود ويحمي عن ديارهمُ وذا يعيش به الأنعام والشجرُ

مقدم الجيوش والكتائب، القائد العسكري الفذ، والسيد الكريم المطاع، أخو الأزد الكهلانية السبأية اليمانية العريقة، أبو سعيد، المهلب بن أبي صفرة – واسمه ظالم – بن سراق بن صبح بن كندي بن عمرو بن عدي بن وائل بن الحارث العتكي الأزدي، من أزد عمان.

أسلم أبوه في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقيل إنه وفد عليه، وقال آخرون إنه وفد المدينة أيام عمر بن الخطاب، ثم استقر في البصرة من أرض العراق.

ظهرت علامات النجابة والذكاء والدهاء على المهلب بن أبي صفرة وهو شاب صغير، رآه ذات يوم عمر بن الخطاب، فقال لأبي صفرة: هذا سيد ولدك.

ما إن شب المهلب بن أبي صفرة الأزدي حتى انبرى للمشاركة في الفتوحات الإسلامية، وقد ذكرت بعض المصادر التاريخية أن أولى مشاركاته كانت في غزو سجستان تحت إمرة عبدالرحمن بن سمرة، وقد ظهرت كفاءته وخبرته الميدانية منذُ البداية، مما جعله يترقى في المناصب القيادية، ثم شارك في غزو بلاد السند والهند،

وفي غزوة جبل الأشل عندما حُوصر المسلمون من قبل الترك، وأشرفوا على الفناء، قاد المهلب المعركة ببراعة، فلم يزل يناور ويحتال حتى أسر أحد قادة الترك، وخيره بين القتل أو أن يدلهم على طريق لينجوا من الحصار المفروض عليهم، وبالفعل نجوا وغنموا.

ثم شارك بقوة في فتح سمرقند، وقد أصيبت عينه فيها، وقال في ذلك[1]:

لئن ذهبت عيني لقد بقيت نفسي وفيها بحمد الله عن تلك ما ينسي
إذا جاء أمر الله أعيا خيولنا ولا بد أن تعيا العيون لدى الرمسِ

في تلك الفترة من العهد الأموي كانت الصراعات القبلية بين اليمانية والقيسية على أشدها، وقد حاول المهلب بن أبي صفرة أن ينأى بنفسه عن تلك الصراعات، وقد ذكر الطبري: عندما خرج سلم بن زياد من خراسان، خلف عليها المهلب بن أبي صفرة، فلما كان بسرخس لقيه سليمان بن مرثد، من بني قيس بن ثعلبة، فقال له: من خلفت على خراسان؟ قال: المهلب بن أبي صفرة، قال: ضاقت عليك نزار حتى وليت رجلًا من أهل اليمن! ثم إن المهلب استخلف رجلًا من بني جشم بن سعد من تميم، ثم عاد المهلب إلى خراسان فيما بعد واليا من قبل عبدالله بن الزبير.

بعد أن مهد المهلب لفتح بلاد السند ومدينة خجندة على نهر سيحوت، وقام بهجوم خاطف، واستعاد منطقة الختل، أعيد واليا على خراسان مرة أخرى، وكان الأزارقة في تلك الفترة، وهم أشد

(١) وفي هذه الغزوة أيضًا أصيبت عين الفارس اليماني وأحد أجواد العرب طلحة بن عبدالله الخزاعي الملقب بطلحة الطحات.

فرق الخوارج، قد ولّوا نافع بن الأزرق، كانوا قد انتشروا في الأهواز والبصرة، وما وراء بلاد فارس، وقويت شوكتهم، وكانوا قد بايعوا ابن الزبير، ثم تركوه، واختلفوا معه، توجه الخوارج إلى البصرة، فبلغ خبرهم أهل البصرة، فأصابهم الهلع، وهرب جزء منهم خارج البصرة، ولجأ قسم آخر إلى الأحنف بن قيس لينقذ الأمر، فما كان من الأحنف بن قيس والحارث بن عبدالله – والي البصرة – إلا أن أجمع أمرهم على تولية المهلب حرب الخوارج، فهو الوحيد القادر على إيقافهم وإنقاذ البصرة، وأخذوا يفكرون كيف السبيل لإقناع هذا القائد الفذ على قبول هذه المهمة، فقاموا بكتابة كتاب على لسان ابن الزبير يأمر المهلب بحرب الخوارج.

قرأ المهلب الكتاب، واشترط عليهم قائلًا: فإني والله لا أسير إليهم إلا أن تجعلوا لي ما غلبت عليه، وتعطوني من بيت المال ما أقوِّي به من معي، وانتخب من فرسان الناس ووجوههم وذوي الشرف من أحببت.

فوافقوا على شروطه، فانتخب من فرسان الناس وأبطالهم جيشًا، كان جل من فيه من الأزد، ومن اليمانية[1]، وقد كان الخوارج بقيادة ابن الأزرق قد هزموا عددًا من الجيوش، وقتلوا قادتها، ولم يثبت لهم أحد، قال ابن عرادة:

(١) قيل في الجيش ثمانية آلاف من الأزد فقط، واثنا عشر ألفًا من بقية العرب.

مضى ابن عبيس مسلم لسبيله فقام لها الشيخ المجازي عثمانَ
فأرعد من قبل اللقاء ابن معمرٍ وأبرق والبرق المجازي فوّانُ
ولم ينك عثمان جناح بعوضةٍ وأضحى عدو الدين مثل الذي كانوا
وليس لها إلا المهلب أنهُ مليء بأمر الحرب شيخ له شأنُ
إذا قيل من يحمي العراقين أومأت إليه مَعد بالأكف وقحطانُ
فذاك امرؤ أن يلقهم يطفِ نارهم وليس لها إلا المهلّب إنسانُ[1]

سار القائد الفارس اليماني المهلب بن أبي صفرة بقواته نحو الخوارج، وكان على مقدمة الجيش ابنه المغيرة بن المهلب، وكان على غرار أبيه شجاعة وفروسية، فالتقى بالخوارج في أولى معاركه معهم على ضفاف نهر تستر، فالتحم معهم في قتال مرير فهزمهم، وقد أدرك الخوارج أن هذا القائد ليس كمن سبقوه، فارتحلوا نحو الأهواز، قال زياد الأعجم:

جزى الله خيرًا والجزاء بكفه أخا الأزد عنا ما أذب وأحربا
ولما رأينا الأمر قد جد جدهُ وإلا توارى دوننا الشمس كوكبا
دعونا أبا غسان فاستك سمعهُ وأحنف طأطأ رأسهُ وتهيبا
وكان ابن منجوف لكل عظيمةٍ فقصّر عنها حبلهُ وتذبذبا
فلما رأينا القوم قد كلَّ حدهم لدى حربهم فيها دعونا المهلبا

ثم سار المهلب بقواته في آثار الخوارج باتجاه الأهواز، فالتقى بهم في منطقة نسلى، فقاتلهم من الصباح إلى الليل، فأصيب المهلب

(١) مسلم بن عبيس القرشي، وعثمان بن معمر القرشي اثنين من قادة الجيوش الذين قتلهم الخوارج، وهزموا جيوشهم.

في تلك المعركة، وقتل فيها زعيم الخوارج نافع ابن الأزرق، وانهزم الخوارج، وتوجهوا نحو فارس.

قال أحد شعراء الخوارج بعد مقتل زعيمهم نافع بن الأزرق:

شمت المهلب والحوادث جمّة والشامتون بنافع بن الأزرقِ
فلئن منينا بالمهلب أنهُ لأخو الحروب وليث أهل المشرقِ
فيذيقنا في حربنا ونذيقهُ كلٌّ مقالته لصاحبهِ ذُقِ

ثم إن الخوارج ولّوا أمرهم عبدالله بن الماحوز.

ثم لحق بهم المهلب، فالتقى بهم في مدينة سابور من أرض فارس، فقاتلهم أشد قتال، فانهزموا، ثم لحق بهم في منطقة تدعى كركان، فالتقوا في يوم شديد المطر، فاقتتلوا، فهزمهم، وهكذا بقي يلاحقهم طوال مدة إمارة ابن الزبير حتى تولى عبدالملك بن مروان، وولى أمر العراق إلى الحجاج بن يوسف، فأرسل الحجاج الرسل إلى المهلب لمناجزة الخوارج، فأخذ المهلب الرسل معه كي يروا شراسة الخوارج في الحرب، فتقاتلوا، فقتل ابن الماحوز، وولى الخوارج أمرهم أحد عظمائهم وهو قطري بن الفجاءة.

وفي يوم النحر خرج الناس إلى المصلى، وبينما المهلب يخطب، إذ أقبلت عليهم الخوارج، فنزل المهلب عن المنبر، وركب الناس، فاقتتلوا أشد قتال لم يحل بينهم إلا الليل، ثم انحازت الخوارج إلى منطقة تدعى كازرون، فلحقهم المهلب، فقاتلهم، ثم خرجوا إلى اصطخر، فتبعهم، ولم يمهلهم، فالتقوا هناك، وأمام الخوارج رجل يرتجز:

حتى متى يتبعنا المهلبُ ليس لنا في الأرض عنهُ مهربُ
ولا السماء أين أين؟ المذهبُ

فلما سمع ذلك قطري بن الفجاءة بكى، وباشر الحرب بنفسه، وقال مرتجزًا:

حتى متى تخطئني الشهادة والموت في أعناقنا قلادة
ليس الفرار في الوغى بعادة يا رب زدني في التقى عبادة
وفي الحياة بعدها زهادة

واستمرت الحروب الضارية بين المهلب والخوارج زهاء عشرين سنة، وكان من أثقل الناس عليهم، أسموه الساحر والأعور والكاهن، فقد كانوا لا يرسمون الخطة لمهاجمته إلا سبقهم إليها، ولا يبيتون قواته إلا وجدوه على تعبئة، قال فيه قطري بن الفجاءة: المهلب من عرفتموه إن أخذتم بطرف ثوب أخذ بطرفه الآخر، يمده إذا أرسلتموه، ويرسله إذا مددتموه، ولا يبدأكم إلا أن تبدأوه ما إن يرى فرصة، فينتهزها، فهو الليث المبر، والثعلب الراوغ، والبلاء المقيم.

ثم ولى الخوارج أمرهم عبدربه، فحاربه المهلب إلى أن قتل، وانسحب قطري بن الفجاءة، وكان من عظماء الفرسان العرب، إلى منطقة الري، فلحق به سفيان بن الأبرد الكلبي القضاعي الحميري، وإسحاق بن محمد بن الأشعث الكندي في عدد من الفرسان، فلحقوه بتخوم طبرستان، وكان وحيدا منهكًا، فقتل، وقطري بن الفجاءة هو القائل:

أقول لها وقد طارت شعاعًا من الأبطال ويحك لا تراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم عن الأجل الذي لك لم تطاعِ
فصبرًا في مجال الموت صبرًا فما نيل الخلود بمستطاع
سبيل الموت غاية كل حيٍّ وداعيه لأهل الأرض داعي

ثم تشتت الخوارج، وانهزموا، فلما قدم المهلب بن أبي صفرة إلى العراق، قال الحجاج بن يوسف: يا أهل العراق أنتم عبيد المهلب.

وقد كان المهلب هو أول من اخترع الركب الحديدية، وقد كانت من الخشب، وسرعان ما تنقطع، فأمر المهلب، فضربت الركب من الحديد.

لم يشتهر المهلب بن أبي صفرة في تاريخه وشخصيته بمهارته العسكرية القيادية وفروسيته وشجاعته فحسب، بل كان سيدا مطاعا كريمًا معطاءً ذا عقل وحكمة وحلم ودهاء، وقد كان زعيمًا للأزد في زمانه، وكانوا ينادونه سيد أهل العراق، وله الكثير من أخبار الكرم والجود والسخاء والحلم، ومن أخبار كرمه، فقد روي يومًا أنه أقبل من إحدى غزواته، فتلقته امرأة، فقالت له: أيها الأمير، إني نذرت إن أنت أقبلت سالمًا أن أصوم شهر، وتهب لي جارية وألف درهم، فضحك المهلب، وقال: قد وفينا نذرك، فلا تعودي لمثلها، فليس كل أحد يفي لك به.

ووقف له رجل ذات يوم، فقال: أيها الأمير، أريد منك حُويجة – تصغير حاجة–، فقال المهلب: أطلب لها رجيلًا –تصغير رجل– يعني أن مثله لا يسأل إلا حاجة عظيمة، ومن أخبار حلمه أنه مر يومًا بالبصرة، فسمع رجلًا يقول: هذا الأعور قد ساد الناس، ولو خرج

إلى السوق لا يساوي أكثر من مائة درهم، فبعث إليه المهلب بمائة درهم، وقال: لو زدتنا في الثمن زدناك في العطية، وهو القائل: عجبت لمن يشتري العبيد بماله، ولا يشتري الأحرار بأفضاله، قال عنه أبو إسحاق السبيعي: لم أر أميرًا أيمن نقيبة، ولا أشجع لقاء، ولا أبعد مما يكره، ولا أقرب مما يحب من المهلب.

وقد كان للمهلب الكثير من الولد، ومعظمهم على غرار أبيهم زعامة وكرم وشجاعة وفروسية، قال أحد فصحاء العرب للحجاج[1]، يصفهم، وقد أجاز وأبلغ: هم حماة السرح نهارًا، فإذا أليلوا، ففرسان البيات، وقد جمع المهلب بنيه قبل موته، وأوصاهم، ووعظهم بأجمل المواعظ، وولى عليهم يزيد بن المهلب، ثم توفي سنة ثلاث وثمانين للهجرة في قرية تسمى زاغول من أعمال مرو الروذ بخراسان، وقد قال فيه الشاعر نهار بن توسعة التميمي يرثيه:

ألا ذهب المعروف والعز والغنى ... ومات الندى والجود بعد المهلبِ
أقام بمرو الروذ رهن ضريحهِ ... وقد غيبا عن كل شرقٍ ومغربِ
إذا قيل أي الناس أولى بنعمةٍ ... على الناس قلنا هو ولم نتهيبِ

(١) كان الحجاج يحسدهم ويتخوف منهم.

الإمام الشعبي

أرسل الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان رسولًا إلى ملك الروم، فأعجب ملك الروم بذكاء الرسول، وفصاحته، فأعطاه رسالة مختومة إلى عبدالملك بن مروان.

عاد الرسول إلى الخليفة عبدالملك، وقدم له رسالة ملك الروم، فقرأها عبدالملك بن مروان، وسأل رسوله قائلًا: هل قال لك ملك الروم شيئًا عندما أعطاك الرسالة؟ قال: سألني هل أنا من أهل بيت الخليفة؟ فقلت له: بل أنا رجل من عامة العرب، فأراد الرسول أن يخرج من مجلس عبدالملك، فلما بلغ الباب رَدّه إليه، وقال: أتدري ما في الرسالة؟ قال: لا، فدفعها عبدالملك إلى الرسول، فقرأها، فإذا فيها: عجبت لقوم فيهم مثل هذا، وقد ملكوا غيره! قال الرسول: إنما قال ذلك يا أمير المؤمنين؛ لأنه لم يرك، قال عبدالملك: أتدري لمَ كتبها؟ قال: لا، قال عبدالملك: قد حسدني عليك، وأراد أن يغريني بقتلك، فلما بلغ ذلك ملك الروم فيما بعد قال: لله در أبيه، والله ما أردت إلا ذلك.

هذا الرسول هو علّامة العصر، الإمام القدوة، والفقيه الثقة، والعابد الزاهد، أبو عمرو عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار الشعبي الهمداني اليماني، وجده ذو كبار قيل من أقيال اليمن المشاهير.

ولد سنة إحدى وعشرين هجرية في خلافة عمر بن الخطاب، وكان عامر الشعبي ضئيلًا نحيفًا، ولد هو وأخٌ له توأمان.

جد عامر بن شراحيل الشعبي في طلب العلم، واجتهد فيه، وقد أدرك الكثير من صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فكان من أعلم الناس، وقد سُئِل ذات يوم، من أين لك كل هذا العلم؟ قال: بنفي الاغتنام، والسير في البلاد، وصبر كصبر الحمام، وبكور كبكور الغراب، وقال مكحول: ما رأيت أحدا أعلم من الشعبي، وقال ابن سيرين: قدمت الكوفة وللشعبي حلقة عظيمة، والصحابة يومئذٍ كثير، وقال عاصم بن سليمان: ما رأيت أحدا أعلم بحديث أهل الكوفة والبصرة والحجاز والآفاق من الشعبي.

وقال ابن عينية: علماء الناس ثلاثة، ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه، وقال الذهبي: كان الشعبي إمامًا حافظًا فقيها ثبتًا متقنًا، وكان الشعبي يرحمه الله يقول: ما كتبت سوداء في بيضاء قط، وما سمعت من رجلٍ حديثًا قط، فأردت أن يعيده علي، وذلك لشدة حفظه.

كان الإمام عامر بن شراحيل الشعبي الهمداني رحمه الله فيمن خرج من القرّاء على الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان خروجهم مع القائد عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي، وحضر الشعبي في معركة دير الجماجم التي أشرف الحجاج فيها على الهزيمة، ثم انخذل الناس بعدها عن ابن الأشعث.

اختفى الإمام الشعبي مدة، ثم ذهب بنفسه إلى الحجاج بن يوسف، فلما رآه الحجاج قال: هيه يا شعبي، فقال الشعبي: أصلح الله الأمير، أحزن بنا المنزل، واستجلسنا الخوف، فلم نكن فيما فعلناه بالأتقياء البررة، ولا بالأقوياء الفجرة، فقال الحجاج: لله درك يا شعبي، ثم عفى عنه.

كان للإمام الشعبي منزلة عظيمة عند الخليفة عبدالملك بن مروان، وله الكثير من الأحاديث والأقوال المأثورة معه، سأله عبدالملك ذات يوم يا شعبي ما العلم؟ قال: العلم يقربك من الجنة، ويبعدك من النار، قال: يا شعبي فما العقل؟ قال: ما يعرّفك عواقب رشدك، ومواقع غيك، قال: يا شعبي متى يعرف الرجل كمال عقله؟ قال: إذا كان حافظًا للسانه، مداريا لأهل زمانه، مقبلًا على شأنه.

ومع هذا العلم الغزير والمنزلة الرفيعة كان الشعبي رحمه الله كريمًا جوادا حسن الخلق والمعاملة، قدم عليه ذات يوم جرير بن يزيد بن جرير بن عبدالله البجلي اليماني، فدعا له الشعبي بوسادة، فقال له من عنده: حولك أشياخ وجاء هذا الغلام، فدعوت له بوسادة؟! قال: نعم، إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد ألقى لجده جرير بوسادة، وقال: إذا أتاكم كريم قوم، فأكرموه.

وكان رحمه الله ذا دعابة وروح مرحة، لقيه ذات يوم رجلٌ مغفلٌ، ومعه امرأة تسير، فسأل المغفل: أيكم الشعبي؟ قال الشعبي: هذه.

وسأله رجلٌ قائلًا: يا شعبي ما اسم امرأة إبليس؟ قال الشعبي: ذاك عرس لم أشهده.

وله الكثير من الأقوال المأثورة، ومنها قوله: والله لو أصبت تسعا وتسعين مرة، وأخطأت مرة واحدة، لأعدوا على تلك الواحدة.

وبعد حياة حافلة بالعطاء في ميدان العلم الشرعي والفقه توفي الإمام عامر الشعبي رحمه الله سنة مائة وأربعة للهجرة، تاركًا للتاريخ الإسلامي صفحات من نور ستبقى مضيئة ما بقي تاريخ الإسلام.

سفيان بن الأبرد الكلبي

علم بارز من أعلام اليمانية، ورمز من رموز البطولة والشجاعة والفروسية أحد صناديد العرب والمسلمين، ومن القادة الفاتحين، لم ينصفه الكُتَّاب والمؤرخون كغيره الكثيرين من الهامات اليمانية.

أبو يحيى سفيان بن الأبرد بن أبي أمامة بن قابوس بن سفيان بن ثعلبة بن حارثة بن جناب الكلبي القضاعي الحميري، كان كما قيل في وصفه: أول الخيل إن أغارت، وآخرها إن استدارت، سريع في طعن الرماح، وضرب السيوف، خبير في منازلة الفرسان، بطل مقدام ومحارب عنيد، لا يعرف الهزيمة، ولا تستحي الأبطال أن تفر منه، وكان مع ذلك كله كريمًا جوادا معطاءً، قال فيه أعشى بن أبي ربيعة:

صب أبو يحيى على كل مارقٍ كما صب بزيار على صيدهِ صقرا
ألا انظر هداك الله في شأن حاجتي فمثلك أعطى الخير واحتسب الأجرا

ولد سفيان بن الأبرد الكلبي في بلاد الشام، وقد كانت قبيلة كلب القضاعية الحميرية متواجدة في تلك البلاد منذُ ما قبل البعثة بزمن طويل، ونشأ سفيان نشأة صالحة، فقد عرف شابًا تقيا ورعا متصفًا بمكارم الأخلاق.

شارك سفيان بن الأبرد في شبابه في محاولة فتح القسطنطينية الأولى، وقد أصيب هناك إصابة بالغة جعلت منه عقيمًا، فلم ينجب له ولد.

ثم ظهر دور الفارس الشاب سفيان بن الأبرد في معركة مرج راهط الشهيرة، التي دارت بين الضحاك بن قيس ومن معه من القبائل القيسية المناصرة لابن الزبير، وبين القبائل اليمانية المناصرة للأمويين بزعامة مروان بن الحكم، وكانت قبيلة سفيان بن الأبرد وهم بني كلب رأس حربة في هذه المعركة الدامية بقيادة زعيمهم حسان بن مالك بن بحدل الكلبي، إذ انتصرت اليمانية وثبتت الخلافة لمروان بن الحكم، وحسم الموقف في بلاد الشام لصالح الأمويين، وقد كان لهذه المعركة المشؤومة أثر بالغ في تعميق هوّة الصراع اليماني القيسي خلال تلك الحقبة وما تلاها، وكان لهذا الصراع فيما بعد أثر كبير في انهيار دولة بني أمية.

برز سفيان بن الأبرد الكلبي قائداً عسكرياً من الطراز الأول ومحارب صعب المراس قوي الشكيمة، وذو خبرة واسعة في إدارة المعارك، اتعب خصومه فيما بعد، ولم يصلوا معه إلى شيء، وكان ذو ذكاء حادّ، وعلى معرفة بتدابير الحروب، وكان النصر دومًا في لوائه، وقد أثبتت الأحداث الدامية فيما بعد أن هذا القائد الفارس من أعظم القادة العسكريين خلال تلك الحقبة المليئة بالصراعات.

أدرك الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان المعروف بذكائه مدى أهمية وجود عدد من القادة اليمانية إلى جانبه، ومنهم سفيان بن الأبرد الكلبي، والمهلب بن أبي صفرة الأزدي وغيرهم، فأخذ يستميلهم إليه، ويوكل إليهم الكثير من المهام الصعبة، وكما يقال: فإن الدولة الأموية قامت على أكتاف اليمانية.

شارك سفيان بن الأبرد في حصار زعيم القبائل القيسية زفر بن الحارث القيسي، ثم كان له بصمة بارزة في هزيمة جيش مصعب بن الزبير، في معركة دار الجاثليق.

في تلك الفترة كان الخوارج قد قويت شوكتهم، ودوخوا الجيوش الأموية، وكان قائدهم أبو الضحاك شبيب بن يزيد الشيباني من أشجع أهل زمانه، ومن فرسان العرب الذين قل نظيرهم، فكان الحجاج كلما أرسل لهم جيشًا هزموه شر هزيمة حتى يأس الجميع من حربهم.

بلغ الخليفة الأموي خبر الهزائم المتلاحقة التي وقعت بجيوش الحجاج بن يوسف من قبل الخوارج، فقرر أن يرميهم بداهية الحروب، وفتى المعارك، أخي قضاعة الحميرية، سفيان بن الأبرد، فأرسله على رأس جيش من أهل الشام، فلما وصلوا العراق قال الحجاج لأهل الكوفة: لا أعز الله من أراد بكم العز، ولا نصر الله من أراد بكم النصر... إلى آخر خطبته، ثم وقعت معركة رهيبة هزم فيها الحجاج في اليوم الأول، وانتصر شبيب بن يزيد، وفي اليوم الثاني قدّم الحجاج القائد المظفر سفيان بن الأبرد الكلبي، وجعله في مقدمة الجيش، ووقعت معركة شرسة ثبت فيها سفيان، ومن معه ثبوت الجبال الرواسي، وقتل مصاد أخو شبيب، ثم قتلت زوجته غزالة، وانسحب الخوارج باتجاه الأنبار.

لاحق سفيانُ بنُ الأبرد بقواته جيش شبيب بن يزيد، فلحق به على جسر دجيل في الأهواز، فتقاتلوا قتالًا عظيمًا ثبتوا لبعضهم، وكثر القتل فيهم، وفي الليل حاول شبيب عبور النهر، والانسحاب، فزل به حافر فرسه، وهو على الجسر، فسقط في الماء، وهو مثقل

بالحديد، وناداه أصحابه: أغرقًا يا أمير المؤمنين؟ قال: ذلك تقدير العزيز العليم، وغرق ومات، وانتهت حروبه التي أنهكت الأمويين، وأعجزتهم، فكان الخلاص على يد القائد سفيان بن الأبرد الكلبي.

وما إن تم إخماد فتنة شبيب بن يزيد الشيباني حتى أرسل سفيان بن الأبرد على رأس جيش لمحاربة الأزارقة بقيادة قطري بن الفجاءة، وكان الأزارقة قد خاضوا حروبًا عظيمة ضد الأمويين، وأعجزهم أمرهم، إلى أن رموهم بالمهلب بن أبي صفرة، فشتت شملهم، وأخرجهم من بلاد العراق، وبقي منهم قلة مع قطري بن الفجاءة بعد أن اختلفوا وتفرقوا، فلحق بهم سفيان بن الأبرد، وكان قطري بن الفجاءة في شعب من شعاب طبرستان، فقاتلهم سفيان، وانتصر عليهم، ثم إن قطري، وقع من دابته إلى أسفل الشعب، وأصيب، فوجده نفر من أهل الكوفة، فقتلوه.

ثم أوكل إلى سفيان قتال عبيدة بن هلال اليشكري، فحاصرهم سفيان في قصر قومس حصارًا شديدا حتى أكلوا خيولهم، ثم خرجوا لقتال سفيان قتال المستميت، فقتلوا عن آخرهم، فلما اقتحم سفيان الحصن وجد صحيفة مكتوبة بخط عبيدة بن هلال اليشكري، وهي قصيدة، قال في مطلعها:

لعمري لقد قام الأصمّ بخطبةٍ ... لها في صدور المسلمين غليلُ
لعمري لأن أعطيت سفيان بيعتي ... وفارقت ديني إنني لجهولُ
إلى الله أشكو ما ترى بجيادنا ... تساوك هزلى منَّحهن قليلُ
تعاورها القذّاف من كل جانبٍ ... بقومس حتى صعبُهُنَّ ذلولُ

ثم كان لسفيان بن الأبرد دور بارز في معارك الزاوية، ودير الجماجم تلك المعارك الطاحنة التي وقعت في ثورة ابن الأشعث الكندي، وقد كان سفيان في جيش الحجاج بن يوسف الثقفي.

وبعد مدة طويلة حافلة بالمعارك والزحوف والقتال، تم تثبيت أركان الدولة الأموية، وعاد القائد الفارس سفيان بن الأبرد الكلبي إلى دمشق، واستقر فيها، وكانت له مكانة خاصة، ومهابة عند الأمويين، وكان مقربًا من الخليفة عبدالملك بن مروان، وكان ذا قدر ومنزلة رفيعة عند أهل الشام عامة.

توفي الفارس سفيان بن الأبرد الكلبي رحمه الله سنة ٨٤، وقيل ٨٥ للهجرة، كما ذكر ذلك ابن عساكر، وبوفاته أسدل الستار على حياة علم من أعلام اليمانية ترك أثرًا واضحًا في التاريخ للأجيال القادمة، لم يكسبه بالتلميع والتحريف، بل كسبه بجدارة من ميادين الحروب والكفاح وساحات الوغى والبطولة.

إبراهيم النخعي

لم تنجب لنا قبيلة النخع المذحجية اليمانية أبطال وفرسان في ساحات الوغى والمعارك فحسب، بل أنجبت علماء وفقهاء أفذاذ دخلوا تاريخ الإسلام من أوسع أبوابه، ومن هؤلاء الأعلام فقيه أهل العراق الإمام الحافظ أبو عمران، إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن سعد بن مالك النخعي المذحجي اليماني الكوفي.

نشأ إبراهيم النخعي في أسرة كريمة من قبيلة النخع، وكان محبًا للعلم، شغوفًا في طلبه، فكان ثمرة ذلك أنه حمل العلم للناس، وعمره ثمانية عشر عامًا.

تولى إبراهيم النخعي الإفتاء في الكوفة، وكان لا يذكر الإمام الشعبي إلا ويذكر إبراهيم النخعي، فقد كانا أعلم أهل الكوفة، وكان إبراهيم رجلًا صالحًا، عالمًا عابدا، تقيا ورعا، وكانت له مع ذلك مهابة، قال المغيرة: كنا نهاب إبراهيم النخعي هيبة الأمير، وكان الناس يعظمونه لما له من شأن وقدر ومكانة بينهم، وكان زاهدا كثير العبادة، قالت زوجه: كان إبراهيم يصوم يومًا ويفطر يومًا، ومما اشتهر عنه أنه كان يكره أن يستند إلى سارية أو عمود في جلوسه، وكان أعورًا.

جاء عن التابعي سعيد بن جبير أنه استنكر على أهل الكوفة طلبهم الفتوى منه، وقال: أتستفتوني وفيكم إبراهيم؟!.

اعتزل إبراهيم النخعي الحروب التي خاضها عبدالرحمن بن الأشعث الكندي ضد الحجاج مع خلافه للحجاج بن يوسف، وكان

إبراهيم قد شارك من قبل في معارك صفين مع قومه النخع تحت قيادة فارسهم الأشتر النخعي، وعندما بُشر إبراهيم بموت الحجاج فيما بعد قيل إنه بكى من الفرح.

وعن علمه ومكانته، روى جرير قائلًا: كان الشعبي وأبو الضحى وإبراهيم النخعي يجتمعون في المسجد يتذاكرون الحديث، فإذا جاءهم شيء ليس فيه عندهم رواية، رموا إبراهيم بأبصارهم.

توفي إبراهيم النخعي رحمه الله سنة ست وتسعين للهجرة، وقيل خمس وتسعين، وعندما وافته المنية قال: وأي خطر أعظم مما أنا فيه، إنما أتوقع رسولًا يأتي علي من ربي إما بالجنة وإما بالنار، والله لوددت أنها تلجلج في حلقي إلى يوم القيامة.

توفي في زمن خلافة الوليد بن عبدالملك، قال فيه الشعبي بعد وفاته: والله ما ترك بعده مثله لا بالكوفة، ولا بالبصرة، ولا بالشام.

يزيد بن المهلب

قال الشاعر:

وما مات المهلب مذ رأينا على أعتاب منبرهِ يزيدا
لهُ كفّان كف ندى وجود وأخرى تمطر العلق الحديدا

الأمير ابن الأمير، والقائد ابن القائد، أحد أجواد العرب قاطبة، ومن عظماء الفرسان والمحاربين، ورث الشجاعة والزعامة والرئاسة، كابرًا عن كابر، أبو خالد يزيد بن المهلب بن أبي صفرة العتكي الأزدي اليماني.

ولد يزيد بن المهلب عام ثلاثة وخمسين للهجرة، في أيام معاوية بن أبي سفيان، وقد نشأ يزيد في كنف أبيه القائد الفذ المهلب بن أبي صفرة، ونشأ على يديه نشأة صالحة، وتعلم من أبيه الدهاء والكرم والفروسية وفنون الحرب والقتال، فشب فارسًا لا يشق له غبار، وقد قيل بأنه بارز الفرسان في الميدان وعمره ثمانية عشر عامًا، ومن غريب أمره أنه كان يضع يده اليسرى في حديد مجوف صنعه لنفسه، فإذا نزل الحرب أدخل يده في هذا الحديد، فإذا ما تشاجرت الرماح، وضع يده اليسرى على رأسه، وحمل من تحت الرماح، فبراها بسيفه، وأخبار يزيد في هذا الجانب كثيرة جدا.

نشأ يزيد وتربى في ساحات الحروب والمعارك، فاكتحلت عيناه بغبارها، وملأت مسامعه قعقعة الرماح، وصليل السيوف، فأخرجت تلك البيئة التي عاشها، ونشأ عليها قائدا فارسًا محاربًا قل ما وجد مثله في زمانه وحتى اليوم.

شارك يزيد بن المهلب مع إخوته تلك الحروب الضارية التي خاضها أبوه المهلب بن أبي صفرة ضد الخوارج، فأبلى البلاء الحسن، وكان بالمكان الذي لا يجهل، وكانت تظهر عليه ملامح الزعامة والإمارة، وهو في شبابه، وكان ذو مهابة، قال فيه الفرزدق:

وإذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم خُضع الرقاب نواكس الأبصارِ

أما الكرم والجود، فقد أجمع المؤرخون بأنه لم يكن خلال العصر الأموي أكرم من آل المهلب، وليزيد بن المهلب الكثير من النوادر الرائعة في هذا الجانب تظهر بوضوح مدى الكرم الفياض لهذا الهامة اليمانية.

عندما هرب من العراق إلى الشام، فيما بعد، مرّ على بدو رعاة، فقال لغلامه: أطلب لنا منهم لبنًا، فأعطوه وشرب، فقال لغلامه: أعطهم ألف درهم، فانذهل الغلام، وقال: يا أمير أنهم لا يعرفونك!! قال: ولكني أعرف نفسي.

حج ذات مرة، فطلب حلاقًا، فجاء فحلق رأسه، فأعطاه ألف درهم، فانذهل الحلاق، وقال: سأشتري أمي بهذا الألف من مالكها، قال يزيد: أعطوه ألفًا آخر، فقال الحلاق: امرأتي طالق إن حلقت بعدها لأحد، قال يزيد: أعطوه ألفين آخرين.

ولي يزيد بن المهلب على خراسان بعد وفاة أبيه، فمكث فيها ثلاث سنوات، فلم يؤثر حياة الدعة والراحة، فقد تعودت نفسه على العيش فوق صهوة الخيل، فجمع الجيوش، فغزا بلاد الترك، وافتتح قلعة عظيمة من قلاعهم تسمى قلعة نيزك، فذاع صيته في تلك الأقطار.

سُئل ذات يوم، لماذا لم تبنِ لك بيتًا أيها الأمير؟ قال: إن كنت غازيا، فسرج الخيل، وإن كنت واليا، فبيت الإمارة.

كان الحجاج بن يوسف الثقفي يحسد آل المهلب، ويهابهم، وقد أرسل إلى يزيد وخدعه، وقام بحبسه، دخل عليه الفرزدق، وهو في سجن الحجاج، فشق عليه ذلك عندما رآه في القيد، فقال الفرزدق:

أصبح في قيدك السماحة والجو ـد وحمل الديات والحسبِ
لا بطر إن ترادفت نِعمٌ وصابرٌ في البلاء محتسبِ

فقال يزيد: ويحك يا فرزدق، أتمدحني وأنا على هذه الحال؟ ثم رمى له بخاتمه، وكانت قيمته ألف دينار.

هرب يزيد من سجن الحجاج بأعجوبة، فلما تولى سليمان بن عبدالملك الخلافة أعاد توليته على خراسان، فعاد إلى ميادين الشرف والبطولة، فقاد جيشًا عظيمًا، فافتتح جرجان وطبرستان بحروب خاطفة، ثم أرسل إليه الخليفة الجديد عمر بن عبدالعزيز، فسجنه مرة أخرى.

دخل عليه الشاعر الأخطل، وهو في السجن، فقال:

أبا خالد ضاعت خراسان بعدكم وقال ذووا الحاجات أين يزيدُ
فلا قطرت بالشرق بعدك قطرةٌ ولا أخضرّ بالمروين بعدك عودُ
فما لسريرٍ الملك بعدك بهجةً ولا لجواد بعد جودك جودُ

خرج يزيد بن المهلب من السجن، ثم توفي عمر بن عبدالعزيز، فاتجه يزيد إلى البصرة، فالتف حوله الناس لمكانته وشهرته وعلو

منزلته، فدعا لنفسه بالخلافة والإمارة، فبايعوه، فبسط العدل فيهم، وبذل الأموال.

جمع الأمويون جيشًا عظيمًا وأرسلوه بقيادة مسلمة بن عبدالملك لقتال يزيد بن المهلب، فخرج يزيد بقواته لملاقاتهم، ومعه أخواه حبيب بن المهلب، والمفضل، والكثير من فرسان آل المهلب.

التقى الجيشان بالقرب من الكوفة في مكان يقال له العقر من أرض بابل، فنشبت بينهم معركة هائلة في الرابع عشر من صفر سنة مائة واثنين هجرية، استمرت لثمانية أيام، وبينما المعركة قائمة، وكان أصحاب يزيد قد بدأوا يتفرقون عنه، وكثرت الخيانات في صفوف أصحابه جاءه رجل، فقال له: يا أمير قد انهزم الناس، ثم جاءه خبر مقتل أخيه الفارس النبيل حبيب بن المهلب، فقال: ما في الحياة خير بعد موت حبيب، فنزل عن فرسه، وعرف أصحابه أنه قد استقتل.

بقي مع يزيد عدد من الأبطال المخلصين له، وتفرق البقية، وانهزموا، فناداه أحدهم لك أن تنسحب، فقد انهزم الناس، أما ترى حولك من جبال الحديد – يقصد جيش مسلمة –، فقال يزيد: ألمثلي يقال هذا؟ قبحك الله، أفأنا أباليها جبالًا من نار أو جبال من حديد؟! فأخذ يحمل على كراديس الخيل فيكشفها لوحده، واتجه نحو مسلمة بن عبدالملك يريده، فلما دنا منه ركب مسلمة، فحوصر يزيد من قبل جموع هائلة من جند الشام، فأبدى من ضروب الشجاعة والاستبسال ما تعجز الاقلام عن تدوينه – مع أنه كان شيخًا في تلك الفترة –، ثم كثرت جراحه، فقتل بعد هذا البلاء العظيم، قال الشاعر يرثيه:

وقد كان فوت الموت سهلًا فردهُ إليه الحفاظ المُرّ والخلق الوعرُ
ونفس تعاف العار حتى كأنه هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفرُ
فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت أخمصك الحشرُ

وقال ثابت بن قطنة يرثيه:

كل القبائل بايعوك على الذي تدعو إليه طائعين وساروا
حتى إذا خطر الوغى وجعلتهم نصب الأسنة أسلموك وطاروا
إن يقتلوك فإن قتلك لم يكن عارٌ عليك وبعض قتلٍ عارُ

حُمِل رأس يزيد بن المهلب الأزدي إلى يزيد بن عبدالملك بن مروان، فأراد أحد الحاضرين الاستخفاف منه، فنهره الخليفة، وقال: إن يزيد بن المهلب طلب جسيمًا، وركب عظيمًا، ومات كريمًا.

وقد كان المفضل بن المهلب يقاتل في ناحية أخرى، ولا يعلم بمقتل يزيد وحبيب ومحمد –إخوته–، فجاءه الخبر، وتفرق الناس عنه، وانسحب بمن بقي معه إلى واسط، وقيل في رواية إنهم أخبروه أن يزيد انسحب إلى واسط، فاتجه المفضل لها؛ لأنهم لو أخبروه بمقتل يزيد سوف يستقتل.

فلما علم بمقتل يزيد فيما بعد قال:

ولا خير في طعن الصناديد بالقنا ولا في لقاء الحرب بعد يزيد

وقد كان المفضل من عظماء الفرسان، فما كان في العرب أضرب بسيفه، ولا أحسن تعبئة لجيشه، ولا أغشى للناس منه، كما ذكر المؤرخون.

اجتمع من بقي من آل المهلب، وأمروا عليهم المفضل بن المهلب، فلحق بهم جيش الأمويين، فاستبسل آل المهلب، وقاتلوا قتال الأبطال العظماء إلى أن قتلوا عن آخرهم، ولم يسلم إلا ثلاثة منهم، وهم أبا عيينة بن المهلب، وعمرو بن يزيد بن المهلب، وعثمان بن المفضل بن المهلب، لحقوا ببلاد الترك.

لقد كانت مصارع آل المهلب مصارع الأبطال المغاوير، جادوا بأنفسهم وأموالهم حتى في أحلك الظروف، ولم تشفع لهم إنجازاتهم العظيمة في خدمة الدولة الأموية، وتمكين ملكها وسلطانها، وقد كانت هذه الأسرة الكريمة من أنبل الأسر، وأكرمها في التاريخ الأموي، بل والعربي، ذاع صيتهم في الآفاق، وتركوا ذكرًا لن يمحى أبد الدهر، قال فيهم الشاعر:

آل المهلب قوم إن نسبتهم ... كانوا المكارم آباء وأجدادا
كم حاسد لهمُ يعيا بفضلهمُ ... وما دنا من مساعيهم ولا كادا
إن العرانين تلقاها محسّدة ... ولا ترى للئام الناس حسادا
لو قيل للمجد حِد عنهم وخلهمُ ... بما احتكمت من الدنيا لما حادا
إن المكارم أرواحًا يكون لها ... آل المهلب دون الناس أجسادا

رآهم ذات يوم عبدالرحمن بن سليم الكلبي، وقد ركبوا كلهم مع أبيهم في معركة، فقال: أنس الإسلام بتلاحقكم، أما والله لئن لم تكونوا أسباط نبوة، فإنكم لأسباط ملحمة، رحم الله آل المهلب.

موسى بن نصير

قال مقولته الشهيرة: والله لو انقاد لي الناس لقدتهم حتى أوقفتهم على رومية، ثم ليفتحنها الله على يدي.

فاتح الأندلس، ومثبت الإسلام في أفريقيا، أحد أعظم القادة الفاتحين في تاريخ الإسلام، ذلك القائد العسكري الذي لم تهزم له راية خلال حياته العسكرية المليئة بالبطولات والأمجاد والفتوحات، أبو عبدالعزيز موسى بن نصير بن عبدالرحمن بن زيد اللخمي، وقيل البلوي[1].

ولد موسى بن نصير في بلاد الشام عام ١٩ للهجرة، ونشأ نشأة إسلامية صالحة، درس القرآن الكريم، وطلب العلم، وتفقه فيه، وروى الحديث، وتعلم الفروسية، ومهارات الحرب والقتال، فنبغ فيها، قال له أبوه ذات يوم، وقد توسم فيه الشجاعة والفروسية والذكاء: إني أرى فيك خالد بن الوليد.

كان أبوه نصير بن عبدالرحمن فارسًا مقدامًا، تولى قيادة حرس معاوية بن أبي سفيان عندما كان واليا على الشام.

شارك موسى بن نصير في شبابه في الغزو والفتوحات الإسلامية، وكان مولعا ومغرمًا بغزو البحر، وبجده واجتهاده في هذا الجانب عين قائدا للأسطول الإسلامي، وعمره لم يتجاوز ٢٥ عامًا، فأمر ببناء دار لصناعة السفن بالقرب من قرطاجة، وبدأ بإنشاء أسطول

(١) لخم قبيلة كهلانية سبأية عريقة، هاجرت من بلاد اليمن قديمًا، وينتمي إليها المناذرة ملوك الحيرة والعراق، وهم أشهر من نار على علم. أما بُلي، فهي بطن عظيم من قضاعة الحميرية، ولهم تاريخ حافل بالبطولات والأمجاد، ومنهم هامات وأعلام منذُ ما قبل البعثة وما بعدها.

بحري ضخم، ثم قام بحملات بحرية ناجحة على سردينيا وصقلية وطنجة.

لم يكن موسى بن نصير قائدا عسكريا وفارسًا محاربًا فحسب، بل كان من أهل السياسة والحكمة والدهاء، وكان ذو علم واسع بأمور الحرب والسياسة معا، فما أن اضطربت الأمور على المسلمين في أفريقيا، وكثرت ثورات البربر فيها، حتى تم اختياره للذهاب إلى هناك، وتثبيت الإسلام في تلك البلاد المترامية الأطراف، وقد كانت مهمة صعبة جدا إلا أن موسى كان أهلًا لها.

وبما أن موسى بن نصير قائد عسكري من الطراز الرفيع، فقد درس تجارب القادة الذين سبقوه في شمال أفريقيا، وتتبع منابع الخطر، وأدرك أن المهمة الأولى تتلخص في ضرورة إنهاء الوجود الرومي البيزنطي، وقواعده في تونس، وغرب ليبيا اليوم، ووأد ثورات القبائل البربرية المتحالفة مع الرومان.

اتجه موسى بن نصير لتنفيذ مهمته بثقة وصلابة، وما إن وصل إلى مدينة القيروان حتى جمع القادة والجند، وخطب فيهم قائلًا: أنا رجل كأحدكم من رأى مني حسنة، فليحمد الله، وليحض على مثلها، ومن رأى مني سيئة، فلينكرها، فإني أخطئ كما تخطئون، وأصيب كما تصيبون، وقد أمر الأمير لكم بعطاياكم، وتضعيفها ثلاثًا، فخذوها هنيئًا مريئًا، ومن كانت له حاجة، فليدفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان، ومع المواساة إن شاء الله.

واستطاع في فترة وجيزة أن يحصل على ثقة الجند ورفع معنوياتهم، واستمال معظم زعماء البربر إلى جانبه، ونشر الإسلام

في تلك البلدان، واستعاد المناطق التي أخذها البربر من المسلمين قبل مجيئه، فهدأت الأمور هناك، وأمن المسلمين في تلك النواحي.

كانت همة القائد اليماني موسى بن نصير لا تقف عند أفريقيا فحسب، وكان يفكر بما هو أبعد من ذلك بكثير، وكان حلمه الكبير هو عبور البحر باتجاه الأندلس، وغزو أوروبا نفسها، وهذا دليل على عظمة هذا الرجل وعبقريته.

استأذن موسى بن نصير الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك بالسماح له بالقيام بهذا العمل الجبار والخطير، فأذن له الخليفة على تخوف وحذر، فأخذ موسى على عاتقه مهمة بناء أسطول حربي بحري إسلامي حديث لعبور البحر، وتدريب الجيوش الإسلامية لعملية غزو أوروبا وفتحها.

بعد أن جهز موسى بن نصير قواته فعل كما تفعل الجيوش الحديثة اليوم، فقد قام بإرسال وحدات عسكرية استطلاعية سرية تكتشف أماكن النزول والعبور، ودراسة طبيعة الأرض والمنطقة التي سينزلون فيها، ثم مهد للغزو بفتح جزر مايوركا وسردينيا، وكان في مقدمة هذه الطلائع القائد الشجاع طريف بن مالك النخعي الذي اسميت به جزيرة طريف بعد أن نزلها.

عبرت القوات الإسلامية مضيق أعمدة هرقل باتجاه أوروبا في عملية عسكرية لم يشهد لها التاريخ مثيلًا في تلك الحقبة، وكان على رأس قوات العبور القائد الشهير طارق بن زياد الذي سمي المضيق باسمه وإلى اليوم، وكان العبور في الخامس من رجب عام ٩٢ للهجرة.

ما إن استقرت القوات الإسلامية على الساحل الإسباني الأوروبي حتى جمع لهم القوط جيشًا جبارًا بقيادة ملكهم رودريك يفوق عدد المسلمين أضعافًا، فأمد موسى بن نصير طارق بن زياد بخمسة آلاف مقاتل ليصبح تعداد الجيش الإسلامي اثني عشر ألف مقاتل جلّهم يمانية.

التقى الجيشان في ٢٨ رمضان ٩٢ للهجرة بالقرب من شذونة، فدارت رحى معركة رهيبة نصر الله فيها جنده الموحدين نصرًا عظيمًا، وفر ملك القوط، وتفرقت قواته، ثم لحق موسى بن نصير بجيش آخر بقوات طارق بن زياد، وعبر المضيق، وسلك طريقًا لم يسلكه طارق، فافتتح في طريقه مدن عدة، واكتمل الجزء الأعظم من أكبر وأعظم الفتوحات في تاريخ الإسلام، وهو فتح الأندلس، ودخول أوروبا نفسها.

كان موسى بن نصير حريصًا على العدل والمساواة وإظهار الإسلام بمظهره الصحيح، وقد شعر أهالي الأندلس بعدالة هذا الدين، فاعتنقه الكثيرون، وتأثرت بلاد الأندلس بالحضارة العربية والإسلامية، فقد كان ذلك الفتح نعمة لأوروبا كلها، كما يرى المؤرخون، فازدهرت الأندلس ازدهارًا عظيمًا، وكان لسياسة موسى بن نصير رحمه الله أثرًا كبيرًا في ذلك.

عندما تولى سليمان بن عبدالملك الخلافة تعرض الكثير من القادة الفاتحين العظام للظلم والإقصاء والتهميش على يديه، وعلى رأسهم القائد موسى بن نصير رحمه الله، حيث استدعاه الخليفة الأموي، وعامله معاملة لا تليق أبدا بأمثاله، فقد تم عزله ومصادرة أمواله، فعاش فقيرًا في آخر أيامه، ثم قتل ابنه الشجاع الجسور

عبدالعزيز بن موسى – بأمر من سليمان بن عبدالملك كما ذكرت بعض المصادر التاريخية –، فتأثر بذلك تأثرًا عظيمًا.

وفي عام ٩٧ هجرية، ذهب القائد موسى بن نصير رحمه الله لأداء فريضة الحج، فتوفي في الطريق في منطقة وادي القرى تاركًا لنا نحن اليمنيين وللتاريخ الإسلامي سجلًا ناصعا وإرثًا تاريخيا عظيمًا سيبقى في الذاكرة العربية والإسلامية ما بقي التاريخ.

عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي

أراد الحجاج بن يوسف الثقفي أن يولي قائدا على شرطة الكوفة، فأشار عليه الناس أن يولي عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث لشجاعته وخبرته ومكانته، فبلغ ذلك عبدالرحمن، فقال مقولته المشهورة: أمثلي يتقلد سيفًا ويمشي بين يدي ابن أبي رغال[1]؟ والله ما رأيت أحدا قط على منبر يخطب إلا وظننت في نفسي أنني أحق بذلك منه.

هذه العبارة، وهذه الكلمات تبين بوضوح وباختصار شديد شخصية هذا الرجل الداهية، الأمير ابن الأمير حفيد الملوك والأقيال من كندة اليمانية العريقة، عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، وأمه أم عمران بنت سعيد بن قيس الهمداني، زعيم همدان وفارسها.

نشأ عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي في أسرة من أكرم الأسر العربية، وأكثرها ذكرًا وصيتًا، وقد كان معتدا بنفسه منذُ نعومة أظفاره، وقد ظهرت عليه علامات الذكاء والشجاعة وصفات الإمارة في شبابه.

---

(١) اشتهر عند الرواة والإخباريين العرب أن رجلًا من ثقيف يدعى أبو رغال هو الذي دل الأحباش على طريق مكة، وبعد أن مات أبو رغال كانت العرب ترجم قبره بالحجارة، قال حسان بن ثابت الأنصاري يهجو ثقيفًا:

إذا فاخركم الثقفي قولوا تعال فعُدّ شأن أبي رغال
أبوكم أخبث الأحياء قدمًا وأنتم متبعوه بلا مثال

وعندما أشتد خطر الخوارج بقيادة شبيب بن يزيد الخارجي، أُرسل عبدالرحمن بن محمد الأشعث على رأس جيش للقائه، فظهرت مهارات ابن الأشعث في تلك الحروب ضد الخوارج، فقد كان ذكيا فطنًا يخندق على جيشه أينما حَلَّ، فلم يستطع إليه الخوارج سبيلًا، وكان ابن الأشعث مع براعته القيادية العسكرية من عظماء المحاربين، مقاتلًا عنيدا، شرسًا، وكانت له فرس عربية أصيلة ورائعة تسمى الفسيفساء أهداها إياه القائد الجزل بن سعيد الكندي، واستمرت حروبه مع الخوارج إلى أن قتل شبيب فيما بعد على يد قوات سفيان بن الأبرد الكلبي.

كان لعبدالرحمن بن الأشعث همةٌ عاليةٌ ونفسٌ تواقة إلى الإمارة والملك، وليس بغريب عليه، فهو من بيت ملك عريق، وقد كانت علاقته مع الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراق سيئة ومتوترة، ذات يوم قال عبدالرحمن في مجلس أخواله همدان أحلاس الخيل: وأنا كما يقول ابن أبي رغال إن لم أحاول أن أزيله عن سلطانه، فأجهد الجهد إذ طال بي وبه البقاء.

وقد كان الحجاج بن يوسف يكره ابن الأشعث الكندي، ويغتاظ منه، رآه ذات يوم، وهو يمشي، فقال: انظروا إلى خيلائه، فوالله لوددت أن أضرب عنقه.

استمرت العلاقة المتوترة بين الحجاج وابن الأشعث، وفي عام ثمانين للهجرة، تعرض جيش المسلمين بقيادة عبيدالله بن أبي بكرة للإبادة من قبل الترك، فجهز المسلمون جيشًا جبارًا لتأديب الترك، وعين لقيادة هذا الجيش الضخم، القائد العسكري عبدالرحمن بن

محمد بن الأشعث، وقد لقبوا ذلك الجيش بجيش الطواويس لضخامته، فقد كان من أربعين ألف مقاتل.

تحرك ابن الأشعث بقواته، فاجتاح جزءًا كبيرًا من بلاد الترك، وقد عرض عليه الترك الخراج، والمصالحة، فلم يقبل، وبعد أن توغل ابن الأشعث بقواته كثيرًا في بلاد الترك، حَلّ الشتاء، وقرر أن يتوقف بجيشه للراحة، وإعداد الخطط اللازمة لمواصلة الحملة بعد فصل الشتاء.

علم الحجاج بن يوسف بتوقف ابن الأشعث بجيشه، فبعث إليه أن لا يتوقف، وكان ابن الأشعث حذرًا من أن يلاقي جيشه نفس مصير جيش عبيد الله بن أبي بكره الذي أباده الترك بعد أن توغل في بلادهم، فرفض ابن الأشعث أوامر الحجاج، فبعث الحجاج إليه يتوعده ويهدده، فغضب ابن الأشعث، وقال: أيكتب إلي بمثل هذا من رجل لا يصلح أن يكون من بعض جندي؟![1]، وكانت هذه بداية لثورة عارمة كادت أن تطيح بالعرش الأموي.

اجتمع ابن الأشعث بقادة جيشه، وكانوا ناقمين على الحجاج، وسياسته، فطلبوا من ابن الأشعث أن يخلعه، فتم خلع الحجاج بن يوسف، ومبايعة ابن الأشعث دون أن يخلعوا الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان.

---

(١) كان عبدالرحمن بن الأشعث ينادي الحجاج بصاحب غزالة، وغزالة هي امرأة شبيب بن يزيد الخارجي، كانت تقاتل مع زوجها شبيب، وقد طلبت الحجاج للمبارزة في إحدى المعارك، فرفض الحجاج، فقال عمران بن حطان يهجوه:

هلّا برزت إلى غزالة في الوغى ... إذ كان قلبك في جناحي طائرِ
أسدٌ علي وفي الحروب نعامة ... ربداء تنفر من صفير الصافرِ

تصالح عبدالرحمن بن الأشعث مع ملك الترك، وعاد بجيشه باتجاه العراق، وهم عازمين على الإطاحة بالحجاج بن يوسف، وقد كان المهلب بن أبي صفرة قد كتب إلى ابن الأشعث ينصحه من هذه الحرب.

وكذلك كتب المهلب إلى الحجاج قائلًا: قد أقبل إليك أهل العراق، كالسيل المنحدر، من علو ليس شيء يرده حتى ينتهي إلى قراره، وطلب من الحجاج أن لا يخرج من العراق، فقال الحجاج بن يوسف عندما قرأ كتاب المهلب: لا والله ما إلي نظر، ولكن لابن عمه نصح، ويقصد أن المهلب قد نصح لابن عمه عبدالرحمن ابن الأشعث كونهم يمانية.

التفت جموع كبيرة من أهل العراق حول ابن الأشعث، فأدرك عبدالملك بن مروان خطورة الوضع، فأرسل إلى ابن الأشعث بعزل الحجاج، وتعيينه مكانه، فأخبر ابن الأشعث قادة جنده بذلك، فرفضوا هذا الأمر.

وصلت مقدمة جيوش ابن الأشعث إلى نهر دجيل، فالتقت بمقدمة جيش الحجاج، فانهزمت خيل الحجاج، وفر الحجاج هاربًا حتى وصل إلى منطقة الزاوية، فقال الحجاج: لله در المهلب أي صاحب حرب هذا، قد أشار علينا بالرأي، ولكننا لم نقبل، ثم اجتاحت قوات ابن الأشعث البصرة، ودخلتها، وكان من ضمن جيش ابن الأشعث عدد كبير من علماء الأمة الإسلامية، والقّراء كذلك، وعلى رأسهم سعيد بن جبير، والإمام الشعبي، وغيرهم كثر.

وقد كان أعشى همدان بين يدي ابن الأشعث يرتجز، ويقول:

شطت نوى من داره بالإيوان إيوان كسرى ذي القرى والريحان
كذابها الماضي وكذابٌ ثان أمكن ربي من ثقيف همدان
يومًا إلى الليل يسلّي ما كان إنا سمونا للكفور الفتّان
حين طغى بالكفر بعد الإيمان بالسيد الغطريف عبد الرحمن
سار بجمع كالدبى من قحطان ومن معد قد أتى من عدنان
بجحفلٍ جمٍّ شديد الأركان فقل لحجاج ولي الشيطان
يثبت لجمع مذحج وهمدان فإنهم ساقوه كأس الذيفان

ثم وقعت بعد ذلك معارك عظيمة تصادم فيها الجيشان، وانهزم في المعارك الأولى جيش الحجاج، وفي هذه الحرب سقط الكثير من المسلمين من الجانبين، وكانت حروب مهولة تشيب لها الولدان، وأشرفت قوات الحجاج على الهزيمة، لولا أن سفيان بن الابرد الكلبي الذي كان في صف الأمويين قلب موازين المعركة في آخرها، وهزم ميمنة ابن الأشعث الكندي بعد معارك شرسة، وكانت آخر هذه المعارك معركة دير الجماجم.

انسحب ابن الأشعث بمن بقي معه من القوات خارج حدود العراق، وتخلى عنه جزء كبير من جيشه، فلحق ببلاد الترك التي اجتاحها من قبل بقواته، وأرسل الأمويون الجيوش في طلبه.

اختلفت الروايات في موت ابن الأشعث، وكيفيته، إلا أن أشهرها أنه فضل الموت على أن يقع في الأسر، وقيل إنه قفز من فوق حصن قديم، فخر ميتًا، وذلك في عام ٨٥ للهجرة، وقد ألقي القبض على الكثيرين ممن شاركوا ابن الأشعث في ثورته الدامية، فأُعدم خلق كثير منهم، بما فيهم علماء وقرّاء، وعلى رأسهم سعيد بن جبير، وذلك على يد الحجاج بن يوسف الثقفي.

أعشى همدان

يصد غواة الناس عني كأنما يصدون عن ليثٍ بخفّان خادرِ
ومحتملٍ ضغنًا علي تركتهُ يعالج مني غصّةً بالحناجرِ
فمات فلم تذهب حسيفة صدرهِ يخبرُ عنه ذاك أهل المقابرِ
ولا يبرى الدرياق لدغي ولا الرُّقى ولا موعدي عند اللقاء بضائري
وإني لمزجاءٌ لمهري على الوجي وتاركه يشكو بطون الدوابرِ
فإن أدع يوم الروع حسبي أجابني ذوو حسبٍ في ذروة المجد فاخرِ

أبو المصبح عبدالرحمن بن عبدالله بن الحارث بن نظام بن جشم الحاشدي الهمداني اليماني، شاعر اليمانية في الكوفة، ومن فرسانهم وأجوادهم المشاهير، بل إنه ممن يتنافر إليه الأشراف، وأحد فحول الشعر العربي، وقد شهد له بذلك الكثير من المؤرخين والأدباء، وعلى رأسهم الأصمعي.

عاش الشاعر والفارس أعشى همدان حياة مليئة بالأحداث الجسام، خاصة تلك الأحداث العظيمة التي وقعت ما بين عام ٦٠ للهجرة وعام ٨٣ للهجرة، وقد ارتبط اسمه ارتباطًا تاريخيا بالثورة العظيمة التي قام بها ابن الأشعث الكندي، والتي كادت أن تطيح بالدولة الأموية.

طلب الأعشى الهمداني في شبابه العلم، فكان من القرّاء الفقهاء المعروفين، وقد كان صهرًا للإمام الشعبي، ومتزوجًا من أخته، كما كان الإمام الشعبي متزوجًا من أخت الأعشى، وكلاهما من قبيلة همدان اليمانية المعروفة، ثم أن أبا المصبح أعشى همدان اهتم

بالشعر، ونبغ فيه، ومن قصصه المشهورة مدحه للأمير اليماني الأنصاري النعمان بن بشير والي حمص، حيث جمع له اليمانية هناك مبلغًا كبيرًا من المال.

شارك أعشى همدان في غزو بلاد الديلم، وله الكثير من الاخبار، وقد أُسِر هناك، فرأته بنت أحد القادة الذين أسروه، فأعجبت به، وتحايلت حتى أطلقت سراحه، وهربت معه، وله أشعار كثيرة في وصف تلك البلاد، كما شارك في فتوحات مكران وسجستان والسند.

وعندما تعرض الجيش الإسلامي بقيادة عبيد الله بن أبي بكرة للإبادة في بلاد الترك، جهز المسلمون جيشًا جبارًا لتأديب الترك، وتم تعيين القائد عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي لقيادة هذا الجيش العرمرم الذي أسموه جيش الطواويس، وكان أبا المصبح أعشى همدان في عداد ذلك الجيش الذي دخل بلاد الترك، ودوخها، ثم حصل ما حصل من ثورة فيما بعد بقيادة ابن الأشعث، فكان أعشى همدان لسان الثوار، مستخدمًا فصاحته وشعره لتأليب القبائل ضد الحجاج بن يوسف، وكذلك مدح ابن الأشعث الكندي، الذي كانت علاقته بهمدان قوية، فهم أخواله، أضف إلى ذلك انتماءهم اليماني، قال الأعشى:

قرم إذا ساق القروم ترى لهُ أعراق مجد طارق وتليدِ
وإذا دعا لعظيمة حشدت لهُ همدان تحت لوائه المعقودِ

عاد جيش ابن الأشعث الكندي من بلاد الترك متجهًا نحو العراق مكتسحًا ما أمامه من المناطق، وفي مقدمة الجيش أعشى همدان يلهب حماسهم بأشعاره الحماسية الحربية، ومنها قوله:

من مبلغ الحجاج أنـ ـي قد ندبتَ إليهِ حربا
حرباً مـذكّـرة عوا ناً تترك الشُبان شهُبا
وصفقت في كف امرئٍ جَلد إذا ما الأمر غبّا
يا ابن الأشجّ قريع كنـ ـدة ما أبالي فيك عتبا
أنت الرئيس ابن الرئيـ ـس وأنت أعلى الناس كعبا
نُبئت حجاج بن يو سف خَرَّ من زَلقٍ فتبَّا
فانهض فديت لعلّهُ يجلو بك الرحمن كربا
فإذا جعلت دروب فا رس خلفهم دربًا فدربا
فأبعث عطية في الخيو ل يكُبُّهنّ عليه كبّا

اصطدم جيش ابن الأشعث بجيش الحجاج، ودارت معارك دامية جدا، ومصافات في الزاوية، ودير الجماجم، وغيرها، وأخبارها مشهورة في كتب التاريخ، ثم انهزم القوم عن ابن الأشعث، وأسر أعشى همدان في عدد كبير من القرَّاء، وجيء بهم إلى الحجاج بن يوسف، فأعدم الكثيرون منهم، وممن قتله الحجاج الشاعر أبا المصبح أعشى همدان، وذلك في عام ٨٣ للهجرة.

هند بنت المهلب

لقد حفظ لنا التاريخ العربي ذكر الكثير من النساء اليمانيات الماجدات اللاتي اشتهرن بالحكمة والذكاء والجمال والفطنة بل والحكم والملك والزعامة والسياسية والشعر والفصاحة وبلغت بعض منهن من هذه الأوصاف قمتها وذروتها بل أن القارئ للتاريخ العربي يرى بوضوح أن أشهر نساء العرب هن يمانيات سبأيات ولا فخر.

ومن هذه النساء الماجدات اللاتي اشتهرن في التاريخ العربي وذاع صيتهن، سليلة الحسب والنسب صاحبة الذكاء والفطنة والجمال الفتان والفصاحة المفرطة هند بنت المهلب بن أبي صفرة الأزدية اليمانية.

نشأت هند بنت المهلب بن أبي صفرة في أسرة عريقة من أشهر وأنبل الأسر العربية خلال العهد الأموي وتعلمت وتربت على يد أبيها القائد المعروف والسيد المطاع المهلب بن أبي صفرة وكذلك بين إخوتها فرسان زمانهم وكرماء العرب وأمرائهم فكان لهذه البيئة أثر واضح في شخصية هند بنت المهلب.

كانت هند بنت المهلب بن أبي صفرة امرأة ذكية فطنة حازمة فصيحة سريعة البديهة في الرد وقوة الحجة في النقاش.

ومما يروى أنه عندما حبس الخليفة عمر بن عبدالعزيز أخاها الأمير يزيد بن المهلب، ذهبت إلى عمر بن عبدالعزيز، وقالت له: يا أمير المؤمنين، علام حبست أخي؟ قال: تخوفت أن يشق عصى

المسلمين فقالت: العقوبة قبل الذنب أو بعد الذنب؟ فأخرج الخليفة عمر بن عبدالعزيز أخاها يزيد.

ومن نوادر قصصها المشهورة قصة زواجها من الحجاج بن يوسف الثقفي حيث تزوجت منه وهي لم تكن راغبة فيه وذات يوم دخل الحجاج بن يوسف إلى غرفتها وهي لا تشعر به ورآها واقفة أمام المرآة تمشط شعرها وتنشد وتقول:

وما هند إلا مهرة عربية سليلة أفــراس تخللها بغلُ
فإن ولدت فرسًا فلله درها وإن ولدت بغلًا فوالدهُ بغل[1]

فغضب الحجاج بن يوسف لذلك غضبًا شديدًا وأرسل إليها غلامًا ومعه ٢٠ ألف دينار وقال له: قل لها: كُنتِ فبنتِ. يعني أنك كنت زوجتي والآن طلقتك. فأخبرها الغلام وناولها الدنانير فقالت له: كنا فما فرحنا وبِنّا فيما حزِنَّا، وأعطته ٢٠ ألف دينار بشارة له علم الخليفة عبدالملك بن مروان بذلك؛ فأرسل إليها يطلب خطبتها والزواج منها وبعد مراسلات وافقت على الزواج منه شرط أن يقود الحجاج بن يوسف قافلة زواجها، فأرسل عبدالملك بن مروان إلى الحجاج يأمره بذلك فلم يستطيع أن يعارض.

في الطريق إلى مقر الخليفة عبدالملك أرادت أن تذل الحجاج بن يوسف فرمت أمامه دينارًا وقالت له: ناولني الدرهم فقال لها: هذا دينار وليس درهمًا، فقالت هند: الحمدلله الذي أبدلني بدرهمي دينارًا.

---

١ – تعني بقولها هذا أنها إذا ولدت فارسًا فهو يشبه أخواله بني المهلب فرسان عصرهم وزمانهم، وإن ولدت غير ذلك فهو يشبه لأبيه، وللتنبيه فهي لم تنجب من الحجاج بن يوسف ولم تذكر المصادر العربية التاريخية ذلك.

وبغض النظر عن صحة هذه الرواية أو عدم صحتها فلا خلاف عند المؤرخين في ذكاء هند بنت المهلب وفطنتها واعتزازها بهويتها وانتمائها، ولا غرابة في ذلك فهي من بيت شرف وزعامة ووجاهة آل المهلب الذين دخلوا التاريخ من بابه الواسع وتركوا لهم بأفعاهم بصمات لا تنمحيى أبد الدهر من ذاكرة التاريخ العربي والإسلام.

السمح بن مالك الخولاني

ذات يوم من أيام خلافة سليمان بن عبدالملك بن مروان أقبلت إلى مجلسه أموال ولاية أفريقيا، وقد كانت الأندلس تتبع ولاية أفريقيا إداريا، وكان من المتعارف في حينه أن يحلف عشرة رجال من العدول يبعثهم الوالي مع الأموال، يحلفون على هذه الأموال أنها من المستصفى الحلال لبيت مال المسلمين.

كان من بين الرجال العشرة الذين قدموا مع الأموال إسماعيل بن عبيد الله، والسمح بن مالك الخولاني، فحلف ثمانية ورفض إسماعيل والسمح أن يحلفوا، وكان عمر بن عبدالعزيز حاضرًا، فأعجب بنزاهتهم وأمانتهم، وما أن آلت أمور الخلافة إليه حتى اختار السمح بن مالك الخولاني واليا على بلاد الأندلس، فهو الرجل المناسب للمكان المناسب، فمن هو السمح بن مالك؟

إنه الرجل الصالح، والقائد العسكري الفاتح، والي الأندلس في عهد الخليفة الأموي العادل عمر بن عبدالعزيز، وهو خامس ولاة المسلمين على الأندلس، وينتمي السمح بن مالك إلى قبيلة خولان اليمانية ذات المكانة المعروفة.

عاش السمح بن مالك الخولاني في شبابه طالبًا للعلم، وقد رافق ثلة صالحة مباركة من السلف الصالح، وتربى على أيديهم، فكان لذلك الأثر الكبير في حياته، فعرف عنه الورع والصدق والزهد والأمانة، أما الشجاعة والفروسية والإقدام، فهي من خصال قومه وقبيلته.

كانت بلاد الأندلس في تلك الفترة تشهد قلاقل واضطرابات، فما إن وصلها الوالي الجديد السمح بن مالك حتى شد الهمة، وقام بإصلاحات إدارية واسعة، فانتظمت أمور البلاد، وعم الأمن والأمان، وظهرت آثار سياسة السمح وحسن إدارته، ولعل من أبرز المعالم الأثرية التي قام بها وشيدها هي قنطرة قرطبة التي أقيمت على نهر الوادي الكبير، ولا تزال هذه القنطرة الرائعة تشهر باسم بانيها حتى اليوم – قنطرة السمح بن مالك – شاهدة بوضوح على عظمة المسلمين والرقي الحضاري والمعماري الذي وصلوا إليه، ولطالما تغنى الشعراء في الأندلس بمحاسن قنطرة السمح بن مالك الخولاني، وخلدوها في أشعارهم.

ما إن استقرت أمور البلاد وأَمِنَ العباد حتى اشتاقت نفس القائد الفارس اليماني إلى الجهاد في سبيل الله، وتوسيع رقعة الإسلام، ومواصلة الفتوحات، فقام بإعداد الجيوش بالطرق الحديثة حينها، وعزم على تأديب المتربصين بثغور الإسلام، والعبور إلى ما وراء جبال البرانس[1].

وفي حملات عسكرية ناجحة اجتاحت قوات السمح بن مالك الخولاني جبال البرانس من جهة الشرق، وسيطر على مدينة سبتمانيا في جنوبي فرنسا، وأقام بها حكومة إسلامية، وتعامل مع أهل تلك البلاد المفتوحة بتعاليم الإسلام الحنيف تاركًا لهم حرية الاختيار الديني.

ثم زحف السمح بن مالك بجيشه باتجاه أكويتان، فقاومته قبائل البشكنس مقاومة شرسة، لكن بمهارته وخبرته المعهودة استطاع

(١) جبال البيرنية حاليًا.

تشتيتهم، ثم اتجه مباشرة بقواته باتجاه مدينة تولوشه –تولوز–، وهناك جمع أمراء الفرنج جيوشًا جرارة لإيقاف المد الإسلامي الجارف.

حاصر السمح بن مالك مدينة تولوز، وكادت المدينة أن تستسلم لنفاذ المؤن، إلا أن جيشًا كبيرًا بقيادة الدوق أورس الأكبر قد وصل وهاجم المسلمين من الخلف، وهم محاصرين للمدينة.

وفي التاسع من ذي الحجة ٩ ذي الحجة ١٠٢ هجرية وقعت معركة تولوز الرهيبة، وهي معركة غير متكافئة من ناحية العدد والعدة، إلا أن المسلمين قد صمدوا صمودا اسطوريا، وكثر القتلى في الجانبين، واستمرت المعركة لأيام من دون أن يتمكن طرف من هزيمة الآخر.

وفي أحد الأيام وبينما القتال على أشده، أصاب سهمٌ طائشٌ القائد اليماني الإسلامي السمحَ بن مالك الخولاني، فسقط شهيدا من على فرسه فاختل نظام الجيش الإسلامي، وتعرضوا لخسائر كثيرة في الأرواح، ثم سرعان ما اختاروا قائدا يمانيا آخر لقيادة المعركة، فكان ذلك القائد هو عبدالرحمن الغافقي العكي، استطاع أن ينسحب بما تبقى من الجيش الإسلامي باتجاه مدينة سبتمانيا، ومواصلة الحرب فيما بعد، فرحم الله السمح بن مالك الخولاني.

عبدالرحمن الغافقي العكّي

أبو سعيد، عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي العكي[1] اليماني، أحد أعظم ولاة الأندلس، وأكثرهم ذكرًا، ومن التابعين الأجلاء، والصالحين العدول، وأحد كبار القادة العسكريين الفاتحين خلال العهد الأموي، شجاعا مقدامًا تقيا ورعا، وقد ولّي على الأندلس مرتين.

شارك عبدالرحمن الغافقي مشاركة فاعلة في معركة تولوز تحت قيادة السمح بن مالك الخولاني، وقد اختاره المسلمون خليفة للسمح بعد استشهاده، واستطاع عبدالرحمن الغافقي الانسحاب بما تبقى من الجيش الإسلامي من معركة تولوز، وإعادة تجميعهم مرة أخرى في منطقة سبتمانيا، وقد كانت هذه ولايته الأولى على الأندلس إلى أن حضر والي الخليفة الأموي، وهو عنبسة بن سحيم الكلبي القضاعي اليماني، ثم ولي عبدالرحمن الغافقي على الأندلس مرة أخرى من قبل والي أفريقيا عبيد الله بن الحباب عام ١١٣ هجرية.

كانت أهم الأعمال التي قام بها عبدالرحمن الغافقي خلال ولايته الثانية لبلاد الأندلس، المصالحة بين العرب اليمانية والمضرية،

(١) عك: هم بنو عك بن عدثان، وقيل عدنان بن عبدالله بن الأزد من كهلان من قبائل اليمن المشهورة، ولهم مآثر جمة وأخبار ووقائع تاريخية، قال ابن الجوزية: كان بنو عك إذا خرجوا للحج قدموا أمامهم غلامين أسودين يقولان أمام الركب: نحن غرابا عك، وعك تزدمل وتقول: عك إليك عانية، عبادك اليمانية، كيما نعود ثانية، والله أعلم، ولعك بقية عظيمة في تهامة، ومناطق أخرى من التي هاجروا إليها، واستقروا فيها في الفتوحات الإسلامية.

وإعادة الثقة بينهم، بعد أن دبت الخلافات والعصبيات القبلية، ثم قام بحملات عدة أخمد فيها عدد من التمردات في المنطقة.

ما إن استقرت الأمور في الأندلس لعبدالرحمن الغافقي حتى جمع جيشًا إسلاميا كبيرًا لتأديب الفرنج، فهو لم ينس معركة تولوز، ومن سقط فيها من المسلمين، فعبر الغافقي بقواته نهر البيرنية، وزحف باتجاه نهر الدون في عمق أوروبا، ثم عبر بجيشه نهر الغارون، واجتاح منطقة أقطانيا، واستولى على عاصمتها بردال، ثم اتجه بقواته في هجوم كاسح إلى برجونيه، فاستولى على ليون وبيزانسون، ثم عبر نهر اللوار باتجاه عاصمة الفرنج نفسها، وقد غنم المسلمون في تلك المعارك غنائم لا تعد ولا تحصى.

جن جنون الفرنج والجرمان والغال، ودقت نواقيس الخطر في أوروبا كلها، فقد بدا لهم أن زحف الغافقي وجيشه لن يتوقف حتى يأتي على الجميع، فأخذوا بجنون يجمعون جيوشًا بشرية جبارة لإيقاف هذا الطوفان.

التقت جيوش الفرنج ومن معهم بالجيش الإسلامي بقيادة عبدالرحمن الغافقي في واد يقع بين مدينتي تور وبواتيه بالقرب من مدينة باريس، والتحم الجيشان في صراع مستميت، وصمدوا لبعضهم صمودا عظيمًا بالرغم من عدم تكافؤ القوى، فالفرنج أضعاف المسلمين عدة وعتادا، واستمر القتال لمدة سبعة أيام من دون أن يتحقق النصر لأحد.

في اليوم السابع من أيام المعركة اخترق عدد من الفرنج معسكر المسلمين الذي فيه الغنائم، وما جمعوه من تلك الحروب، فانسحب جزء من المسلمين للدفاع عن أموالهم، فاختل نظام الجيش

الإسلامي، وقد حاول عبدالرحمن الغافقي جاهدا أن يثنيهم عن ذلك، وأن يعيدهم إلى صفوفهم، وأوشك أن ينجح إلا أنه أصيب بسهم قاتل، فسقط شهيدا، فتشجع الفرنج، واضطرب المسلمون، وسقط منهم الكثير من الشهداء والجرحى، فاضطر من تبقى منهم إلى الانسحاب تحت جنح الظلام من ميدان المعركة الرهيبة، هذه المعركة التي ارتبط بها اسم القائد اليماني عبدالرحمن الغافقي، والتي اشتهرت في مصادر التاريخ باسم "معركة بلاط الشهداء"، وقد وقعت في ٢٧ شعبان ١١٤ هجرية – أكتوبر ٧٣٢ للميلاد.

هذا وقد أجمعت المصادر والنصوص اللاتينية على قدرات القائد عبدالرحمن الغافقي الحربية، وعدُّوه من أعظم ولاة الأندلس.

خالد بن عبدالله القسري

تعرضت لي بالجود حتى نعشتني وأعطيتني حتى ظننتك تلعبُ
فأنت الندى وابن الندى وأخو الندى حليف الندى ما للندى عنك مذهبُ

زعيم اليمانية في عصره، الأمير الكبير، والسيد المطاع، والي مكة، وأمير العراقين، أبو الهيثم خالد بن عبدالله بن يزيد بن أسد بن كرز بن عامر بن عبدالله القسري البجلي،كان جوادا ممدحًا، عالي الرتبة والمنزلة، قال فيه الشاعر:

أخالد بين الحمد والأجر حاجتي فأيهما يأتي فأنت عمادُ
أخالد إني لم أزرك لحاجةٍ سوى أنني عافٍ وأنت جوادُ

روى عن أبيه عن جده يزيد، وقد كانت له صحبة، وله حديث في مسند أحمد، وسنن أبي داؤود، قيل لسيار، أتروى عن مثل خالد؟ فقال: إنه أشرف من أن يكذب.

كان خالد بن عبدالله القسري زعيم القبائل اليمانية في عصره، ولاه الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك على مكة، ثم ولاه هشام بن عبدالملك على العراق.

أدى الأمير خالد بن عبدالله القسري وظيفة محورية بارزة في الأحداث العاصفة التي وقعت في تلك الحقبة التاريخية من العصر الأموي، وهو الذي أوقع بالمغيرة بن سعيد الذي مارس الكهانة والشعوذة، وقد كان المغيرة يوهم أتباعه بأنه يحيي الموتى، فلما قبض عليه خالد بن عبدالله، قتل أحد أصحابه، وقال له: أحيه، قال

المغيرة: والله ما أحيي الموتى، قال: لتحيينه أو لأضربن عنقك، ثم قتل المغيرة وأصحابه.

ثم ظفر خالد بن عبدالله بالجعد بن درهم –أحد موالي بني أمية– ، وكان الجعد قد زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلم موسى تكليمًا، فقام خالد بن عبدالله خطيبًا يوم عيد الأضحى، فقال خطبته الشهيرة: أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضحٍ بالجعد بن درهم؛ لأنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلم موسى تكليمًا، وتعالى الله عما يقول الجعد بن درهم علوًا كبيرًا، ثم نزل من على المنبر، وقتل الجعد بن درهم، فبلغ ذلك الخبر الحسن البصري، وعدد من التابعين، فشكروا خالد على فعله.

ومن أقوال الأمير خالد بن عبدالله القسري المأثورة: لا يحتجب الوالي عن رعيته إلا لثلاث خصال؛ إما عيي، فهو يكره أن يطلع الناس على عيه، وأما صاحب سوء، فهو يستتر، وإما بخيل يكره أن يسأل.

قال الأصمعي عن ابن نوح: سمعت خالدا القسري يقول على المنبر: إني لأطعم كل يوم ٣٦ ألفًا من الأعراب تمرًا وسويقًا.

ومن نوادر كرمه وجوه: جلس ذات يوم في مجلس الإمارة، فأتي بشاب أمسكوه في دار قوم، واتهموه بالسرقة، فسأله خالد عن ما حكي عنه، فأقر بالتهمة، فأمر بقطع يده، فإذا بجارية قد أتت لم ير أحسن منها وجهًا، فدفعت إلى خالد رقعة مكتوب فيها:

أخالد قد أوطأت والله عشرة وما العاشق المسكين فينا بسارقِ
أقر بما لم يجنه غير أنهُ رأى القطع أولى من فضيحة عاشقِ

فسأل خالد عن أبيها، فأحضروه، وزوجها من الشاب، ودفع مهرها من عنده عشرة آلاف درهم.

جاءه أعرابي ذات يوم، فقال: يا أمير املأ لي جرابي دقيقًا، فقال خالد: املأوه له دراهما، فقيل للأعرابي، فقال: سألت الأمير ما أشتهي، فأمر لي بما يشتهي

ولخالد القسري الكثير من أخبار الكرم والشهامة.

ومع هذه المنزلة الرفيعة لخالد بن عبدالله القسري عند الناس كان لا بد أن يحسد عليها، وعلى أملاكه وأمواله، وكان ممن حسده وخاف منه الخليفة الأموي الوليد بن يزيد نفسه –الملقب بالفاسق– ، فقام بعزل خالد بن عبدالله، وتسليمه لأحد أكثر مبغضيه وأعدائه، وهو يوسف بن عمرو الثقفي، فقام الوالي الجديد بسجن خالد بن عبدالله وتعذيبه حتى مات، شامخًا صامتًا رافضًا أن يتذلل، أو يطلب العطف ولو بكلمة واحدة.

ولم تمض مدة يسيرة عن مقتل خالد بن عبدالله القسري حتى ثارت القبائل اليمانية ثورة عظيمة لمقتل زعيمهم، وقتلوا الخليفة الأموي الوليد بن يزيد في أحداث عظيمة ذكرها المؤرخون، قال شاعر اليمانية:

قتلنا بالفتى القسري منهم وليدهمُ أمير المؤمنينا
فمن يكُ قتله سوقًا فإنا رأينا مقتل الخلفاء دينا

وقال محمد بن خالد بن عبدالله القسري:

قتلنا الفاسق المختال لمّا أضاع الحق واتبع الضلالا
يقول لخالد إلاّ حمتهُ بنو قحطان إن كانوا رجالا
فكيف رأى غداة غدت عليه كراديس تشبهها الجبالا
إلا أبلغ بني مروان عني بأن الملك قد أودى فزالا

المقنع الكندي

وكن معدنًا للحلم وأصفح عن الأذى فإنك راءٍ ما علمت وسامعُ
وأحبب إذا أحببت حبًا مقاربًا فإنك لا تدري متى أنت نازعُ
وأبغض إذا ابغضت غير مباعدٍ فإنك لا تدري متى أنت راجعُ

الفارس المعروف، والشاعر الفحل، كبير القدر والمقام، صاحب الشرف والمروءة، أخو كندة الملوك، محمد بن ظفر بن عمير بن أبي شمر بن فرعان بن قيس بن الأسود بن عبدالله الكندي الكهلاني اليماني، والذي اشتهر بلقب المقنع الكندي.

اختلفوا في سبب شهرته بهذا اللقب على قولين، الأول: أنه كان دائمًا متقنعا متلثمًا خوفًا من العين، ومن افتتان النساء به، فقد كان من أجمل الرجال وجهًا، وأتمهم قامة. والقول الثاني: وهو أنه كان دائمًا متقنعا بسلاحه وحديده، متأهبًا للحرب والقتال، فهو كما عرف عنه، واشتهر به من أعظم فرسان اليمانية في زمانه.

ولد المقنع الكندي في وادي دوعن بحضرموت، ونشأ وتربى على الكرم والجود والسماحة حتى ذاع صيته، وربما كان ينفق كل ما يملك ويجود به، ولا يبخل حتى لامه البعض على ذلك، قال المقنع:

إني أحرّض أهل البخل كلّهمُ لو كان ينفع أهل البخل تحريضِ
ما قل مالي إلا زادني كرمًا حتى يكون برزق الله تعويضِ
والمال يرفع من لولا دراهمهُ أمسى يقلّب فينا طرفَ مخفوضِ

لن تخرج البيض عفوًا من أكفّهمُ إلا على وجع منهم وتمريضِ
كأنها من جلود الباخلين بها عند النوائب تحذى بالمقاريضِ

أما الشجاعة والإقدام والفروسية، فقد كان بالمكان الرفيع منها، وكان زعيمًا مطاعا في قومه، وكانت له منزلة كبيرة، وقدر عند الخلفاء الأمويين، خاصة عبدالملك بن مروان.

ومع كل هذه الصفات التي اتصف بها المقنع الكندي من كرم وسماحة ونخوة وشجاعة وفروسية وحكمة وحلم، فقد كان من فحول الشعراء العرب في عصره، وقد امتاز شعره بالحكمة ورصانة الأسلوب، ينتقي الألفاظ والمفردات بدقة عالية، ولعل من أجمل القصائد وأشهرها للمقنع الكندي هي قصيدة "دين الكريم"، وهذه القصيدة تعد من روائع الشعر العربي، وقد اهتم بنقلها وشرحها المؤرخون والأدباء لما فيها من ألفاظ رائعة ومعانٍ سامية وحكم وكرم ومروءة، قال المقنع الكندي:

يعاتبني في الدين قومي وإنما ديوني في أشياء تكسبهم حمدا
ألم يرَ قومي كيف أوسر مرةً وأعسر حتى تبلغ العسرة الجهدا
فما زادني الإقتار منهم تقرُّبًا ولا زادني فضل الغنى منهم بُعدا
أُسد به ما قد اخلّوا وضيعوا ثغور حقوقٍ ما أطاقوا لها سدا
وفي جفنةٍ ما يغلق الباب دونها مكلّلة لحمًا مدفّقة ثردا
وفي فرسٍ نهد عتيق جعلتهُ حجابًا لبيتي ثم أخدمتهُ عبدا
وإن الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمي لمختلف جدا
أراهم إلى نصري بطاءً وإن همُ دعوني إلى نصرٍ أتيتهمُ شدا
فإن يأكلوا لحمي وفرتُ لحومهم وإن يهدموا مجدي بنيت لهم مجدا

وإن ضيعوا غيبي حفظتُ غيوبهم وإن هم هووا غيي هويت لهم رشدا
وإن زجروا طيرًا بنحسٍ تمر بي زجرت لهم طيرًا تمر بهم سعدا
وإن هبطوا عورًا لأمرٍ يسوأني طلعت لهم ما يسرهمُ نجدا
فإن قدحوا لي نار زند بشينتي قدحت لهم في نار مكرمةٍ زندا
وإن بادهوني بالعداوة لم أكن أبادههم إلا بما ينعت الرُشدا
وإن قطعوا مني الأواصر خلة وصلت لهم مني المحبة والودا
ولا أحمل الحقد الدفين عليهمُ وليس كريم القوم من يحمل الحقدا
فذلك دأبي في الحياة ودأبهم سجيس الليالي أو يزورونني اللحدا
لهم جُل مالي إن تتابع لي غنى وإن قل مالي لم أكلفهم رفدا
وإني لعبد الضيف ما دام نازلًا وما شيمة لي غيرها تشبه العبدا
على أن قومي ما ترى عين ناظرٍ كشيبهمُ شيبًا ولا مُردهم مردا
بفضلٍ وأحلامٍ وجود وسؤ ود وقومي ربيع في الزمان إذا اشتدا

الجراح الحكمي

مقدم الجيوش والكتائب، الليث الهمام، والفارس المقدام، أخو الحرب وفتاها، أبو عقبة، الجراح بن عبدالله الحكمي[1] المذحجي اليماني الملقب ببطل الإسلام، وفارس أهل الشام.

كان الجراح بن عبدالله الحكمي فارسًا لا يشق له غبار، رجل حرب وكفاح، إن تولى كان من خيار القادة، وإن عزل كان من أبطال الجند، وصفوتهم، وكان طويلًا جسيمًا مهابًا، قال الوليد بن مسلم: إذا دخل الجراح جامع دمشق يميل رأسه من القناديل من طوله، وكان من ذوي الأخلاق الفاضلة محبًا للإسلام وأهله، وممن اشتهروا بالنزاهة والعدل، كما كان صارمًا مع كل الخارجين عن جماعة المسلمين، وهو من الرجال الأفذاذ الذين لم ينصفهم التاريخ كغيره من أبطال اليمانية وهاماتها.

خرج جزء كبير من قبيلة حكم بن سعد العشيرة المذحجيين للمشاركة في الفتوحات الإسلامية، ونزل جزء منهم في العراق، وجزء آخر في بلاد الشام، وقد أبلوا بلاءً حسنًا، واستقروا هناك.

كان أول بروز للجراح بن عبدالله الحكمي في المعارك التي وقعت بين جيوش الحجاج بن يوسف الثقفي وجيوش ابن الأشعث الكندي، ثم ولاه عمر بن عبدالعزيز على خراسان وسجستان، ثم عزله عن خراسان، وعندما استدعاه عمر بن عبدالعزيز صعد الجراح

(١) حكم بن سعد العشيرة، بطن عظيم من مذحج الطعان أحد كبرى قبائل مذحج، وأكرمها وأشجعها، أهل كرم وسماحة، وبأس ونجدة، ومنه هامات وأعلام في الجاهلية والإسلام، وتاريخ حكم بن سعد العشيرة تاريخ حافل مجيد، ولهم باع طويل في التاريخ العربي والإسلامي.

المنبر قبل أن يغادر خراسان، وقام خطيبًا أنه قد تولاهم وهو في ثيابه التي هي عليه وفرسه التي يملكها، ولم يصب من مالهم سوى حلية سيفه، فاستدان من بيت المال، وسار إلى دمشق ممتثلًا أوامر الخليفة، ثم قامت قبيلة حكم بن سعد العشيرة بسداد دينه إلى بيت مال المسلمين، ولكن سرعان ما ثارت الفوضى بعده، وكان قبلها قد تولى إمارة البصرة، ثم كانت له صولات وجولات في بلاد الخزر وما حولها.

اشتهر الجراح بن عبدالله الحكمي قائدًا عسكريًا بارعًا، ومحاربًا شرسًا، ومقاتلًا عنيدًا، فوثق فيه الخلفاء وكانوا يرسلونه للمهمات الصعبة في الثغور الإسلامية، وهو الذي افتتح حصن بلنجر.

ولي الجراح بن عبدالله الحكمي على أرمينيا وأذربيجان، فقاد الجيوش الإسلامية لتوسيع رقعة الدولة، ونشر دين الإسلام، وله صولات وجولات في بلاد القوقاز –روسيا–، وإليه ينسب الميزان الجراحي أو المكيال الجراحي الذي أمر باستخدامه في بلاد ما وراء النهر في فترة إمارته على غرار الموازين الإسلامية المختصة في البيع والشراء، وقد أشار إلى ذلك البلاذري عندما زار تلك البلاد، وشاهد المكيال الجراحي الشهير، وهذه شهادة لعدالة الجراح وعدالة الدين الذي جاء به إلى تلك البلاد.

جمع الأعداء جيوش جرارة لمواجهة الجراح الحكمي، واستدرجوهم إلى صحراء ورتان، ووقعت بين الجيشين معركة مهولة عند مضيق الدربند – باب الأبواب –، فسقط الجراح الحكمي شهيدا في هذه المعركة بعد أن أبدى من البسالة والإقدام الشيء الكثير، حتى ضرب المثل بشجاعته وصموده، فقال المسلمون: يوم

كيوم الجراح، أو ليلة كليلة الجراح، ولا يزال الجسر الذي عبر عليه الجراح بقواته في داغستان يسمى باسمه إلى اليوم.

قال سليم بن عامر: دخلت على الجراح، فرفع يديه، فرفع أمراء الجيش أيديهم، فمكث طويلًا، ثم قال لي: يا أبا يحيى هل تدري ما كنت فيه؟ قلت: لا، رأيتكم فرفعت يدي معكم، قال الجراح: سألنا الله الشهادة.

فوالله ما بقي منهم أحد في تلك الغزاة إلا استشهد، وقد وقع على المسلمين بلاء عظيم بسبب مقتل القائد الجراح بن عبدالله الحكمي، وذلك في عام ١١٢هـ—٧٣٠ للميلاد.

أسد بن عبدالله القسري

قال فيه الشاعر:

أرى أسدا في الحرب إذ نزلت به وقارع أهل الحرب فاز وأوجبا
تناول أرض السبل خاقان ردؤُه فخرّق ما استعصى عليه وخرّبا
أنتك وفود الترك ما بين كابُلٍ وغوريان إذ لم يهربوا منك مهربا

الأمير اليماني الفاتح، وأحد عظماء القادة العسكريين والإداريين في العصر الأموي، الجواد الممدح، والشجاع المقدام، أخو الحرب وفتاها، أبو المنذر أسد بن عبدالله بن يزيد القسري البجلي الأنماري الكهلاني اليماني، وهو أخو زعيم اليمانية في زمانه، خالد بن عبدالله القسري.

نشأ أسد بن عبدالله القسري في أسرة عريقة كريمة أهل زعامة ورئاسة، في قبيلة بجيلة اليمانية المشهورة، وقد نهل من منهل الأخلاق الفاضلة الكريمة، وقد عرف عنه الجود والكرم والسماحة والعفة، أما الشجاعة والفروسية، فقد كان أسد بن عبدالله القسري مدرسة من مدارس صناعة الحرب وإدارتها، عالمًا بها، خبيرًا بتفاصيلها، فارسًا عظيمًا ومحاربًا عنيدا، ظهرت مهاراته الحربية فيما بعد بوضوح في كل وقعاته ومعاركه، وفي كل مراحل الصراعات التي خاضها في حياته الممتلئة بالانتصارات.

عندما ولي خالد بن عبدالله القسري – أخو أسد – أميرًا على المشرقين، قام بتولية أخيه الفارس أسد بن عبدالله على خراسان،

وكانت الأمور مضطربة في تلك الثغور الإسلامية، حيث كان الترك يحاربون المسلمين حربًا شرسة، خاصة في إقليم الصغد، وقد قاموا بمحاصرة المسلمين في مدن بخارى وسمرقند، وإقليم فرغانة وما وراء نهر جيحون.

وصل الأمير القائد أسد بن عبدالله القسري إلى مدينة مرو – عاصمة خراسان –، فجمع قواته هناك – وجلهم من اليمانية –، ثم عبر بجيشه نهر جيحون، وتقدم نحو سمرقند، فانسحب الترك منها، ودخل المدينة، وقام بتنظيم الأمور فيها، وولى عليها أحد أبطال اليمانية والمسلمين، وهو الفارس القائد ألحِنْ بن أبي العمرّطة الكندي، فاستتبت الأمور في تلك النواحي.

وفي عام ١٠٧ للهجرة اجتاح أسد بن عبدالله القسري بقواته بلاد غوريس وأزب وصك حتى بلغ جبال ملع على حدود الصين في عملية عسكرية واسعة وجبارة، قال فيه الشاعر ثابت قطنة الأزدي:

أرى أسدا تضمّن منظعاتٍ تهيبها الملوك ذوو الحجابِ
سما بالخيل في أكناف مروٍ توفزهنَّ بين هلا وهابِ
إلى غوريس حيث حوى أزب وصكَّ بالسيوف وبالحرابِ
ملاحم لم تدع لسراة كلبٍ مفاخرةً ولا لبني كلابِ

وقال فيه ابن سجف المجاشعي:

لو سرت في الأرض تقيس الأرضا تقيس منها طولها والعرضا
لم تلق خيرًا مرّة ونقضا من الأمير أسد وأمضا
أفضى إلينا الخير حين أفضى وجمع الشمل وكان رفضا
ما فاتهُ خاقان إلا ركضا قد فض من جموعهِ ما فضا
يا ابن سريج قد لقيت حمضا حمضًا بهِ يشفي صراع المرضى

وكان أسد بن عبدالله القسري قد غزا جبال تمرون مما يلي جبال الطالقان، فأسلم أهل تلك النواحي، فهم يتولون اليمانية، كما ذكر الطبري في كتابه -تاريخ الأمم والملوك- وذلك لأنهم قد أسلموا على يدي الأمير اليماني أسد بن عبدالله القسري.

وما بين عام ١٠٧-١٠٨ للهجرة، قام القائد الفاتح أسد بن عبدالله القسري بعمل عمراني ضخم، وهو بناء وتشييد المدينة الإسلامية العربية (بلخ) جنوب نهر جيحون، فقام بتسويرها وتحصينها بالأسوار والحصون، وجعل لها سبعة أبواب، وكانت من حواضر المدن الإسلامية في تلك البلاد، وأسكن فيها العرب، وخلط بينهم – يمانية وعدنانية – منعا للعصبية القبلية، ولا تزال هذه المدينة معقلًا من معاقل الإسلام حتى اليوم وهي مدينة – مزار شريف – الحالية، قال الشاعر أبو البريد البكري يمدح أسدا على بناء هذه المدينة:

يا خير ملك ساس أمر رعية إني على صدق اليمين لحالفِ
إن المباركة التي حصنتها عصم الذليل بها وقرَّ الخائفِ

لم يستقر أسد بن عبدالله القسري كثيرًا بعد بناء مدينة بلخ الجميلة والحصينة، فقد خرج في عام ١٠٩ هجرية على رأس جزء من قواته، وعبر نهر جيحون، وغزا بلاد الختل، وملكها السبل الذي كان حليفًا لخاقان عظيم الترك، فانتصر عليه، وعاد إلى بلخ بالغنائم، ثم لحقت به وفود الترك معلنين الطاعة والولاء وراغبين في المهادنة والمصالحة.

وامتدادا للصراع المرير بين اليمانية والقيسية خلال العهد الأموي قام بعض زعماء القيسية بمحاولة التمرد على أسد بن عبدالله القسري، فاكتشف ذلك، وقام باعتقالهم في مدينة بلخ، ثم صعد المنبر في يوم الجمعة وقال: من يروم ما قبلي أو يترمرم وأمير المؤمنين خالي، وخالد بن عبدالله أخي، ومعي اثنا عشر ألف سيف يمان – يعني في بلخ وحدها فقط، وإلا فتعداد اليمانية في الجيش العربي الإسلامي بخراسان كان زهاد أربعين ألف فارس – ثم عفى أسد بن عبدالله عن زعماء القيسية، فقال ثابت قطنة:

أسد بن عبدالله جلل عفوهُ أهل الذنوب فكيف من لم يذنبِ

ثم في عام ١١٧ للهجرة اضطرب أمر المسلمين في بخارى وسمرقند، فسار إليها أسد بقواته، فدخلها، فأسلم على يديه سامان –أحد ملوك تلك النواحي–، وأسمى ابنه أسد بأسد بن عبدالله القسري، ثم أرسل قوات بقيادة فارس يماني هو جديع الأزدي باتجاه قلعة طخارستان، ففتحها.

خلال هذه المدة كلها من ولاية هذا القائد الفاتح على تلك البلاد كانت الإنشاءات الحضارية مستمرة على قدم وساق، فقد بنيت

الكثير من المصانع والسدود والقلاع، وانشئت الدواوين والإيوانات وشقت الطرقات وعمرت الكثير من المساجد.

كان الترك وعظيمهم خاقان يعدون العدة خلال تلك الفترة لمعركة فاصلة ضد المسلمين لكسر شوكتهم نهائيا، فاجتمعوا من كل حدب وصوب، وكونوا جيشًا عظيمًا جرارًا بلغ تعداده مئة ألف مقاتل، وزعم خاقان أنه سيجتاح بلاد المسلمين حتى العراق، فوصلت أخبارهم للمسلمين، وحبست الأمة الإسلامية أنفاسها، وتطلعت بقلق إلى ما سيحدث.

استعد القائد أسد بن عبدالله القسري لهذه المواجهة، وكان قد جمع قوات العروبة والإسلام، فسار باتجاه الترك، وملكهم خاقان، ولم ينتظر أن يأتوا إليه، فالتقى الجمعان في معركة مهولة من أشد وأعظم المعارك في تاريخ الإسلام، والتحم الجيشان في صراع مستميت.

وبعد معارك طاحنة انتصرت القوات الإسلامية نصرًا عظيمًا، واستطاع الفارس الجسور والقائد العسكري الفذ بحنكته وبراعته أن يسجل أعظم نصر عسكري إسلامي في ذلك الزمان، فانكسرت قوات الترك، وقتل ملكهم خاقان، فهللت الأمة الإسلامية، وتنفست الصعداء، وما أن علم الخليفة الأموي بأخبار هذا النصر حتى نزل وقبل الأرض ساجدا، حامدا لله سبحانه وبسط أسد بن عبدالله القسري النفوذ الإسلامي على أقاصي آسيا.

وفي عام ١٢٠ للهجرة أتت دهاقين العجم من كل مكان معلنين الطاعة والولاء للدولة الإسلامية القوية.

وبعد أن أمِن العباد واستقرت البلاد أصيب القائد اليماني أسد بن عبدالله القسري بمرض في مدينته – بلخ –، وتوفي فيها تاركًا لليمانية والعروبة والإسلام سجلًا تاريخيا عظيمًا مليئًا بالأمجاد والبطولات، قال الشاعر ابن عرس العبدي يرثيه:

نعى أسد بن عبدالله ناع فريع القلب للملك المطاع
ببلخٍ وافق المقدور يسري وما لقضاء ربك من دفاع

وكانت وفاته في ربيع الثاني عام ١٢٠ للهجرة.

أبرز مصادر الكتاب

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: كتب الحديث

- صحيح البخاري (الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه) - المؤلف: محمد بن إسماعيل البخاري المحقق / المترجم: محب الدين الخطيب الناشر: المكتبة السلفية - القاهرة الطبعة: الأولى سنة الطبع: ١٤٠٠هـ، (نسخة الكترونية).
- صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) - المؤلف: مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري المحقق / المترجم: محمد فؤاد عبدالباقي الناشر: دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه الطبعة: الأولى سنة الطبع: ١٣٧٤هـ (نسخة الكترونية).
- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، المؤلف / المشرف: محمد ناصر الدين الألباني المحقق / المترجم: بدون الناشر: مكتبة المعارف - الرياض الطبعة: الأولى.
- الدراية في تخريج أحاديث الهداية، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المحقق / المترجم: بدون الناشر: المكتبة الفيصلية - مكة المكرمة الطبعة: الأولى سنة الطبع: ١٤١٣هـ.
- صحيح سنن الترمذي، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني المحقق: زهير الشاويش الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج الطبعة: الأولى سنة الطبع: ١٤٠٨هـ.
- الموسوعة الحديثية على الانترنت: https://dorar.net/hadith .

ثالثاً: كتب التاريخ ومراجع متنوعة

- تاريخ الطبري كتاب "تاريخ الرسل والملوك"، المؤلف: أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠ هـ،

- المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم [ت ١٩٨٠م]، الناشر: دار المعارف بمصر، الطبعة: الثانية ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م.
- تاريخ حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري الزراعية والمكتشفات الآثارية والمصادر التاريخية، تأليف المهندس الدكتور أحمد سوسة.
- كتاب الإكليل للهمداني
- كتاب صفة جزيرة العرب
- تاريخ الأمم والملوك – الطبري
- سيرة ابن هشام
- الجديد في تاريخ سبأ وحمير – محمد حسين الفرح
- اليمن الهوية والحضارة ، دورة التاريخ – علي قاسم البكالي
- مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول أحمد الشريف
- تاريخ صدر الإسلام – عبدالرحمن الشجاع
- كتاب التيجان – ابن هشام
- البداية والنهاية – ابن كثير
- أسد الغابة في معرفة الصحابة – ابن الأثير
- بلدة طيبة – الشيخ فيصل بن عبده الحاشدي
- الإصابة في تمييز الصحابة – ابن حجر العسقلاني
- نسب معد واليمن الكبير – ابن الكلبي
- كتاب الأغاني – أبي الفرج الأصفهاني
- بذل الثمن في فضل أهل اليمن – عرفات الفتاحي
- تاريخ اليمن الإسلامي – محمد السروري
- تاريخ اليمن القديم – عبدالله حسن الشيبة
- أيام العرب في الجاهلية – محمد أبوالفضل ابراهيم، علي محمد البجاوي
- العرب حسب ونسب – محاضرات يوسف الدعيج

تم الكتاب بحمد الله